مكتبة الأسرة
1999

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الفكرية

تراث العالم القديم

و . ج . دى بورج
ترجمة : زكى سوس



امة للكتاب

تراث العالم القديم

تراث العالم القديم

تأليف: و. ج. دى بورج
ترجمـة: زكـى سـوس

مهرجان القراءة للجميع
للطفل. للشباب. للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٩٩'

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

تراث العالم القديم

تأليف : و. ج. دى بورج

ترجمة : زكى سوس

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

هذه ترجمة الجزء الاول من كتاب :

THE LEGACY OF THE ANCIENT WORLD

تاليف

W. G. DE BURGH

مقدمة

ان الغرض من هذا الكتاب هو أن يكون تمهيدا لدراسة المدنية القديمة لأولئك الذين لايلمون بتاريخها. فتوجد ثم رغبة متزايدة بين الرجال والنساء من جميع الطبقات والوظائف ، فى الحياة — ممن لا يعرفون الا القليل عن العبريين واليونان وروما — فى أن يحيطوا بشىء من جلائل أعمالهم . ولايمكن تلبية هذا الطلب بكتيبات أولية . وأولئك الذين لهم عقول ويريدون استخدامها ، ليسوا فى حاجة الى مجرد موجز عن الوقائع ، ولكن الى مرشد لأحسن أفكار الأزمنة الغابرة عن الانسان والأسباب التى تربطه بالعالم وبالله . ومن الخطأ الظن أن الجمهور لا يأبه أو لا يقدر على فهم مشاكل الدين والفلسفة . فثمة كثيرون ، لا فى الجامعات والمدارس فحسب ، ولكن فى العالم الفسيح فى الخارج وخاصة بين العمال فى المدن الصناعية ، يميلون الى اجتلاء هذه المعارف ويتوقون برغبة أكيدة الى الاحاطة بها وتقصى أخبارها . انهم يتحولون صوب تراث الماضى اعتقادا منهم بأنهم سيفيدون منه ضياء فى حل صعابهم الخاصة . انه لمثل هؤلاء — فى الاعتبار الأول — وضع هذا الكتاب .

والى جوار هؤلاء كثيرون ، أصابوا تعليما كلاسيكيا الا أنهم لم يكونوا رأيا متماسكا عن المدنية القديمة ككل . لقد درسوا أجزاء من العهد القديم وكتبا مختارة لطائفة من المؤلفين الاغريق واللاتين ومجملا من التاريخ اليونانى حتى الاسكندر ، والتاريخ الرومانى حتى أوغسطس . ولكنهم مع ماتعلموه لا يحيطون الا بأفكار غامضة عن الروابط والعلاقات التى تكون منها بناء حياة الأزمنة العتيقة أو عن الطريقة التى تألفت بها مدنياتها العديدة لتؤثر فى عالم العصور الوسطى والحديثة . يا لهم من قلة أولئك ، حتى بين من تخرجوا فى الآداب فى جامعاتنا ، الذين يمكنهم أن يذكروا ، فى حدود قرن ، تواريخ قسطنطين وأوغسطين وجوستنيان ومحمد(صلى الله عليه وسلم) وشارل الأعظم، أو يدلوا ببيان فطن عن أهميتهم التاريخية! ويا لهم من قلة أولئك الذين لديهم حتى مجرد فكرة مبهمة عن أثر امبراطورية الاسكندر فى حياة المسيحية الباكرة أو عن مكانة القسطنطينية فى تاريخ العالم ! ومرة أخرى يا لهم من قلة أولئك الذين واتاهم العلم بأن عاموس وهوشع قاما بدور ، خالد في الأذهان ، فى تقدم البشرية الدينى كالدور الذى قام به كبرنيكس (Copernicus) وجليليو (Galilio) فى حياة العلم الحديث ! ان دراسة الأزمنة القديمة لاتزال محدودة لدرجة كبيرة ، فى غرف محكمة الغلق .

ان دراسات فى التاريخ العام يجب ، بكل تأكيد ، أن تكون جزءا من المنهج العادى فى كلياتنا ومدارسنا [١] .

وما هو حقيقة واقعة من أن العصر الحاضر هو عصر تخصص تاريخى ، هو سبب آخر فى أن كتابا من هذا النوع يجب أن يؤدى خدمة . ان تقدم المعرفة التاريخية يجىء فى الأصل ، بالعمل فى اتجاهين : عن طريق البحوث الدقيقة فى مناطق التخصص العالى ، التى تشتمل عليها المجلات الدورية التى يكتبها العلماء ، والمطبوعات التى تعتمد اعتمادا مباشرا على هذه البحوث والتى يكون لها مجال أوسع وتعالج حقبا عديدة من التاريخ ومظاهره . وتقع هذه المهام على عواتق المهرة المتمرنين الذين تكون كتاباتهم موجهة الى الباحثين المعترف بهم وليس للقارىء العام . ولكن يوجد خطر حقيقى فى الوقت الحاضر ، ليس فى التاريخ وحسب ولكن فى جميع فروع المعرفة ، فى الانفصال بين علم الاخصائى وعقل الجمهور الذى لا يسير على النهج العلمى . والتاريخ نفسه يستطيع أن يعلمنا أنه اذا بقى هذا الانفصام دون التئام ، فان النتيجة ستكون وخيمة . وكان الأمر كذلك ـ على سبيل المثال ـ فيما نجم عن احتكار رجال الدين للعلوم اللاهوتية فى العصر الذى سبق عصر الاصلاح . وفى هذه البلاد ، على أية حال ، جهد التفكير العلمى والفلسفى على الدوام فى أن يكون على اتصال بتفكير العالم الأوسع . وكلما سارت المعرفة الى تخصص أعظم والجمهور القارىء الى ديموقراطية أعظم، يجب ألا يسمح لهذا التقليد الكريم بالتوقف .

وقد حاولت ، وهذه المطالب لا تغيب عن بالى ، بأن أورد الى الأفهام التواصل الحى للتاريخ القديم . وأحسست أنه يكون من المجدى عرض سلسلة التقدم بأجمعها ، مع قصور هذا عن الكمال ، فى نظرة واحدة . ان تاريخ الأزمنة القديمة ليس مجرد حاصل مجموع حقب وشعوب ولكنه كل يشتمل على أجزاء توثقت عراها فى تلاحم داخلى ، وعندما تدرس الأجزاء منعزلة ، يكون من شأن الوحدة أن تتوارى عن الادراك .

Dann hat er die Teill in seiner hans.
Fehlt leider nur das geistige Band.

عندما يكون الجزء فى يده
ينقص السفر الروحى وحسب

ولقد اعتبرت لفظة (تاريخ) فى شىء من معناه الواسع الذى كان يحمله

---

(١) ستأتى مثل هذه الدراسات بأعظم نفع على طلاب الجامعات فى العلوم وعلى الكليات بخلاف كلية الآداب .

لأول واضعيه ، الاغريق ، أى كامل سجل حياة الانسان بالنسبة الى العالم الذى يحيط به وأنه يشمل التفسير وكذلك الوصف القصصى [١] واستدعت محاولة الالمام بمثل هذا النطاق الواسع التكثيف والاستبعاد جميعا ، ويغلب أن تذكر الآراء العامة دون الدلائل التى تدعمها . اذ أن وفرة التفاصيل يكون من شأنها أن تربك عقل القارىء . واذا كانت الأمثلة قد استمدت من قادة الشخصيات وليس من مستويات الأعمال الوسيطة فان الهدف لم يكن وضع مجمل لحياة الشعوب القديمة فى مدارها كله ولكن لتبيان تراثهم للعالم الحديث . ولا يوجد فى أى جزء من الكتاب معرفة سابقة بالوقائع ، سبق افتراضها . لقد وضع بحيث يترك القارىء غير راض وبحيث يوحى اليه بالرغبة فى دراسة مدنيات العبريين واليونان وروما ، دراسة أكثر استيفاء بمعاونة المصادر الأصلية .

أمران أهملا يحتاجان لشرح موجز :

١ - فى معالجة التراث الهلينى ، لم أشر الى الفن والفخار الا لماما ولو أنهما مظهرا الهلينية اللذان لهما أحسن وقع مباشر لدى جمهور القراء ، ولكنى أعترف بعدم ثقة عميقة فى حديث عن الفن والفخار يوجه الى أولئك الذين ليس لهم علم بأصولهما . ان نماذج الأدب الاغريقى العليا ، فى متناول الجميع ، فى الترجمات الانجليزية . فليبدأ القارىء بها . أما فيما يتعلق بالفن الاغريقى فعليه أن يزور غرفة الجن (Elgin) وابهاء العرض فى متحفنا القومى . وعلى هذا ، فقد اقتصرت على تقديم الكثير من الشرح التمهيدى الذى يمكن أن يبين الأوضاع التاريخية والعقلية التى أنتج الشعراء والفنانون الاغريق فى غمرتها ، عملهم .

٢ - فى الفصل التاسع ، عن المسيحية ، قد يظهر أن تركيزا فى غير موضعه ، أضيف الى تاريخ الكنيسة التأسيسى والى تطور العقيدة اللاهوتية . ولقد ذكرت فى صراحة أن هذين الأمرين لم يكونا الا المظاهر الخارجية للحياة الروحية الداخلية ، وهما اللذان أوحيا بالمجتمع المسيحى . ولكنى لم أقل الا القليل أو لم أقل شيئا عن طبيعة ذلك المبدأ الداخلى أو مصدره فى شخصية وتعليم يسوع الناصرى . ان المهمة تتطلب مؤهلات ، ليس فقط فى سعة التفقه ولكن فى البصر الدينى ، ولست أستطيع أن أدعى أنى أملكها . وبينما أؤكد اعتقادى بأن تاريخ المسيحية يمكن فقط الرجوع بسببه الى

---

(١) راجع قول يوريبيدس الرائع (fr 902, Dindorf) « سعيد ذاك الذى تمكن من تعليم التاريخ (historia) ... ساعيا الى مشاهدة النظام الذى لا عمر له (Kosmos) والطبيعة التى لا تموت (physis) وطريقة تكوينها ومن أى مكان نشأت وكيف نهضت » . عن معنى (physis) للاغريق ، راجع ما سيجىء فى الفصل الرابع القسم الخامس .

شخصية مؤسسها الفريدة فقد حصرت الانتباه في أصولها في اليهودية واتصالاتها بروما والهلينية .

ان الغرض من التذكرات يعود بعضه الى الرغبة في ذكر المراجع لمثل هذه المصادر التي توجد في يسر في الترجمات ، ومثال ذلك ، العهدان القديم والجديد ، وأشهر ما عرف لدينا من المؤلفين الاغريق واللاتين ، وبعضها لتحديد العبارات التي تتطلب الحال استيعابها في تحفظ والبعض لاقتراح نظائر ، أقرب الى الاستدلال ، للتطورات والمشاكل الحديثة . وليست قائمة الكتب الملحقة شاملة ، انها مجرد مختارات ، لهذه المناسبة ، لتواليف انجليزية جيدة للهداية الى مزيد من الدراسة .

واني أرغب في التعبير عن شكري لجميع من عاونوني في اعداد هذا الكتاب. واني مدين بصفة خاصة الى زميلي الاستاذ ف.ن.يور (P.N. Ure) الذي قرأ وعلق على مسودة الكتاب، والسيد فرنون رندال (Vernon Rendall) الذي لم يقدم الى فقط خدمة مشابهة ولكن وضع في سخاء ، تحت تصرفي علمه الواسع بالادبين الكلاسيكي والحديث ، والى زوجتي التي كان في مساعدتها ونقدها من البداية الى النهاية أعظم تشجيع لي .

اشمور ، أغسطس ، ١٩٢٣

و. ج. دي ب.

تذكرة

لقد أكمل زوجي اعداد هذه الطبعة الجديدة من (تراث العالم القديم) قبل وفاته فى أغسطس عام ١٩٤٣ ، بزمن وجيز . وقد سجل أنه يرغب تقديم الشكر الى محرر (أعمال الجمعية الارستطالية) (Aristotelian Society's Proceedings) ومحرر صحيفة هبرت (Hibbert Journal) للاذن بطبع مواد ظهرت فى مطبوعاتهما . وكذلك كان يريد أن يقول انه عند مراجعة الفصول الأولى ، تلقى مساعدة عظيمة من سر جون ميرز (Sir John Myres) وفى الفصل الثالث لقى عونا من دكتور هويلر روبنسن (Dr. Wheeler Robinson) . وبينما هو المسئول دون سواه عما طبع، فانه كان يشعر أنه مدين دينا عظيما جدا لاهتمامهما الرفيق ومعونتهما. وكان أيضا يرغب فى الاعتراف بتقدير اقتراحات سر ريتشارد لفنجستون (Sir Richard Livingstone) ، رئيس المجموعة ، والاستاذ فوردايس (Prof. Fordyce) من جلاسجو والاستاذ نوكس (prcf. Knox) من سانت اندروز ، وأن يعبر عن دينه الى مراجعى الطبعة الأولى والى مراسليه عنها وعلى الأخص المغفور لهما الاستاذ ا.ى. تيلور (A.E. Taylor) والراعى ف. هـ. وكستيد (Rev. P.H. Wicksteed) . وقد شعر بالتشجيع عند القيام باعداد اعادة طبع هذا الكتاب لعلمه أنه لقى تقديرا وتقريظا من رجال لا يمكن انكار ما لحكمهم من شأن وخاصة جون بورنت (John Burnct) وصموئيل الكسندر (Samucl Alexander) والاستاذ تيلور (Prof. Taylor)

ويلاحظ أنه علاوة على تغييرات صغيرة متنوعة فى النص وادخال مواد جديدة فى شتى المواضع ، فانه يوجد ثلاثة ملاحق فى خاتمة هذه الطبعة الجديدة الغرض منها تعزيز أدلة ونتائج الكتاب .

ريدنج ، يناير ، ١٩٤٧

ى. دى ب.

تراث العـــالم القديم

الفصل الأول

مقـــدمة :

١ ـ بين شعوب العالم القديم ، ثلاثة خلفوا تراثا هو قوة حية فى الزمن الحاضر · أولئك هم العبرانيون والاغريق والرومان ومبتكرات عبقريتهم : نبوة العبريين ، وفلسفة اليونان وشعرهم ونحتهم ، والقانون والتنظيم السياسى لروما ، وكلها تكون تراثا فيه وحى دائم للانسانية · ولقد اضطلعوا بسهم لا يعزب عن البال فى تكييف مدنيـة ما ترادف من زمن · ولفظ « مدنية » كألفاظ كثيرة تدور على الألسن من العسير تحديده ، ويوحى آنا بمعنى أوسع وآنا آخر بمعنى أكثر حصرا · وتعريف رسمى كالذى يتلاءم فى مستهل عجالة حسابية علمية ، اذا كان ليؤدى خدمة فى كتاب كهذا ، يجب ألا يجىء فى البـداية ولكن فى الختـام ، عنـدما يكون القارىء قـد ألم بمختلف أنواع المدنيـة فى مدارجهـا المتباينـة ، فى النمو والازدهـار والنضوج والانحلال ويكون قد عرف أن عملا ثقافيا جليلا لن يفنى أبدا ، ولكنه يحمل ، حتى فى تفككه الظاهرى ، ما يكون فى الغالب أطيب ثماره فى بعث الحياة فيما يعقبه « ان ما تبذره لا ينشط الا اذا مات » ، وهذه الكلمات تصدق على الشعوب وعصور الثقافة كما تصدق على الأفراد ، وهكذا انحطت الامبراطورية الرومانية ولكن لم تسقط كما سقطت الهلينية ومسيحية القرون الوسطى ، وانها لباقية فى حيوية تتجدد أبدا فى مدنية العالم الحديث ·

وفى هذه الصفحات نعنى بلفظ مدنية نوع الحياة الذى أبرزته السلالات العليا فى مختلف حقب تاريخها · انها تحيط بعالم من المثل العليا وعالم من الحقائق المنجزة · انها تشمل مجموعة بأتمها من العادات الاجتماعية والقانون الموضوع والنظم الدينية والخلقية والسياسية ، والصناعة والتجارة والفنون والعلوم والآداب والفلسفة التى تمثل ما تجمع من جهود شعب · ولكنهـا تشتمل على أكثر من هذا · ان الانسان حيوان يصور المثل العليا ويحفزه فى كل مرحـلة من مراحـل تدرجه نحـو الرقى مطامح تسمو على المستوى الذى وصل اليه فعلا · ومدنية فى أية حقبة بعينها تشمل أيضا عالم قيمه الدينية والخلقية والاقتصادية ونظرته العقلية للحياة ومعتقداته الشخصية فيما يتعلق بوظيفته ومصيره ومعاييره فى الصلاح الخلقى وفى خير المجتمع ·

واننا فى ضوء مثل هذه المثل العليا التى تحدد تصورنا للتقدم الانسانى نفرق بين المدنية والهمجية [1] . واذا طبقنا هذا التفريق على تاريخ الأزمنة القديمة ، نجد أنه قبل أن ينهض أسلافنا الكلتيون والالمانيون والاسكندناويون من غمرات الهمجية بأمد طويل ، كانت هذه السلالات الثلاث التى سلف ذكرها قد ظفرت بمستوى رفيع من المدنية . ولقد تاح لها ، عندما حانت ساعة الاتصال ، ان تؤثر تأثيرا عميقا فى الشعوب الأقل ثقافة التى أصبحت فى مكان القيادة من أمم عصرنا الحاضر . وعلى سبيل المثال ، عندما قبل أجلاف الهمج ، المسيحية ، فانهم تقبلوا أيضا معها تراث تقاليد العبريين الدينية والخلقية والفلسفة الاغريقية والمذهب الرومانى التشريعى والسياسى . وهدف هذا الكتاب هو تتبع قصة هذا الارث ، وسنبدأ باشارة موجزة الى الخدمة الخاصة التى قدمها كل من هؤلاء الشعوب الثلاثة لمدنية العالم الحديث .

٢ - **العبرانيون** : ان الدين الذى تحمله مدنيتنا الحديثة للعبرانيين يقع بكليته تقريبا فى مجال الدين . وشعرهم ، وهو أصدق مرشد الى أفكار ومشاعر شعب ، هو فى جوهره شعر دينى . وقيمته ليست فى أسلوبه الأدبى او البرهان النظرى أكثر منها فى البصر الروحى العميق الذى يعبر عنه . ولم يكن للسلالة العبرية الا شأن يسير فى الحرب أو السياسة فيما عدا فترة قصيرة وجيزة فى عهد الملك داود وعلى هذا فان ما حققته من عمل دنيوى جليل يمكن أن يمر دون أن يسترعى النظر تقريبا ، فى تاريخ العالم . انها العبقرية الروحية لأنبياء مثل عاموس وهوشع فى اسرائيل واشعياء فى يهوذا فى القرن الثامن قبل الميلاد ، هى التى كانت أول ما أحال عقيدة قبلية مقصورة الى دين ذى معنى عام للعالم . ولم يعد يظهر يهوه بعد كاله قبلى غيور يقود شعبه الى النصر على آلهة أعدائهم القبليين الذين يقفون معه على قدم المساواة ولكن كحاكم الهى للكون يوقع القصاص على العبريين عن طريق أعدائهم لما يقترفون من خطيئة ، والذى كان يريد رحمة لا ذبيحة ويدعو لعبادته ليس بالهبة الشخصية ، ولكن بالمعاملة البارة بين الانسان والانسان . وهذا التحول فى الدين العبرى ، عاون فى الحق ، على حطم وحدة الدولة العبرية السياسية . ولكن البذرة التى بذرها الأنبياء الأوائل نضجت خلال التجربة المريره من المذلة القومية والأسر ، الى دين خالص النقاوة . وهو الذى ، فى الحين المناسب ، أنجب العقيدة التى غزت العالم المتمدين ، وكان العبرانيون أول شعب من الشعوب التى عرفها التاريخ ، وصل الى الاعتقاد باله واحد خالق وحاكم الكون وأبى البشر أجمعين .

والمسيح الذى ولد من أم عبرية ، وكانت تنشئته على المحافظة الدقيقة للناموس العبرى أتى لا لينقض ذلك الناموس بل ليكمله . وأثر اليونان

(١) انظر السفر الثانى ملحق ١ .

وروما على نمو المسيحية — الذى سنتحدث عنه فيما بعد فى هذا الكتاب — حجب ، ولكن لم يمح أبدا طابع أصله العبرى • وحسبنا أن نذكر الطهريين (Puritans) فى القرن السابع عشر لندرك العمق الذى استغرقت فيه الروح العبرية المسيحية الحديثة •

٣ — **الاغريق** : انه أكثر عسرا أن نعبر فى كلمات قليلة عن عمل الاغريق أو الهلينيين كما نعتوا أنفسهم فى التاريخ • لقد أثروا فى الديانة الحديثة عن طريق فلسفتهم أكثر مما أثروا فيها عن طريق دينهم • ولقد صورت آلهة الأولمب (Olympian) فى شبه الناس ولهم عواطف البشر ومصالحهم ، ولو أنهم أعظم صولة وأوفر جمالا وأكثر غيرة وأشد تدلها فى الحب ، ولو أنهم كانوا خالدين ويستمتعون بحياة أكثر خصبا من حياة الآدميين ، فانه فى جميع الأمور الجوهرية كانوا يشعرون ويفعلون كما كان يشعر ويفعل الرجال والنساء من الاغريق • وسنرى كيف جهد الفلاسفة فى أن يجعلوا من العقائد الشعبية عقائد روحية ، وكيف أنه نتج عن هذا الجهد انفصام بين النتائج العقلية التى وصلت اليها القلة وبين معتقدات الكثرة الدينية •

ولقد أوجد دين الاغريق فى جميع الأزمنة حقلا يانعا للفن والشعر مما لاتزال خصصه بهجة للخيال • ولكن لم يكن ليستطيع أن يرضى المطامح العقلية أو الخلقية التى تجيش فى جيل أكثر امعانا فى التفكير • هذا الى أن ما ندين به للاغريق يشمل نطاق الثقافة الدنيوية بأجمعه •

ففى الفلسفة والعلم وفى الفن والأدب حققت العبقرية الاغريقية نتائج هى فى مداها وقدرها منقطعة النظير فى تاريخ البشر •

« ان الفترة التى وقعت بين ميلاد بركليس (Pericles) وموت أرسطو ، أى القرنين الخامس والرابع ق• م• فى تاريخ الاغريق هى دون ريب ، اذا اعتبرت لذاتها أو بالاشارة الى ما كان لها من نتائج على أقدار الانسان المتمدين اللاحقة ، أكثر الفترات رسوخا فى الأذهان ، فى تاريخ العالم »• هكذا كتب شلى ، والمفكرون والشعراء قاطبة ، شهود على صدق قوله • والحرية والفردية موجودتان فى كل مكان فى حياة قدامى الاغريق ، وأعظم ما يؤثر فى روعنا هو نشاطهم العجيب • وتاريخهم بأجمعه سجل للتجربة الجريئة فى الفكر والمراس ، ولقد كان يحدوهم الشوق والشجاعة جميعا فى البحث العقلى وتغمرهم البهجة بالحياة والعمل • وعبقريتهم العقلية كانت أصل نبع الفلسفة والعلم ، وعبقريتهم العملية ، وجدت مخلصا لها فى النشاط السياسى وفى الحرب والتجارة ، وفيما ابتكروا من أدب وفن • وكل أنواع الشعر والتفكير تقريبا ترجع فى نشأتها الى الاغريق وقد ساروا بها فى طريق الكمال • ومثلهم الأعلى كان شخصية موهوبة منسجمة يسيطر عليها مبدأ داخلى وعقل ، ونشاط ليس جامحا ولا ضابط له ولكن تتحكم فيه المعرفة بالذات

والحكم الجلي . ولا توجد سلالة تعدلها في التحرر من النزوع الى عالم أفضل أو جهدت في ادماج أهداف وقيم بمثل هذا الشمول في أحوال الاختبار الانساني ، الراهنة . وبمقاومة كل نزوع الى المستحيل وطنوا أنفسهم في عزمة ، على فهم طبيعة الانسان والعالم الذى يعيش فيه ، وبفهم واضح لحقائق الأشياء ، على استخدام العالم كحقل لتحقيق مثلهم العليا في الحياة .

ومواهب السلالة التي اختصت بهم حملت معها لعنتها ، ان الفرديةوالحرية اللتين جعلتا للاغريق المكانة العليا في الفن والعلم نجم عنهما دمار استقلالهم السياسي . انه حق كما سنرى فيما بعد ، أن الثقافة الاغريقية وجدت دافعها ومجالها في جو النقاش المتحرر الذى كان سائدا في دولة ـ المدينة وأن العبقرية الاغريقية تجلت في نظريتهم السياسية وفي مراسهم السياسي على السواء . ولكن يوجد جانب آخر للصورة . ان الحياة السياسية في مدن الاغريق تعرض مشهدا مظلما للمطمح القلق والتحاسد الشخصي والتشيع الحزبي والعزوف عن توثيق العرى الاتحادى ، والثورة المستمرة والتشاحن المدني . ولقد كان انعدام الوحدة القومية ذاك ، هو الذى ترك اليونان فريسة سهلةلأعدائها، أولا للملوك المقدونيين وبعد ذلكللجمهورية الرومانية.

ولكن الروح الاغريقية استوفت جزاءها ، وكما في عهد الاسكندر أثرت في ثقافة الشرق فان الغزاة الرومان ، بعد ذلك تشبعوا بها وعن طريق روما صاغت فكر العالم الحديث وثقافته .

٤ ـ **الرومان :** كانت روما حكومة الأزمنة القديمة ، القيصرية ، وكان الرومان بناة الامبراطورية العظام ، في تاريخ العالم . وكان دينهم خاضعا خضوعا تاما للسلطة السياسية . ونورد مثلا يساعد على تفهم هذا .

لقد جازف قيصر ـ وهو المتشكك الصريح ، ولم تكن حياته الخاصة على اليقين ، فوق مستوى الشبهة ، جازف قيصر بكل شيء ، في ظرف حاسم ـ بحياته العملية عند انتخابه كاهنا أعلى ، انها كانت مجرد خطوة في سلم المطمح السياسي .

ان تأثير روما على المسيحية يتجلى في أعظم وضوح في مجال التنظيم الكهنوتي . والروماني بطبعه كان لديه اليسير من التقدير للفن أو العلم ، وفي الزمان الأول كان يعتبر الشاعر متشردا والفلسفة خطرا على الأخلاق. وعلى النقيض من هذا كثيرا كانت حال الاغريق في شعر هومر (Homer) وعندهم كان الآلهة هم الذين حرموا الشاعر الضرير من البصر ولكن بديلا عنه منحوه القدرة على الصدح بالأغنية الربانية . ولقد أتى الواعز للشعر والفن الى روما من الاغريق ، ولو أنه بمجرد أن تلقن الرومان درسهم عبروا عن روحهم القومية ، دون محاكاة وضيعة ، في شعر لا يأتي عليه الفناء .

ولقد علم شعراؤهم الموطن الذى تستقر فيه عبقرية سلالتهم الحقة وتعرفوه.
« قد يشكل غيرنا فى خطوط أكثر رقة البرنز الذى يزفر بالنفس - نعم ، ويعملون على ابراز القسمات الحية ، من الرخام وقد يكونون أكثر اجادة فى الجدل دفاعا عن قضاياهم القانونية ويتتبعون حركات السموات ومطلع النجوم - ليكن قصاراك يا ابن روما أن تحكم الأمم : ستكون هذه فنونك أن تفرض عادة السلم وأن تعفو عن المهزوم وتحطم المتعالى بالسيف »[١] ، وكجميع بناة الامبراطورية الذين قاوم عملهم ضغط الزمن لم يكن عند الرومان تعطش جامح للغزو . لم يكونوا سلالة محاربين أكثر مما كانوا شارعين واداريين . ولقد كانت رسالتهم الخاصة وضع قانون السلم ، سلم روما (Pax Romana) وكبح الفوضى وعدم النظام ، حول أملاكهم التى تتطرد رقعتها فى الازدياد . ولما كانوا بجانب الاغريق أطفالا فى الثقافة وفيهم نزعة ظاهرة من التجرد عن الانسانية وغلظة فى طبيعتهم فان الرومان كانوا أقوياء حيث كان الاغريق ضعافا فى توثيق عرى السلالة والاتحاد السياسى وفى اخضاع الفردية لخدمة الدولة . وكانت الفضيلة التى يتجمل بها المواطن الرومانى هى أن يفعل فى روما ، كما تفعل روما . ان تاريخ الاغريق تاريخ مدن وأفراد، وتاريخ روما هو تاريخ شعب. ولما لم تكن تتحكم فى الرومان سياسة مدبرة للغزو وانما كان الحكم لمنطق الواقع الصارم فان أقدار الشعب الرومانى أدت بهم الى أن يضموا فى نطاق امبراطوريتهم العالم المتمدين بأجمعه كما كان فى زمن ميلاد المسيح .

ان جمع الرومان شعوب ومدنيات الأزمنة القديمة فى منظمة واسعة موحدة، والقيام بحراسة البحر المتوسط وفرض السلام على عالم يسوده عدم النظام وتسليم برابرة شمال وغرب أوربا ثقافة الماضى ، وقد هذبتها عبقريتهم الخاصة فى القانون والحكومة ، ان كل أولئك كانت مهام روما ومصيرها . وبها سار المثل « كل الطرق تؤدى الى روما » وكما كانت الطرق العسكرية العظيمة التى أنشأها الرومان تتشعب من روما وتجتاز الامبراطورية فان تيارات التاريخ القديم والحديث على السواء تجد نقطة تجمعها فى روما وتدين أمم العالم الحديث بجانب عظيم من شرائعها ولغاتها ونظمها الى عبقرية روما القيصرية .

٥ - ان هذه الشعوب الثلاثة بأجمعها كان موطنها شواطىء البحر المتوسط . ولقد كان البحر المتوسط وأراضيه الساحلية عالمهم . ولما كنا قد تدربنا منذ الطفولة على أن يتجه تفكيرنا الى نصفى الكرة الأرضية بما فيها من قارات ومحيطات فمن العسير أن نقدر زمنا كان يعنى فيه العالم مجرد

---

(١) (Aneid - Virgil) الفصل ٦ ، ٨٤٧ - ٥٣ .

حلقة ضيقة من الأقطار تتجمع حول بحر داخلي ، والى ما يوالى هذه الأراضي الساحلية في كل صوب ، يوجد خواء لا حد له يكتنفه الغموض والى الغرب يقع المحيط الاطلنطى الذى لا يمكن اجتيازه والى الشمال والجنوب تقع مواطن الهمج المتوحشين الذين كانوا يهبطون بسلعهم للمقايضة مع سكان سواحل البحر المتوسط . وفقط صوب المشرق رفع الحجاب الى البعد الذى يقوم فيه خط هضبة ايران (فارس) عاليا فوق سهول ما بين النهرين وبابل ، وداخل هذه الحدود كانت توجد مدنية .

وعلى هـذا يظهر لشعوب الزمن القـديم أن التفريق بين ثلاث قارات : أوروبا وأفريقيا وآسيا ، كان تفريقا اصطناعيا لا طائل تحته [١] . وقبـل أن يبدأ العبريون والاغريق والرومان القيـام بدورهم فى التـاريخ ، بزمن مستطيل كان البحر المتوسط ، مكان تجمع تجارة العالم. وفى جميع العصور نمت التجارة والمدنية جنبا الى جنب . ان الطـرق التجـارية وهى حلقـات الاتصال الدولى ، تعاون على توزيع ، ليس مجرد المحاصيل المادية ، ولكن أفكار وعادات الحياة أيضا ، وعلى هذا كان تاريخ المدنية منذ بواكير الزمن المدون ، هو تاريخ منطقة البحر المتوسـط ، وظلت الحـال كذلك حتى أتت كشوف عظام الملاحين فى ختام القرن الخامس ، ثمارها فى مدنية المحيط التى نعيش اليـوم بين ظهرانيهـا [٢] . ان رحـلات دياز (Diaz) ودى جـاما (da Gama) وكولمبس (Columbus) فعلت أكثر من اظهار أسواق جدد ، ومناطق للتوسع الامبراطورى فى جزر الهند والعالم الجديد . ولقـد غيرت مركز الثقل فى الثقافة الانسانية . ومدنية المحيط التى قامت على أسسها لم تكد تنضج بعد لوضع تاريخها .

واذا صدق القول ان ما تفكر فيه لنكشير اليوم تفكر فيه انجلترا غدا واذا لم تعد جزيرتنا بعد عملا خارجيا على تخم المدنيـة الشـمالى الغربى ، ولكنها تحتل مكانا مركزيا فى التواصل الاقتصـادى والعقـلى بين الأمم ، واذا كانت حياة العالم تنبض فى أصـقاع لم تكن معروفة للأقدمـين ـ فى أمريكا وفى المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار ـ فان مرجع ذلك الى

(١) هيرودوت : ٤ ـ ٤٥ : « لا أستطيع أن أفهم لـماذا أطلق على الأرض وهى واحدة ثلاثة أسماء مختلفة استمدت كلها من النساء ... ولا يمكننى أن أعلم من هم الذين وضعوا الحدود أو ممن استمدوا الأسماء التى أطلقوها » .

(٢) قال دكتور جونسون (Dr. Johnson) : « ان الغـرض العظـيم من السفر هو مشاهدة شـواطىء البحر المتوسـط . وعلى تلك الشواطىء قامت اربع امبراطوريات عظيمة فى العالم : الأشورية ، والفارسية ، والاغريقية ، والرومانية . وكل ديانتنا ومعظم شرائعنا ومعظم فنوننا ، وكل ما يرفعنـا فوق البرابرة ، تقريبا ، وصل الينا من شواطىء البحر المتوسط » (بوزول (Boswell

تغيرات نشأت منذ أربعة أو خمسة قرون فقط ، ونتائجها التى يتسع نطاقها من ساعة الى ساعة أمام أعيننا تصلح بالحرى لأن تكون مادة للصحفى وليس للمؤرخ . والأزمنة التى أخضعت فيها الامبراطورية الرومانيـة فى منطقـة البحر المتوسط ، العالم المتمدين بجمعـه تحت سـيطرتها تظهر فى الحـق سحيقة فى القدم .

ولكن هكذا يترابط التاريخ خلال حقب نموه المترادفة ترابطا وثيقا ، حتى أن هذه الثورة الهامة كان الواعز لها ارث الثقـافة الاغريقيـة الرومانيـة . ولا توجد فجوة لا يمكن اجتيازها فى التواصل بين مدنية المحيط فى زمننا وتلك المدنية التى صاغها منذ أكثر من عشرين قرنا خلت ، شـعوب عـالم البحر المتوسط .

٦ ـ والعبريون والاغريق والرومان ولو أنهم كانوا يسهمون فى موطن مشترك على البحر المتوسط فقد كان يفرقهم اختلاف المنشأ الذى كان الى حد بعيد السبب فى قيام صفة مميزة لحضاراتهم .

كان العبريون فرعا من الجنس السامى الذى كان موطنه بلاد العرب احدى مراضع الجنس البشرى العظيمة . وفى الفصل التالى سنقابل أمما أخرى ، بابليين وأشوريين ، والقاطنين فى فينيقيا وسـوريا الذين كانوا أعضـاء فى الأسرة السامية عينها .

وعلى النقيض كان الاغريق والرومان ينتمون أصلا فى جميع الأحوال الى الأسرة الهندية الأوروبية التى ربما كان موطنها أرض السهوب (الاستبس) الى الشمال من القوقاز .

وفى العصور السحيقة فى القدم كانت هـذه الأسرة قـد انقسمت الى شعبتين عظيمتين . ولقد سارت احداهما صوب الغرب الى أوروبا ومنهـا لم ينشأ فقط الاغريق والايطاليون ، ولكن أيضـا أسلافنا ، الكلتيون والألمان والاسكندناويون .

وأخذت الشعبة الأخرى سمتها الى الجنوب الشرقى واستقر جزء منها على هضبة ايران ونسلوا الميديين والفرس الذين جاء ذكرهم فى التاريخ القديم بينما اجتاز جزء الجبال الى وديان السند والكنج واستعمر الهند الشمالية .

وقد حدثت كل هاتيك الهجرات فى العصور البعيـدة . أما الشـعوب القديمة التاريخية فيندر أنهم تحرروا من تمازج الأجناس ، اذا كانوا تحرروا اطلاقا منه .

٧ ـ ان تباين هذه الشعوب الثلاثة فى الحياة والصفات لم يكن بالقدر الذى يمتنع فيه التوحد النهائى . والحقيقة ، بالحرى ، على النقيض من هذا .

ولقد خلقت كل منها وورثت العصور التالية ، واحدا من العناصر الجوهرية فى فكرة مدنية كاملة · وكان الاغريق أول من أدرك فى مذهبهم العملى ، كما فى مذهبهم النظرى ، قدر الحرية الفردية وأنها التربة التى يمكن فيها فقط أن يزدهر خيال الانسان وعقله ويأتيان ثمارهما · وفى مجالى الفن والفلسفة تكون الروح الانسانية الشرعة لنفسها ، ولكن الانسان مطلوب منه العمل أيضا ويستدعى تحقيق أغراضه العملية ، تحقيقا فعالا ، توطينها على حقائق طبيعة الانسان الصارمة ، ودنيا الظروف ·

والتسوية يمكن انجازها فقط بمعاونة السلطة الخارجية والحكومة · وهذه الوظيفة التأديبية فى تاريخ المدنية نهضت بها روما · ولكن فى مجال الفكر كما فى مجال العمل ، فان مصير روح الانسان الذهاب بددا فى الفوضى أو العبودية الا اذا ألهمت العلم بمرماها المثالى ·

« بلا رؤيا يفنى الشعب » (١) ، كان العبريون قد رأوا الرؤيا ونقلوها عن طريق عقيدة تأصلت جذورها فى حياتهم الروحية الى شعوب الغرب الآرية · الحرية والشريعة وملكوت الله — انهن تراث العالم القديم ، تراثه الثلاثى الذى ورثه عالمنا الحديث ·

٨ — ان المؤرخ الذى يرجع ببصره الى الماضى ، من مدى عشرين قرنا يجد لزاما عليه أن يجلى فى صورة بارزة الأوجه الهامة المميزة لهذه المدنيات، ولكن يجب ألا يدور تفكيرنا فيها وكأنها صبت فى قوالب جامدة أو أن نغالى فى وضوح خطوطها ، وستبين النتيجة كيف أن حياة الشعوب ، العبرية والاغريقية والرومانية ، كحياة الأفراد الذين كانوا يكونونها ، كانت أبدا دائبة على السير وتكييف نفسها كلما نمت وتتغير من لحظة الى أخرى وفقا لمجالها الطبيعى والاجتماعى ·

انه لشوط بعيد بين العبرانيين الذين تجمعوا حول ايليا على جبل كرمل والعبرانيين الذين كانوا بعد ذلك بتسعة قرون يصيحون أمام وال رومانى لاطلاق سراح باراباس ·

ان الفريسى فى أورشليم فى زمن المسيح كان يسير فى عالم مغاير لذاك الذى كان يسير فيه اليهودى الذى اصطبغ بالصبغة الهلينية فى الاسكندرية·

ان أوجه الخلاف بين أمراء التجارة الاغريق فى القرن السادس والمستمعين للقديس بولس فى كورنث أو أثينا كان مردها فى اتساع الهوة التى تفصل الأولين عن جوابى البحار الجامحين الذين هجروا مقابر جدودهم وآلهة أسلافهم والتمسوا مواطن جديدة فى بحر ايجا، فى نهاية السنوات الألف الثانية ق·م·

---

(١) أمثال ٢٩ — ١٨ (النسخة الانجليزية المعدلة « يجمح الشعب ») ·

ان الثقافة الهلينية كانت تعنى شيئا فى سيراكوز وشيئا آخر فى مليتوس (Miletus) وروما التى عملت على تأنيس الأسبانى أيام كاتو (Cato) يشمق على البملاف والبلغار ، الذين عرفوا فقط الامبراطورية المسيحية والبيزنطية فى بواكير العصور الوسطى ، تعرفها كروما .

ونستطيع أن نقدر هذا التغير المستمر فى المدنية ، على أفضل وجه اذا وجهنا الفكر الى العالم كما هو اليوم . ان جميع مصادر البراعة الحديثة لتسهيل الاتصال السريع واذاعة الأفكار مثل آلة الطباعة والبخار والكهرباء والطائرة والمذياع لم تأت بجدوى فى تحطيم الحواجز التى تفصل بين معاصرين من جذع مشترك . ان فلاحا فى دورست (Dorset) وعامل منجم فى نورثمبريا يعيشان فى عالمين غريبين . ونظرة عالم اكسفورد الى الحياة لا تشترك الا بقدر يسير مع نظرة مواطن له فى مانيتوبا أو نيوزيلند . وأكثر اتساعا الهوة التى تفصل واحدا من هؤلاء الانجليز الذين يعيشون فى القرن العشرين عن أحد أسلافه فى القرن الثالث عشر . واذا أعملنا الفكر فى التباين بين انجلتره التى نعرفها وانجلترا البلانتاجنيت (Plantagenets) فسيتاح لنا أن نتصور شيئا عن صعوبة جمع أوجه مدنية الأزمنة القديمة دائمة التغير ، فى منظر واحد .

وكذلك سنرى كلما سرنا قدما كيف اعترى التراث التحوير خلال انتقاله الى العالم الحديث . ان ثمار العبقرية العبرية والاغريقية والرومانية انصهر بعضها مع البعض الآخر ومع عناصر استمدت من مصادر تيوتونيه (Teutonic) ، واسكندناوية ، ولقد تغير مغزاها بدخولها في شكول من النماذج جدد .

ان الحاضر بتمثيله الماضى يضفى عليه معنى قد يكون أزخر أو أضحل من ذاك الذى كان يحمله مرة ، ولكنه أبدا جديد . ان أوضح شرح لهذا تقدمه اللغة .

لا حاجة للانسان أن يكون ماهرا فى فقه اللغة ليتعرف أصل الكثير من مفردات اللغة الانجليزية . ان بعضها مثل (Law, order, state, colony . responsibility, person) من الواضح أنها استمدت من اللاتينية وأخرى مثل (dogma, atom, history, biology , logic) من الاغريقية وغيرهما مثل : (friend, body, king, God) تنم عن أسلاف لهن اسكندناوى أو ألمانى .

ولقد تحورت أشكال هذه الكلمات فى أثناء ورودها فان لفظ (lex) أصبح (law) ولفظ (atomon) أصبح (atom) .

وفى بعض الحالات نجد التغيير أكثر أن يكون أساسيا ويتطلب الأمر شيئا من المراس ليستبين المرء اللفظ اللاتينى (metipsimum) من اللفظ الفرنسى الحديث المشتق منه (même) .

وما يصدق على الصيغ اللفظية يصدق أيضا على معانيها • وتبين أمثلتنا كيف أن الألفاظ التى تدل على أفكار قانونية أو سياسية كان توارثها فى الغالب عن الرومان الذين كانوا أساتذة العالم فى هذين المجالين بينما تميل المصطلحات العلمية الى الاحتفاظ بلغة المبتكرين للعلم ، اليونانيين القدماء • ومع هذا فانه على الرغم من هذا التسلسل الذى لا تشوبه شائبة فان ألفاظا مثل (law - responsibility) تحمل لنا فى مضمونها معنى مستمدا ليس فقط أو أصلا من تجارب شارعى الرومان ولكن من تجارب الأجيال التى ورثت تراثهم وزادته غنى خلال الفين من السنين •

ان المؤرخ وعالم الطبيعة فى القرن العشرين يختلفان اختلافا عظيما عن هيرودوت (Herodotus) ودموقريطس (Democritus) فى تصور لفظى (history, atom)

وما قلناه عن اللغة ينطبق على كل مظهر من مظاهر المدنية والماضى فى تحوله الى الحاضر يغير صفته كماض ويموت ، كما تموت العنقاء [١] ليعود مولده فى شكل جديد •

٩ ـ وهذه العملية من التواصل بين تغير لا ينقطع من العسير كشف القناع عنها • ويمكن معالجة الأمر بوسيلتين مختلفتين ، يمكننا أن نعتبر مدنية اليوم نقطة بداية ، ونقفل راجعين الى الوراء خطوة خطوة ، الى مصادرها فى الماضى • أو يمكننا أن نبدأ من البداية بسلالات العالم القديم ونقتفى المؤثرات على الأجيال اللاحقة الى أن نصل الى أكناف التاريخ الحديث • والمنهج الأخير هو الذى ننوى تتبعه ، ومعالجته مع هذا ستكون خاضعة الى شرطين • ففى المكان الأول ، يجب أن نختار من المواد الموجودة بوفرة تلك المظاهر فى حياة العبريين والاغريق والرومان التى أثرت على الحقب التالية أعظم تأثير • ويوجد دائما الخطر فى أن نحسب الجزء كلا ونخال أن الأشجار هى الغابة •

وعلى هذا فسنركز الانتباه على ديانة العبريين وعلى علم الاغريق وفلسفتهم وعلى رسالة روما التى كانت الوسيط فى مرحلة الانتقال من المدنية القديمة الى مدنية القرون الوسطى ، بعد أن نلمس لمسا خفيفا مظاهر تاريخهم الأخرى مهما بلغ من عظم اهميتها الجوهرية • والشرط الثانى يشير الى السلالات الأخرى التى عمرت العالم القديم • ويمكننا أن نضع فارقا بينها من ثلاث شعاب ، فتوجد :

١ ـ سلالات كالسكان البدائيين فى جزء عظيم من أفريقيا الذين لم ينجحوا أبدا فى الخروج من حالة الهمجية • وهى موضع اهتمام بالغ عند عالم الانثروبولوجيا (علم الانسان) والباحث فى العادات الاجتماعية والدينية

---

(١) عنقاء مغرب أو فينقس • (Phoenix) (المترجم)

البدائيتين ، ولم تترك أية علامات مميزة فى مدنية الأزمنة القديمة العليا ، وعلى هذا فلا تدعو الحال الى التنويه عنها فى هذا الكتاب • ويصدق هذا على : ـ

٢ ـ الشعوب المتمدينة فى الشرق الأقصى ، وفى الهند والصين واليابان ولقد نحتها الحواجز الجغرافية تنحية تكاد تكون تامة ، عن الاتصال الفعلى بثقافة منطقة البحر المتوسط [١] والآن عندما توطد الاتصال بفتح طرق المحيطات العامة ويسرته الطائرة واللاسلكى ، فان فن الصين واليابان والفكر الدينى لدى الشعوب الهندية ، العليا ، يثيران اهتماما متزايدا بين الأوربيين وقد يكون لدى المؤرخ ، بعد خمسة قرون من الآن الكثير مما يقوله عن نتائج هذا الاتصال فى الشرق والغرب جميعا ولكنها الى الآن لاتزال محجوبة عن أعيننا • ان منح الحكم الذاتى ، مع نمو التجارة والتصنيع سيكون مآلهما أن يصبحا مؤثرات انفصال ، فى النظرة التقليدية للحياة بين شعوب الهند ، وهذا ليس فى مجالى الاقتصاديات والسياسة وحسب ، وما اذا كان تعرف ارثهم الدينى والمتافزيقى عن قرب سيكون ذا أثر على مدنيتنا الغربية الى مدى مماثل فان هذا الأمر متنازع فيه كثيرا • ان الانفصام بين عقل الغرب وعقل الشرق بعيد الغور جدا • ان الغرب يسلم بالكثير مما يكون غريبا أو حتى قد يكون معاديا للفكر الهندى الذى يجد نفسه وقد جابهته عوائق لا يكاد يمكن اجتيازها ، أمام تفاهم متبادل •

وأحد الأسباب هو أن مفكرى الهند لم يهتموا اهتماما جديا بالزمن والعملية الزمنية التى تكون مادة التاريخ ظهرت لهم أنها أكثر قليلا من خدعة مايا (Maya) تحجب حقيقة المطلق التى لا تتغير • وهذا هو السبب فى أن الهند التى انجبت عظماء الفلاسفة والمتألهين الدينيين لم تخرج أى مؤرخ [٢]

---

(١) والاستثناء الظاهر لهذه العبارة العامة جدا هو غزو الاسكندر الأكبر للبنجاب ، ولهذا فان ما توطد من اتصال بين الغرب والهند ، كان قصير الأمد وذكراه باقية للتأثير الاغريقى على الهند أكثر منه لتأثير الهند على الاغريق • ولقد استمرت التجارة على طرق القوافل البرية من الشرق الأقصى طوال الأزمنة القديمة ولكن آثارها على المدنية الغربية كانت ثانوية وغير مباشرة • كذلك لم ينجم عن غزوات التتار للغرب فى الأزمنة التى وقعت بعد قيام المسيحية ومن الهون فى القرن الخامس وما بعده اى شىء ايجابى للثقافة الغربية •

(٢) فى أيامنا أخرجت الهند رامانوجان (Ramanujan) عالم الرياضيات العبقرى ، ولكن الرياضيات كعلم ما وراء الطبيعة (المتافزيقيا) لا شأن لها بسير الحادثات الزمنية • حتى مؤرخو العصر الحديث للفلسفة الهندية مثل (رادهاكرشنان Radhakrishnan) وداسجوبتا (Dasgupta) بينما واتاهم النجاح فى عرض المذاهب العديدة فانهم يعجزون عن استعراض تتابعها التاريخى فى نشأة الواحد عن الآخر فى ترتيب النمو الطبيعى •

وكذلك يظهر أن القـادة السياسيين الهنود يجـدون صعوبة فى ادراك ما يكون لدى العقل الغربى شىء عادى ، وهو أن الحكومة الذاتية يكون لها نفع دائم اذا وصل الى تحقيقها كثمرة عملية نسقية تدرجية للتعليم السياسى واذا ، كما تعترف جميع الجهات ، كانت صالحة ، وعلى هذا مرغوبا فيهـا ، فما السبب في تأجيل اقامتها ؟ لماذا لا ننجز العمل الصالح على التو بجرة قلم ؟

وعقل الغرب على النقيض ، بكل ايمانه بحقيقـة خالدة لعـالم أفضـل ـ لم ينكر الا فيما ندر ـ وجـود قـدر من الواقعيـة الصـادقة للعمليـة النسقية الزمنية (١) . وبوجد انفصام آخر يدعو للانتباه . ان عقيدة بقدر الشخصية الانسانية ، الذى لا يمحى متأصلة الجذور تأصلا عميقا فى العقل الغربى الذى يكاد لم تمسسه الرغبة للاستغراق فى المطلق تلك الرغبة التى استولت على قلوب الحكماء الهنود .

هنا يوجد الاختلاف الأصلى بين التأله المسيحى والتـأله الهندوسى (٢) وهـذه التملات تؤدى الى الرأى أنه اذا كان قـدر للحواجز الروحيـة التى تفصل الثقافتين الغربية والهندية أن تحطم فانما يكون ذلك بذيوع الدراسات التاريخية والمسيحية فى الهند . ومهما يكن من أمر هـذا ، فان مسـتقبل الشعب الهندى كمستقبل الشعوب الشرقية الأخرى يقع خارج نطاق هـذا السفر . والحال غير ذلك بفريق ثالث هو المدنيات التى قامت فى الأزمنـة القديمة جدا على شواطىء نهرين عظيمين النيل والفرات وفى جزيرة كريت وهى تسترعى انتباهنا ليس فقط لقيمة ثقافتها الجوهرية ولكن لأنها قدمت السوابق التاريخية لقصة العبريين والاغريق وروما .

انها جزء من حياة عالم البحر المتوسط . وهذا جلى فى حالة كريت . ولكن مدنية مصر انتقلت بفعل ثقلها صوب الشمال الى شواطىء الدلتـا . بينما كانت تمتد مدنيـة سـهل بابل أبـدا صوب الغرب الى بحـر ايجه والمشرق .

---

(١) فمثلا اسبينوزا (Spinoza) الذى كان يذهب الى أن الزمن هو نتاج تفكير من درجة دنيا (Auxilium imaginationis) لم يناقش أبدا واقعية الحادثات الزمنية . لقد انكر ببساطة انها ، كزمنية ، كانت حقيقية على الوجه الأتم . لقد علق الفكر المسيحى دائما أهمية عظيمة على العالم الزمنى المكانى (Spatis temporal) كمشهد لفترة اختبار الانسان ، ووظيفتـه هى أن يجوس خلال الأشياء الزمنية بحيث لا يخسر نهائيا الأشياء الأزلية . وهذا يحمل فى معناه أن الأشياء الزمنية ليست الا خدعة .

(٢) يطمح المتألهون المسيحيون الى الاتصال الروحى المباشر وليس بامتزاج الذات مع الله .

انه حق أن تأثيرها على العصور التاليـــة كان تأثيرا غير مبــاشر وكانت الواسطة فيه ثلاثة شعوب هى التى تكون الموضوع الرئيسى لهذه الدراسة • ولكنها تركت طابعها على العـمل الذى اسـتغرق خيـاة العبريين والاغريق وروما ، وكانت المجال التاريخى الذى قامت فيه هذه الأمم ، وأدت دورها • وعلى هذا فاننا سنحاول القاء نظرة موجزة على هذه المدنيات الأولى فى الفصل التالى • وسيعيننا هذا على ادراك التلاحم الجوهرى فى العالم القديم وعلى أن نعتبر شعوبه العديدة ، ليس كذرات منفصلة يمكن أن يعكف على دراستها مقسطة الى أجزاء • ولكن كأعضاء مجتمع من الأمم لها علاقات متبادلة من العداء أو التعاون كيفت ما اختصت بتقديمه لسير تاريخ البشر •

الفصل الثاني

أقدم مدنيات الشرق

١ ـ مقـدمة

١ ـ ان أقدم المدنيات التى تسترعى انتباهنا ، كتمهيد لدراسة العبريين واليونان وروما هى : (١) مدنية مصر (٢) مدنية الأمم التى سيطرت ، على الولاء ، على وادى دجلة والفرات ـ البابليين والأشوريين (٣) مدنية الشعوب التى قطنت بالأراضى الواقعة بين هذه الأصقاع ، ورقعة البحر المتوسط الساحلية ، سوريا وكنعان ، وآسيا الصغرى الشرقية (٤) ومدنية كريت التى تغلغلت فى بحر ايجا ، وشطر عظيم من منطقة البحر المتوسط . وسنسير قدما بنظرتنا الموجزة على هذه المدنيات الى الزمن الذى كانت فيه ، فى جل أمرها مستغرقة فى امبراطورية فارس العالمية ، العظيمة (القرن السادس ق.م) . وأخيرا (٥) سنلمح الى طبيعة الامبراطورية الفارسية ومدنيتها حتى الغزو اليونانى المقدونى ، الذى قام به الاسكندر الأكبر (٣٣٤ ـ ٣٢٣) . وأما التاريخ اللاحق لمصر والشرق الأوسط تحت السيادة اليونانية ـ المقدونية ، والسيادة الرومانية فانه يتعلق بطبيعة الحال بالفصول الأخيرة التى تعالج اليونان وروما .

٢ ـ مصر [١]

٢ ـ كتب هيرودوت المؤرخ اليونانى الذى زار البلاد فى القرن الخامس قبل الميلاد « ان مصر هبة النيل » [٢] والتربة والحاصلات والنبات والحيوان

---

(١) فى موضوع التأريخ المصرى المبكر ، كما فى كثير غيره فى هذا الفصل اقتفيت ما استخلصه برستد من نتائج كما وردت فى تاريخ مصر الذى وضعه (الطبعة الثانية سنة ١٩١٩) ، وبينما الغالبية من علماء الآثار يتفقون فى الجوهر على تأريخ برستد للأسرات الأولى الا أنه يجب ألا يغرب عن البال أن التواريخ لاتزال موضوع مساجلة قبل الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ ق.م) وعلى القارىء أن يرجع الى جداول الأزمنة المتعادلة فى الأسفار الأولى من تاريخ كامبردج القديم فى جميع مسائل التأريخ التى تعرض له، فيما يتصل بهذا الفصل .

(٢) هيرودوت ٢ ، ٥

والحياة الانسانية كلها على السواء ، يقرر أمرها النهر العظيم وهو الذى ، قبل مجىء الانسان بزمن مديد ، عمل على توسيع كسر فى الحجر الجيرى ، الى فجوة وملأ الفجوة بركام من المرتفعات الجنوبية وبطغيانه على البحر المتوسط كون الدلتا . والقطر واحة طويلة ضيقة تمتد سبعمائة وخمسين ميلا من الشلال الأول ، الحد الجنوبى القديم ، الى الدلتا . والوادى ، ويتراوح اتساعه من عشرة الى ثلاثين ميلا ، تحصره حواجز صحراوية فى الشرق والغرب . ويعتمد رخاؤه ، الآن ، كما كان يعتمد منذ سبعين قرنا غبرت ، على ظاهرة طبيعية عظيمة واحدة ، فيضان النيل السنوى ، الذى تسببه أمطار الربيع وذوبان الثلوج فى مرتفعات الجنوب القاصية . وانتظام هذه الأحوال الطبيعية البسيطة يعادله انتظام مماثل فى حياة وعادات الشعب . ولقد عكف الفلاحون تحت حكم محمد على فى القرن التاسع عشر الميلادى على المهام الراتبة عينها من فلاحة التربة وأعمال السخرة كعبيد لأرض أولئك الذين لا نعرف لهم اسما ، الذين بنوا الأهرام فى الألف سنة الثالثة قبل الميلاد . ان ثروة مصر الاقتصادية كانت دائما زراعية وقد أطلق المصريون على بلادهم اسم الأرض السوداء فى التفرقة بين الصحراء « الحمراء » على الجانبين والتربة الفيضية السوداء فى وادى النيل التى قام الدليل على أنها ، تحت نظام للرى محكم ، ذات خصب يفوق المعتاد .

والنهر كان الطريق العام الذى تمر عليه تجارة الحنطة الى مرافىء الدلتا وحلقة الاتصال بين مصر والعالم الخارجى . ومن عهد سحيق حفز عدم انتظام فيضان النيل جهد الانسان الى صد غائلة المجاعة التى تحل من حين الى آخر . ولا يوجد مكان آخر صاول فيه مكر الانسان الطبيعة فى دؤوب على مثال ما صاول هنا . كانت البلاد تشيع فيها القنوات والسدود والخزانات ، وأظهر المهندسون فى مصر القديمة فى انشائها تمكنا من الفن الآلى . وخزان بحيرة موريس الفسيح ، وهو من عمل فراعنة طيبة فى الأسرة الثانية عشرة (فى أوائل الألف سنة الثانية) ينهض دليلا على نفس الهمة لبلوغ القصد كخزان أسوان ، الذى أتمه المهندسون البريطانيون تحت ارشاد اللورد كرومر (١) .

٣ ـ ولقد كان منشأ علمنا ببواكير تاريخ مصر القديم أثناء غزو نابليون (سنة ١٧٩٨) . ففى سنة ١٧٩٩ كشف ضابط فرنسى بالقرب من رشيد

---

(١) نحن لا نقر المؤلف الى ما ذهب اليه من نسبة مشروع خزان أسوان تنفيذا ورأيا الى البريطانيين فان تعاون هؤلاء المهندسين البريطانيين مع زملائهم المهندسين المصريين الذين حملوا العبء الأكبر فى المشروع كان بحكم وظائفهم فى الحكومة المصرية ولا شأن للورد كرومر به اذ قامت بتنفيذه نظارة الأشغال المصرية فى ذلك الحين .

(المترجم)

عن حجر ، موجود الآن فى المتحف البريطانى ، يحمل كتابة بثلاثة أنواع من الخطوط ، الهيروغليفى ، والديموطيقى أو الشعبى ، والاغريقى • وأسماء الأعلام التى كانت هى بذاتها فى الاغريقية كما فى الهيروغليفى ، هى التى أرشدت ، بعد دراسة مستطيلة ، عن الدليل الى نعرف الكتابة الهيروغلوفية على الآثار المصرية ، ولقد رأى القرن الماضى كشف الغشاء الذى يخفى الماضى البعيد ، بالتدرج • ان الخيال يبهر عندما جلى العلماء حقبة بعد حقبة من التاريخ الماضى ، الذى يمتد الى الوراء ، على الأقل ، الى الألف الرابعة قبل الميلاد • وهو ليس مجرد تاريخ حروب وغزوات ملوك ، ولكن تاريخ عقائد وعادات وفن وثقافة يشمل سلسلة من المدنيات الزاخرة لم تكن تدور فى خلد الناس الى ذلك الحين •

٤ — وتتقدم قصة مصر من أول توحيد لها تحت حكومة واحدة فى الألف سنة الرابعة حتى الغزو الفارسى فى سنة ٥٢٥ ق٠م سلسلة من حقب المدنية ، كل حقبة بعهودها من الصعود والهبوط ، وتفصل الواحدة عن الأخرى فترات من الركود والانحطاط • وقد رجعت أبحاث علم الآثار الحديثة بالسجل الى الخلف ، الى زمن أبعد عندما كانت قبائل من أصل افريقى ، ولكن أتت عليها الهجرات السامية بالتحوير ، تقطن بمراكز محلية يحكمها رؤساء منعزلون • وكان هؤلاء المصريون الذين يرجعون الى ما قبل الأسرات قد حذقوا فنون صناعة الصلصال والحجر ووضعوا السنة التقويمية التى تبلغ ٣٦٥ يوما والتى اتخذها بعد ذلك بأكثر من ٣٠٠٠ سنة ، يوليوس قيصر ولا يزال العمل يجرى بها حتى يومنا الحاضر [١] •

وفى بواكير الألف سنة الرابعة، نجد مملكتين واحدة فى الدلتا والأخرى فى مصر العليا أدمجهما مينا ، أول ملك فى الأسرة الأولى (حوالى ٣٤٠٠) فى حكومة واحدة • ومن هذه المرحلة فصاعدا يمكن جمع التاريخ المصرى

---

(١) أدخل التقويم سنة ٤٢٤١ ق٠م وكان أول تأريخ ثابت فى التاريخ • وقد أقام برستد (Ancient records, Egypt) (١ ، ٢٥ وما بعدها) الحجة على أن التقويم استهل فى بداية فيضان النيل ، الذى كان من زمن الى آخر يجيء على التقريب آوان عيد طلوع الشعرى اليمانية (Sirius) فى مشرق الشمس فى الأفق الشرقى فى ١٩ يولية • ولكن سنة الشعرى اليمانية (الفترة الواقعة بين مطلعى الشعرى اليمانية المتعاقبين) ، كانت أطول من السنة التقويمية التى تبلغ مدتها ٣٦٥ يوما ، بربع يوم • ولقد بدأت سنة الشعرى اليمانية والسنة التقويمية فى نفس اليوم ، فى السنوات ٤٢٤١ ، ٢٧٨٠ ، ١٣٢٠ ق٠م ، ١٤٠ — ٤١ الى ١٤٣ — ٤٤ • ومع هذا فقد حام الشك حول مشاهدة دورة مبكرة ترجع الى سنة ٤٢٤١ وأكثر ترجيحا انه وجد حساب لاحق يرجع الى الوراء •

حول قيام وسقوط ثلاث حقب عظيمة من التطور : الدولة القديمة ، والدولة الوسطى ، والامبراطورية الحديثة [١] .

(١) الدولة القديمة (الأسرات من الأولى الى السادسة) [٢] - وصل هذا العهد الذى دام ألف سنة الى ذروته ابان حكم ملوك الأسرة الرابعة فى ممفيس (من ٢٩٠٠ ق.م) وهم الذين مدوا سيادتهم صوب الغرب على ليبيا وصوب الجنوب على النوبة ، واستغلوا مناجم سيناء ، ونهضوا بالتجارة بأساطيلهم فى البحر الأحمر والمشرق .

ولقد كانوا اداريين عظاما وبنائين عظاما ، ووضعوا نظاما ماليا محكما وحكموا مصر بجيش من الموظفين ، وأوصلوا رى البلاد الى درجة عالية من الكمال ، وشيدوا أهرام الجيزة العظيمة لتكون قبورا لهم . ويمكن أن تتعرف مهارتهم فى استخدام الوسائل الآلية والموارد العظيمة للعمل الذى تستلزمه هذه الأبنية ، من الحقيقة الواقعة وهى أن هرم خوفو بنى بأكثر من مليونى قطعة من الحجر يبلغ متوسط وزن الواحدة منها ٢ ١/٢ طنا . وفن هذا العهد ، عينه ، وخاصة نحت الصور والنقش البارز فى المقابر والمعابد كان على جمال لا يضارع فى أى عهد لاحق للثقافة المصرية .

(٢) الدولة الوسطى (الأسرتان ١١ - ١٢) سقطت الدولة القديمة فى أواسط الألف سنة الثالثة على أيدى الأشراف أصحاب الأراضى ، الذين كانت قد أوجدتهم لما كان فيه خطر عليها . ثم ترادف نحو من ثلاثة قرون من الانقسام ، وقد عقد السلطان ، كما كان فى عصر ما قبل التاريخ للرؤساء المحليين الى أن قامت ملكية ثانية مركزة ، تعرف بالدولة الوسطى فى طيبة فى مصر العليا تحت حكم الفراعنة أولى الصولة [٣] من الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٥٠ - ١٧٨٠) وقد أعيدت التجارة على مجال واسع مع بنط (الصومال) فى الجنوب بجوار البحر الأحمر ومع الساميين فى سوريا وكنعان ، والشعوب البحرية فى شرق البحر المتوسط . ولقد وجدت فى مصر مصنوعات من الخزف منويه (Minoan) ترجع الى هذا العصر ويظهر على الفن المنوى أثر الفن المصرى [٤] . وتحت حكم الدولة الوسطى ،

---

(١) لم تعرف مصر أبدا أى شكل للحكومة الا الاستبدادى . وأسس الحرية السياسية توضع لأول مرة فى زمننا الحاضر .

(٢) جمع مانيثون وهو كاهن مصرى عاش فى عهد البطالمة الأوائل (القرن الثالث ق.م) ملوك مصر فى واحد وثلاثين أسرة . ويغلب أن يكون جمعه غير دقيق ، ولكنه لايزال يستخدم ، بوجه عام ، كمرجع تاريخى .

(٣) فرعون (بر - عا) يعنى حرفيا البيت العظيم ، كان لقبا أطلق فى الأصل على مقر الحكومة وبعد ذلك على شخص فرعون .

(٤) انظر بعده فقرة ١٦ .

وصلت الفنون الصناعية أعظم ذروة لها من التقدم ، وازدهر الأدب ، واذا كانت فنون النحت يغلب أن تكون تقليدية ، فانها تنافس نظيراتها فى الأسرتين الرابعة والخامسة ·

(٣) الأمبراطورية الحديثة (الأسرتان الثامنة عشرة والتاسعة عشرة) أعقب ختام الأسرة الثانية عشرة فترة غامضة كانت فيها مصر المنقسمة ، تحت رحمة الغزاة الأجانب وحكم البلاد بدو ساميون (الهكسوس أو مايطلق عليهم الملوك الرعاة) يضمون فى الراجح سبطا عبريا [1] وقد أعاد أمراء طيبة الوحدة ، ويبدأ أعظم العهود روعة ، اذا لم يكن فى الثقافة المصرية ، فعلى الأقل فى السلطة السياسية ، بقيام الأسرة الثامنة عشرة (سنة ١٥٨٠ ق· م) · كان المصريون بطبيعتهم شعبا لا ينزع للحرب ولكن الفوضى الداخلية كانت قد أدت الى تكوين جيش مهنى منظم وغدا فراعنة الامبراطورية الحديثة الحكام العسكريين لدولة عسكرية · وقد غزوا سورية وفينيقية ، وحاربوا الميتانى (قبيلة يتولى أمرها رؤساء آريون) والحيثيين على الفرات الأعلى ودانت لهم السيادة من ذلك النهر حتى الصحراء الليبية ، وأكناف الحبشة · وقد وصلت اليهم الجزية مما يوالى البحر المتوسط ، فكانت مصر مفتوحة لتجار بحر ايجه الكفتيو (Keftiu) وكانت منتجاتها تستخدم فى كنوسوس (Cnossus) وأثر فنها الزخرفى الخاص على مهرة الصناع الميسنيين (Mycenaen) [2] ، وقام على تدبير أمور الامبراطورية لفيف عظيم من موظفى الدولة ، وعلى دين الدولة طبقة من الكهنة ، منظمة · وكان هذا أعظم عصور الفن المعمارى المصرى · وكان معبد الاله آمون فى الكرنك واحدا من أعظم الآثار الدينية روعة فى الأزمنة القديمة · وتقوم اليوم على رصيف نهر التيمس مسلة تذكارية أقامها ألمع غزاة الأسرة الثامنة عشرة تحوتى مس سو (تحوتمس) الثالث · وبعد انقضاء قرنين من العظمة الامبراطورية بدأت بوادر الانحلال الذى لا معدى عنه ، فى الظهور · ولقد أثار الجهد الغريب الذى بذله المصلح الدينى اخ ن اتن (اخناتون) (امنحتب الرابع ١٣٧٥ — ١٣٥٨) لاقامة عبادة اله واحد روحية ، شعور الشعب والكهنة [3] · وأخفقت

---

(١) تحمل جعلان ملك فى هذه الفترة اسم يعقوب — هر ، أو يعقوب آت (برستد صفحة ٢٢٠) ·

(٢) عن الحبشة انظر ما سيجىء بعد، فقرة ١٢، وعن كنوسوس وميسنيا الفقرات ١٥ — ١٦ ·

(٣) تلقى خطابات تل العمارنه ، وهى سجلات رسائل اخناتن الأجنبية التى كشف عنها فى سنة ١٨٨٥ ، الكثير من الضوء على سياسة الامبراطورية الجديدة · ان تل العمارنة هو موقع العاصمة اختاتن التى أسسها اخناتن كمقر لعبادة الاله الواحد (اتن) وعن دين التوحيد هذا انظر ترنيمة اخناتن لاتن التى ترجمت فى كتاب برستد الصفحة ٣٧١ وما يتلوها ·

الأسرة التاسعة عشرة فى المحافظة على هيبة مصر فى الخارج ، وقبل ختام السنوات الألف الثانية (ق٠م) بزمن مديد ، كانت سوريا وكنعان قد أفلتتا من أيدى المصريين ، وكانت شعوب البحر في ايجا تعمل فى الدلتا نهبا وتخريبا ، وحدث فى غضون هذه الفترة من بداية نشوء الانحطاط أن قطن العبرانيون [١] فى جاسان (Goshen) وكان الخروج الى صحراء سيناء ليس متأخرا عن عهد واحد من فراعنة الأسرة التاسعة عشرة (حوالى ١٣٢٠ — ١٢٠٠) ٠

وفى قرون الانقسام والتفكك الذى أعقب سقوط الامبراطورية الحديثة نجد الرؤساء المرتزقة ، الليبيين يحكمون فى الدلتا ، وأمراء اثيوبيين فى مصر العليا [٢] ٠ وفى أواخر القرن السابع (٦٧٠) غزا الأشوريون الذين كانوا يهددون استقلال مصر ردحا من الزمن ، الدلتا تحت امرة أسر حدون ٠

وجعلوا من مصر ولاية تابعة [٣] وبدأ عهد الحكم الأجنبى ٠ ولما وهنت قوة أشور أمام قوة بابل واتت فرصة أخرى للاستقلال وفى ولاية ملوك الأسرة السادسة والعشرين (فى سايس بالدلتا ٦٦٣ — ٥٢٥) نشهد احياء للثقافة قصير الأمد ومصطنعا الى حد ما ، واعادة توكيد عقيم للمطامح القيصريه ٠ وقد تحالفت مصر مع ليديا والاغريق الآسيويين وجند المرتزقة الاغريق فى الخدمة الملكية ٠ وخصص مقر للتجار الاغريق فى نقراش (نوكراتيس ومعناها القوة البحرية) فى الدلتا ٠ وغزا نيخو (٦٠٩ — ٥٩٣) كنعان وحارب نبوخذ نصر ملك بابل على الفرات ٠ وتقديمه العباءة التى كان يلبسها قربانا عندما أوقع الهزيمة بيوشيا فى مجدو ، لمعبد أبولو المليزى فى برانخيدا (Branchidae) كان ذو مغزى عن الاتصال

---

(١) يتوارى القفتو (المنيون) عن الآثار المصرية حوالى سنة ١٣٥٠ ويظهر بعد ذلك بقرن ونصف الاقيوشا (Akalusha) (الاخيون) — انظر ما يلى ٠

(٢) كان شيشنق الأول (شيشق العهد القديم) واحدا من الأولين وكان حليف سليمان وآوى يربعام مؤسس المملكة الشمالية (الافراميـة) وحارب رحبعام الى المملكة الجنوبية (يهوذا) حوالى سنة ٩٢٦ (ملوك الأول ٩ : ١٥ — ١٧ ، ١١ : ٤٠ ، ١٤ : ٢٥) ٠

(٣) كانت جيوش آشور قد وصلت الى تخوم مصر مرتين فى القرن الثامن وقد حدثت غزوة سنحارب العقيمة فى سنة ٧٠١ ، ولقد أدرك ضعف مصر فى جلاء أشعياء ، الذى استنكر سياسة التحالف بين يهوذا ومصر ضد آشور (اش : ٣٠ ، ١—٧ و٣١ ، ١—٣) ٠

التاريخى بين مصر ويهوذا وبابل واليونان [١] ولكن اعادة الاستقلال كان ذا أمد قصير ، ولما سقطت بابل أمام الفرس كان مصير مصر قد أصبح قاب قوسين ٠ وفى سنة ٥٢٥ غزا قمبيز مصر وظلت البلاد خاضعة لامبراطورية فارس فيما عدا ثورات متقطعة خاطفة حتى مجىء اسكندر المقدونى (٣٣٢ — ٣٣٠) ٠

٥ — وبقى أن نسأل الى أى مدى اثرت مدنية مصر فى المدنية التى نهضت فى غضون السنوات الألف الأخيرة ق٠م٠ فى عالم البحر المتوسط٠ واذا القينا النظر (أ) الى الدين الذى كان فى مصر كما كان بين السلالات الأولى جميعها، بؤرة الثقافة ، فاننا نجد طائفة عظيمة من المعتقدات والعبادات المحلية ، وقد وحدها فراعنة الأسرات الأولى فى دين دولة ، فيه ثم آلهة مركزيون صاغ الكتاب الكهنة من قصصهم وفرائضهم ، على سير الزمان ، شكلا ذا مذهب راهن وله طابع ثابت ٠ وانها لتحوى اليسير من القيمة الفكرية أو القيمة الروحية ما خلا استثناء وحيدا هو محاولة اخناتن التى أشرنا اليها آنفا ، بأن يستبدل العبادات الدينية المقررة بعبادة توحيد لآتن اله الشمس ٠ ويظهر أن الواعز لثورته كان مثالية فكرية صادقة ولكنها كانت عقيمة ولا تأثير لها حتى فى بلاده ذاتها ٠ والكتابات الدينية ، مثل كتاب الموتى ، التى تتعلق بأقدار الروح فى حياة أخروية ، وهى مجموعة كان منشؤها فى الدولة الوسطى ، واتخذت شكلها النهائى فى زمن الأسرة الثامنة عشرة ، كان يسيطر عليها السحر ، وتكشف عن تصور مادى تماما للروح ٠ والاعتقاد فى محاكمة خلقية بعد الموت ، وهو يرتبط بعقيدة أزوريس كان له ثمة قيمة من حيث الأخلاق ٠ وفى نصوص الأهرام المبكرة ، يمكن أن نطالع كيف تصور المصريون القدماء نظاما خلقيا فى العالم مرده ما شاع بين الناس من أحكام على السلوك « وفقا للقواعد المرعية » فى الأسرة وفى القرية ، على أنه مع ما تقدم لا يوجد دليل على أن دين المصريين أثر [illegible]يرا خطيرا فى العالم الخارجى ، وعبادة يهوه كان موطنها صحراء سينا وليس فى مصر ٠ وفى عصر لاحق ، عندما تقابل الشرق والغرب تحت حكم أمراء مقدونيين فى الاسكندرية ، ذاعت العبادات المصرية ، كعبادات ايزيس وسيرابيس ، وكذلك الاعتقاد فى الخلود والشفاء بالايمان الذى يرتبط بتلك الآلهة وممارسة القصص الرمزى الخلقى الذى تميز به تعليم الكهنة المصريين

(١) هزم ينخو فى قرقميش سنة ٦٠٤ وحدث غزو بابل ليهوذا سريعا فى أعقاب هذا النصر ، أنظر الملوك الثانى ٢٣ : ٢٩ وهيرودوت ٢ : ١٥٩ ، وكانت مجدو فى سهل يزريل أو اسدريلن مشهد المعركة التى وقعت بين العبرانيين وسيسرا (قضاة ٤ : ٥) والارمجدون (وفى النسخة المنقحة هرماجدون [illegible] جبل ماجدو) الرؤيا ١٦ : ١٦ ٠ ونص الفقرة الأخيرة هو على أية حال موضع شك ٠

وجد ذيوعا واسع النطاق فى العالم الرومانى الاغريقى • ولكن قبل هذا التاريخ كانت ديانات العبريين واليونان وروما قد وصلت الى نضوجها •

(ب) ومرة أخرى كان ما يسمى « حكمة » المصريين أمرا ذا قيمة علمية يسيرة • لقد كانت موضوعات اهتمامهم العقلية نفعية ولم يظهروا الا ميلا ضئيلا للعلم الخالص أو الفلسفة • ولقد ابتكروا قواعد يتجلى فيها الحذق لقياس الحقول والأبنية ولكن كان يعنيهم من الهندسة مساحة الأراضى ولاشىء أكثر • ولم يستبن منهم فى هذا أو فى علم النجوم الذى كان لديهم ادراك للمنهج العلمى • وعندما كانت تظهر بواق لا قبل لهم عليها فى تقديراتهم فانهم كانوا يهملون شأنها ببساطة • وقد كان افلاطون على حق تماما عندما انتقد الرياضيات المصرية بأنها قاصرة على أغراض عملية بحتة [١] • والطب أيضا كان خليطا من الوصفات الجاهزة والتعازيم السحرية • وتظهر الكتابات الطبية الأولى ملاحظة دقيقة ، لجسم الانسان وعلاج الاصابات بما يمليه الحس العام وآراء عن الوظائف الفسيولوجية التى ربما تكون قد وصلت الى الاغريق وكانت الحافز للأوائل من رجال العلم الهلينيين ، ولكنها ظلت ، الى أن أضاءها البحث عن الأسباب والمسببات ، لا أكثر من مجموعات من المعطيات ، السابقة [٢] للنهج العلمى [٣] •

---

(١) القوانين ٧٤٧ ، أنظر وصف بردية رند (Rhind) فى فلسفة اليونان الأولى لبرنت (Burnet) الطبعة الثالثة الصفحات ١٨ وما بعدها ، وملاحظاته عن النتائج العلمية المزعومة التى وصل اليها المصريون • وعن الطب المصرى بمقابلته بطب الاغريق ، أنظر برت (Brett) « تاريخ علم النفس » الصفحات ٢١٩ وما بعدها •

(٢) أنظر بردية ادون سمث الجراحية (Edwin Smith Surgical Papyrus) لبرستد • ان العلاج يوصف وفقا للقاعدة (عليك أن تقول الخ) ودراسة لهذه الوثيقة المشوقة تترك القارىء وقد دخل فى روعه أن الذى يمهن الطب فى زمننا ، ولو أن دعامة عظيمة النطاق من الحقائق تشد أزره ، فانه يحتفظ بمقدار ليس باليسير من عقلية سالفيه البدائيين •

(٣) نحن لا نقر الكاتب فيما ذهب اليه من انكار أهمية الطب المصرى القديم وأثره فى الطب اليونانى ، ذلك لأن الطب المصرى القديم جدير بأن يدرس فى اهتمام حتى يومنا • لقد وصل قدماء المصريين الى تقدم عظيم فى الطب والجراحة واقتبس الطب الاغريقى من الطب المصرى نصيبا عظيما حتى يمكن اعتباره امتدادا له • وليست أدراج البردى ، كاهون وادون سمث وايبرز وهرست ولندن وكارلسبرج وبرلين ، الا مقتبسات من أسفار أصلية • وهى تذكر الأطباء والسحرة وأطباء الأسنان وأطباء العيون وغيرهم من الاخصائيين بما فيهم الأطباء البيطريين ، وتضم عجالات طبية وتذكرات وضعها الأطباء القدامى تصف ما يجب القيام به فى حالات خاصة : الطب العام وأمراض النساء وجراحة العظام وأمراض العيون • وقد عرفوا القلب =

وعندما زار الاغريق البلاد فى عهـد الأسرة السادسـة والعشرين تأثر خيالهم بطبيعة الحال بقدمها : « أنتم معشر الاغريق أطفـال على الدوام اذ لا يوجد رجل هرم بينكم » هذا ما قيل ان الكاهن المصرى أنبأ به صولون • والاحتـرام للآثار التى طالت عليهـا الحقب يقـويه تحفظ المترجمين الكهنة وما يتسم به من وقار ، جعل المسافرين الشماليين يتصورون المثل العليا ، فى حدود ما وصلوا اليه من أعمال عقلية جليلة ، لعلم شعب له مثل ذلك الماضى البعيد [1] ومن الجهة الأخرى كان تأثير مصر ، فى الفنون الآلية ، عظيما فى العصور التالية [2] •

(ج) كانت الثقافة المصرية ثقـافة فن لا ثقـافة أدب ، ولو أن القصص الشعبية والفاجعة (الدراما) الدينية نشأتا فى الدولة الوسطى واتاح البردى وهو هبة مستنقعات النيل ، للرسائل والسجلات المكتوبة أن تكون قابلة للحمل وسهلة • ولكن كان فن مصر هو الذى فرض طابع نفوذه على العالم الخارجى ، كما يتضح من العـلامات التى يمكن تبينها فى مصـنوعات الخزف والنقوش البارزة فى الصناعة المنوية والميسنية وكان هذا قبل أن يبزغ فجر

= و « الأوعية التى تذهب الى كل عضـو » ، والعلل التى تصاب بها أجهزة التنفس كالنزلة الشعبية والتهاب الحنجرة • وتعوزنا القدرة على ترجمة كل الألفاظ التى تصف الأمراض والألفاظ الدالة على كثير من مواد العقاقير ، لكنا نعلم أنهم استخدموا عسل النحل والقشدة واللبن ، وضمادات الأعشاب والتحميلة والحقنة وزيت الخروع • وتشير النصوص الى علاج الأسنان وعلمنا من فحص الموميات أنهم كانوا يعرفون كيف « تحشى » الأسـنان بنوع من الأسمنت المعدنى وأنهم استخدموا الذهب لربطها • ولقد عنوا بعلاج العيون وجاءنا عدد من الوصفات التى قصد بها علاج الرمد الحبيبى والكتركتا والعشى الذى استخدموا له مزيجا من كبد الحيوان ولاتزال تستخدم اليوم خلاصـة الكبد فى علاج هذه العلة •

وقد تحقق أن الكثير من مشاهداتهم للعوارض كانت دقيقة والأدوية التى استخدموها ناجعة المفعول • أما جراحة العظام ، كما جاءت فى بردية ادون سمث ، فانها تكاد تكون علمية •

وكان للطب المصرى القـديم ذيوع فى الشرق الأدنى ، ولم ينكر ابقراط وجالن أن بعض ما حصلا عليه من علم بالطب جاء من المصنفات المصرية التى كانا قد درساها فى معبد امحوتب فى ممفيس •

ويمكن لمن يريد الاسـتزادة أن يرجع الى ما صنفه بعض أعـلام الطب من أمثال الدكاترة : حسن كمال، ومحمد كامل حسين، وغليونجى، والبطراوى، ونجيب رياض • (المترجم)

(١) أفلاطون تيمايوس ٢٢ •

(٢) كان فى قدرتهم تحريك الأشياء الثقيلة وتكويمها ولكن لا أكثر من ذلك ، وكونهم لم يحاولوا أبدا ايجاد قناطر للنيل يبين القدر المحـدود الذى كانت عليه دربتهم كمهندسين •

الثقافة الهلينية ، وعندما أهل ذلك اليوم كان الفن المصرى قد تدهور مع استثناء واحد هو الفن المعمارى • لقد شيد المصريون معابد عظيمة وقبورا واستخدموا الأساطين وطرق العمد للسماح للضوء بالانسياب الى الأرجاء الداخلية بينما اقتصروا على أبسط الأبنية واعتمدوا فى الزخرفة على النقش البارز الوطىء وعلى اللون • ولقد كان لفنهم المتأخر فى الحفر أثر على فن الاغريق فى مراحله الأولى ولكن سرعان ما تجاوزوا تقاليده الصارمة ، ولقد أعاد حكام مصر المقدونيون احياء الفن القومى ولكن ما استنسخه الاغريق كان يجافى الذوق والدقة • واليوم بفضل علماء الآثار فان الحال غير تلك الحال• ان أعمال النحاتين العظيمة فى الأسرات الأولى قد تكشفت فى جمالها لتكون مصدرا جديدا للوحى ، لفنانى العالم الحديث •

٣ - بابل وأشـور [1]

٦ - والمدنية الفيضية الثانية العظيمة فى الأزمنة القديمة ، كانت مدنية بابل • ان سهل كلديا الفيضى بين مجريى الفرات ودجلة السفليين كان على غرار مصر تحت نظام للرى ملائم قمينا بخصب وفير • ولقد قام فى العصور القديمة بأود جم غفير من القاطنين • واليوم بعد أن دمرت قرون من سوء الحكم رخاءه ، يتطلب الأمر كد الخيال ليدرك أن بابل كانت حينا من الدهر ، شبيهة بمصر ، أحد مخازن غلال العالم الرئيسية حيث كانت المحاصيل تؤتى ثمارا مائتين أو ثلاثمائة ضعفا • وكانت الأرض حتى بعد الحصاد الثانى تهيىء الكثير من المراعى [2] •

وحاضرة الملك التى قامت على شواطىء الفرات وأصبحت من فجر الألف سنة الثانية مقرا عظيما للامبراطورية كانت لحجمها الشارع ، أعجوبة الأزمن القديمة • وكان محيط دائرة السور الداخلى زهاء أربعين ميلا • يقول أرسطو:

---

(١) وهنا أيضا لم يجزم برأى فى التأريخ القديم • وعندما يوجد انقسام فى الرأى بين العلماء يكون التفضيل لأقرب التواريخ على أبعدها • وعلى سبيل المثال تواريخ سرجون ملك أكاد والأسرة البابلية الأولى • أنظر الجداول التى جاءت فى تاريخ كمبردج القديم •

(٢) حطم المغول مدنية بلاد ما بين النهرين وعجز الأتراك عن اعادة سيرتها الأولى • وقد أورد ثيوفراسطس (Theophrastus) أبعد تلاميذ أرسطو صيتا فى كتابه (تاريخ النبات) : « فى بابل تحصد حقول القمح مرتين فى انتظام ثم يطعم بها الحيوان للتقليل من غزارة الأوراق وبغير ذلك لا تطلع السنابل للنبات • وعندما ينجز هذا ، فان محصول الأراضى التى تفلح فلاحة سيئة يكون خمسين ضعفا بينما يأتى محصول الأرض جيدة الفلاحة بمائة ضعف » • (اقتبسها روجرس (Rogers) : ١ ، ٤١٩) ، وازن ما جاء به هيرودوت من تقدير أكثر سخاء •

« ان بابل أمة أكثر منها مدينة » [١] • ولقد أضيف الى مواردها الزراعية الثراء المستمد من صناعات النسيج ومن تجارة رائجة [٢] ، ومنذ الألف سنة الثانية ، كانت بابل سوق الشرق ومركزا عالميا ، اجتذب الى أسواقه وأرصفته محاصيل الهند وايران وكان ملتقى مرور التجارة عبر الطرق الصحراوية الى الفرات من أقطار البحر المتوسط الى الغرب • والطريق الطبيعى لتوسع بابل، كان مجاله أعلى النهر لأن سهل كالديا كانت تكتنفه من الجنوب ومن الغرب الصحراء ، ومن الشرق هضبة ايران • وفى الألف سنة الثالثة كان سرجون الاكادى مؤسس أول مملكة سامية قد اجتاح أشور وبلاد ما بين النهرين وتوغل حول شمال الصحراء حتى سوريا وكنعان [٣] وعلى هذا ، فمنذ زمن مبكر تجاوز البابليون حدود مدنية سهل فيضى لتكون احدى مدنيات البحر المتوسط • ولو أنهم عندما بلغوا البحر ، لم يستخدموه الا قليلا • وخلال ألفى سنة كان حكام وادى دجلة والفرات يتطلعون صوب الغرب الى مياه البحر المتوسط كهدف مطمحهم •

٧ — كانت ثقافة بابل وأشور التاريخية سامية ولو أنه قبل هبوط الساميين من بلاد العرب ، أنشأت القبائل الوطنية مدنية تعرف بالسومرية (سومر — كلديا الجنوبية) ووضعوا أسس الدين واللغة والقانون والرى والحياة المتحضرة التى ظلت أمدا طويلا بعد أن وطد الساميون سيادتهم • وقطع الجواهر هو فن مهره البابليون ، وكان قد بلغ فى الأزمنة السومرية درجة عالية من الكمال • وكانت النقوش تحفر بالكتابة بالصور وبعد ذلك بالخط المسمارى ، حروف (رءوس سهام) وانا لنقرأ عن المشاهدات الفلكية ووضع كتب النحو والمعاجم وانشاء مكتبة ملكية • وفى أواخر الألف سنة الثالثة أو فى بكور الثانية نجد أسرة تعرف بالأسرة البابلية الأولى ، ومقرها بابل ومنذ ذلك الحين صارت عاصمة آسيا الغربية • والدين له كل الخطر فى تاريخ بابل وكانت طائفة الكهنة تستحوذ على ثروة وسلطان عريضين، وكان الملوك يعتمدون كثيرا على حظوتهم •

---

(١) ارسطو — « السياسة ٣ ، ٣ ، ١١٢٧٦ » ، يجب قراءة وصف هيرودوت (١ ، ١٧٨—٨٧) ولكن روجرس (١ ، ٤٣٨) وجه النقد الى تقديره لمحيط دائرة السور ، على ضوء الحفائر الحديثة •

(٢) وعلى هذا لم تكن الحال تستدعى وأد الأطفال لتحديد النسل ولكن مناخ سهل كالديا كانت تلازمه نسبة من الوفيات عالية •

(٣) يعتبر روجرس تاريخ قيام سرجون حوالى ٣٠٠٠ ق٠م ، ولكن الخطأ فى هذا التاريخ أنه أبعد مما يجب • أنظر الجداول فى تاريخ كمبردج القديم، ويمكن ان يلاحظ أن بابل كانت معرضة للغزو ، حتى من الجانب الجبلى ، اكثر من تعرض مصر له •

وحتى فى أيام سيطرة آشور لم يكن المغير يستطيع أن يستوثق من دولته فى بابل الا بتقديم فروض الاحترام لمردوك ٠

ولقد كان حمورابى ، أعظم ملك فى هذه الأسرة ، هو الذى ركز العبادات الدينية المحلية فى كلديا فى عبادة مردوك الاله – الراعى ، لبابل ٠

وقد نظم حمورابى المذهب الادارى للامبراطورية وأخضع عيلام الى الشرق وآشور الى الشمال وبسط سيادته حتى سواحل البحر المتوسط[1] وتقوم الأدلة على ثقافة عصره من الآثار الأدبية العظيمة التى تضم ألواح عقود ورسائل ملكية ٠ ولكن أهم أثر تذكارى لحكمه هو مدونة القوانين التى كشف عنها فى السنوات الأولى من هذا القرن علماء الآثار الفرنسيون فى سوس[2] ٠

وهذه المدونة – أحكام الاستقامة التى وضعها حمورابى ، الملك العظيم – نظمت فى دقة واحكام القانون المدنى فى بابل ويشمل الملكية والعقود والزراعة والتجارة وأعمال المصارف والزواج والتبنى والارث وكذلك سير المرافعات القضائية ، وتشهد على المكانة الهامة التى كانت بابل قد وصلت اليها فى تجارة الأمم ٠ وهى تكون مذهبا محكما لقانون الدولة ، ولو أن آثارا منها ترجع الى ما جرت عليه العادات الأولى مثل قانون حكم الله والقصاص بالمثل (العين بالعين) ، وهى تمثل تقدما عظيما بالقياس الى قانون العادات فى المجتمعات الأولى ٠ وقد حرم الانتقام بسفك الدم وقصر تطبيق شرعة المثل بالمثل (lex talionis) على اجراءات المحاكم المقررة ، والناس من كل الطبقات ، الغريب والمولود فى البلاد ، على السواء تنتظمهم حماية القانون ٠ ومن الطرافة بمكان بالغ أن تقرأ كيف ان أمثال هذه المسائل الحديثة كالاعفاء من الخدمة العسكرية وثبات الملكية والتعويض عن التحسينات الزراعية ورقابة تجارة الخمور ، وودائع المصارف ، والمسئولية عن ديون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال نظمها هذا الحاكم البابلى فى ختام السنوات الألف

---

(١) حمورابى (حامورابى وحيمورابى) يمكن أن يكون امرافل (Amraphel) سفر التكوين ١٤ : ١ ويضع روجرس تاريخ الأسرة البابلية الأولى من ٢٢٣٢ الى ١٩٣٢ وحمورابى من ٢١٣٠ – ٢٠٨٧ ٠

(٢) وقد كشف أيضا عن أجزاء منها فى مكتبة أشور – بنى – بال فى نينوى ، وقد ترجم المدونة القس س٠ هـ٠ و٠ جونس (Rev. C.H.W. Johns) « أقدم مدونة قوانين فى العالم » ٠

الثالثة ق·م· وبامتداد المدنية البابلية الى سوريا وفلسطين فان مدونة قوانين حمورابى والقانون الذى جاء بعد ذلك مستندا اليها وضعا طابعهما على تشريع الساميين الغربيين [١] وظلت المدونة نفسها نافذة المفعول زمنا مديدا فى العهد المسيحى وأثرت بعد ذلك على شرائع غزاة الشرق المسلمين · وغدا يبرز البابليون كقوة تعمل على بسط المدنية فى آسيا الغربية · وانتشرت فى كل ربوع الشرق لغتهم وعملتهم ومعايير أوزانهم · وكانت نساؤهم يستمتعن بمركز قانونى توفرت فيه الكرامة لهن · وكان فى قدرة الانسان أن يمتطى متن دابته فى أمان من الخليج الفارسى الى البحر المتوسط تحت حماية قوانين حمورابى ·

٨ — وبتقادم أعوام السنوات الألف الثانية ، حل الوهن بمملكة بابل ونهضت فى الشمال سلالة جديدة تصعد نحو العظمة ، على شواطىء دجلة ، حول نينوى · وهذا الشعب ، أبناء أشور أو الأشوريون وهم مستعمرون ساميون من بلاد بابل ومن رعايا حكامها فى بادىء الأمر ، أصبحوا غزاتها حوالى سنة ١٣٠٠ ق·م·

وقد كان البابليون شعبا من الزراع والتجار · وكان الدين أجل قدرا فى أوضاعهم العامة من فن الحرب · أما الأشوريون فعلى النقيض كانوا منذ البداية الى النهاية سلالة حرب · وكان ملوكهم قادة تحت امرتهم أشراف عسكريون · ولما كانوا أكثر شعوب الشرق الأخرى غلظة وقسوة فان تاريخهم هو سجل حروب وغزوات · وما اكتسبوه من ثقافة استعاروه من بابل · وكان التقدم الوحيد الذى حققوه هو البناء بالحجر كما كانوا يبنون بالآجر · وتسجل الثيران المجنحة الضخام والألواح المنقوشة فى المتحف البريطانى قصة متواصلة عن الحروب الوحشية ·

وقد كتب أحد الأمراء الأشوريين القدامى عن أعدائه : «ملأت بجسومهم وديان الجبال وقللها ، بترت رءوسهم وتوجت بها حيطان مدائنهم ، وجلبت العبيد والغنائم والكنوز ، أشياء لا تحصى » · وكان الأشوريين يخلصون ، فى تعصب ، لدينهم ، وكانت جميع انتصاراتهم باسم الههم أشور ولمجده ، ولكن لم يكن للكهنة الا أثر قليل فى استشاراتهم · وكان أمراؤهم أول من استبدل الاقتراع السنوى بجيش دائم وكانت انتصاراتهم الحربية ترجع الى حد عظيم الى ادخال الفرسان لشد أزر المركبات · ويشهد على قدرتهم على

(١) عن الموضوع الطريف عن العلاقة بين الشريعة الموسوية ومدونة القوانين البابلية ، انظر س· ا· كوك (S.A. Cook) « نواميس موسى ومدونة قوانين حمورابى » وأوجه التشابه ترجع بالحرى الى الأصل السامى المشترك لا التأثير المباشر وربما يرجع تاريخ تأثير بابل على شريعة العبريين الى السبى (القرن السادس ق·م) ·

تنظيم الامبراطورية ، طبقات الموظفين المحكمة ، وفرض ضريبة سنوية ثابتة على الأقاليم ، وبلغت قوتهم أوجها فى ثلاث حقب فى تاريخهم ، فى القرن الثانى عشر ، ومرة أخرى فى غضون القرن التاسع ، ثم فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع [١] .

وكان فى القرن التاسع أن نزل سوط الجيوش الأشورية على سوريا وكنعان وأطاح بمملكة اسرائيل ووصل الى شواطىء البحر المتوسط .

وسقطت السامرة مقر حكم المملكة الشمالية (الافرايمية) التى حاصرها شالمنسر الرابع ، أمام سرجون عام ٧٢١ . وقد رأينا كيف اجتاح سنخارب ، بن سرجون ، بعد ذلك بعشرين عاما ، مملكة يهوذا وهدد مصر بالغزو وكيف أن الغزو نهض به بعد جيل من الزمان ، خليفته اسرحدون الذى امتدت امبراطوريته من هضبة ايران حتى صحراء ليبيا والشرق الأدنى وشملت أيضا مرتفعات ميديا وجزيرة قبرص . وأعقب موته (عام ٦٦٨) ، تدهور [٢] قوة أشور ، فقبل ختام القرن ، هوت بها الحال الى عقد تحالف مع الميديين والبابليين الذين استردوا استقلالهم فى عهد نابوبلسر . وبسقوط نينوى (٦١٢) توارت امبراطورية أشور من التاريخ وسرعان ما طوت رمال بلاد ما بين النهرين سجلاتها .

ان مجدها تعفى وانقضى

من نينوى باقية الذكر .

الى أن أزاح بوتا (Botta) وليار (Layard) ، فى القرن التاسع عشر الميلادى الأحجار التى تقص قصة شراستها وغزواتها [٣] .

---

(١) الفترة الثالثة والأخيرة من عظمة آشور استهلها تجلات بليسر الثالث (Tiglath Pileser III (٧٤٦ ـ ٧٢٧) الذى غزا بابل ودمشق ، ثم واصلها شالمنسر الرابع(.Shalmaneser IV) (٧٢٧ ـ ٧٢٢) ، وسرجون (٧٢١ ـ ٧٠٥) وسنخريب (٧٠٤ ـ ٦٨٢) ، واسرحدون (Esarhaddon) (٦٨٠ ـ ٦٦٨) ، آخر ملك عظيم ، وفى عهد ابن اسرحدون ـ آشور بنى بال (٦٦٨ ـ ٦٢٦) الذى وضع قناعا رقيقا من الثقافة على وحشية الحكم الأشورى ، تدهورت قوة الدولة سراعا . ومكتبة آشور بنى بال العظيمة هى مصدر أساسى لعلمنا بتاريخ بابل وآشور .

(٢) ساعدت الغزوات السيثية (القمرية) (Scythian Cimmerian) على هذا التدهور . راجع الفقرة ٩٧ فيما يلى .

(٣) روستى (Rossetti) : (The Burden of Ninevel) . استقبل سقوطها بالابتهاج من الشعوب التى تحيط بها . ونقرأ فى ناحوم : ٣ ، ١٩ : « كل الذين يسمعون خبرك (أى سقوطك) يصفقون بأيديهم عليك لأنه على من لم يمر شرك على الدوام » . وسقطت المدينة أمام الميديين الذين استولوا على آشور الأصلية ، وأما بلاد ما بين النهرين والأراضى السورية ـ الفينيقية ، فقد أصبحتا من نصيب البابليين .

٩ - وتقاسم الظافرون الأسلاب فيما بينهم ، ما خلا مصر التى استعادت استقلالها فى سنة ٦٦١ ، بعد سنوات أربع من الخضوع . ولكن انتصارهم كان قصير الأمد. وقد انحطتقوة ميديا سراعا بعد موت مؤسسها قواكسرس (Cyaxares) أما قوة بابل فقد بلغت ذروتها فى عهد نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢) الذى أخضع سوريا وبيت المقدس وحمل أهل يهوذا الى الأسر فى بابل (٥٨٦) (١) .

وقد جعلت أبنيته ومعابده وقصوره وجناته المعلقة من بابل احدى عجائب الدنيا . ولكن قبل مضى زمن طويل حل بأسرته المصير المقدر ان آجلا أو عاجلا ، على كل امبراطورية شرقية. يهبط المحاربون الأشداء من المرتفعات المجاورة الى السهول الخصيبة ويظفرون بمستعمرة جديدة ويلمون شملها لتخضع فى دورها ، عندما يمتص الترف العصارة الحيوية فى قوة حكامها وشعبها ، لسلالة جديدة من الغزاة . ونجد الفرس الآن (٥٥٣) وهم زراع أولو نشاط ينزعون للحرب ، ومن الجذع الهندى - الأوربى ويسكنون الصقع الجبلى الى الشرق من الخليج الفارسى قد قاموا ضد أسيادهم الميديين تحت امرة زعيمهم قورش (Cyrus) وبعد انقضاء أربعة عشر عاما (٥٣٩) يغزون بابل . وتمر الفا سنة من السيادة واذا الامبراطوريات السامية تكون قد هوت ولون آخر من المدنية جديد ، من أصل آرى يبسط سلطانه على الشرق (٢) .

١٠ - وقد أدى امتداد سلطان الامبراطورية البابلية وسيادتها التجارية فى آسيا الغربية الى انتشار ثقافتها على مساحة أعظم مما كانت عليه الحال مع مصر . وكانت تلك الثقافة أدبية وليست فنية ولو أن قطع الأحجار الكريمة وصناعة النحاس والتطريز وما الى هذه الفنون ازدهر فى بابل وغدت حلل بابل مضرب الأمثال فى أرجاء العالم القديم . وكانت العمارة الوطنية من الآجر ولا شكل لها ، نسبيا ، وكانت المعابد ، وهى أبنيتهم الرئيسية ، تقوم على منصات مستطيلة وترتفع فى طبقات متتابعة الى علو

---

(١) كانت الأسرة المشار اليها ، على التحقيق كلدية . كان الكلديون محاربين أكثر مما كان البابليون ومع هذا كانوا مثلهم قادرين على تبوء مستوى عال من الثقافة . وقد أطلق الكتاب الاغريق اسم كلديا على بابل ، على وجه عام ، ومعناها فى الأصل أرض كلدى ، وهم ساميون كانوا يقطنون بالمكان الذى يقع حول مصبى الفرات ودجلة بين بابل والخليج الفارسى .

(٢) كان قورش ملك اتران فى عيلام ينتمى الى عشيرة فارسية من الأكمينيين، وفى سنة ٥٥٣ ، بعد أن غزا ميديا ، نادى بنفسه ملكا على الفرس . وفى سنة ٥٤٦ دارت الدائرة على كروسس (Croesus) ملك ليديا ، الذى كان قد شن الهجوم عليه وأصبحت كل آسيا الصغرى فى قبضة يدى قورش. ويرجح روجرز (Rogers) تاريخ سقوط بابل الى سنة ٥٣٩ .

عظيم . وبعد ذلك استخدم الآشوريون أحجارهم الوطنية وزينوا قصورهم بتماثيل هائلة وبالرسوم البارزة بروزا وطيئا التي يعهدها كل زائر للمتحف البريطاني . وتنهض ثلاث مسائل فيما يتعلق بتأثير الثقافة البابلية على أهم مدنيات الأزمن القديمة . أولا يوجد تشابه وثيق بين تقاليد البابليين الدينية وتقاليد العبريين كما جاءت مدونة في الفصول الأولى من سفر التكوين وفيها نقرأ عن جنة عدن والطوفان والتابوت وعن برج بابل وتبلبل الألسنة . وقد سرد العبريون كيف أن أجدادهم في مرحلة بداوة قطنوا مدة من الزمان بكلديا . ومن العسير أن نحكم حكما قاطعا عن مدى رجوع هذه القرابة في التقاليد الى الاتصال المباشر مع بابل في الأزمن البعيدة ، والى أي مدى للاختلاط الذي حدث بعد ذلك مع شعوب كنعان الذين تمثلوا ، على اليقين ، ديانة بابل المتاخرة والى أي مدى ، مرة أخرى ، للاتصال المباشر زمن الأسر [1] . ومهما يكن من أمر هذا ، فيما يتصل بتفصيلات التقاليد الدينية العبرية وفرائضهم ، تبقى الحقيقة الواقعة وهي أن تطور ديانة العبريين على أيدي النبيين الى ديانة توحيد روحية كان خلقا مبتكرا متميزا جاءت به العبقرية الدينية العبرية كما كانت فلسفات افلاطون وأرسطو التي جاءت بها عبقرية اليونان العقلية . ثانيا يوجد موضوع تأثير علم الفلك الكلدي على الفكر العلمي الاغريقي . لقد سجل الكلديون مشاهدات دقيقة عن مواقع الأجرام السماوية لمدة تربو على ألفي سنة . وتعرفوا الكواكب السيارة وسموها وقرروا ، بالطريقة التجريبية ، ترادف حدوث الكسوف والخسوف الدوري واخترعوا المذهب الستيني في الحساب [2] وقد صنعوا المزولة وهي أداة تبين بظلها ، الانقلابين والاعتدالين . ولقد عرف الاغريق هذه المعطيات وعلى غرار هندسة المصريين التجريبية ، حفزتهم على البحث العلمي . ولكن

---

(١) ينقسم العلماء في الرأي عن هذه المسألة ، والقصص المنوه عنها يحويها ذلك القسم من سفر التكوين الذي وضع في يهوذا فيما يرجح ، في القرن التاسع والمعروف باسم قصص يهوه (ى) . انها على التحقيق قبل السبي ، ويجب الرجوع بسببها الى أحد الأمرين الأولين اللذين جاءا في النص ، وفي أثناء السبي أثرت بابل مرة أخرى على الثقافة العبرية في الدين والقانون جميعا . وفي تاريخ آخر لاحق أدى امتزاج الشرق والغرب تحت الحكم المقدوني الى مزيد من تأثير الفكر الديني البابلي على الفكر الديني عند العبريين ويمكن اقتفاء أثر ذلك على سبيل المثال ، في أدب الرؤيا العبري ، في القرنين الأخيرين قبل الميلاد وكذلك في أفكار الغنوصية في بكور أزمنة المسيحية .

(٢) انظر بورنت (Burent) ، الفلسفة الاغريقية الأولى ، الصفحات ٢١ وما بعدها والتذكرات . وقد أقرت بحوث الأب كجلر (Father Kugler) حدود معارفهم الفلكية ، وفي بابل ومصر كان ما يسمى « علما » وقفا على طبقة الكهنة .

هنا أيضا ، مجرد الملاحظة ليس بعلم • ويتضح هذا عندما نبحث عن النفع الذى حققه الفلكيون البابليون من هذه السجلات • وبينما كشف الاغريق فى قرن واحد من الزمان السبب الحقيقى للكسوف والخسوف ، فان البابليين لم يواتهم أبدا حتى أن يصلوا الى التفسير المعقول لهما • لقد استخدموا معطياتهم لأغراض فلكية خالصة فاذا حدث أن كسوفا أعقبه ، مرة ، حرب مع عيلام ، فان حربا مع عيلام كان قد تنبىء به من حدوث الكسوف • والملاحظات مهما كانت دقتها ، التى ينتفع بها لمجرد أن تكون أساسا لاستنتاجات يجمح فيها الخيال ، لا يأتى من ورائها معرفة علمية [1] • وأخيرا كان للمدنية البابلية تأثير صادق فى حياة العالم الغربى الصناعية والتجارية والطريق العام التى كانت تسير حول شمال الصحراء السورية عبر آسيا الصغرى الى سرديس وساحل بحر ايجا كانت حلقة الاتصال بين الشرق واليونان • وعلى الأخص ، لاقت العملة والمقاييس البابلية فى الألف سنة الأولى انتشارا واسع النطاق فى آسيا وعالم البحر المتوسط• واستخدم الهنود والاغريق ، على السواء ، المنا البابلى (Mna) الاغريقى كمعيار للوزن• وعلى هذا فمنذ زمن باكر فى بابل الى الشرق كما فى غرناطة الى الغرب ولج السامى دوره التاريخى ، فى تاريخ البشرية الاقتصادى •

٤ ـ الحيثيون والساميون الغربيون

١١ ـ رأينا كيف أن الثقافة السامية وضعت طابعها على مدنية مصر واستغرقت مدنية السومريين الأوائل فى وادى دجلة ـ الفرات • وكانت الحال على هذا المنوال فى الاقاليم المحصورة بين بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط • وكانت لغة ودين وثقافة سوريا وكنعان سامية منذ أزمن بعيدة جدا ، ويمكننا أن نميز فروعا متباينة من هذه الأرومة : الساميين الجنوبيين فى بلاد العرب واثيوبيا ، والساميين الأواسط فى كنعان ، والساميين الشماليين (الأراميين) فى سوريا والشرقيين فى بابل وأشور ، ولكن كلهم على السواء كانوا أولاد بيت عربى واحد وأواصرهم المتبادلة تبرز فى وضوح كأواصر العديد من الجماعات التيوتينية فى أوربا القرون الوسطى وأوربا الحديثة • وعلينا أن نتحدث الآن هنا عن الفرعين الشمالى والأوسط ويشمل الأول شعوب سوريا والثانى الفينقيين ، والقاطنين بكنعان ومن بينهم العبريون • وهذه جميعها ، بالنظر الى موقعها الجغرافى بين امبراطوريتين

---

(١) يجب أن نقيم حدا يفرق بين علم التنجيم غير العلمى عند الكلديين الأوائل و(١) الأثر المتأخر لعلم التنجيم ذاك ، وعلى الدين الاغريقى الشعبى، و(٢) التطور العلمى لعلم الفلك تحت التأثير الاغريقى فى بابل ، وكلاهما لاحق للغزو المقدونى •

عظيمتين ، تقوم بدور الدول الحاجزة ، ولما كانت الوسيطات فى التجارة وبيادق اللعبة السياسية لجارتيهم اللتين تفوقانها قوة ، فان تاريخها تقرر مصيره ، للخير أو الدمار ، علاقتها باشور ومصر .

١٢ – وبين هذه الوسيطات قامت امة ، تكاد على التحقيق الا تكون سامية ، بلغت ، طوال قرون كثيرة ، مرتبة دولة تمت لها القيادة فى آسيا الغربية . وتبين سجلات الألف سنة الثانية ، المصريين (فى عهد الأسرة الثامنة عشر) وبعد ذلك ، هونا ما ، الأشوريين يصاولون على الفرات الأعلى شعبا يطلق عليه اسم خيتا أو الحيثيين [١] . ان أصلهم يحيط به الغموض ونقوش كتابتهم التى اتخذت أشكال صور لم تفسر بعد وتاريخهم يزخر بالمشاكل التى تنتظر حلا . ويظهر من المحتمل أن بعضهم ، ان لم يكونوا كلهم ، كانوا يتحدثون بلغة هندية – أوروبية ودخلوا آسيا الصغرى من الدانوب الأدنى وجلبوا معهم ثقافة ولغة خاصتين بهم، أتت عليهما بالتحوير، بعد ذلك ، المؤثرات السامية التى كانت سائدة فى أرجاء الشرق الأوسط.[٢] وكان أول مركز لما استعمروا من أراض ، هضبة كبدوكية (بلاد القباذق) حيث كشف عن الكثير من الآثار الحيثية ، ثم اتسع نطاقها حتى شمل كيليكية وشمال سوريا وشعوب غرب آسيا الصغرى (أفروجيا وليديا) [٣] حدث هذا بين عامى ١٧٠٠ و ١٢٠٠ ويظهر أنهم حوالى هذا التاريخ الأخير ، فقدوا سيادتهم على آسيا الصغرى والطرق الى تجارة البحر المتوسط والبحر الايجى ، وربما كانت ترتبط هذه الحوادث بالغزوات الشمالية فى منطقة بحر ايجا وسقوط سيادة كريت البحرية . ومنذ هذا الوقت فصاعدا حول الحيثيون السوريون وأسياد آسيا الصغرى الجدد (ربما كانوا أفروجيين) نشاطهم الى الشرق ، والجنوب الشرقى وقد اجتذبتهم موارد ما بين النهرين

---

(١) انهم يظهرون باسم خيتا فى المدونات المصرية وختى (Khatti) فى الأشورية وفى سفر التكوين « أولاد حث » (التكوين ٢٣) وفى غيره من أسفار العهد القديم باسم الحيثيين .

(٢) بعض الكتابات المسمارية من بوغاز – كيوى (عاصمتهم فى كبدوكية) سامية وبعضها غير ذلك . كانت السامية اللسان الشائع فى التواصل الدولى فى الشرق . وقد وجدت النقوش الهيروغليفية فى آسيا الصغرى وكذلك فى شمال سوريا ويظهر أنها جاءت متأخرة عن الخط المسمارى ، ولقد خطت الدراسة الجدية للآثار الحيثية خطوات عظيمة فى النصف قرن الأخير . وكان روادها رايت (Wright) (١٨٧٢) وسايس (Sayce) ، أنظر كاولى (Cowley) (الحيثيون) محاضرات اشفايش ١٩١٨ (Schweich Lectures)

(٣) وجدت آثار حيثية فى ايوك فى شمال آسيا الصغرى حتى حمص فى سوريا ، ومن الفرات فى الشرق حتى أراضى ساحل ايجة فى الغرب .

الغنية . ومن مركـز رياستهم الجـديد فى قرقميش [1] فى أعـالى الفرات أصبحوا يسيطرون على الطرق البرية العامة بين الشرق والغرب . وتعاملوا على قدم المساواة مع مصر وأشور كليهما . ولعدة اجيال رأسوا تحالفا أوصد الطريق أمام توسع الساميين ، الساكنين بلاد ما بين النهرين ، صـــوب الغرب وفى القرنين التاسع والثامن انخذلت قوتهم تحت وطأة جيوش أشور وأوقع عليهم الضربة القاضية كروسس (Croesus) ملك ليديا فى الغرب ، قبل مجىء الفرس بزمن وجيز .

١٣ — واذا تجاوزنا الولايات السورية — وهى سامية دون نزاع — التى كانت تقع على طريق القوافل من أشور الى البحر المتوسط وأصابت حظها من الثقافة من مصر بصفة جزئية ، ولكن أساسيا من البابليين ، فاننا نصل الى الأراضى الساحلية فى كنعان الشمالية حيث كان يستوطن ، على الأقل منذ السنوات الألف الثالثة ، الفينيقيون الساميون . وكانت حياتهم بأجمعها تتركز فى التجارة البحرية . ولما كانوا يستحوذون على رقعـة من الأرض ضيقة ، في موطنهم ، فقد أقاموا الحصون والمحطات التجـارية فى محـاذاة الطرق العامة الداخلية وخاصة حول شواطىء البحـر المتوسـط . وكانت صيدا فى الأزمن الأولى ، المدينة الفينيقية الهامة .

وحوالى القرن الثانى عشر تخلت عن مركزها لصور . وانا نقرأ فى العهد القديم عن التحالف الذى عقد فى القرن العاشر بين داود وسليمان وحيرام أمير صور . وكان الفينيقيون يسكنون دول — المدن ، نحت حكومة ملكية ، وبهذا كانوا يستبقون ، ولو فى نتـائج جـد متباينة ، دول — المـدن فى العالم الهلينى . ويقع عصر القوة البحرية الفنيقية العظيمة وجلائل أعمالها التجارية بين سنتى ١٢٠٠ و٨٠٠ فى أعقاب سقوط قوة منويا البحرية فى البحر المتوسط وقبل نهوض اليونان . وقد كانت سفائن فينيقية التجارية العظيمة تبحر صوب الغرب الى ما وراء عمد ملقارت (جبل طارق) فى عرض المحيط الاطلنطى ، واستوطنوا تارشيش (طارطسوس (Tartessus) على مقربة من قادس (Cadiz) وجابوا ساحل مراكش بحرا وتوغلوا أيضا صوب الشمال الى البحر الأسود ، وأينما ابحروا ، كانوا يقيمون المستعمرات ، فى صقلية واسبانيا وافريقيا وأقدم ما جـاءت به المـدونات كانت أوطيقـا فى افريقيا الشمالية (حوالى ١١٠٠) وأبعدها صيتا كانت قرطاجنة وبترادف الزمن نبذت قرطاجنة اعتمادها على المدينة وطنها ، صيدا وبسطت سيادتها

---

(١) جاء أول ذكر لقرقميش فى المدونات المصرية حوالى سنة ١٤٨٠ وكانت مركـز دولة الحيثيين بين القرنين الثانى عشر والتاسـع . يجب أن نذكر الحيثيين اصلا كحاجز بين بابل وأشور من جانب وآسيا الصغرى وبحر ايجه من الجانب الآخر .

على الأراضى التى تجاورها فى أفريقيا وأنشأت مستعمرات لها ووضعت حكرا على التجارة فى مياه البحر المتوسط الغربية . ولاتزال باقية بين أيدينا نسخة اغريقية ترجع الى القرن الخامس لرحلة قام بها حنو القرطاجنى الى ساحل أفريقيا الغربى .

ومنذ القرن السابع كانت قرطاجنة مشتبكة فى صراع تجارى لا ينقطع مع المدن الاغريقية فى صقلية وفى الغرب استمر حتى القرن الثالث عندما استدعت الحال مجابهة قوة روما التى كانت تسير فى صعود . وسنعود لقصة هذا الصراع فى فصل آت.وقد وجد الفينيقيون فى مناجم الفضة فى أسبانيا مصدرا لثروة هائلة . وكان أحد نتائج هذا الكشف هو انخفاض قيمة الفضة بالنسبة لقيمة الذهب ، وقد كانت حتى ذلك الزمن يعسر العثور عليها فى آسيا وافريقيا ، كمعدن له أعلى قيمة . واحتكر الفينيقيون أيضا حينا من الزمن ، صبغ الأرجوان الذى يستخرج من الرخويات البحرية . وبعد القرن الثامن فقدت فينيقية استقلالها . وفى زمن لاحق أمدت أسيادها الجدد الفرس بالأسطول . وكنا نغتبط أن يكون لدينا مزيد من المعرفة عن الاقتصاد الداخلى لهذه المدن العظيمة حيث كان تصادم المصالح مصدرا للقلق الدائم . ومع كل ما وصلوا اليه من حذق فى التعدين وصناعة المعادن وجسارتهم فى البحار ، فان الفينيقيين لم يكونوا مبتكرين . لقد كانوا الوسطاء العظام فى زمنهم وكان عملهم ببساطة ، أن يوزعوا منتجات البلدان الأخرى على شعوب عالم البحر المتوسط .

١٤ — ويدين سكان كنعان الساميون ، الى جنوب فينيقية بأهميتهم التاريخية لما كان يربطهم من آصرة وثيقة مع العبريين ، بعد الفترة التى امضاها العبريون على تخوم مصر ، وانقاذهم على يد موسى (عليه السلام) فى الأسرة التاسعة عشرة ، تجولوا فى صحراء سيناء الى أن نجدهم يستقرون فى قادش فى جنوبى كنعان . وسنرى فيما بعد كيف أن موسى كان قد أوجد أمة عبرية باقراره عبادة يهوه كدين قاصر على الأسباط العبرية . وبعد ذلك ببضعة أجيال ، عندما دخل العبريون كنعان ، تشبعوا بثقافة السكان الأولين وتحت التأثير الكنعانى ، أبدلوا عادات البداوة بحياة زراعية مستقرة، وفى ختام الألف سنة الثانية نجم عن الكفاح مع الفلسطينيين وهم شعب غير سامى وربما كانوا مهاجرين من كريت ، قيام النظام الملكى فى عهد شاؤل البنياميني واستهلال حقبة قصيرة من الرخاء الدنيوى . واحصم داود الشعوب التى تربطها وشائج القرابة ، مواب ، وادوم ، وعمون ، والممالك السورية الى الشمال ، وفى عهد خلفه سليمان ، نمت التجارة وصار للعبرانيين اتصال أكثر قربا بالثقافتين المصرية والبابلية ، واصبحت الحياة أكثر ترفا وحجبت ، ببساطة ، العادات القديمة بمدنية البلاط المضرية . وبموت سليمان (حوالى ٩٣٣) أعلن الاسرائيليون

الشماليون يقودهم سبط افرايم استقلالهم عن الجنوب (يهوذا) • ودامت الملكية المنقسمة فى أقدار متقلبة ، مدة تزيد على مائتى عام ، وقامت المملكة الشمالية ، وكانت أقوى المملكتين ، بدور عظيم فى السياسة الدولية فى عهد بيت عمرى الذى سجلته ألواح أشور ، ولكن كان من الواضح أن الموضوع موضوع زمن ليس غير اذ أنهم وقعوا تحت وطأة جيوش الشرق • وفى سنة ٧٢١ سقطت السامرة ، أمام سرجون الأشورى وتوارت عن الوجود المملكة الافرايمية • وأنقذ يهوذا ، فترة من الزمان ، اعتراف ملوكها بولائهم فى الوقت المناسب ، وفشل سنخارب فى مصر (٧٠١) الى أن حلت بابل محل أشور كدولة دانت لها السيادة فى الشرق • ثم على يدى نبوخذ نصر حلت ساعة مصيرها المحتوم (٥٨٦) واستطال زمن الشعب العبرى فى الأسر عند انهار بابل الى أن حملهم قورش مؤسس الامبراطورية الفارسية على العودة الى استيطان موطنهم القديم (٥٣٨) وكان فى هذا العهد أن العبريين — وقد أصبحوا على عقيدة دينية محضها الألم وشريعة تجددت تحت تأثير المعلمين الذين ينزعون الى النبوة ، ولو أنه كان لهم شأن يسير فى المجاملات الدولية الدنيوية — استهلوا رسالتهم الروحية للبشرية •

وسنتحدث فى الفصل القادم عن عبقرية العبريين فى الدين وعن أثرهم فى مدنية العالم •

٥ — كريت

١٥ — ألقينا نظرة شاملة على مصر وبابل وأشور وكنعان وسوريا حتى النصف الأخير من القرن السادس ق• م• عندما طوتها امبراطورية فارس القوية بين حناياها • ولكن لايزال علينا أن نتحدث عن سلسلة أخرى من مدنيات قامت فى كريت وجزائر بحر ايجا وشواطئه ، لقد سبق أن ألمعنا الى الغارات التى كان يشنها جوابو البحار على مصر فى زمن الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين • ترى من كان شعوب البحر هؤلاء الذين تسميهم الآثار المصرية (داردنويين واقيوشيين) وهما اسمان يقاربان اسمى دردانيين (= الطرواديين) واخائيين ، اللذين جاءا فى هومر ، وثمة طرافة خاصة يلمسها المتتبع لتاريخ هذه السلالات الايجية الأولى علاوة على طرافة الكشوف العجيبة التى رفع النقاب عنها علماء الآثار فى السنوات القريبة ، فى أنهم كانوا السابقين الأولين للاغريق • فمنذ سبعين سنة خلت ، لم يكن يعرف الا النذر اليسير أو لا يعرف شىء ما على التحقيق ، عن حياتهم وتاريخهم • وكان الرائد لعلم آثار ايجا هو هينريش شليمان (Heinrich Schiemann) لقد اثارت خياله وهو صبى فى حانوت تاجر فى المانيا ، القصص التى جاءت فى أشعار هومر ، فعلم نفسه الاغريقية وأصاب نجاحا فى العمل واكتنز مالا وفيرا وكان هدفه الأوحد هو أن يحقق بالبحوث فى موقع طرواده

الهومرى صدق قصص الالياذة وفي حصارلك فى الطرواد (شمال غرب آسيا الصغرى) ، موقع طرواده كما ذهبت اليه الشائعات . وفى ميسنيا (Mycenae) وفى طرونس (Tiryns) ، فى بلوبونيسس ، أزاح التراب عن معالم مدنية عظيمة يرجع تاريخها الى الالف سنة الثانية قبل الميلاد [1] واقتفى العلماء من جميع الامم خطواته ويأتى كل عام بمزيد على كنوز المعرفة الوفيرة التى كشف عنها على هذا المنوال ، عن حياة منطقة ايجا الأولى وثقافتها ، ويمكنا هنا فقط أن نرسم الخطوط المجملة لبعض النتائج الرئيسية التى كشف القناع عنها .

١٦ — فى غضون السنوات الألف الثالثة قامت فى جزيرة كريت مدنية باهرة متباينة الأشكال اتسع نطاقها على مدى الزمن حتى شمل جزر بحر ايجا ورودس وقبرص وشبه جزيرة اليونان والجزائر الايونية وتشعبت أفرع لها بعد ذلك فى سوريا الشمالية وصقلية وفى غربى البحر المتوسط وأدت الى التواصل مع فلسطين ومصر . واطلق عليها اسم منوية (Minoan) باسم منوس (Minos) واضع القوانين وصديق زيوس (Zeus) الذى جاء فى الأساطير الاغريقية وتوجد ذكرى سيادته على البحار محفوظة فى صفحات ثقوديدس (Thucydidos) [2]

والسلالة التى قطنت بكريت فى أزمن ما قبل الهلينية لم تكن آسيوية ولكنها من سلالات البحر المتوسط وتنتمى على ما يرجح كثيرا الى الأرومة غامقة اللون طويلة الرأس ، قصيرة القامة الناحلة الجسم التى كان موطنها الأصلى فى شمال أفريقيا . ان كريت حلقة اتصال طبيعية بين أوربا وآسيا وأفريقيا وأصبحت على الزمن مركز امبراطورية بحرية تجارية قوية . وكانت مدنيتها لها لون يتميز عن مدنيتى مصر وبابل وبلغت ذروتها أولا عند استهلال الألف سنة الثانية (الفترة المنوية الوسطى الثانية) عندما كانت الأسرة الثانية عشرة تتولى الحكم فى مصر ومرة أخرى ، بعد ذلك ببضعة قرون (الفترة المنوية المتأخرة) ، فى وقت معاصر للأسرة الثامنة عشرة المصرية . وعلى هذا فقد ظل ازدهارها متواصلا قرابة ٦٠٠ عاما .

---

(١) تعرف شليمان (Schliemann) طرواده الهومرية على أنها الثانية (من أسفل) من سلسلة المدن التى كشف عنها فى حصارلك . وفى الواقع ، اتضح أن هذه المدينة ترجع الى تاريخ سابق كثيرا (حوالى ٢٠٠٠) وأن المدنية الهومرية كانت المدنية السادسة او ربما أوائل السابعة فى السلسلة (حوالى ١٤٥٠ — ١٢٠٠) .

(٢) ثقوديدس (Thuc) — ١ ، ٤ — قابل هيرودوت ١ ر١٧١ـ١٧٣ . ينسب قدماء الاغريق الكثير من قانونهم ، (مثلا تشريع لكورجس (Lycurgus) فى اسبارطه) وفنهم (أسطورة الصنع ديدالوس (Daedalus) أول طيار ، الذى أقام اللبورنت لمنوس ، والتماثيل التى تتحرك من تلقاء نفسها) والدين (ولدزوس فى مغارة دكتى (Dicte)) الى أصل كريتى .

ولقد كشفت الحفائر الحديثة فى كنوسوس (Cnossus) وفايسطس (Phaestus) وغيرهما من الأمكنة عن قصور ملكية رائعة تزخرفها النقوش البارزة المنحوتة والصور وتحوى كنوزا من صناعة المعادن، من الذهب والبرنز والنحاس ودمى من العاج والصينى وجواهر محفورة وخزفا فى بدع نادر، وكلها تقدم الأدلة الكافية على المستوى العالى الذى وصلت اليه الثقافة والتهذيب. وقصر كنوسوس بما فيه من تيه الغرف، طبقات بعضها فوق بعض والمجازات والساحات، هو فى ذاته مدينة وهو قصر التيه (اللبورنت) الحق، الذى كان فيه الأسرى، كما جاء فى الأسطورة واستبان الآن أنها سجلت صدقها التاريخى، يقادون فى ميدان مصارعة الثيران كقرابين للوحش المقدس الذى كان معبود كريت. وكان نظام المصارف والمرافق الصحية خليقين بالقرن العشرين بعد الميلاد. وعندما استعرضت أمام عالم فرنسى أردية النساء فى صور الحيطان هتف: « ولكن انهن لباريسيات » mais ce sout des Parisiennes! ولقد صورن فى لبوس محكم بذراعات مطرزة قصيرة وأردان واسعة وقمص طوال الشق من الأمام ونطق صغار الصدار خيطت عند أعلى حوافها شرط أو اتخذت شكل ناقوس، وبنيقات عالية كتلك التى كان يتخذنهن سيدات الحاشية فى انجلترا على عهد اليصابات، وكانت شعورهن مزرفنة (مجدونة كالزرفين وهو الحلقة) ومجعدة ولها أربطة من الدانتلا. وكن يلبسن قبعات مظلة تزينها شرط وورود. وكان الرجال يحلقون شعر الوجه ولهم شعر طويل مضفور فى حلقات وله عقائص على الكتفين ويرتدون سراويل وأحذية عالية متينة ويتمنطقون بأحزمة عند الوسط وعلى غرار النساء يتزينون بالعقود والدمالج.

وكان مهندسو كريت المعماريون والبناءون بالحجر ينافسون أولئك الذين كانوا فى ممفيس وفى طيبة. وكان الكريتون أول شعب معروف فى أوربا استخدم الكتابة، وقد وجدت نقوش فى حروف تشبه الهيروغليفية وحروف خطية على السواء، بوفرة.. وعندما يثبت أن الجهود التى بذلت لتفسيرها حققت نجاحا فسنعلم المزيد من التاريخ المفصل لعالم البحر المتوسط الباكر. ومع هذا فان ما نعلمه علم اليقين، هو أنه قبيل منتصف السنوات الألف الثانية كانت ثقافة متناسقة الشكل قد مدت رواقها الى حد بعيد فيما يلى تخوم المنطقة الايجية، والى مراحلها المتأخرة ينتمى كشوف شليمان فى طرونس (Tiryns) وميسنيا (Mycenae) ومن المحتمل أنه عندما هوت كريت من عليائها ورثت ميسنيا موطن أجاممنون الهومرى نصيبا من قوتها البحرية. ومهما يكن من أمر هذا، فانه توجد أدلة واضحة على أنه فى تاريخ يقرب من سنة ١٤٠٠ حلت بالمدينة المنوية فى كريت جائحة اطاحت بها. وتقص أطلال قصر كنوسوس المتفحمة قصتها. ويرجع الكثير الى فعل الزلازل، ولكن الغزاة الهمج من الشمال كانوا يتداعون فى جماعات، متواليات على العالم الايجى —

وكانوا محاربين أجلافا يتفوقون بالعدة والسلاح ، وأخيرا ، بمعرفة الحديد ، ولم يعنوا كثيرا بالثقافة الرائعة التى اطاحوا بها ومن المحتمل جدا أن هؤلاء القوم ، الذين يتحدثون لغة هندية ـ أوربية كانوا سلفا للاغريق الذين يعرفهم التاريخ . وجاء فى أعقاب هذا عصر ظلام استطال زمنه الى أن نجم عن امتزاج بقايا المدنية القديمة بطبع وعبقرية الأسياد الجدد مولد ثقافة اليونان التاريخية [1] .

١٧ ـ كانت شواطىء آسيا الصغرى الايجية كما سنرى وشيكا ، اغريقية من أبعد الأزمنة . وعندما قامت المدن التجارية الغنية فى القرنين الثامن والسابع ق.م كانت هدفا طبيعيا لحسد أمراء الأصقاع الداخلية . ان آسيا الصغرى هضبة تنحدر منها الوديان الى الساحل الغربى تعزلها سفوح الجبال وقد حددت طبيعة البلاد من جبال وسهول تاريخها . ان المدن البحرية ، وقد عزلت الجبال الواحدة عن الأخرى ، كانت فريسة سهلة للغزاة من الهضبة الداخلية . وفى السنوات الألف الثانية كان الحيثيون ومن يتبعونهم على الهضبة قد وسعوا نطاق سلطانهم حتى السواحل الايجية . وفى القرن الثامن اجتاح القمريون [2] الرحل الهابطون من سهول السهوب (Steppes) فى شمال البحر الأسود ، آسيا الصغرى وعملوا فى المدن الاغريقية المكتية من البحر تخريبا ونهبا . وقد دمروا مملكة فروجيا القديمة وضربوا دولة ليديا الفتية ضربة قوية . وكانت ليديا فى ذلك الوقت (من القرن الثامن الى السادس ق.م) الدولة الحاجزة بين العالم الاغريقى وامبراطوريات الشرق العظيمة . وقامت أسرة ليدية جديدة تنقف أمراؤها بالثقافة الاغريقية وأعطوا الاغريق مقابل ذلك ما يميز فى المعتاد بأنه اختراع الليديين المبتكر الوحيد ، العملة ذات الطابع التى حلت محل المعدن ذى الوزن الذى لا يحمل طابعا والذى

---

(١) انظر ما يلى فصل ٤ : يذهب بعض الثقاة الى أن اليونانيين ورثوا ثقافتهم وحتى لغتهم من المنويين (Minoans) (أنظر برنت (Burnet) (Early Greek Philosophy) الصفحة ٢ وما يليها) واحياء الدين الشعبى (وهو يتميز عن فرائض العبادات الأولمبية) فى القرنين السابع والسادس يشير الى احياء التقاليد الدينية المنوية التى كانت تتركز فى عبادة الهة فى العالم السفلى . وكشوف كريت فى القرن الحالى سترتبط أبدا باسم سير أرثر ايفانس (Sir Arthur Evans) .

(٢) ربما كان هؤلاء القمريون بدوا من شمال البحر الأسود . كان العهد عهد غزوات من الشمال . وفى القرن السابع اجتاح السيثيون (Scythians) الذين طردوا القمريين (Cimmerians) سوريا وكنعان (راجع هيرودوت ١ : ١٠٣ وما يليها وتنبوءات ارميا وصفنيا التى أشير اليها فى الفصل التالى ٩) .

كانت تتداوله الثقافة البابلية وغيرها من الثقافات الأولى[1] ، وحوالى عام ٥٦٠ ق٠م أصبح كروسس ملكا على ليديا ٠ وطالما كان يخضع الاغريق على سواحل ايجا فى آسيا ، فانه كان يحكمهم حكما متحررا ووضع تحت رعايته الدين والثقافة الاغريقيين ٠ وعندما قهر قورش الفارسى ميديا (عام ٥٤٩) شن كروسس دون أن ينظر معاونة مصر وحلفائه الآخرين ، الهجوم على قورش وأغرمته الهزيمة مملكته (٥٤٦) ٠ وصحب سقوط ليديا خضوع الاغريق الآسيويين وأصبحت امبراطورية فارس تمتد من الهندوكوش الى بحر ايجا ٠

٦ - امبراطورية فارس

١٨ - فى أزمن ما قبل التاريخ ترك فرع من الأسرة الهندية - الأوربية موطنهم الأصلى فى أراضى السهوب شمال قزوين وهاجر فى اتجاه جنوبى شرقى ٠ ولقد سار بعضه عبر ممر خيبر الى البنجاب بينما استقر البعض الآخر فى شرق الهضبة الايرانية العظيمة٠وفى بواكير السنوات الألف الثانية، يممت هذه القبائل الايرانية (سمت نفسها آرية ومن هذه التسمية اشتق الاسمان المحليان آريا وايران) صوب الغرب الى المرتفعات التى تحف سهول ما بين النهرين وكلديا ٠ وبعد ذلك بألف سنة ، نجد الميديين الى الجنوب من بحر قزوين والبرتيين فى خراسان والبكتريين فى منحدرات الهندوكوش الشمالية والفرس فى الجبال التى تشرف على الخليج الفارسى الى الشمال الشرقى ٠ وكانت سلاسل جبال الهندوكوش وسليمان تقوم حاجزا من جهة الهند ٠ ولقد أحضر هؤلاء الآريون معهم الحصان وهو من نتاج سهول السهوب ولم يكن للبابليين أيام حمورابى عهد به ولكن استخدمه الأشوريون كعدة حرب [2] ٠ ولقد حملوا معهم كذلك دينا متميزا ، يتناقض تناقضا يسترعى البال مع دين جيرانهم الساميين المستوطنين السهل وكان يختلف أيضا - على الرغم من أساس مشترك دأب على المحافظة على نفسه بين الفرس الى يومنا - عن دين الآريين ذوى قرابتهم فى الهند [3] ٠وبينما أخضعت العقيدة الهندية

---

(١) من المحتمل أن العملة المطبوعة قد ترجع الى تاريخ أسبق وربما كان منشؤها فروجيا (Phrygia) وعلى أية حال فان أصلها يتصل بطريق القوافل العظيم الذى كان ينحدر من هضبة آسيا الصغرى الداخلية الى ساحل ايجا وكما جاء فى الأساطير بحقل الذهب فى سردس Sardis .

(٢) كما يدل على هذا الاسم البابلى للحصان « جحش الشرق » ٠

(٣) بين العناصر المشتركة عبادة ميترا وهو اله الشمس وذابح المارد (اندرا الهندى) وعبادة النار والاعتقاد بشرعة قدر يتفوق على الالهة والانسان ٠ أنظر ف٠كيمون (F. Cumont) - ص١-٣ (Les mystères de mithra) وكان وارونا أعظم اله خلقى فى مجمع الالهة الفيدية تطورا موازيا لاهور مزدا ومن أصل آرى مشترك ٠

كل الآلهة الأخرى الى اله أعظم أوحـد فان الدين الايرانى كان له مظـاهر ثنائية [1] وكان مجمع آلهتهم يأتلف حول قوتين لهما السيادة ، الواحدة قوة الخير وهى ايجابية خالقة ومصدر النور والحياة والأخرى قوة الشر وهى الظلمة والموت، وهي سالبة ، وكانت القوتان تسميان على الولاء، أهورامزدا(أورمزد) وأهريمن • والصراع خارق العادة ، بين هاتين القوتين الالهيتين غدا ينعكس فى مجرى تاريخ البشر • وبين الاثنتين ، يقف الانسـان وقـد وهب الحرية الخلقية التى يتوقف علىاستخدامها مصيره فىالعالم الذى يقع فيما يلى اللحد• وكان الدين الايرانى ينزع الى آداب السلوك ، ولم تكن آلهته كآلهة الآريين الهنود • معان مجردة تصورية ولكنهم كانوا شخوصا خلقيينولم يكن هدفالجهد الانسانى الاندماج التألهى فى مطلق وحدة الوجود ولكن سـعادة أبدية فى السماء حيث يحكم أهورا مزدا وما كانت الحياة الانسانية وما يلازمهـا من فروض اجتماعية وأفراح وأحزان بخدعة ولكنها المجال للعمل فى همة والقيام بالواجب الخلقى • وفى اعترافه بقيمة الثقافة الدنيوية واتجـاهه الى غـاية يكون فيها الخلاص الفردى وليس الخلاص القومى ، فان دين ايران كان يختلف عن دينالعبريين وان تشابه معه فىتعليمه الخلقىالرفيع•وكانالفرسيتسامحون مع الديانات المحلية عندما لا تناصب دينها العداء ومع هـذا فان عقيـدتهم انتشرت صوب الغرب بتوسـع امبراطوريتهم • وفى نقـاوته كما نهض به النبى زرداشت ، كان دون ريب ، عقيـدة القلة أكثر من أن يكون عقيـدة الكثرة ، وكان من شأنه ، بين أيدى المجوس (وهم طبقة من الكهنة) أن يتدهور الى فرائض رسمية بينما أصبحت الجماهير تفسر تعليمه فى صـيغ ديانة ما قبل زرداشت القديمة [2] • وكان مرجع قوته الحقيقية الى اصراره على المسئولية الخلقية • ويستعرض فرس التاريخ نوعا نبيلا من الخليقة ، لقد

---

(١) ولكن براهما الأعلى فى دين التوحيد الهندى كان لا سبيل للوصول اليه وكان الناس مساقين الى استرضاء الهين أقل شأنا هما سيوا ووشنو •

(٢) عاش زرداشت على الراجح حوالى عام ٦٥٠ ق•م وتحوى الأسفار الفارسية المقدسة التى يطلق على مجموعها لفظ أوبتا ، الجاتات وهى ترانيم ربما كتبها النبى نفسه • ويقرب المذهب الزرداشتى أن يكون توحيـدا • وكانت عبادة النار لها شأن عظيم اذ كانت النار أنقى مظهر لأهورا مزدا ، ويظهر أن المجوس الأوائل كانوا معادين لمذهب زرداشت ولم يحفل مخبر هيرودوت بهم كثيرا • ولقد أثرت عبادات فارس ، كعبادات مصر وبابل ، فى الدين الغربى أول ما أثرت فى العهد الذى أعقب غزوات الاسـكندر • وفى العهد الرومانى ، كما سنرى فيما بعد ، كانت عبادة ميترا جد شائعة فى عالم البحر المتوسط وأثرت الثنائية الفارسية عـلى المسيحية فى الشرق • انهـا أصل الاعتقاد فى شيطان شخصى • أنظر كيمون Cumont فى الكتـاب السابق الاشارة اليه ، المقدمة ص ٦ ــ ٨ ، وفصل الله (عند الايرانيين) ، فى قاموس التوراة لهيستنج (Hastings' Dictimary of the Bible)

ولدوا حكاما للناس وكانوا أولى كبرياء ومسلك يتسم بالأبهة والفخامة محبين للولائم والصيد وذوى انسانية فى الحرب ولهم أفضال على الشعوب التى عنت لهم وعلى أهبة أن يقابلوا الأفكار الأجنبية بالتسامح أو قد يستحوذون عليها • ولما غزا مقدونو الاسكندر فى القرن الرابع امبراطوريتهم كان يمكنهم أن يروا فى أشراف الفرس ، وهو فى الواقع ما كان حقا ، أنسباءهم القدامى • ولقد أظهر الفرس فى الفن وفى العمارة ، القليل من الابتكار وكانوا ينقلون عن النماذج البابلية • أما التجارة فقد حقروها لأنها كانت غير خليقة بالرجل الحر • وكانت الجندية والزراعة والفلاحة أعمالهم التقليدية • وكان الكذب أعظم الجرائم شناعة • ولقد لخص هيرودوت تدريب شبابهم فى الركوب والرمى بالقوس والصدق فى القول (١) •

١٩ — ولقد اتخذت فاجعة الامبراطورية الفارسية السمت الذى أصبح مألوفا فى تاريخ الشرق ، الغزو فالتنظيم والاحتفاظ بالقوة احتفاظا لا يريم فالتدهور فالسقوط ، تتابع كلها فى سلسلة منطقية • ويمثل قورش المؤسس وأحد بناة الامبراطوريات العظام ، فى التاريخ ، فترة الغزو • وعند موته عام ٥٢٨ ، كانت ممتلكاته تمتد من ايجا فى الغرب الى هندوكوش فى الشرق ومن قزوين فى الشمال الى صحراء العرب فى الجنوب • ولقد خلع ملك فارس على نفسه لقب شاهنشاه (ملك الملوك) • ولم يكن توكيده هذا لدعواه فى امبراطورية عالمية ، دون أساس • لقد كان قمبيز بن قورش هو الذى غزا مصر (عام ٥٢٥) والمستعمرة الاغريقية فى قورينا • ولم يحدث قبل ذلك بتاتا أن مدنية النيل تآلفت بمدنية الفرات فى دولة واحدة • وتتركز الحقبة الثانية ، حقبة التنظيم فى شخص دارا بن كشتاسب (٥٢١ — ٤٨٦) • ان دارا هو طراز الادارى الشرقى على مدى الزمان • وكانت امبراطوريته شاسعة الأرجاء وهى مزيج من جميع الشعوب والأمم واللغات ولا تنتظمها وحدة سلالة أو دين أو صالح مشترك ، وكانت تنقسم الى عشرين ولاية أو اقليم يحكمه نائب ملك • ولكى تكون البلاد بمأمن من خطر نشوب ثورة ، وضع دارا زمام السلطتين المدنية والعسكرية فى كل ولاية فى أياد مختلفات ، وكانت الوظيفة الخاصة لشخص عظيم الشأن فى سوس مقر الحكم الرسمى ، يحمل لقب « عين الملك » ، هى الاشراف على الولايات •

---

(١) هيرودوت ١ — ١٣٦ وازن الصلاة فى ١ ، ١٣٢ • كان الفارسى يصلى من أجل الملك وجميع الفرس ولم يكن يصلى ، على الاطلاق ، لنفسه وحدها •

وساعد على تركيز التحكم [١] ، نهج رائع للطـرق والمراكز • وكما كانت تجرى عليه الأمور فى الإمبراطوريات الشرقية ، فان الشعوب الخاضعة كانت تحتفظ بدياناتها المحلية وعاداتها ونظمها ، بعيدة بعدا تاما عن تدخل الحكومة المركزية • وكانت علامتا الخضوع دفع جزية سنوية ثابتة والتجنيد لخدمة الميدان • وكان أشراف الفرس يعيشون تربطهم أواصر شخصية وثيقة بالحاكم أما الفرس المقيمون فى الأقاليم فكانوا يكونون مـع ممثلين من السكان الوطنيين مجلس الشورى للوالى • وعلى هذا ، كان يقوم بالرقابة على الوالى مجلسه وقائد الجيش والحكومة المركزية فىّ آن واحد ولقد أصبح هذا النهج الذى وضعه دارا النموذج الذى تحتذيه الملكيـات الشرقيـة التى جاءت فيما بعد [٢] •

وضم دارا أيضا البنجاب وبلاد العرب الى الامبراطورية وعبر السبنطس الى أوربا وتقبل ولاء تراقيا ومقدونيا • وفى ختام حكمه الطويل كان يجمع جيشا لجبا لينهض باخضاع اليونان الحرة • وعلى مثال غيرها من دول الشرق، جهدت فارس فى التوسع صوب الغرب الذى لاقت منه مصيرهـا المحتوم • ولكن قصة الصراع الاغريقى مع فارس تتصل بفصل آخر سيعرض له هذا الكتاب •

٢٠ — كان خلفاء دارا طوال قرن ونصف قرن بعد ذلك (٤٨٦ — ٣٣٨) معنيين على الأخص بالمحافظة على الامبراطورية التى عمل دارا على لم شملها وقد أدى الوهن الذى حـل بالبيت المالك والثورات المتواصـلة فى الأقاليم المتطرفة ، وخاصة فى مصر ، والصراع الطويل مع اليونان على انحلالها على التدرج ، وانتقل مركز الثقل فى السياسة العالمية الى شواطىء بحر ايجا• وقبيل انتصاف القرن الرابع كانت تعتمد هيبة الفرس على معاونة المرتزقة الاغريق وقادتهم • واعقب موت آخر حاكم قدير وهو أردشير الثالث (أخوس)

---

(١) أمن الطريق الملكى من سوس الى سردس (فى ليديا) لأول مرة فى التاريخ السيطرة على آسيا الصغرى بقوة من بلاد ما بين النهرين • وكان يستطيع جيش أن يقطع عليها مسيرة عشرين ميلا كل يوم فى المتوسـط ، وهذه حقيقة تفسر الى حد بعيد انتصارات الاسكندر • وكانت توجد أيضـا طرق فارسية عبر آسيا الصغرى ، من الشمال الى الجنوب ومن بابل بالقرب من همذان الى بلخ ومن بلاد ما بين النهرين ، عبر فينيقية الى مصر ، ومع هذا فان مرتفعات شبه الجزيرة لم تكن عليها حراسة فى الواقع الى أن ظهرت روما على المسرح •

(٢) كان دارا بناء عظيما وسعى الى استرضاء رعاياه بالاسراف فى تقديم صـنوف التكريم لدياناتهم ولقـد إستخدم نفس السياسـة فيما يلى تخـوم الامبراطورية بالهدايا تقدم الى مهبط الوحى فى دلفى الذى حبذ بادىء الأمر هجوم الفرس على الاغريق •

فى سنة ٣٣٨ فترة فوضى أتاحت للعدو فرصة فريدة اذ كان فيليب ملك مقدونيا قد دبر حرب انتقام من الغزو الفارسي لليونان ، فى القرن السابق . وفى عام ٣٣٤ عبر ابنه الاسكندر السبنطس وأقام نفسه سيدا على آسيا الصغرى . وفى عام ٣٣١ حقق أعظم انتصار له فى جوجميلا ، وبعد ذلك بعام ، بموت آخر خلف لدارا ، انتقل اللقب والامبراطورية جميعا الى الغازى المقدونى . ومن ذلك الوقت ، أصبح تاريخ الشرق الأوسط جزءا من تاريخ المدنية الهلينية .

٧ - الخاتمة

٢١ - ولو أن مختلف المدنيات التى مرت أمامنا فى هذا الفصل كانت لها أهمية جوهرية بالغة ، فانها ، مع استثناء واحد ذات أهمية ثانوية بالنسبة لمستقبل العالم الغربى . واذا نظر اليها من هذه الناحية فيمكننا القول ألا شىء كان يلائمها أفضل من اندماجها ، آخر الأمر ، فى الهلينية . وسنرى قريبا كيف أنه عندما أصبح امتزاج الشرق والغرب حقيقة واقعة ، وفى عهد خلفاء الاسكندر أثارت أفكار مصر وبابل وفارس الدينية استجابة من داخل نطاق الثقافة الاغريقية - الرومانية . ولكن تلك الثقافة نشأت ونمت فى أوضاعها الخاصة على النقيض من فكر الشرق وعاداته، أكثر من ان تكون بمعاونتهما . والاستثناء الوحيد الذى ألمعنا اليه آنفا هو ، دون مراء ، دين العبريين ، ان دين العصور اللاحقة ، فى هذا المجال وكذلك فى مجال الأخلاق ، للسلالة السامية ، لا يحصى . ان عبريا من طرسوس كانت تنشئته فى أشد مدارس المذهب الفريسى الحق صرامة أصبح رسولا للوثنيين . وعلى هذا فان الفصل التالى سيخصص لدراسة الحقبة الانشائية الرئيسية فى التاريخ العبرى الدينى وعند ذلك سنتحول صوب الغرب ، الى اليونان وروما . وحتى دين العبريين ، لم يؤثر تأثيرا خطيرا فى الغرب الا بعد أن كانت اليونان وروما قد أقامتا دعائم مدنيتهما . وكانت الهلينية قد وصلت الى ذراها قبل أن يشرع رسل الانجيل ، بزمن مديد ، فى العمل على جعل التقاليد العبرية ملائمة لمزاج وعادات العالم الأغريقى - الرومانى . لقد كانت الهلينية فى ارفع تعبيراتها ، كلها ، فى الفن والفلسفة والحياة المدنية ، الخلق المبتكر العبقرية الاغريق . ولقد أضافت السلالات الأخرى ، مواد الى دعائم بنائها الاقتصادى وحافزا أمام حب استطلاعها العقلى وتركت هنا وهناك كما فى فن العمارة ، آثارها فى بعض تفصيلات جلائل أعماله الاغريق ، ولكن الاغريق كانوا يعرفون ما كانوا يرمون اليه عندما قابلوا بين ثقافتهم الخاصة وحماة الهمجية التى كانت تطغى أمواجها حول جماعاتهم

الصغيرة من كل جانب [1] • ولقـد قامت الثقـافة ، كالسحر ، وسـط عالم غريب كما نهضت الالهة أثينـا فى الأسـطورة من راس زيوس ويظهر تاريخ الشعوب المجاورة النقيض ويقدم الاطار للتعبير عنه [2] •

---

(١) يعرض برى (Bury) (العصر الهلينى) الصـفحات ٢٤ وما بعـدها (Hellenistic Age PP. 24 ff.) الرأى بأن نظرية مرتبة الهمج الوضيعة هى من نتاج الحروب الفارسية وبعد ذلك ارتاب فيها الفلاسفة ، ولقد ارتأى افلاطون أن ملكا فيلسوفا قد يوجد بين الهمج ، وذهب الرواقيون شأوا أبعد حتى تصوروا أخوة تشمل البشر أجمعين • انظر الفصل السادس القسم الرابع•

(٢) تحدث جروت (Grote) فى مقدمة تاريخ اليونان (History of Greece) (١٨٤٦) عن حركة العقل الاغريقى التلقائية فقد كان يجد معاونة من الخارج ولكن لم يلجأ أبدا الى الاستعارة وبعث الضوء فى شطر من العالم صغير كان بغير هذا غائما وراكدآ ، ولقد كشف عن الشىء الكثير منذ زمن جروت ولكن توكيده أن العلم الاغريقى كان مبتكرا ، يظل ثابتا لا يتزعزع •

جداول تاريخية

		مصر		منطقة إيجا وكريت
٣٠٠٠		(عصر ما قبل الأسرات قبل عام ٣٤٠٠) الأسرة الأولى ٣٤٠٠ الأسرة الرابعة (بناة الأهرام) ٢٩٠٠ - ٢٧٥٠		(العصر الحجري الحديث قبل عام ٣٠٠٠) بداية عصر البرونز في كريت
٢٧٥٠	الدولة القديمة		العصور المنوية الباكرة	العصر المنوي الباكر الأول (حوالي ٢٨٠٠ - ٢٦٠٠) العصر المنوي الباكر الثاني حوالي ٢٦٠٠ - ٢٤٠٠
٢٥٠٠		التدهور (الأسرات ٦ - ١٠)		العصر المنوي الباكر الثالث. حوالي ٢٤٠٠ - ٢٢٠٠
٢٢٥٠	الدولة الوسطى الأسرتان ١١ و ١٢ ٢١٦٠ - ١٧٨٨	الأسرة ١١ ٢١٦٠ - ٢٠٠٠ ↓	العصور المنوية الوسطى	المنوي الأوسط الأول حوالي ٢٢٠٠ - ٢١٠٠ المنوي الأوسط الثاني حوالي ٢١٠٠ - ١٩٠٠ الذروة الأولى لثقافة كريت
٢٠٠٠		الأسرة ١٢ ٢٠٠٠ - ١٧٨٨ ↓		المنوي الأوسط الثالث حوالي ١٩٠٠ - ١٧٠٠
١٧٥٠		الهكسوس (الملوك الرعاة) ١٦٨٠ - ١٥٨٠	العصور المنوية المتأخرة	المنوي المتأخر الأول والثاني حوالي ١٧٠٠ - ١٤٠٠
١٥٠٠	الإمبراطورية الدولة الحديثة الأسرات ١٨ و ١٩ و ٢٠ ١٥٨٠ - ١١٥٠	الأسرة ١٨ ١٥٨٠ - ١٣٥٠ تحوتمس ٣ - ١٥٠١ - ١٤٤٧ ↓		الذروة الثانية للثقافة الكريتية ١٥٠٠ - ١٤٠٠ / نهوض الثقافة الميسينية ١٤٥٠ - ١٢٠٠ المنوي المتأخر الثالث غزوات شمالية (حتى حوالي ١٠٠٠) سقوط كنوسوس (حوالي ١٤٠٠) وفترة الانتقال للعصر المظلم
١٢٥٠		الأسرة ١٩ ١٣٥٠ ١٢٠٥ ↓		حصار طروادة ١١٩٤ - ١١٨٤ استهلال عصر الحديد
١٠٠٠		فترة تدهور (حتى عام ٦٦٣) ↓		العصر المظلم العصر المظلم المستعمرات الإغريقية على ساحل غرب آسيا الصغرى

	بابل وآشور	غربي آسيا
	السومريون (قبل ٣٠٠٠)	
٣٠٠٠		
٢٧٥٠	سرجون (بعد ذلك بزمن وجيز)	
٢٥٠٠	الانتعاش السومري	
٢٢٥٠	الملوك الآشوريون في آشور سنة ٢٤٠٠م تقريبا	
	أول أسرة بابلية ٢٢٢٥ - ١٩٢٦ { حمورابي ٢١٣٠-٢٠٨٧	
٢٠٠٠	الآريون إلى فارس ٢٠٠٠ - ١٦٠٠ تقريبا	
	سلسلة من الأسرات البابلية	
١٧٥٠	↓	خروج العبريين (؟)
١٥٠٠	الآريون إلى الهند ١٦٠٠ تقريبا	دولة الحيثيين في آسيا الصغرى ١٧٠٠-١٢٠٠
	قيام دولة آشور سنة ١٣٨٠	
١٢٥٠	↓ شلمنصر الأول (١٢٧٦)	بابل تحت حكم آشور
	↓	خروج إسرائيل من مصر ١٢٣٠ تقريبا دولة الفلستيين البحرية صور تحل محل صيدا: أول مستعمرات إفريقية (القرن ١٢) الفينيقيون وخلفاؤهم في ترشيش حوالي ١٢٠٠
	طغلات - فلاصر الأول ١١٢٠ تقريبا	
١٠٠٠	↓	المملكة في إسرائيل { شاؤل ١٠٢٥ تقريبا / داود ١٠١٠ تقريبا
	تدهور دولة آشور (إلى ٩٠٠ تقريبا)	

	مصر	منطقة ايجا
	عصر تدهور (حتى عام ٦٦٣)	العصر المظلم الى حوالى ٨٠٠
١٠٠٠	شيشنق (شيشونق) ٩٤٥ - ٩٢٤ غزو فلسطين / حكام ليبيون وأثيوبيون	
٩٠٠		
٨٠٠		تدهور نفوذ فينيقية التجارى. عصر توسع الإغريق التجارى والاستعمارى (الى حوالى ٦٠٠)
٧٠٠	أسرحدون يغزو مصر ٦٧٠. مصر مستقلة فى ٦٦٣ فى عهد الأسرة ٢٦ فى سايس حتى ٥٢٥	قيام حكم الطغاة
٦٠٠	نيخو (٦٠٩-٥٩٣) / مستعمرات اغريقية فى مصر	صولون: طاليس ومولد العلم
		بيستراتس
	غزو كمبيز مصر ٥٢٥ مصر تحت الحكم الفارسى حتى ٣٣٢	كليستينز
٥٠٠		حروب الفرس (٤٩٠ - ٤٨٠)
		بركليس والامبراطورية الأثينية
		الحروب البلبونيزية
٤٠٠		نهوض مقدونيا
	غزو الاسكندر ٣٣٢ - ٣٣٠ مصر	موقعة خايرونيا (٣٣٨) اليونان تحت الحكم المقدونى
٣٠٠		

(كتابة عمودية بين العمودين: ازدهار الحضارة الإغريقية)

(كتابة عمودية على الهامش الأيمن: الشعراء الغنائيون ... [illegible])

	بابل واشور	العبريون	اسيا الغربية
١٠٠٠	تدهور دولة اشور الى حوالى ٩٠٠	داود حوالى ١٠١٠ - ٩٧٠ سليمان " ٩٧٠ - ٩٣٢ انفصال المملكة الشمالية (الاسرائيلية) عن الجنوبية (يهوذا) ٩٣٢	
٩٠٠	انتعاش اشور		
		اخاب (٨٥٤) ايليا	تدهور دولة ما بعد الحثيين الغزو القيمري
٨٠٠			
	امبراطورية اشور ٧٤٦ في ذروتها	عاموس ، هوشع وضعا التاريخ الباكر سقوط السامرة ٧٣١ (المملكة الشمالية) امام اشور (اشعياء)	
٧٠٠	سنحاريب يغزو يهوذا		
	موت اسرحدون ٦٦٨ تدهور اشور		
	سقوط نينوى ٦١٢	صدور قوانين التثنية ٦٢١ ارميا	
٦٠٠	امبراطورية كلدانية بابل نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢) كورش يغزو ميديا ٥٥٣ " بابل ٥٣٩ قمبيز ملك فارس ٥٢٩	غزو بابل ليهوذا ٥٩٧ اول ترحيل اسر يهوذا النهائي ٥٨١ حزقيال اشعياء الثاني العودة من السبي ٥٣٨ في عهد كورش	
٥٠٠	دارا الاول ملك فارس ٥٢٢ اخشيارشا الاول ٤٨٥ اردشير الاول ٤٦٥ دارا الثاني ٤٢٣ اردشير الثاني ٤٠٤ (اخوس) الى ٣٣٨		كورش ٥٤٦ يغزو ليديا اسيا الغربية تحت الحكم الفارسي حتى ٣٣٤
٤٠٠		عودة عزرا ٣٩٧	
	اردشير الثالث ٣٥٩ (اخوس) الى ٣٣٨ الاسكندر يغزو فارس ٣٣٣	العبريون تحت الحكم المقدوني ٣٣٢	الاسكندر يغزو اسيا الغربية (٣٣٤)
٣٠٠			

الفصل الثالث

دين العبريين (١)

١ ـ تقديم

١ ـ ان ديانات عالم البحر المتوسط العظيمة الثلاث، العبرية والاسلامية والمسيحية كلها من أصل سامى ٠ ولأنها لاتزال قوة حية بين الناس فان هذا يقيم الدليل الذى يبقى على الزمن ، على قدر العبقرية الدينية التى كانت لدى الساميين ٠ ولقد كان قبول الدينين الأولين مقصورا ، على وجه الاجمال تقريبا على الفرع السامى أما الثالث وهو الدين المسيحى فقد حطم منذ زمن بعيد حواجز السلالات وأقام دعواه ، كدين عالمى ، فى ولاء الوثنى والعبرى ولكن انجيله بشر به للعبريين فى البداية وقام بينهم كتكملة تاريخية لناموس العبريين ونبوءة العبريين ٠ ويواجهنا السؤال كيف تأتى لعقيدة قبلية لشعب سامى لا خطر له أن تقدم فى غضون نموه التاريخى أساسا لرسالة روحية للبشرية ؟ أين كانت ، بين الخصال التى لازمت عقــدة العبريين القــديمة وعبادتهم ، تكمن البذور لتكونا عامتين ؟ لم يكن لدين العبريين فى مراحله الأولى ما يتميز به كثيرا عن دين شعوب كنعان التى تحيط به ٠ كيف حدث أنه بينما توارت آلهتهم بانهيار الدول التى كانت تعبدها ، سياسيا ظل اله العبريين باقيا بعد السبى وتفرق شعبه ولايزال موضــع اجــلال الملايين من جميع السلالات فى زمننا الحاضر ؟ ان الجواب على هذا السؤال يتكشف فى دراسة أنبياء العبريين ٠ وكما أن عبقرية الاغريق العقلية وهى تغــمل فى مناهج لها نفع عام للفكر الانسانى ، حولت معطيات التجارب التى لم تتناولها يد التهذيب ، الى بنيان من المعرفة التى يدعمها العقــل ، وكما أن عبقرية روما السياسية صاغت قوانين مدينة ايطاليــة فى مبــادىء قضائية ، لدولة

---

(١) أطلق عبريو أزمنة العهد القديم على أنفسهم « أبناء اسرائيل » (بنى اسرا ال) وأصل اسم اسراءيل غامض وقد فسر : (الله (ال) يجاهــد ، أو يبقى) ، أما لفظ عبرى فقد أطلق فيما بعد ومعناه ، طبقا للرأى التقليدى ، الشعب من الجانب الآخر من (اللفظ العبرى٠عبهريم) نهر الفرات (أو الاردن ؟) ٠ واسم يهودى معناه (رجل يهوده) ويطلــق على التحقيق عــلى القاطن بفلسطين الجنوبية ، ومن الراجح أن اسراءيل وعبريين كانا فى الأصل اسمين لعشائر ٠

عالمية ، كذلك محضت عبقرية العبريين الدينية التى تجلت عن طريق بصيرة أنبيائها ، عبادة اله قبلى كانت وظيفته أن يخوض غمار معارك شعبه ضد منافسيه من الهة البلاد الأخرى ، الى عبادة اله واحد خالق الكون الذى يظهر أبوته الروحية فى حكومة بارة تسود أمم الأرض جمعاء ·

٢ ـ عندما لم موسى ، فى النصف الأخير من الألف سنة الثانية ، قبل الميلاد ، شمل فريق من العشائر السياسية فى مجتمع واحد ، فانه لم يؤسس أمة وحسب ولكنه أرسى قواعد دين [١] وكان كحامل لوحى دينى ، على مثال محمد (صلعم) بعد ذلك بألفى سنة، انه استطاع أن ينهض بتحول بعيد الأمد فى عادات البدو الساميين القبلية التى لولا ذلك لظلت باقية على ما هى عليه · وقد ثبت عبادة يهوه لتكون عبادة شعب وبهذا أتى بأمه الى حيز الوجود [٢] ومنذ ذلك الحين صار يهوه اله العبريين الذى أطلق سراح آبائهم من العبودية وقادهم خلال أخطار البرية الى أرض الموعد · وكذلك يمكن أن ينسب الى موسى وضع شعائر عبادة ونظام كهنى · ولقد كونت أحكامه الشعوبة النواة لقيام شريعة (التوراة) [٣] ودين يهوه هذا ، كما حمله

---

(١) ان تاريخ الخروج غير معروف على التحقيق · ويعتبر بعض الثقاة أنه يتفق مع طرد الهكسوس أو الملوك الرعاة الساميين (فى أوائل القرن السادس عشر) ويذهب غيرهم الى أنه حدث فى الأسرة الثامنة عشرة (امنحوتب الثانى حوالى ١٤٤٥) وتذهب طائفة أخرى أن ذلك وقع فى عهد مرنفتاح (الأسرة التاسعة عشرة) حوالى عام ١٢٢٠ أو بعد ذلك بجيل ·

(٢) كان اليهود ، خشية اساءة استخدام اسم يهوه المقدس يكتبونه بالحروف المتحركة لكلمة ادوناى (= ربى) أو الوهيم (= الهى) على أن يقرأ هذان اللفظان بصوت مرتفع بدلا عنه · ويرجع تاريخ هذه العادة الى ادخال علامات الحركة الذى حدث بعد قيام العهد المسيحى ببضعة قرون · وكانت الكتابة العبرية تتكون أصلا من السواكن · ومن هذا حدثت الصيغة المضللة يهوه التى أشار اليها فى زمن مبكر فى القرن السادس عشر بعد الميلاد بطرس جلطينوس (Petrus Galatinus)
de arcanis Catholicae veritatis, 1518)
ومعنى اسم يهوه غير مؤكد · ويعتقد بعض العلماء أن يهوه كان يعبده العبرانيون قبل زمن موسى · والعهد القديم ، غامض فى هذا الأمر اذ أن الكاتب اليهيوى (ى ، انظر التذكرة التالية) يذكر أن عبادته ترجع الى ماقبل الزمن الموسوى (تك ٤ : ٢٦) والكاتبان الالهى (ا) والكهنى (ك) يذكران أن عبادته أدخلها موسى (خروج ٣ : ١١ ـ ١٤ و ٤ : ٢ ـ ٣) ربما من مديان· وتاريخ ما قبل موسى غير محقق ويحيطه الغموض ·

(٣) الأسفار الخمسة (أى التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية)، ويشوع تمثل تصنيف التاريخ والشريعة القديمين ـ اللذين وصلا الى شكلهما الحاضر بعد السبى ـ معا ويمكن تقصى أثر الجمع فى ثلاثة مصادر أساسية أشير اليها على الولاء بالحروف : اى ، ت ، ك ·

العبريون الى كنعان كان على التحقيق بدائيا ويتخذ الهه هيئة انسان. وكانوا يتصورون أن ليهوه شكلا جسميا ومقرا للسكنى وتدفعه العواطف الانسانية، من غيرة وغضب . ولقد كان الها محاربا « رجل حرب » يقاتل دون هوادة لأجل شعبه الخاص ضد أعدائهم وعلى غرار حاكم شرقي كان يطلب مقابل هذا ، الولاء والعطايا . ولم يكن همه يتعلق بالفرد ولكن بالأمة وبالأمة خاصة في أزمنة الحرب . ولكن يمكن أن نتبين في هذا الشكل البدائي للعقيدة القومية بذور دين خلقي وان لم يكن دين توحيد ، فانه كان صراحة عبادة إله واحد من بين الهة كثيرين . ولقد أنفذ الأمر الى العبريين : «لاتعبد

= (أ) مصتان للتاريخ الباكر كتبتا واحدة في المملكة الشمالية (افرايم) والأخرى في الجنوبية (يهوذا) ربما بين عامي ٨٥٠ ، ٧٥٠ ق.م وقد ضمتا في مؤلف تاريخي واحد ، عام ٧٥٠ على التقريب . ويطلق على الأولى (ا) من استخدام اسم الوهيم للدلالة على الله (عز وجل) والأخرى يطلق عليها (ى) من استخدام اسم يهوه . والمؤلف الذى يضمهما يرمز اليه بالحرفين ى ا .

(ب) شريعة التثنية يطلق عليها ت ويرجع تاريخها الى منتصف القرن السابع (انظر ٨ - فيما يلي) .

(ح) التاريخ ومدونة القانون الكهنيين يطلق عليها (ك) وربما يرجع انشاؤها الى زمن السبى (أنظر ١٠ و١١ فيما يلي) .

وتمثل أسفار التكوين والخروج والعدد امتزاج ى ا ، ك ، وينتمى سفر اللاويين الى ك ، والتثنية الى ت ، ويشوع الى ى ا ، وهو من محررى التثنية ، والى ك .

وعلى القارىء أن يدرك أن المحررين المتعاقبين كانوا جامعين لا مؤلفين أصلا ، وأدمجوا في مؤلفهم ما كان يوجد من وثائق قبل ذلك وأضافوا فقط ما كان لازما لتوافق المقتبسات بعضها مع البعض الآخر . وعلى هذا فان الكثير من القوانين والقصص في هذه الأسفار كان أساسها عادات وتقاليد وأغاني تاريخ سابق لها كثيرا وكان مرجع بعضها الى سجلات مسطورة (مثال سفر العدد : ٢١ ، ١٤ وما بعدها ويشوع : ١٠ ، ١٢ وما بعدها) ونواة الناموس القديمة التي يطلق عليها سفر العهد أو الميثاق (الخروج : ٢٠، ٢٢ - ٢٣، ٣٣) والوصايا العشر الأقدم منها (الخروج : ٣٤ ، ١٧-٢٦) كانت موجودة كتابة قبل أن يجمع ا. وكذلك أيضا آخر ما جمع (ك) يحوى ثم ناموس قديم جدا في سفر القداسة (اللاويين : ١٧ - ٢٦) الذى رمز اليه بالحرف ق وربما يرجع الى ما قبل السبى . وبينما الشريعة كما توجد بين أيدينا جاءت متأخرة عن النبوة الأقدم منها ، فان الكثير من محتوياتها يرجع الى ما قبل النبوة .

وعن الموضوع كله ، انظر درايفر (Driver) (مقدمة لأدب العهد القديم (Introduction to the Literature of the O.T.) ص ٨٢ وما بعدها و١١٦ وما بعدها

آلهة أخرى غيرى » [١] • ولم يكن ليهوه أساطير خرافية أو مجمع الهة يشتركون معه أو زوجة ــ الهه كما كان طابع العبادات الكنعانية [٢]

انه كان مصدر الحق والعدل وقدس أقداسه مستودع القانون المعترف به • ويكتب عالم معاصر نابه : « ان فضل موسى العظيم يرجع الى الحقيقة الواقعة وهى أنه ألف بين الفكرة الدينية والحياة الخلقية » [٣] وكانت تربط يهوه بشعبه الآصرة الشخصية التى تكون بين أب وبنيه ، آصرة لا تستند الى وشيجة طبيعية من قرابة الدم ولكن الى الاختيار والارادة • لقد اختار يهوه العبريين وتقبل العبريون يهوه ، ونجد هنا أصلا مبدأ « العهد » الذى جاء فيما بعد • ولقد كانت هذه العقيدة الخلقية التى تمثلت لعبرانى ذلك العصر فى مناصرة يهوه للعبريين ضد أعدائهم هى التى حفظت الأمة الناشئة من أن تطويها مدنية الكنعانيين السابقة لها • وكان الاستقرار فى كنعان عملية امتزاج بطيئة تركت ، عرضا ، علامات فى دين العبريين • وكما عرف المهاجرون البدو من جيرانهم عادات حياة الزراعة فانهم استحوذوا معها على عبادات آلهة الكنعانيين (بعليم = أسياد البلاد) • ولم يكن هؤلاء البعليم • على غرار يهوه ، آلهة حرب ولكنهم كانوا آلهة طبيعة مسالمين تتمثل فى شخوصهم قوى الخصب والحياة المنتجة ويتألفون أزواجا ، ذكرا (بعل) وأنثى (عشتاروت) ، ولهم ديانات محلية متباينة تصحبها الشهوة المخزية [٤] ولو كانت عملية الامتزاج سلمية بجملتها ، فربما كان دين العبريين قد هبط فى يسر الى مستوى الدين الكنعانى ولكان يهوه قد اندمج فى البعليم ولما ترك العبريون طابعا على تاريخ البشر الروحى • ولكن كان على الغزاة أن يحاربوا لأجل ميراثهم ولقد حفظ شخصيتهم الدينية والقومية ، ما وقع من حرب متواصلة • وظل يهوه بين كل ما تمثلوه من العبادات الكنعانية كالمرتفعات والصور الخشبية لعشتاروت أو العمد المقدسة، اله شعبه المختار•

---

(١) عبادة اله من بين الهة كثيرين (Monolatry) معناها أنه ولو أنه توجد آلهة كثيرة فان واحدا فقط هو الذى يجب أن يعبد ، اما التوحيد فمعناه أنه لا يوجد الا اله واحد •

(٢) تشير برديات الفنتين الى زوجة ــ الهة ولكنها تستعرض دين العبريين فى شكل حط من قدره • انظر كاولى (Cowley) (Aramaic Papyri) أدراج البردى الآرامية (المقدمة) •

(٣) كوينن ، دين اسرايل (Kuenen, Religion of Israel)

(٤) كون الشهوة المشار اليها كانت نتاجا لما تتطلبه العبادة يجعل الفارق أكثر ظهورا • وتوضح الواح راس شمرة (القرن الخامس عشر الى القرن الثالث عشر ق•م) التى كشف عنها فى سنة ١٩٢٩ ، الاساطير الكنعانية على أتمها (انظر جاك (Jack) ألواح راس شمرة (The Ras Shamra Tablets) وتقدم الدليل على نشاط أدبى فى فلسطين ، قبل قيام الملكية العبرية ببضعة قرون

وأغنية دبورة وهي واحدة من أقدم شذرات أدب الشعر العبرى ، لا تزال باقية لتبين كيف ان عقيدة يهوه ألهمت عشائر العبريين في تلك المعارك القديمة مع الشعوب المحيطة بها [١] . وقد عملت على تقوية الشعور بقومية متميزة ، الحروب مع الفلسطينيين في القرنين الحادى عشر والعاشر التى نجم عنها قيام النظام الملكى فى شخص شاءول البنياميني وغدا يتجسم فى الملك الاستقلال الديني والقومي فى نفس الوقت . ومن ذلك الوقت فصاعدا ، اصبحت عبادة يهوه ، على الرغم من طائفة عظيمة من اضافات كنعانية ، الرمز المعترف به لمصير العبريين الذى تميزوا به .

٣ ـ واذا نحينا الى جانب المشاكل الغامضة عن أصل عبادة يهوه ، والى الجانب الآخر ، أرجأنا النظر فى تطور دين العبريين تحت تأثير النبيين الى دين توحيد خلقى خالص النقاوة ، فاننا نلحظ الخصال التالية الملازمة لذلك الدين من عهود استهلاله على يد موسى الى أن وصلت اليهودية الى صوغها النهائى كدين عالمى فى القرنين الأولين من العهد المسيحى . وستفصح للقارىء عن الهوة الواسعة التى تفصل التقاليد الدينية العبرية ، قبل وبعد ان تستحوذ عليها المسيحية ، عن تلك التى يرجع مصدرها الى التفكير الهليني سواء أكانت عن مسائل ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) أو علم اللاهوت . ففى المكان الأول (ا) كانت تقوم على الاعتقاد الذى لا يمارى ، بوجود الله (عز وجل) لا استنادا الى أية فروض استنتاجية عن وجوده أو طبيعته وجوهره . والجواب الوحيد الذى صرح به ، ردا على موسى وهو يستعلم اسمه كان توكيد كينونته الذاتية : « أهيه الذى أهيه » [٢] وفى كينونته الذاتية ، فانه العلة ، كخالق لوجود كل ما هو كائن « فى البدء خلق الله السموات والأرض » [٣] وهذه الكلمات ، فاتحة الأسفار الخمسة لا تعبر عن نظرية فلسفية ولكنها بيان أولى للوعى الديني العبرى . ومن البداية أعلن يهوه نفسه الاله الحى ، ويكون قبوله بالايمان ويسمو على أقصى ما يصل اليه الاستقصاء الفكرى [٤] . وعلى غير شاكلة اله افلاطون وأرسطو فان اله ابراهيم واسحاق ويعقوب هو ، بالنسبة للعقل الانسانى ، اله مستخف (Deus abscontitus) . ثانيا (ب) دين العبريين موحى به ويستمد سلطانه ودعواه في طاعة الانسان ، ليس عن طريق العقل ولكن عن

---

(١) القضاة ٥ قابل الطلبة القديمة فى سفر العدد ١٠ ، ٣٥ ، ٣٦ : « قم يا رب فلتتبدد أعداؤك » الخ .
(٢) الخروج ٣ ، ١٤ .
(٣) التكوين ١ ، ١ .

(٤) كما جاء فى تعبير دكتور هوايتهد (Dr. Whitehead) فى (Adventures of Ideas) : مغامرات الأفكار فان السؤال : « أتقدر بالبحث أن تجد الله ؟ » ، يصلح للفكر العبرى ولكن لا يستقيم مع التفكير الاغريقى .

طريق مصدره الالهى لا غير · والوحى واحد كما أن الله واحد · وكان تصور نقيض الله الذى تحاشى الدين الفارسى به ، مشكل مصدر الشر ، غريبا عن العقل العبرى ، تماما · وعلاوة على هذا فقد كان الوحى نهائيا وكاملا كما أن الله نفسه كامل ولا يتغير · « كل الدين أوحى به وكل فحوى الوحى كان الدين »[1] · وكان يتألف منه التوراة أو شريعة الله، ويشمل القانون المسطور (الأسفار الخمسة) وعلى سير الزمان ، تفسيره الشفوى أيضاكما صيغ ووضعت له مذاهب ، فى النهاية ، فى المدارس اليهودية · وكانت الحال كذلك مع الأنبياء الذين لا ينطقون بأقوال من عندهم يدلون فيها بما لديهم من ثقة ولكن بكلمات أوحى بها اليهم يهوه · ثالثا (ح) دين العبريين تنظيمى ، بما أنه التعبير عن الارادة الالهية بلغ بها الانسان ككائن ذى نشاط وله حق الاختيار · انه مجموعة من الأوامر تنظم سلوك الانسان وتفرض عن طرق جزاء فيها الخير أو الويل نتيجة لقبول الانسان أو رفضه «مخافة الرب هى الحكمة»[2] والى الحد الذى يجعل فيه الله طبيعته معلومة للعبريين ، فى الكشف عن ذاته ، تكون طبيعته كطاقة عملية فان الكون يصير الى وجود بفعل قوته الحرة · ويتجسم فى سجل تعامله كله مع العبريين غرضه الأساسى · ولو أنه يسمو سموا لا يمكن أن يلم به وصف ، على أساليب الزمن أو التغير ، فان وجوده باطن[3] وتستبين ارادته فى كل جزىء فى الطبيعة وتاريخ البشر · ويكون مشهد نشاطه ، ليس الشعب المختار فقط ولكن الكون بأجمعه وجميع الأمم التى تسكنه : « ألم أصعد اسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والأراميين من قير ؟ »[4] · وهنا كمال غرض الله ولو أنه، على غرار فاتحته، عمل من التدخل خارق العادة ، فى مجرى التاريخ ، فانه يتصور ككارثة فى المستقبل التاريخى · وفكرة الحياة الأبدية التى يرتاح لها الفلاسفة الاغريق كانت غريبة عن نظرة العبرانيين الدينية · ان يهوه كان يسمو على الزمان ، ليس لأن لا زمن له ولكن لبقائه الذى لا يعرف نهاية : كان « منذ الأزل الى الأبد »[5] وأخيرا ، انه من الجلى (ا) أن دينا توحى به هذه العقائد كانت تفعمه قدرة فياضة على التطور الخلقى · كان يهوه اله بر ورحمة أوصى بأعمال الصلاح والرحمة عبيده · وأولى هاتين الخصلتين كان يتمثل فى أنه فرض فى صرامة القصاص عن الخطيئة أى فى عبارة يوحنا «التعدى على الناموس»[6]

---

(١) ج · ف · مور (G.F. Moore) اليهودية ١ : ١١٢ (Judaism)

(٢) عاموس ٩ ، ٧

(٣) فى مذهب وحدة الوجود ، ماهية الله باطنة فى العالم أى أن الله والعالم واحد (المترجم)

(٤) أيوب ٢٨ ، ٢٨

(٥) مزامير ٩٠ ، ٢

(٦) يوحنا الأول ٣ ، ٤ وازن يونس فى رومية الأصحاح الرابع ·

والثانية فى استعداده الذى لا يعتريه وهن للصفح عن الخطيئة بشرط أوحد هو توبة الخاطىء . وهنا لا يوجد وعى بالتفرقة بين الواجب الدينى والواجب الخلقى . وكل عمل سواء أكان صادرا عن الفرد أو المجتمع يقع فى مجال المسئولية الخلقية وكذلك ينطوى على طاعة أو عصيان الأمر الالهى ، لأن المجتمع (بيت اسرائيل) أيضا كان يتألف برابطة شخصية يهوه « كشخص ذى جسد » ، واقعى ، يتميز بأنه ينزع الى آداب السلوك ، عن وعى الجماعة الغريزى السابق للأخلاق وكوحدة قائمة بذاتها عن المجتمع المصطنع الذى هو نتاج تعاقد من جانب الأفراد الذين ينتظمون أعضاء فيه .

٢ — نبوءة ما قبل النبى

٤ — فى هذه اللحظة نسمع أول ما نسمع ، عن النبيين عند العبريين . وكان الملك شاءول نفسه ، فى احدى الفرص ، من عدادهم [١] ولكن هؤلاء الأنبياء لم يكونوا يتميزون الا قليلا ، عن أنبياء البعل الذين كانوا بين ظهرانى الشعوب الكنعانية الأخرى وهم فرق من الدراويش الذين يستولى عليهم الجذب [٢] وكانوا تحت تأثير الموسيقى والرقص يتوهمون استحواذ الهم عليهم . ولقد كانوا رجالا من طراز حد مختلف عن عظماء المعلمين الذين تقدموا الصفوف بعد ذلك بقرون قليلة كنصراء لعقيدة ممحضة . وكان بداية ظهور هؤلاء فى وقت تقسيم ملك سليمان فى المملكة الشمالية أو الافرامية معارضين انتشار العبادات الدينية الغريبة والمدنية الدنيوية [٣] . وكان سليمان قد فتح الباب للتجارة الخارجية وأنشأ أسباب التحالف الأسرى مع الملوك الأجانب ، وهى سياسة أدت الى تجديدات فى العادات الاجتماعية التى كرمها الزمن والى ادخال العبادات الأجنبية . ولقد جلب الثراء والترف فى أعقابهما فوارق الطبقات وانفصاما يتزايد بين الغنى والفقير وكانت السخرة ، على النموذج المصرى ، تمس الحاجة اليها لبناء قصور الملوك والمدائن الحصينة والهياكل الدينية وأصبح جزءا من نظام الحياة الحديد وجود حاشية وحريم وحشد من الموظفين العسكريين والكهنة ، وهذه المظاهر وأمثالها لملك سليمان حوكيت فى المملكة الشمالية تحت أسرة عمرى (من حوالى ٨٨٧) . وعندما أقر أخاب بن عمرى شرعا عبادة بعل صيدا ووسع الحقوق الملكية

---

(١) صموئيل الأول ١٩ ، ٢٠ — ٢٤

(٢) الجذب — عند الصوفية حال من أحوال النفس يغيب فيها القلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق وتغشاه غبطة شاملة وهو قمة التفلسف الأفلوطينى — مصطلحات مجمع اللغة العربية . (المترجم)

(٣) ان ثورة يربعام الأول واقامة مملكة افرامية منفصلة (٩٣٣) ربما كان مرجعهما كراهية السخرة وقد أيدهما أخيا النبى . انظر ملوك الأول ١١ ، ٢٨ وما بعدها .

فوق ما جرت عليه العادة التقليدية فان ايليا استنكر وهو مشتمل برداء بدوى مرددا روح البساطة البدوية البدائية، سياسة البلاط الدينية والدنيوية جميعا [١] . وقد عمل خلفه اليشع ، فى تآلف وثيق ، بنقابات النبوة ، على اسقاط الأسرة ووجه ، كناصح معترف به ، تعاليم يوشع وابنه [٢] وكان الظفر حليف النبوة فى المملكة الشمالية ، ولقد توطدت دعائمها كقوة خلقية فى المجتمع ، ولم تكن مجرد انتصار سياسى . وظاهر ايليا واليشع دعوى يهوه ، القاصرة عليه ، فى ولاء اسرائيل وأن شريعته شريعة بر مطالبا بالخدمة الخلقية ، أبناءه المختارين . وكانت عبادة اى اله آخر خطيئة وكان معنى عبادة يهوه ، تحقيق ارشاداته الخلقية فى حياة المجتمع. وهذا الاعتراف بشخصية يهوه التى تتصل بالسلوك القويم ، ذلك الذى مهد الطريق لصوت النبوة المكتوبة ، لا تشهد به فقط القصص المدونة، ولكن أقدم أجزاء الأسفار الخمسة أيضا ، التى ربما كان وضعها ، تحت تأثير رسالة النبوة التى أتى بها آيليا .

٥ — ان أقدم نبوة مكتوبة وهى نبوة عاموس ، يرجع تاريخها الى حكم يربعام الثانى فى مملكة العبرانيين الشمالية (٧٨٣ — ٧٤٥) [٣] .وتجلت مملكة افرايم فى مشهد من الرخاء الظاهرى . ولكن فيما وراء المظاهر ، كانت الأمة مريضة حتى الموت . وكان الأشراف والحاشية والكهنة ، كلهم سواسية فى الفساد . واستشرى الترف والشهوة والجور وظلم الفقير . واتاحت العبادة فى الهياكل العظيمة مثل بيت ايل فرصة سانحة ليس فقط للحفلات الصاخبة كثيرة التكاليف ، والمراسم الرائعة ولكن لأعمال العنف والظلم أيضا [٤]. وأصبحت تتوارى الشفقة الأخوية القديمة بانتشار الثروة والانغماس فى الشهوات الذاتية . وكانت طبقة الزراع الأحرار التى ظلت حتى الآن دعامة الأمة فى السلم والحرب ، تسير الى دمار . وفيما يلى التخم،

---

(١) كان فى انتهاك آخاب للعادة الاجتماعية فى موضوع كرم نابوت اثارة للشعور العام أكثر من أية ظاهرة أخرى فى سياسته . ويمكن وضع تاريخ حكم آخاب بعد عام ٨٥٣ .

(٢) « مركبة اسرائيل وفرسانها » كما نعته الملك (الملوك الثانى ١٣:١٤)

(٣) تقع نبوة عاموس بين عامى ٧٦٥ و٧٥٠ ونبوة هوشع ، فى مملكة العبريين الشمالية ايضا ، بين عامى ٧٥٠ و٧٣٤ . ويلى هذين النبيين فى الترتيب ، ميخا واشعياء وكلاهما فى يهوذا ، خلال الشطر الثالث الأخير من القرن .

(٤) أنظر عاموس وهوشع على وجه عام ، أما عن الجور وانحلال الروابط الاجتماعية فيمكن الرجوع الى عاموس ٢ ، ٦—٨ ، ٣ ، ١٠ و٥ ، ١١ و٨ ، ٤—٦ وهوشع ٤ ، ١ ، ٢ وعن العبادة الاباحية وعبادة الأصنام عاموس ٢ ، ٧ ، ٨ وهوشع ٤ ، ١٣ ، ١٤ وعن فساد الأنبياء والكهنة هوشع ٤ ، ٥ ، ٦ و٦ ، ٩ .

جلب تدهور دولة دمشق الحاجزة ، تهديد أشور المروع الى أبواب العبريين عينها [1] وقد عميت أبصار الملك والشعب على السواء ، عن المصير المحتوم ولكن أمام بصيرة صافية ، كان الدمار قريبا ومحققا ، كما كان يمكن أن تصير اليه حال بلجيكا سنة ١٩١٤ لو أنها واجهت ، دون حليف ، هجوم جحافل الألمان • وكان في مثل هذه الضائقة أن عاموس ، راعى القطعان وجاني الجميز من تقوع الواقعة في المرتفعات الجنوبية التي تحف بالبحر الميت ، ظهر بين الصاخبين المتهللين الذين لا يعبأون بشيء ، في بيت ايل ، لينطق بكلمة القضاء التي أوحي بها يهوه الى خادمه • وكانت رسالة عاموس، كرسالة كل من سبقوه من الأنبياء ، كئيبة كآبة لا تتحول • لقد عمل العبرانيون الشر وسيتجلى قضاء يهوه الحق في تدمير الأمة تدميرا لا يبقى ولا يذر • وكان الناس يتطلعون الى « يوم يهوه » الذى كانوا يعنون به اليوم الذى فيه ينتصر العبريون ، في القتال ، على أعدائهم • وقد أودع عاموس ، وهو يعلن عن المغير الأشورى كأداة ليهوه ، في الكلمة المأثورة القديمة ، مغزى جديدا مروعا : « ويل للذين يشتهون يوم الرب ! لماذا لكم يوم الرب؟ هو ظلام لا نور » [2] .

وعند عاموس ، لم يكن يهوه أبدا « اله العبريين » ، انه يهوه اله الجنود ، ليس رب الجيوش القومية ، ولكن رب جنود السماء والأرض • وكان الدين الشعبى يرى في الهزيمة آية بأن يهوه تخلى عن شعبه ، وعند عاموس كان الانهيار المتوقع أوضح انتقام لعدالة يهوه من الشعب الذى تركه ، ولسبب انه اختارهم ليكونوا مستودع معرفته ، فان عدم طاعتهم الخلقية أثارت عقابه البار : « اياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم عن جميع ذنوبكم » ، « من أجل ذنوب اسرايل الثلثة والأربعة لا أرجع عنه لأنهم باعوا البار بالفضة والبائس لأجل نعليه » ، « سقطت عذراء اسرائيل لا تعود تقوم انطرحت على أرضها ليس من يقيمها » [3]

٦ — ان نبوءات عاموس وهوشع تسترعى الانتباه ليس لأنها تمثل فجر عهد جديد في تاريخ العبريين الروحى وحسب ، ولكن لأنها تشمل الخصال الجوهرية كيفا وجوهرا للتعليم التنبؤى السابق للسبى • وكانت رسالة النبى اعلان « كلمة » يهوه لشعبه وكانت النبوة توصيل وحى شخصى ، وليس جوهرها في التنبوء عن حادثات تقع في المستقبل • والنبى

---

(١) استرد يربعام الثانى كل فلسطين الشرقية حتى شمال لبنان ، الملوك الثانى : ١٤ ، ٢٥ ، وقد غزا الأشوريون دمشق عام ٨٠٣ وربما كان يربعام يدين لأشور بالولاء •

(٢) عاموس ٥ ، ١٨ •

(٣) عاموس : ٣ ، ٢ و٢ ، ٦ و٥ ، ٢

شخص يتحدث بالنيابة عن يهوه فى اعتراض مدرك ، لعالم الحكام الدنيويين والكهنة الرسميين والرأى الشعبى وحتى نقابات التنبوء · ويقول عاموس · « لست أنا نبيا ولا أنا ابن نبى » [١] ، وصوته صوت من يصيح فى البرية فى استنكار يتفجر عن عاطفة عنيفة ، للمخازى العلنية وجور النظام الاجتماعى · والقول الذى يعلنه ليس قوله وانما قول يهوه ووظيفة التنبوء ليست من اختياره · لقد أحس بسلطة يد يهوه القاسرة وينطق فقط بما وضعه يهوه فى فيه : « الاسد قد زمجر فمن لا يخاف ؟ السيد الرب قد تكلم فمن لا يتنبأ ؟ » [٢] ومن هنا كان رسوخ اعتقاده الشخصى وتيقنه المطلق من صدق رسالته · ولكن بيانه لم يكن مجرد أقوال تضطرم حماسا ، ناجمة عن الجذب وكذلك لم تكن تعتمد على اثارة مصطنعة · ولا يمكن تعرف الا القليل من الانحراف البدنى أو العقلى فى كتابات التنبوء · والأحوال والرؤيا خارقتا العادة ، اللتان تصحبان تجاريب النبوة (وأكثر ماتجيئان فى حزقيال، وأقل فىأرميا) تقبلان على أنهما موضوعيتان وترجعان الىوحى مباشر منيهوه [٣] ويأتى قول يهوه مصداقا لعقله وضميره · وقد يكون الوحى عن طريق الرؤيا أو أعم من ذلك بالكلمة ، ينطق بها ، وقد يؤيد بالآية ويعززه المثال والرمز ولكنه فى جميع الحالات جلى وحاسم [٤] · وعلاوة على هذا فان الرسالة توجه الى الأمة ويندر أن يخاطب بها الفرد · ولم يكن للفرد الى الآن الا شأنه يسير فى دين العبريين وكان الجزاء ، للخير أو للضير ، يوقع على المجتمع فى مدرجة تاريخه الدنيوى · وسنرى فى التعقيب كيف أنه فى زمن لاحق ، ظفرت دعوى الفرد من العبريين ، بالعدالة الالهية والأمل فى نعيم بعد الموت، بالذكر فى الدين العبرى · ولكن موضوع الأنبياء الأوائل هو التزام الاستقامة القومية وأحكام يهوه على الخطيئة القومية · ومرة أخرى ، تكون الرسالة ، كوحى بغرض يهوه هى فى ذاتها الضمان وليست فى حاجة الى دعم بالدليل · واذا مست الحاجة الى برهان ، فانه يقدم ، لا بالاستنتاج العقلى المجرد ولكن بآية أى بدلالة محسوسة مادية عن مصدرها الالهى ·

---

(١) عاموس : ٧ ، ١٤ وازن هوشع ٩ ، ٧ والفقرة القصصية عاموس ٧ ، ١٠ – ١٧ تفصح فى جلاء عن هذه المعارضة لسياسة الحكام وطوائف الكهنة ·

(٢) عاموس ٣ ، ٨ قابل عاموس ٧ ، ١٤ وما بعدها واشعياء ٦ وارميا ١ و٢٣ ، ٩ وحزقيال ١ ، ٣

(٣) أنظر هويلر روبنسن « الشعب والكتاب » الصفحات ٣٧١ وما بعدها (Wheeler Robinson «The People and the Book»)
ان النبى يعى معنى الالهام وعلى شاكلة الشاعر فان شطره خلق وشطره تصور

(٤) دون أشعياء رؤيا واحدة فى غضون أربعين عاما من رسالة النبوة وتخلو نبوءاته كلها من أية عاطفة يستعر فيها الحماس ·

وانا لا نجد أى أثر للاستدلال الفكرى فى النبوة العبرية · لقد كان تعليم النبى يعنى بالمراس ، لا النظرية ، ورجوعه لا يكون للعقل ولكن للارادة [١] وكان الباعث له ، فى كل مرحلة ، تأزم واقعى فى مصائر الأمة · وقد أثار التهديد الأشورى رسائل عاموس وهوشع واشعياء ، أما البابلى فرسالة ارمياء · وهنا تقدم النبوة العبرية نقيضا للفلسفة الاغريقية ، يسترعى البال · اذ بينما كان المفكر الاغريقى يتلمّس تفسيرا عقليا لكل واقعة وأسبابا عقلية لكل حكم فان النبى العبرى كان يجد التوكيد الكامل فى الحدس [٢] المباشر بارادة يهوه وكان يقدم لقوله بالتصريح البسيط « هكذا قال يهوه » والواحد كان زهرة الثقافة الدنيوية والآخر خصمها الذى لا ينزل عن شىء من حقه فى سبيل صلح · وادعى كل منهما أنه يعرف الحق ، الأول بمعرفة العلم الذى يقوم على العقل ، والآخر بمعرفة الايمان الخلقى ·

٧ — ولم يكن ضمان الصدق موجودا فقط فى وسيلة الوحى التنبوءى ولكن فى جوهره · كان طبع انبياء ما قبل السبى ، طبع توبيخ صارم لخطيئة العبريين وفيه قنوط أسى من توبة العبريين · وطريق الخلاص مفتوح « اطلبوا الخير لا الشر لكى تحيوا » [٣] ·ولكن ليس للنبى الا أمل ضئيل فى أن ينتهج· انه النبى الكاذب ذاك الذى يهتف بالسلام حيث لا يوجد سلام ولارضاء الناس يعلن عن أمن وهمى [٤] · وعندما هوت الضربة وحمل العبريون الى السبى ، تتغير النغمة وتكون رسالة يهوه وعدا بالبركة وبالعودة [٥] ونقرأ فى اشعياء عن بقية عادلة من الشعب ينقذون فى ساعة اليأس ليكونوا نواة

---

(١) ان ما ينطوى عليه لفظ « لب » ويترجم عادة « قلب » هو معنى الارادة لا العاطفة · انظر فيما يلى فقرة ١٦ ·

(٢) الحدس — ادراك الذهن لموضوع الفكر ادراكا مباشرا ويقابل الاستدلال· (المترجم)

(٣) عاموس ٥ ، ١٤

(٤) ملوك الأول : ٢٢ واشعياء ٣٠ ، ٩ — ١١ وأرميا : ٢٨ و (خاصة) حزقيال : ١٣ والتثنية : ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ تضع معيار الصدق فى انجازه ولكن قابل التثنية : ١٣ ، ١ — ٤ · قد تتم النبوة الكاذبة وقد لا تتم النبوة الصادقة · انظر شارلس (الأخرويات (Eschatology Charles صفحة ١٨٥ ، تذكرة ·

(٥) من الراجح أن مثل تلك الفقرات التى جاءت فى عاموس ٩ ، ٨ — ١٥ وهوشع ١٤ التى تتنبأ عن اعادة فى المستقبل — ترجع الى تاريخ لاحق وربما قد تكون الأخيرة صادقة · وهى تجد القبول لدى روبرتسون سمث (Robertson Smith) ودرايفر (Driver) (المقدمة — الصفحات ٣٠٦ و٣٠٧) الذى يدلل على أن الأنبياء الذين يسيرون على هدى الوجدان وليس المنطق ، ربما كانوا قد عبروا عن الرجاء فى اعادة مثالية ، فى خاتمة تحذيراتهم الاستنكارية ·

لأمة عبرية متجددة . ولكن اليأس من توبة العبريين لا يلقي أبدا ، للحظة ، ظلا من الريبة على ايمان النبي بحكومة يهوه البارة ، ليهلك العبريون اذا كان في هلاكهم ، تتجلى عدالة يهوه . ولم يكن المغير الأشـورى الا أداة ارادته المقدسة القديرة على كل شيء . وعند عاموس وهوشع ، كان يهوه اله جميع الأمم واله الأرض كلها . وقوته تبسط رواقها على الطبيعـة وعـلى جنود السماء وحتى على مستقر الراحلين (شيول = جهنم) [١] ، انه كان شخصا خلقيا ، لم تترك سيادته العامة الفريدة مجالا لأية قوةالهية أخرى سـواه . لقد كان حضوره الحي وهو يدأب على العمل الناشط ، وليس جوهره ، هو الذى تمتلىء به عقول الأنبياء ، ولقد فسروا نشاط ارادته في حدود أقصت الاعتراف بأى اله آخر غيره . وكانت حكومته الخلقية تتجلى فى معاملاته مـع جميع الشعوب وفى المكان الأول ، مع شعبه المختار . وعلى مثال العبريين ، كان مفروضا أن يوقع على الشعوب الوثنية القصاص من أجل خطاياها [٢] وفى تعبير عالم معاصر عظيم ، يتصور الأنبياء فاجعة الهية مسرحها الأرض، والأشخاص القائمون بالأدوار فيها ، الشعوب ، والبطل مدار الرواية ، الشعب العبرى ومؤلف الفاجعة ، يهوه [٣]

ولقد فتح قيام الأشوريين عيونهم الى عالم أوسع ونجم عن هذا التوسع فى أفق خيالهم ، تقدم البصر الروحي وكان فى الايمان بحكم يهوه الخلقى ، ما يكفى العالم الأكبر كما يكفى العالم الأصغر . ومرة أخرى ، حمل تصور شخصية يهوه الخلقية هذا ، معه ، مطلب الخدمة الخلقية من عابديه . وكانت السنن الرسمية والمراسم الخاوية لا شيء ، فى نظـره . « انى أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات » . « بغضت كرهت أعيادكم ولست التذ (لا اشم — النسخة المنقحة) باعتكافاتكم : انى اذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى ... وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم » [٤] . انه فى

---

(١) عاموس ٩ ، ٢ اشعياء ٧ ، ١١ ومع هذا فان التصور البدائى عن أن شيول (جهنم) خارجة عن نطاق حكم يهوه ظل قرونا بجانب مذهب التوحيد وعدم الترابط التفكيرى هـذا لم يكن يحس به (أنظـر اشـعياء ٣٨ ، ١٨ ومزامير ٨٨ ، ٥) .

(٢) عاموس : ١ و٢ و٩ ، ٧ . انه لأجل مظالم ارتكبت ضد العبريين ، أن خمسة من الستة شعوب التى أشير اليها فى الأصحاحين الأول والثانى سيوقع عليها القصاص . ولا يزال التعميم الذى جاء بعد ذلك ، بعيدا ، وفى اشعياء : ١٠ ، ٥ — ١٥ نجد أشور داخل نطاق سيادة يهوه .

(٣) ولهوزن (Wellhausen) الذى يوضح زيادة على ذلك ، كيف أن الأنبياء أدمجوا فى دينهم التصور الحديث لدولة — عالم (أى أشور) التى كانت تحطم الأمم الأخرى ودياناتها .

(٤) هوشع : ٦ ، ٦ وعاموس : ٥ ، ٢١ — ٤ قابل اشعياء : ١ ، ١١—١٧ و٢٢ ، ١٢ — ١٣

صورة المعرفة ، أن الأنبياء يعبرون عن العلاقة الخلقية بين يهوه وشعبه . ان يهوه كان يعرف اسرائيل وأبى اسرائيل أن يعرف يهوه . « لا أمانة ولا احسان (محبة) ولا معرفة الله في الأرض ... لقد هلك شعبي من عدم المعرفة لأنك أنت رفضت المعرفة أرفضك أنا » [1] . وعند عاموس ، تكون هذه المعرفة بالاعتراف العملي بالعدالة الاجتماعية وفي مراعاة الانسانية والتعامل العادل بين الانسان والانسان . وعند هوشع ، تكون نغمتها الجوهرية المحبة ، محبة الطفل لأبيه والعروس لزوجها . ان ما تمرس به شخصيا من تجربة مريرة في عدم أمانة الزوجة التي كان يحبها يضفي شعورا فريدا بالاشفاق على الصورة التي وضعها هوشع لرفق يهوه الذي لا يعتريه وهن ، وهجران العبريين ليهوه لاشباع شهوة جسمية للبعليم الكنعاني . لقد فصمت الأمة وثاق زواجها ، وفي قلب موجع ، يساق يهوه الى النطق بالحكم على مصيرها : « والآن اكشف عورتها أمام عيون محبيها ولا ينقذها أحد من يدي » [2] .

٨ — لقد عالجنا في شيء من الاستفاضة رسالة عاموس وهوشع التنبؤية لأنها استهلت عهدا جديدا له مغزى يفوق الحصر في تطور دين العبريين . ولقد أزاح أنبياء العهد اللاحق الغطاء عن مظاهر تعليمهما الجوهرية بتطبيقها بوسائل متباينة على مجرى التاريخ العبري المتغير . وبسقوط المملكة الشمالية (٧١١) ينتقل مركز الاهتمام صوب الجنوب الى يهوذا وهنا ، تحت امرة ملوك من سلالة داود ، أصبحت الحكومة مركزة ومستقرة وغدت الحياة الاجتماعية ، ما عدا بلاط بيت المقدس ، أكثر بساطة وأقل ترفا وحتى ذلك الحين كان التهديد الأشوري نائيا . ولكن الآن ، جلب غزو السامرة العدو حتى الأبواب عينها . ولقد أتاحت الأزمة القومية ، كشأنها دائما ، الفرصة للوحي التنبؤي في شخص ميخا ، وهو زارع من تخم فلسطين واشعياء من بيت المقدس وهو أكبر شخصية في النبوة العبرية . واستغرق عمل اشعياء الأربعين سنة الأخيرة من القرن الثامن وكان منتهاه في عهد الملك حزقيال عام ٧٠١ ، عندما غزا الأشوريون في عهد سنخريب يهوذا وظهروا أمام أسوار الحاضرة ، وتتضمن الفصول التسعة والثلاثون الأولى من السفر الذي

---

(١) هوشع : ٤ ، ١ ، ٦ قابل عاموس : ٣ ، ٢ ، ١٠ وهوشع : ٢ ، على قصور اسرائيل عن معرفة يهوه .

(٢) هوشع : ٢ ، ١٠ قابل ١ و٣ و١١ ، ١ — ٨ والاستنكار النهائي ١٣

يحمل اسمه [١] ، تنبوءاته وهى فى مادتها ، تضرب على النغمة التى صدح بها عاموس وهوشع نغمة الاستنكار العنيف للخطيئة القومية وقصاص يهوه المحيق ، على يد أشور ٠ والتصور الذى يتملك اشعياء هو القداسة ، التعبير الشائع فى الدين الشعبى ، الذى يضفى عليه معنى روحيا جديدا ٠ ان يهوه ليس فقط « رب الجنود » ولكن « قدوس اسرائيل » ٠ والعبريون شعب مقدس تخصص لخدمته ٠ ولقد كانت قداسة يهوه على النقيض من نجاسته هو ونجاسة اسرائيل التى أوقعت على النبى الخزى والفزع فى الرؤيا الرائعة التى دعته الى خدمة النبوة [٢] وتتمثل شريعة القداسة ، كما فى عاموس فى مطلب العدالة الاجتماعية وكما فى هوشع فى مطلب الاخلاص الشخصى ٠ وخطيئة الشعب هى أنهم« رذلوا شريعة رب الجنود واستهانوا بكلام قدوس اسرائيل »[٣] ٠ ويتميز اشعياء عمن تقدموه ، بالزمن المديد الذى استمر فيه نشاطه التنبؤى وبمكانته كناصح سياسى للملك ، معترف به [٤] وفى داخل الدولة ، كان يبشر بالعدالة نحو الزراع الذين كان يتكون منهم ، كما فى

---

(١) وخاصة فى الاصحاحات ١ ـ ١٢ و١٤ ، ٢٤ و٢٣ و٢٨ ـ ٣٢ ٠ ويرجع سفر اشعياء فى صيغته الحالية الى ما بعد السبى ٠ وأية مناقشة للمسائل التى يثيرها النقد الحديث ، تقع خارج نطاقنا ٠ ويجب على القارىء الرجوع الى روبرتسون سمث (Robertson Smith) أنبياء اسرائيل (Prophets of Israel) المحاضرة الخامسة (وخاصة التذكرة ٧ صفحة ٤٢٢) ومقدمة أدب العهد القديم لدرايفر
(Driver's Introduction to the Literature of the O.T.)
أما عن آراء أكثر جزما فأنظر شين (Cheyne) التعريف باشعياء ، ومقالته « اشعياء فى موسوعة التوراة (Encyclopaedia Biblica) » ، أما عن اشعياء الثانى فانظر ١٥ فيما يلى ٠

(٢) اشعياء : ٦ يجب دراسة الرؤيا فى عناية ٠ فى الدين التقليدى كان الشىء المقدس محرما أى محظورا على البشر استخدامه لأنه (مشحون) بخواص من خوارق الطبيعة ٠ أنظر روبرتسون سمث (دين الساميين) المحاضرة الرابعة (التذكرة ب) ويشوع : ٧ (قصة عخان) وصموئيل الأول : ١٥ (شاؤل وأجاج) وصموئيل الثانى : ٦ (عزه والتابوت) وللفظ فى اشعياء دلالة داخلية وروحية خالصة ، عن تقديس وتطهير القلب ولكون الكلمة عينها تستعمل كلقب لعاهرات المعبد اللواتى يحتجزن لفرائض المقدس الشهوانية التى لم تلغ الا عند اصلاح التثنية فان هذا يمكن أن يعد مقياسا للهوة الواقعة بين النبوة العليا والدين الشعبى ، فى ذلك الزمن ٠

(٣) اشعياء : ٥ ، ٢٤

(٤) وازن علاقاته مع احاز زمن الغزو السورى ـ الافريمى (٧٣٥ ـ ٤) اشعياء : ٧ ، ١ ـ ١٦ ومع حزقيا زمن غزو سنحريب (١ ، ٧) ملوك الثانى : ١٨ ، ١٣ و٢٠ (وهو المصدر الذى أخذ عنه اشعياء ٣٦ ـ ٣٩ فى معظمه) ٠

اسرائيل الشمالية العمود الفقارى للأمة وبالحاجة الى تحقيق الفروض الدينية كجزء لا يتجزأ من الحياة العادية [١] وفى السياسة الخارجية كان يحض على أن تقلع يهوذا عن الاشتباكات الدولية وخاصة التحالف مع مصر وغيرها من الدول ، ضد أشور [٢] وكانت مشورته الباكرة لآحاز التى أعيدت بعد ذلك بأعوام على حزقيال فى مواجهة هجوم سنخريب : « احترز واهدأ • بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم » [٣] ولقد وطد انهيار الجيش الأشورى سلطة اشعياء أمام عينى الملك والشعب • ونجم عنه أكثر من هذا لأنه هيأ ليهوذا مجال تنفس لاستيعاب درس التعليم التنبؤى • وفى المملكة الشمالية كانت الطامة قد حلت سراعا عقب تحذيرات عاموس وهوشع • ولم يعد بعد لدين يهوه أثر بين الأسرى فى أشور أو بين الفلول التى بقيت فى فلسطين ولو كانت يهوذا لاقت مصيرا مماثلا على يد سنخريب قبل أن تظفر حياة شعبها الدينية بقوة جديدة من رسالة اشعياء ، لكان الايمان باله قومى خالص قد اندثر بسقوط الأمة • ولكن يقين اشعياء كان يبرره الحادث وزال الخطر ومنع التدهور السريع الذى حل بدولة أشور سقوط يهوذا طوال قرن من الزمان • وعندما حل ذلك السقوط على يدى بابل ، كانت رسالة اشعياء قد تأصلت جذورها • وكانت قد تجمعت حوله ، فى حياته ، شرذمة أمينة وكونت النواة لمجتمع دينى فى داخل الأمة ويتميز عنها وفى هذه العصبة من تلاميذه [٤] كان يرى النبى الأمل فى عودة ، فى النهايه - بعد أن أوقع يهوه قصاصه على الدولة الحالية - لصهيون ممحضة تحت ولاية أمير من سلالة داود القديمة ولها السيادة على الشعوب المجاورة ، لأمة عبرية قدسها الألم وتعيش عيشها القومى فى توافق تام مع شريعة يهوه : « لذلك يقول السيد رب الجنود عزيز اسرائيل آه انى استريح من خصمائى وانتقم من أعدائى • وأرد يدى عليك وأنقى زغلك كأنه بالبورق وأنزع كل قصديرك • وأعيد قضاتك كما فى الأول ومشيريك كما فى البداءة بعد ذلك تدعين مدينة

---

(١) لعن الجور والترف - اشعياء : ١ ، ٢١ - ٣٠ و٣ ، ١٦ - ٢٣ و٥ ، ٨-٢٣ و١٠ ، ١-٣ وازن ميخا : ٢ ، و٣ ، ٢-٣ ، ١١

لعن السحر والعرافة اشعياء : ٢ ، ٦ و٨ ، ١٩

لعن عبادة الأوثان اشعياء : ١ ، ٢٩-٣٠ و٢ ، ٨ ، ١٨ ، ٢٠ وازن ميخا : ١ ، ٧

لعن الكهنة والأنبياء اشعياء : ٢٨ ، ٧ وما بعدها و٣٠ ، ٨ وما بعدها وميخا : ٢ ، ١١ و٣ ، ٥-٧ ، ١١

(٢) استنكر التحالف مع مصر فى اشعياء : ٣٠ - ٣١

(٣) اشعياء ٧ ، ٤ و٣٠ ، ١٥

(٤) اشعياء : ٨ ، ١٦ التى ربما تعنى « سأصر الشهادة واختم الشريعة فى قلب تلاميذى » وازن ارميا : ٣١ ، ٣٣ وقد وجدت أدراج البردى اليهودية فى أسوان (ترجع الى القرن الخامس ق•م•) مربوطة ومختومة •

العدل القرية الأمينة » [1] لقد ضرب على نغمة الرجاء ومنذ ذلك الحين ، يظل الايمان بعودة العبريين قائما ، فى شدة تطرد ازديادا كمظهر جوهرى للنبوة العبرية ٠

٩ ــ وأتى نفوذ اشعياء ثمرته على الراجح فى غضون حياته ، ويقينا بعد فترة من رد الفعل فى زمن منسى فى الاصلاح الدينى الذى وقع فى عهد الملك يوشيا (٦٣٩ ــ ٦٠٨) ٠ ولقد كانت مدونة القوانين التى جاءت فى سفر التثنية والتى نفذت رسميا عام ٦٢١ من عمل مدرسته وتشيع فيها برمتها روح تعليمه [2] ٠ وكان هدفها عمليا الى أبعد حد وهو جعل حيــاة العبريين اليومية الواقعية تتوافق مع مثل النبوة الأعــلى ٠ لقــد حظرت كل عبــادة الأصنام والتماثيل وكذلك ما تبقى من عبادات كنعانية ولقد نظمت الأواصر الاجتماعية والفرائض الدينية كذلك وفقا لروح الأنبياء [3] ٠وفوق هذاكله، ألغيت الهياكل المحلية دون هوادة وتركزت العبادة الدينية المحضة فى معبد بيت المقدس ولو كانت جمهرة الأمة برهنت على أنها خليقــة بأن تســلك الطريق الذى رسم لها فان تشريع التثنية ربما كان قد هيأ الوثيقة الكفيلة بالاصلاح ٠ ولكن لم يكن هذا ليحدث وظل المثل الأعلى التنبؤى مثلا أعــلى وحسب ، لا قدرة له على تغيير القلوب الا قلوب أقلية ضئيلة ويتجلى التناقض

---

(١) اشعياء : ١ ، ٢٤ ــ ٢٦ وازن ٧ ، ٣ و٢٨ ، ١٦ وما بعدها ٠ ان اشعياء مواطن بيت المقدس والمشير الملكى ، لم يكن لديه شيء من التحيز ضد المدينة ولديه ايثار للعودة الى حياة البداوة تلك النزعة التى كانت لسلفه من النبيين ٠ واذا كان أصحاح ٩ ، ١ ــ ٧ وأصحاح ١١ هما لاشعياء كما يعتقد معظم الثقاة فانهما يعدمان أروع تعبيرات عن الأمل فى العودة ٠ ولقد كان للعبارة التى جاءت فى اصحاح ١١ تاريخ لا يغيب عن البال ٠ ان ارجــوزة الرعاة الرابعة للشاعر الرومانى فيرجيل تحوى سطورا تماثلها تماثلا وثيقا وازن الجامعة : ٤ ، ٢١ وما بعدها و٥ ، ٦٠ واشعياء : ١١ ، ٦ ــ ٨ ٠ وهذا التشابه بين ما جاء فى فيرجيل ونبوءة فسرت على أنها تشير الى المسيح ، هو السبب الى حد بعيد للتبجيل الخاص الذى كان يضمر لفيرجيل فى العصور المسيحية الأولى وفى القرون الوسطى٠ ويلحظ شين (Cheyne) (الحياة الدينية) صفحة ١٠٣ ــ تذكرة ٠ أن فى كاتدرائية زامورا فى أسبانيا يمثل فيرجيل بين الأنبياء العبريين ٠ ومن الجائز أن فيرجيل والنبى العبــرى عبرا تعبــيرا مستقلا عن فكرة شرقية عامة ٠

(٢) توجد فى التثنية : ٥ ــ ٢٦ وهى منسوخة عن شريعة أقدم أتى عليها بالتحوير التعليم التنبؤى ٠ وعن قصة الاصلاح، أنظر ملوك الثانى : ٢٢ــ٢٣

(٣) لعن اشعياء عبادة التماثيل والأرواح فى الأشجار (١ ، ٢٩ومابعدها و١٧ ، ١٠) وكانت عبادة التماثيل قد لعنها هوشع (٨ ، ٤ ــ ٦ و١٠ ، ٥ و١٣ ، ٢) الذى كان تأثيره على التثنية أعظم من تأثير أى نبى آخر من أنبياء القرن الثامن ٠ وتحض التثنية على الشعور الانسانى والعــدل نحو الأرملة واليتيم والعبد والمستوطن الغريب وحتى العجم من الحيوان ٠

بين النصح والعمل ، فى وضوح عشية خراب أورشليم كما كان عشية خراب السامره ٠

١٠ - ولقد كان هذا الرفض العصى لارادة يهوه المعلنة هو الذى ختم طابعه على روح ارميا [١] ٠ ومرة أخرى كان العدو على الأبواب ، ليس الأشوريون الذين كان عصر امبراطوريتهم قد ولى ولكن نبوخذ نصر من بابل ٠ ودنت ساعة الأسر ووجدت حشرجة موت يهوذا تعبيرا لها فى صرخة النبى ، من التوجع اليائس ٠ وكان أرميا الكاهن الهابط من عناثوث ، فى صدر شبابه يناصر اصلاح التثنية ولكن الآن ظهر كأنه سخرية خاوية وكان شعاره هيكل يهوه » [٢] شبولت من الأنبياء والكهنة الكذبة ٠ ان هيكل صهيون ، مقدس العبادة التى جددت سيلاقى المصير الذى لاقاه مقدس شيلوه : « كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا ٠ حقا انه الى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب » ٠ « صار فى الأرض دهش وقشعريرة ٠ الأنبياء يتنبأون بالكذب والكهنة تحكم على أيديهم وشعبى هكذا أحب ٠ وماذا تعملون فى آخرتها» [٣] ٠ وارميا كانت دعواه الى عبادة ، لا تقوم على رسميات الهيكل

---

(١) كانت بداية تقدم ارميا كنبى عام ٦٢٦ وقت غزو السيثيين الذى جاء وصفه فى هيرودوت (١ ، ١٠٣ وما بعدها) والذى استدعى التنبؤات التى وردت فى ارميا : ٤ - ٦ ٠ ولقد تنبأ صفنيا ومن الراجح أنه كان أميرا من الدم الملكى فى ابان الأزمة نفسها (أنظر صفنيا : ٢ ، ٣ وما بعدها)٠ وقد عاون السيثيون على اضعاف دولة أشور التى كانت تسير الى تدهور ٠ وقد شنتوا شمل الفلسطينيين ووصلوا الى تخوم مصر ولكن يظهر أنهم أعفوا عن يهوذا ٠ ورأى صفنيا فى مجيئهم « يوم يهوه » أنظر صفنيا : ١ ، ١٤ وما بعدها وهى العبارة التى أوحت بالترتيمة المسيحية(Dies irea, dies illa) وقد عاش ارميا بعد سقوط أورشليم نهائيا على يد نبوخذنصر عام ٥٨٦ ٠ وتوجد أهم تنبوءاته فى الفصول ١ - ٢٤ وتنبوءات العودة فى الفصول ٣٠-٣٣ ، يشك فيها بعض النقاد الحديثين ولكن يقبلها ولهاوزن Wellhausen) ودرايفر (Driver) وكورنل (Cornill) على أنها ، أساسيا ، من عمل ارميا (فيما عدا ٣٣ ، ١٤-١٦) ٠ جاء (فى الفصل ٣٦) أن التنبوءات السابقة أعيدت كتابتها باضافات باروخ بأمر من ارميا بعد أن ألقيت بأعوام كثيرة ٠ وترجع الى نفس الحقبة تنبوءات ناحوم (حوالى عام ٦١٢ ، تاريخ سقوط نينوى) وحبقوق (قبل عام ٦٠٠ بزمن وجيز) ٠ ويجى حبقوق بتحول جديد فى تصور « اليوم » ٠ انه فى نظر الشعب ، يوم انتصار العبرانيين على أشور ولكن اذا فسر خلقيا فانه انتصار الأمة الصالحة على الأمة الطالحة ٠

(٢) القضاة : ١٢ ، ٦ « كانوا يقولون له قل اذا شبولت فيقول سبولت ولم يتحفظ للفظ بحق ٠٠٠ » ٠

(٣) ارميا : ٨ ، ٨ و٥ ، ٣٠ ، ٣١ وعن تبشير ارميا الباكر ، بشريعة التثنية أنظر الفصل ١١ ، ١ - ٨ وعن عبادة الهيكل أنظر فصل ٧ وعن الأنبياء الكذبة فصل ١٤ ، ١٣ - ١٦ و٢٣ ، ٩ وما بعدها وفصل ٢٨ حيث يناصر حنانيا ارميا ، العقيدة السياسة التى الهمت اصلاح يوشيا ٠

وقد دعا الى العدول عن القوانين السطحية وعن الديانة تؤخذ من الكتب والليإذ الى هيكل روحى وأضحيات روحية وفى نغمات أكثر وضوحا مما جاء بها أى نبى سابق ، نادى بمطالب دين شخصى • وأولئك الذين أتوا فى عصر لاحق، الذين أقاموا الدعوى ضد التشريع باسم القداسة الداخلية ، رجعوا بنظرة الى الخلف ولسبب صالح ، الى ارميا ، كمصدر للالهام [١] وهذه المأساة لطبع منطو على نفسه ، حساس ، تجبره دعوة متعالية لتشديد النكير على عصيان الحكام والشعب وأن يتنبأ بهلاكهم القريب ، استهوت فى قوة قاسرة ، خيال العصر التالية • ولما كان لاسبيل للخوف اليه وفى غمرة مجازفة بالحياة دائمة ، وهو يقوم بوظيفته « كجمل أو ثور يقاد للذبح » وكان بطلا ، كما قال كاتب عاطف ، ليس بطبعه ولكن بالنعمة ، فان ارميا كان يحس بانعزاله احساسا شديدا • ولم يكن يوجد انسان عامل بالعدل طالب الحق فى كل أورشليم [٢] وكان يتشوق عبثا الى التحرر من عناء رسالته المبرح : « يا ليت لى فى البرية بيت مسافرين فأترك شعبى وانطلق من عندهم لأنهم جميعا زناة جماعة خائنين » [٣] • وارميا هو الرائد للشعر الغنائى الدينى والملهم بالكثير من المزامير حتى لقد رأى فيه البعض نموذج ما جاء فى اشعياء : ٥٣ • ولما قنط من التوبة القومية « هل يغير الكوشى جلده أو النمر رقطه ؟ فأنتم أيضا تقدرون أن تصنعوا خيرا أيها المتعلمون الشر » [٤] فانه وجد ليإذا فى فكرة عهد جديد ، ليس كما كان قديما بين يهوه والأمة ولكن بين يهوه والعبرى الفرد • « فى تلك الأيام لا يقولون بعد الآباء أكلوا حصرما وأسنان الأبناء ضرست • بل كل واحد يموت بذنبه ، كل انسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه••• هذا هو العهد الذى أقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب اجعل شريعتى فى داخلهم واكتبها على قلوبهم وأكون لهم الها وهم يكونون لى شعبا • ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين أعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفوننى من صغيرهم الى كبيرهم يقول الرب • لأنى أصفح عن اثمهم ولا أذكر خطيئتهم بعد » [٥]

---

(١) وازن تصور ارميا الروحى للعهد الجديد ٣١ ، ٣١ ـ ٤: الذى اقتبس فيما يلى فى النص ، بمزمور ١١ ، ٦ـ٨ مثلا من الأمور الجديرة بالملاحظة • أن ارميا هو رائد دين هو على السواء اتصال الفرد الشخصى اتصالا داخليا مع الله ، وعام فى دعواه ليس فقط للعبرى ولكن للبشرية جمعاء • ومن الوجهين فانه أعلن روح المسيحية كما أعلن حزقيال روح اليهودية المتأخرة •

(٢) ارميا : ١١ ، ١٩ الكاتب الذى ذكر هو شين (Cheyne) ارميا ٥ ، ١ وعن محاولة قتله انظر ١١ ، ١٨ وما بعدها • (كانوا رجالا من عناثوث) ١٨ ، ٨ و٢٦ ، ٨ وما بعدها ، ٣٨ ، ٤

(٣) ارميا : ٩ ، ٢ وازن المزامير ٥٥ ، ٥ ـ ٨

(٤) ارميا : ١٣ ، ٢٣

(٥) ارميا : ٣١ ، ٢٩ ـ ٣٤

ان هذا القول يضرب على وتيرة جديدة فى تعـليم العبريين الروحى . ولقد خبا ضوء رؤيا الأنبياء الأوائل بادماج الفرد فى حياة ومصير الأمة ولم يكن الا بعد أن أدرك أرميا أن العبرى الحقيقى انكمش فى ذاته ، وان هذا التحيز أمكن التغلب عليه . ومن الآن كان الوعى بقيمة الدين الشخصى فى نطر يهوه ملكا مقيما للنبوة العبرية . وفى الحق سار يهوذا الى السبى أمام عينى ارميا وأصبحت الهوة التى تفصل المثل الأعلى عن الواقع أكثر عسرا فى امكان اجتيازها ، مما كانت عليه الحال فى أية لحظة فى التاريخ . وقد نفى رؤساء الشعب الى بابل عام ٥٩٧ وبعد ذلك باحدى عشرة سنة دمرت أورشليم وأصبحت دولة العبريين لا وجود لها (٥٨٦) ولكن ايمان ارميا بيهوه كاله العبريين الحى ظل ثابتا لا يتزعزع بانحلال الأمـة السياسى . كان نبوخذ نصر خادم يهوه ، ويهوه سـلم العبريين الى يده [1] وقد قـدر لرسالة النبى تحقيق أزخر مما كان يحلم به . واذا كانت كلماته ، كما تدل جميع الظواهر قد عجزت عن انقاذ روح الأمة فان عكس ذلك كان ، حرفيا ، الحق . ولما كان قـد حملهـا الأسرى معهم الى السبى فانهـا كانت مفعمة بالنشاط الذى يبعث بالحياة فى الزمن اللاحق . وقد اتاحت ساعة الانهيار الدنيوى الفرصة للأمة العبرية للولوج فى رسالتها الروحية للبشرية .

٣ - السبى وما بعـده

١١ - لقد دمغ الأسر فى بابل ، بطابع عميق ، تاريخ المنفيين الأصلى . لقد أصبح هيكل أورشليم حيث كانت تتركز العبادة الدينية وفق اصـلاح التثنية ، خرابا [2] وكان الشعب المختار فى الواقع ، تحت حظر . ولقـد حطم فى عنف الأمل الذى كان يشيع فى الدين الشعبى القـديم بأن يهوه سينقذ العبريين من أعدائهم وقام الدليل على أن « اليوم » ، كما تنبأ عاموس واشعياء يوم ظلام وليس يوم نور . ولولا وجود بذور عقيدة أرفع ، غرسها تعليم الأنبياء ، فربما كان المنفيون قد اندمجوا وفقا لنية هازميهم فى حياة بابل الدينية والقومية . ولكن الأمر كان فى الواقع خـلاف ذلك . لقـد أوجدت حالة انعزالهم عينها ، حيوية متجددة فيما كان يبلغ أسـمى ذروة وأعظم مكانة ممتازة ، فى عقيدتهم . ودلت أولا على أنها كانت دافعـا قويا لدين القداسة الشخصية الذى وجد تعبيرا له فى نبوءات ارمياء لقد التمست الروح الفـردية التعـزية والملاذ فى الاتصـال الروحى الشـخصى بيهوه .

---

(١) ارميا : ٢٧

(٢) ومع هـذا ، فان الموقع لم يكن مما لا يمكن الوصول اليـه (انظر ارميا : ٤١ ، ٥) ويظهر أن حياة متواصلة دأبت على السير بين أولئك الذين تركوا فى اقليم يهوذا ولو أنه كان ينقصهم النشاط للقيام بأية اعادة .

وثانيا ، على النقيض التام من اخلاص القلب هذا ، استعاد المنفيون فى آصرة ولاء ، تقاليد عبادة الهيكل القديمة وجمعوا فى دراسة وثيقة تراث التعاليم الشعبية التى تتصل بالفرائض • وعكف الكتبة الكهنة على تفسير الشريعة وتطويرها وعقدت اجتماعات ، يوم السبت ، للصلاة وقراءة الأنبياء وعكفوا على الصوم وتذليل الجسد وبدأت المجامع تحل محل الأمة التى توارت • وكان عهد النفى ، عهد تأسيس الكنيسة اليهودية واكتسبت السلطة الكهنوتية والمنظمات الكنسية قدرا جديدا • وازداد الاعتقاد بأن دين يهوه يمكن المحافظة عليه فقط بالقيام الدقيق بنصائح الناموس • ولقد تكررت نفس العوارض فى الأزمن التالية بعد العودة من الأسر ، فى القرن الخامس، ومرة أخرى فى صبغ تعليم الربانيين بالصبغة الشرعية بعد أن دمر الرومان الهيكل الثانى وتشتت الشعب العبرى نهائيا • والأمر الثالث هو أن المنفيين التمسوا التعزية والرجاء فى رؤية صهيون وقد عادت الى سيرتها الأولى ، عندما يسكن العبريون ، مرة أخرى الأرض التى يملكونها ويحكم أمراء من نسل داود بالصلاح كخدام لارادة يهوه • هذه هى النغمة السائدة فى نبوءة السبى وما بعد السبي ولم تعد كلمة يهوه بعد كلمة غضب ومصير وشيك الوقوع ، والآن وقد وقع القصاص على خطيئة العبريين فان يهوه كشف عن نفسه فى اشفاق محبة كمنقذ ومخلص شعبه ، ذى الفضل • وتظهر هذه الخصائص الثلاث لعصر النفى ، فى نبوءة حزقيال وهو كاهن عبرى ، نفى الى بابل عام ٥٩٧ ويرجع عمله فى التنبوء الى الأعوام التى تستهل الأسر (٥٩٢ — ٥٧٠) • ويترك سفره فى نفس القارىء أثرا قويا عن وحدة تكوينه وقد يكون ، كما هو اليوم قريبا جدا من حالته عندما كتبه حزقيال على ضفاف خابور منذ خمسة وعشرين قرنا خلت• ولكن من المحتمل أن جزءا من السفر ، كما يعتقد بعض النقاد ، كتب فى أورشليم وأن أجزاء أخرى (كالفصول الختامية) أضافتها يد أخرى بعد ذلك • وعلى غير شاكلة النبوءات السابقة فانه فى معظمه انشاء أدبى ، لا مجموعة من أقوال نطق بها ، ولو أنه يحوى بعض النبوءات الشفوية [1] ويشمل سردا متتابعا من الأحاديث رتبها فى منهج منظم ، بيده • وهو يزخر بالرؤى والرمزية وينعكس من خلاله ، مزاج اللاهوتى الكاهن [2] • وكان حزقيال (ا) صلبا فى توكيده المسئولية الفردية والقصاص • وقد أقلع مرة واحدة ودون رجعة

---

(١) حزقيال : ٣٣ ، ٣٠ ، ٣١ عن هذه المسائل المتنازع فيها ، انظر مقدمة كوك (Cooke) فى « حزقيال » فى (التعليقات النقدية الدولية) (International Critical Commentary)

(٢) فى حزقيال ، يمكنا أن نتتبع أصل أدب الرؤيا ، الذى حل فيما بعد محل النبوءة • أنظر ١٥ فيما يلى وعلى غير شاكلة نبوءة ما قبل السبى فان نبوءة الأسر وما بعدها تتخذ صيغة أدبية • لقد كتبها النبى نفسه ولم يكن بالضرورة ، أن نطق بها على الاطلاق •

عن تصور يهوه التقليدى كاله غيور ينتقم لذنوب الآباء فى الأبناء ، ان كل انسان ينهض أو يهوى ، فى نظر يهوه ، بافعاله الخاصة : « الابن لا يحمل من اثم الأب والأب لا يحمل من اثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون » [١] والى الآن لا يوجد تفكير فى قصاص فى الحيــاة الأخــرى ويأخذ الانسان نصيبه من رغد العيش فى الحياة الدنيا أو يلاقى المحنة وفق استحقاقه الخلقى · وسنرى فى قسم آت ، كيف عجزت هذه الفردية المغالى فيها ، فى ارضاء وعى الشعب العبــرى الخلقى المتطور · ولــكن بالنظر الى الاستمساك الشامل الذى كان يحرص عليه التعليم الدينى الباكر ، بمطالب المجتمع ، كان من اللازم ومن الطبيعى أن يصر حزقيال ، فى توكيد ينحاز كذلك الى جانب واحد ، على مطلب الفرد التكميلى وهو وجوب أن يكون المقرر لحكم يهوه ، الرجوع الى أعماله والى أفعاله دون سواها · وقد واجه النبى تذمر المنفيين من أن طرق الله لم تكن متعادلة وكان الجواب وقد اعترف فيه بالشخصية الفردية ، يدل على تقدم خلقى · ما كان بالمستطاع تحقيق أى تقدم صادق فى التأمل الخلقى الا بعد أن يكون مبدأ الجزاء الشخصى قد تأيد ووجد ناقصا ·

ثانيا (ب) نحوى الفصول الختاميــة من ســفر حزقيــال الوعــد بعودة اسرائيل · سيجمع يهوه من جميع البلدان غنمه المشتتة : « وأصيرهم أمة واحدة فى الأرض على جبال اسرائيل ··· وداود عبدى يكون ملكا عليهم·· وأجعل مقدسى فى وسطهم الى الأبد ··· وأكون لهم الها ويكونون لى شعبا· فتعلم الأمم أنى أنا الرب مقدس اسرائيل اذ يكون مقدسى فى وسطهم الى الأبد » [٢] ·وينحصر أفق حزقيال فى مستقبل الشعب المختار [٣] ، اذ لامكان للأمم فى ملكوت مسيا ولكن نبقى بعــد انتصــار العبريين لمجــرد أن نفنى لحظة اعترافها بقوة يهوه القاهرة [٤] · وتسيطر الغيرة على كرامة يهوه على كل سلسلة تنبوءات حزقيال ومجرى تفكيره أنه يتحتم على يهوه ان يعيــد اسرائيل وبهذا فقط تحفظ كرامته وتتجلى قوته أمام أبصار الأرض كلها · ولهذا استفاض فى شرح الهوة التى لا يمكن أن تقاس ، تلك التى تفصل نجاسة الانسان عن قداسة يهوه ستجعل أمة العبريين المعادة فى حالة من

---

(١) حزقيال : ١٨ ، ٢٠ أنظر الفصل كله و١٤ ، ١٢ ـ ٣٠ و٣٣ ، ١ ـ ٢٠

(٢) حزقيال : ٣٣ ـ ٤٨ وخاصة ٣٦ والاقتباس من ٣٧ ، ٢١ ـ ٨

(٣) هذا ما يورده المؤلف عن العقيدة العبرية · ولا يمكن أن تقبل عقول الأحرار فى زمننا هذه النعــرة العنصرية ولا يمكن أن يسمح دين ســماوى بابادة شعب وادع مسالم لصالح طائفة من جواب الآفاق ·

(المترجم)

(٤) حزقيال : ٣٨ و٣٩ · ولكن هذت الفصول عن الأمور الأخروية ، وأجزاء عظيمة من الفصول ٤٠ ـ ٤٨ ، من المحتمل انها أضيفت بعد ذلك ·

الوضاءة . ويظهر الكاهن فى حزقيال فى جلاء فى (حـ) هذا المثل الأعلى من الطهارة الفرضية . وهو يضع رسما مجملا فى الفصول التسعة الختامية للدستور المثالى للمجتمع المعاد . وتستبين فى كل صفحة الصبغة الرسمية التى تتخذها نظرته وتصوره للقداسة التى توجبها الفروض . والفكرة التى تسيطر عليه كانت فكرة حكومة مقدسة من الكهنة يظاهرها أمراء ينتمون الى بسميا من بيت داود وتنظم حيـاة العبريين الدينيـة من هيـكل أعيـد تجديده . ولقد وضعت أبغاد المقدس الجديد فى تفصيل دقيق . وقد أمر بالختان ، ليس كعادة قومية ولكن كمرسوم الهى . وكان حزقيـال الرائد الأول لحكومة الهية مثلى ، اشتملت عليها فعلا منظمات عهد العودة وكان الأب الحقيقى لمدونة الشريعة الكهنوتية . وقد قام نظام قانونى وتصـور أمة ــ كنيسة ، ليبقيا . ان عهد الأنبياء كان على وشـك أن يفسح المجـال لعهد الشريعة .

١٢ ــ وبما أن هدفنا هو ألا نستعرض تاريخ حياة العبريين الدينية فى متنوع مظاهرها ولكن بالحرى أن نوضح ما خلفته للمدنية الحديثة فاننا لن نترسم نمو النظم القانونية فى حقبتى السبى وما بعد السبى أو نطيل النظر فى قشرة التفقه والرسـميات التى كانت تحجب فى بعض الأوقات تعليم الأنبياء النظام الأكبر [١] . ومع هذا فان تأثير الأنبياء على ديانة العبريين لم يبلغ أعظم مداه قط الا فى القرون التى أعقبت العودة . « ان الرأى القائل ان سفر الشريعـة لعـزرا حـول الدين العبرى الى فرائض ونظم قانونيـة جـدباوين ، ينقضـه كل أدب الزمن التـالى » هـكذا يكتب دكتور مـور (Dr. Moore) [٢] وقد استحضر فى خاطره الكثير من أحسن ما جاءت به

---

(١) بعد أن وطدت الشريعة حكمها المطلق كمذهب كامل للأوامر الالهية فى المجتمع المعاد لم يعد بعد مجال للالهام الذاتى . وعلى هذا ، ما كان لكاتب جديد أن يتقدم دون أن تأذن له الشريعة . وقد نسبت اضافات الى كتابات تنبوءية الى أنبياء (مثل دانيال) ، سابقة للشريعة . والتفاخر بالتأليف كان غريبا على الطبع السامى وروح النبوءة العبرية . وكانت العناوين التى تنسب التنبوءات الى واضعيها اضافات جاءت فى زمن لاحق . وقد نسبت الى أسماء وهمية أسفار الرؤيا التى تكشف عن المستقبل والتى حلت محـل النبوءة (انظر ما يلى ١٦) . ولقد أدار الدين العبرى على مذهب الربانيين الذى كان ذا صبغة قانونية ، ظهره الى أسفار الرؤيا فى القرن الأول بعد الميلاد وترك المجال الى الكتاب المسيحيين وواضعى تلك الأسفار ، ولقـد نبذت أسـفار الرؤيا المسيحية ، وقد تخلصت من ربقة الشريعة ، الأسماء الوهمية ولكن احتفظت بها أسفار الرؤيا العبرية خـلال القرون الأولى من عهدنا وخـلال العصور الوسطى ــ انظر شارلس (Charles) الأمور الأخروية (Eschatology) الصفحات ١٩٦ وما بعدها و٤٠٣ وما بعدها .

(٢) الدين العبرى (Judaism) ــ ١ ، ١٦

المزامير والأمثال وأيوب والاضافات الى الكتابات التنبوءية التى يرجع تاريخها الى العصرين الفارسى والاغريقى · ولم يكن الا فى تدرج شديد ، ان الالهام التنبوءى كتمت أنفاسه · ولقد ظل قوة حيـة حتى ارتفـاع نجم المـذهب الفريسى ·

كان للقرون التى أعقبت العودة مغزى خطير فى تاريخ الدين العبرى اللاحق · وفيها أقرت الخطوط الجوهرية فى المراس الدينى والخلقى للأزمنة المقبلة · وعنـدما غـزا قورش بابل أذن للمنفيين بالعـودة الى أوطـانهم (٥٣٨ ـ ٧) وبعد ذلك بقرن (٤٥٨) لحق بالمجتمع العائد طائفة من الكهنة بزعامة عزرا ، الذى حمل معه شريعة من عمـل يهود بابل ، تناولتهـا يد التجديد · وهذه الشريعة التى أنفذها عزرا عام ٣٩٧ ، أصبحت منذ ذلك الحين شرعة المجتمع الهادية · ولقد تحولت شريعة التثنية الى مدونة قوانين كهنوتية وأعيد تدوين تقاليـد الماضى لتصبح تاريخـا كهنوتيا · واتخـذت الأسفار الخمسة شكلا يطابق فى الواقع الشكل الذى نقرأها فيه ، فى كتابنا المقدس اليوم · ونغمتها فى وضعها المعاد الذى قام به عزرا كانت تلك التى جرى عليها حزقيال ، النغمة الكهنوتية · ولقـد تجمعت أمة عبرية مصطنعة ، مجمع وليس دولة ، كان الواعز لها مثل أعلى للقداسـة اللاوية حول عبادة تؤدى فى الهيكل فى اورشليم [1] · وقد عقدت الرياسة للكاهن الأعظم · وكان تعليم ما بعد السبى هو أن كل شئ فى الأمة العبرية هو من حق يهوه ، واذا دفعت الضريبة المقررة فانه سيرسل بركته على ما تبقى· كان المبدأ نبيلا ولكن تطبيقه من جانب أصحاب الفتاوى ، اصبح وقد قارب أن يكون غير محتمل [2] ان مخالفة فرائض العبادة دون أن يكون لها ، فى الغالب ، مغزى يتصل بآداب السلوك أصبحت تعد خطيئة لها نفس الخطورة التى تكون لانتهاك القانون الخلقى لأن كليهما ، بوصفهما أوامر يهوه ، كانا فرضا لا يحده شرط [3] · وعلى مر الزمان ، أصبحت سلطة الكتاب الذين

---

(١) بنى الهيكل الثانى عام ٥١٦ ونغمة هذا العصر نجد رجع صداها فى حجى وزكريا : ١ ـ ٨ وعن الطهارة الخارجية أنظر اللاويين : ١٢ و١٤ ، ١ ـ ١٨ ، ٣٣ ـ ٥٣ و١٥ ، ١٦ ـ ٣٠ ومع هـذا ، فمن الجـدير ان نتذكر ملاحظة كوينن (Kuenen) (دين اسرائيل : ٢ ، ٢٨٥) : « لا يسعنا الا أن نعترف بأن تلك التخطيطـات التى كان يرتئيها الشارع (لمدونة القوانين الكهنوتية) كانت جليلة وجميلة · ولقد وضع بطريقـة عامـة فكرة شعب مقدس يخصص نفسه ليهوه ، وحاول أن يحققها فى مجال واسع » ·

(٢) انظر انج (Inge) : مقالات صريحة (Outspoken Essays) ، القديس بولس ص ٢١١ و٢١٥ ـ ٢١٦ عن : التعليم المدرسى ، فى عهد الربانيين فى أزمنة الرسل ·

(٣) انظر ، على سبيل المثال ، الخروج : ٣٠ ، ٣٣ واللاويين : ١٠ ، ١ـ١٦ و١٤ ، ٣٣ ـ ٥٣ واللاويين على وجه عام ·

كانت مهمتهم تدوين وتفسير القانون تنزع الى الحلول محل سلطة طائفة الكهنة [١] وأصبح الدين العبرى ، فى اطراد يتزايد ، دين كتاب مقدس [٢]
ومن هذا الينبوع ، انبثق القانون الشفوى بأثقاله التى تطرد ازديادا . وفوق ذلك كله ، فان الحاجز الفاصل بين العبريين الذين كانوا يراعون الشريعة التى أعيد وضعها ، من جهة ، والسامريين الملحدين والأمم الوثنية من الجهة الأخرى جعل بحيث يكون مانعا على الاطلاق . وفريضة الختان وهى الطابع المميز للصفة القومية استعرضت فى التاريخ الكهنوتى كجزء لايتجزأ من دين يهوه ، وآية ميثاقه الأبدى مع ابراهيم . ونستطيع أن نرى السبب الذى دفع العبريين العائدين لوضع هذا القصر الصارم . ولقد غدا الاتصال بين الشرق والغرب، فى ظل الامبراطورية الفارسية وخاصة فى ظل امبراطورية مقدونيا ، أكثر توثقا وتحطمت على التدرج حواجز السلالات وكان يمكن أن يفقد عابدو يهوه الأتقياء فى يسر ، ذاتيتهم ويندرجوا فى العالم الوثنى الذى يقوم حواليهم لولا أنهم اعتصموا بعقيدتهم المتميزة ومعها قوميتهم المتميزة بسور من الشريعة الرسمية يحيط بهما . انهم كانوا مقدسين أمام يهوه ، أما من عداهم من الخلق فلم يكونوا مختتنين وكانوا أنجاسا . وهذا الوعى بدعوة خاصة والعزيمة التى لا تتزعزع بأن يكونوا موالين لالتزاماتها زادتهما شدة ، فى القرن الثانى ، اضطهاد انطيوخس افيفانس Antiochus Epiphanes (١٧٥–١٦٤) وبعد ذلك غزو روما . ويمكننا أن نرجع الى ذلك العهد مصدر الثبات الذى يبعث على الدهش الذى يتسم به الدين العبرى وطبيعة السلالة العبرية خلال التاريخ التالى كله . وتوجد ، دون ريب عظمة فى مشهد شعب صغير سفر ، صفر اليدين من دعائم الوحدة الطبيعية والسياسية ، وهو يوجد روافد صناعية تأتى عليه بالنفع فى الحفاظ بقوميته كصخرة بين عواصف تتناوح من كل جانب . وكان الثمن الذى دفع باهظا وهو فرض عبء فادح أوصد الباب أخيرا وصدا نهائيا أمام الأخوة الروحية مع عالم الأمم الوثنية . ومن ذلك الحين ، كان فقط بالانفصال الثورى عن العقيدة العبرية الصحيحة ، أن روح دين الأنبياء أتيح لها أن تشيع فى المدنية الغربية . ويجب أن نبحث فى مظنة أخرى

---

(١) بعد ختام العهد الفارسى عام ٣٣٢ ، يظهر الكتبة كطبقة تمتاز عن طبقة الكهنة .

(٢) ولم تكن قد تحددت بعد حتى فى القرن الأول الميلادى أسفار التوراة المقبولة لدى الكنيسة المسيحية كقانون للايمان . لقد تسلمت المسيحية الأسفار اليهودية ومعها مبدأ الالهام الحرفى واضافت (العهد الجديد) الذى كان أكثر تجانسا فى محتوياته وفى مستوى تعليمه الروحى من (العهد القديم) ، ويمكننا أن نوازن تأثيرات (دين كتاب) على الدين العبرى قبل قيام المسيحية ، وتأثيرات احيائه بعد حركة الاصلاح التى لا يزال يمكن تبينها الى اليوم .

غير الشريعة عن التراث الأصلي الذى تركه العبريون للبشرية(١) فالشريعة كانت الصدفة وليست نواة الحياة الدينية فيما بعد السبى • ولقد نهض جنبا الى جنب مع الصيغ الرسمية الفرضية دين من التقى الداخلى والرعة ، وجنبا الى جنب مع خواص المجتمع الصحيح خلجت رؤية مملكة

---

(١) يجب ألا تؤخذ هذه العبارة كانكار للتأثير الواضح الذى كان للشريعة الموسوية على تاريخ المسيحية • فعلى سبيل المثال ، تركت النصائح الخلقية التى جاءت فى الأسفار الخمسة الأولى من التوراة ، أثرا عميقا على آداب السلوك المسيحية • لقد احتفظت المسيحية عندما امتزجت بالهلينية ، بمدونة القوانين الخلقية العالية التى ورثتها عن الدين العبرى ، وتدعو الحال فقط الى ذكر الوصايا العشر • ثم أن تاريخ نظام الكهنة ونظام القساوسة المسيحيين أثرت عليه المدونة الكهنية اليهودية وتصور العبريين لوظيفة الكاهن • والرسالة الى العبرانيين هى مثال باكر لهذا التأثير ، وهى التى تركت أيضا طابعها على مبدأ التكفير المسيحى ، ومع هذا فان النظام الكهنوتى المسيحى ، على غير شاكلة النظام العبرى ، لم يكن قط وراثيا ويغلب عليه العزوبة ، وكذلك تأثر الفكر القضائى المسيحى بالشريعة الموسوية كما يتجلى ذلك فى (Aquinas' tractate de legibus (S. Th. ii. 199 90-108) • لقد كانت الشريعة الموسوية النموذج للتعديلات التى أدخلها قسطنطين وخلفاؤه المسيحيون فى الامبراطورية ، على قانون روما الجنائى • ولقد كتب جبون (Gibbon) (فصل ٤٤) : « لقد استقبلت شرائع موسى كمصدر الهى للعدالة وكيف الأمراء المسيحيون قوانين عقوباتهم على درجات التسفل الخلقى والدينى » ، فعلى سبيل المثال ، أصبح الزنا جريمة عقابها الموت • وقد لقى هذا التأثير القضائى للشريعة العبرية واعزا قويا فى زمن الاصلاح • وقبل ذلك الوقت ، لم تؤثر الى درجة خطيرة على القوانين الفعلية لدى الشعوب الغربية • ان الفرد (Alfred) يشير الى موسى فى مقدمة مدونة القوانين الانجلوسكسونية ولكن القوانين التى تجىء بعدها لا تستبين فيها أية علامة للتأثير ، ومن الجهة الأخرى ، كثيرا ما أدمجت الجماعات البروتستانتية نصائح موسى فى تشريعها ، وفى اعلان أصدره الزراع الألمان فى عام ١٥٢٥ نجدهم يطالبون بأنه « يجب الغاء صفة علماء القانون وأن تجرى العدالة طبقا لشريعة موسى لأنه لا يجمل بالانسان أن يحصل على قانون أفضل من ذلك الذى أعلنه الله » (فنوغرادوف (Vinogradoff) ــ القانون الرومانى فى أوربا العصور الوسطى صفحة ١٢٩) ولقد رفض المستعمرون فى مساشوستس (Massachusetts) أن ينتهجوا مذهب المحاكمة بوساطة المحكمين لسبب أن موسى فى شرائعه لم يصرح بها ؛ وكانت عقوبة الموت للسحر ولانتهاك يوم السبت ، هناك وفى أماكن أخرى بين جماعات المحضنين ، لها ما يبررها استنادا على ما جاء فى شريعة موسى • ويكتب ى•ن•فيجس (J.N. Figgis) من جرسن (Gerson) الى غروتم (Grotlm) صفحة ٢٠٩) : « ان القانون لدى لوثر (Luther) سواء أكان طبيعيا أو خلقيا أو مدنيا ، كله يندمج فى الوصايا العشر وأى شىء غيرها هو مجرد قوانين ادارية سواء فى الدولة أو الكنيسة » •

مثالية فى صهيون يكون من أمرها أن تضم جميع الشعوب وتحمل الخلاص ليس فقط للعبريين ولكن للأمم [١].

١٣ — وكان من الطبيعى تماما أن هـذا التعبـير المزدوج عن العقيـدة الدينية ، الذى يضـم المثلين الأعليين ، الاتصـال الروحى الشـخصى بالله وملكوته العام ، ينهض فى آن واحد مع خاصية الشريعة . ومثال توضيحى لنزوع الحد الأقصى للفردية والتعميم ، هذا ، الى التقابل فى تلاحم وثيـق تقدمه الهلينية المعاصرة حيث أصر الفلاسفة الرواقيون عند انحلال دولة — المدينة الحرة ، بعد الغزو المقدونى ، على مطالب الفضيلة الفردية وكذلك على عضوية مجتمع عالمى . ويبرز هذان المثلان الأعليان فى الأدب الدينى العبرى فى عصرى السبى وما بعد السبى . ومن الضرورى جدا فيما يتعلق بالأول أن نلحظ ، وخاصة بعد ما قيل عن الصفة الرسمية التى ميرت وضع مدونة القانون الكهنى ، كيف بعث حكم الشريعة فى المجتمع العبرى مستوى خلقيا رفيعا وعنصرا من التقى زاخرا . ان قوة دين العبريين كانت ، الى حد ما ، تتأصل في ضعفه بالذات [٢] ولقد دل المجمع المحلى ، باجتماعاته للصلاة العلنية وقراءة وتفسير الكتاب على أنه واعز قوى للدين فى الفرد . ومما هو أجـدر بالملاحظة ، ان عبـادة الهيكل نفسها ولدت روحا من التقى المستعر ظفرت بتعبير دائم فى المزامير . ولما كانت نتاج مؤلفـات متعاقبـة يتراوح تاريخها بين عهد السبى الى القرن الثانى ، فان هذه الترانيم التى لا يعرف لها مؤلف والتى تشتمل على المزامير ، سميت ، لسبب صالح ، « كتاب ترانيم

---

(١) انظر التذكرة الاضافية فى خاتمة هـذا الفصـل عن تاريخ العبريين فيما بعد السبى .

(٢) لقد بين مستر كلود مونتفيور(Mr. Claude Montefiore) فى محاضرات هبرت (Hibbert) لعام ١٨٩٢ ، فى جلاء كيف أن الشريعة نمت الحياة العليا الخلقية والروحية فى مجتمع ما بعد السبى . ولم تكن نتائج النظم الشرعية نيما يتعلق بالسلوك ما يتوقع مبدئيا منها . وهو يقول : « ان المرء فى حاجة الى أن يأخذ حذره عند الكتابة عن الشريعة » (صفحة ١٧٨ تذكرة ١) ، ان ما كانت تتميز به حياة أتباع الشريعة الصادقين هى الطهارة وحسن الصنيع، وفوق كل شيء البهجة فى الخدمة المحبة . ولم يكن العبرى يشعر أنها حمل ولو أنها من جهة نظر التعميم كانت حملا . وفى هـذا الفصـل يعـالج دين العبريين بصفة شاملة من وجهة النظر هذه وتقع قيمتها داخل نطاق الدين العبرى ، خارج اختصاصنا . وعن الدين العبرى فى القرن الأول بعد الميلاد، انظر فصل مستر مونتفيور بعنوان « روح الدين العبرى فى بواكير المسيحية» لجاكسون (Jackson) وليك (Lake) المجلد الأول .

الهيكل الثانى » [١] وهى تشهد فى كل صفحة كيف كان قلب الفرد من العبريين يدق فى توافق مع قلب مجتمعه الدينى · انه كان يعيش ويتحرك وله كيانه ، فى حياة العبريين الروحية ·

واذا لم يكن يهوه الها قصيا ولكنه « عون حاضر فى الضيق » فلأنه كان « يرعى العبريين » واذا كانت روحه تشتاق الى يهوه « كما يشتاق الايل الى جداول المياه » فمرجع ذلك الى أنه انفصل عن مقدس الهيكل الذى اتخذه اله السماء والأرض مسكنه الخاص، وسط شعبه المختار [٢] ، وعندما يتحدث صاحب المزامير فى صيغة المتكلم ، فليس ذلك باسمه هو ولكن باسم الطائفة الروحية التى تندمج فيها شخصيته الخاصة · ولقد الهم بعض المزامير ، مباشرة ، الاخلاص للشريعة أما البعض الآخر ، ففى نهج أكثر حصرا ، يعبر عن مطامح وآلام انصار المذهب الصحيح الصارم ، الحاسديم (الأسدائيون أو الاتقياء ــ السابقون الأولون للفريسيين) الذين بذلوا حياتهم فى مقاومة الهلينية فى أيام انطيوخس افيفانس [٣] Antiochus Epiphanes. وانا لنسمع، جنبا الى جنب مع الافصاح عن الايمان بيهوه وبالفرح فى حضرته ، صدى الذكريات القومية القديمة والآمال فى خلاص قومى والبهجة فى عبادة المعبد ، ولكن اهمية المزامير بالنسبة لنا ترجع بالحرى ، الى انه تشيع فيها روح من الاخلاص الدينى تسمو على حدود العبادة الكهنوتية وحدود الشريعة، الضيقتين · والتأثير الذى بسطته هذه القصائد فى القلب البشرى خلال الفى سنة ونيف ينهض دليلا على شدة وعظم الشعور الذى الهم أولئك المؤلفين بجانب أمواه بابل ــ الذين نجهل اسماءهم ــ بها ، وكذلك الى الذين قاموا فى المجتمع الذى التم شمله فى فلسطين · وفى بعض المزامير ينفذ التقى الشخصى ، عن وعى ، من خلال الحواجز التى أقامتها السنن الخارجية ويعرض عن الشريعة المكتوبة الى تلك التى رقشت على صفحات القلب [٤] انه هذا التنوع وهذا الفيض من العاطفة الدينية الذى يلم بكل الحالات

---

(١) ولو أنها ، على غير شاكلة كتب الترانيم التى لدينا ، لم تكن قط بين أيدى المجمع · ومن المحتمل أن بعض الترانيم ترجع الى ما قبل السبى ولكن من غير المرجح أن أيا منها من تأليف داود · انظر درايفر (Driver) «المقدمة» وشين (Cheine) « أصل المزامير » ·

(٢) مزمور ٤٢

(٣) الاخلاص للشريعة وخاصة المزمور : ١١٩ ومزمور : ١ يعبر عن مشاعر (الأتقياء) أو (الأبرار) على النقيض من (الأشرار) و (الخطاة) و (المحتقرين) وازن ١٢ ، ١ ــ والاشارة الى الهيكل واضحة فى المزامير ٢٤ و٢٧ و٦٥ و١٣٨ وعن تفصيل مجمل لموضوعات المزامير انظر درايفر (Driver) (مقدمة) الصفحات ٣٦٨ ــ ٩

(٤) مثلا المزامير : ٤٠ و٥٠ و٥١

النفسية التي فيها تتجه روح الانسان نحو الله ، فى أيام الخير كما فى أيام السوء ، هما اللذان جعلا من المزامير كتاب ترانيم ، ليس فقط للهيكل الثانى ولكن للدين العبرى فى جميع العصور وللكنيسة المسيحية أيضا ٠

١٤ ـ واذا كان العبرى الصالح قد وجد رضى لمطامحه ، فى دين خدمة المعبد ، العملى وفى مراعاة القانون فقد واجهته فى نفس الوقت مسألة تتصل بعلم اللاهوت وآداب السلوك ، كانت تسبب الكثير من فحص القلب فحصا خطيرا ٠ ومبدأ حزقيال الذى تردد صداه بعض المزامير [١] وهو أن كل رجل يلقى الجزاء الوفاق فيكافأ أو يعاقب بمقتضى ما هو حقيق به فى مدرجة حياته الدنيا ، لم يستطع أن يصمد فى مواجهة الوقائع ٠ ان أقدار الفرد كانت تعتمد كما هو جلى على أقدار رفاقه وماكانت حاجة السعادة الخارجية لتتناسب مع ما له من فضل ٠ وكان هذا التناقض العملى ، وليس أى تعارض فكرى ، هو الذى دفع الناس الى التشكك فى العدالة الالهية [٢] ٠ وقد لاذت بعض العقول الى التفريق بين الرخاء الظاهرى والرضى الداخلى وغيرها الى الفكرة بأن آلام الصالح ، لم تكن تأديبا وانما كانت تقويما بينما سعود جد الشرير كان من شانه فقط أن يزيد وقع الكارثة التى تجتاحه آخر الأمر [٣] ٠ولكن تصور الألم على أنه قصاص عن الخطيئة كان متأصلا تأصلا عميقا فى العقل العبرى ، لتكون امثال هذه الحلول مقبولة ٠ وعلى هذا فان المسألة التى قامت، تكون موضوع شعر أيوب الفاجعى ٠ لماذا ينعم الأشرار ويلاقى الأبرار تعاسة لا يستحقونها ؟ ان الكاتب يحس أن هذا لا يمكن الاجابة عليه فى حدود صيغ الخطيئة الشخصية ، ولكن بينما يصيغ وضع الصعوبة فانه لا يقدم حلا فيه الكفاية ٠ ويظهر أن الافتتاحية تدلى بأسباب الرأى الذى يقول ان أيوبا تألم كشهيد يعلن عن عدالة الله بينما يظل هو غير واع بالهدف من آلامه اى جزاء الورع الذى لا برمى الى نفع ٠ ولياذه الأخير هو الى ما تمليه العقيدة الخلقية معرضا عن وقائع الظروف الخارجية ويظل تيقنه العملى من بر يهوه بحيث لا يتزعزع ، الى النهاية [٤] وفى نص واحد يجىء برأى عابر عن الأمل ، الذى قدر له منذ القرن الثانى وما بعده أن يتأصل

(١) على سبيل المثال المزمور : ١ ، ٣ و٣٤ ، ١٩ ـ ٢١ والأمثال : ٣١،١١

(٢) أيوب : ٢١ ، ١ ـ ١٥

(٣) مزامير : ٣٤ ، ١٩ و٣٧ على الأخص ٣٥ ، ٣٦

(٤) انظر كتيب دكتور روبنصون بعنوان « صليب أيوب » (كتب الدين والحياة) الصفحات ٦٤ ـ ٦٩ وتشارلس (Charles) : الأمور الأخروية (Eschatology) الصفحات ٦٩ ـ ٧٣ ٠ وفى السفر الخاص بأيوب فى « التعليقات النقدية الدولية » (درايفر وجرى (Driver and Gray) يذهب القول الى أن القرن الخامس هو تاريخ القصيدة المحتمل ٠

بين العبريين ، في بعث البار ليستمتع برؤية يهوه شخصيا [١] وسنعود وشيكا الى هذه العقيدة ونقتصر هنا على التنويه الى أنها لا ترجع الى استدلال من مقدمات قياس نظرية ولكن كنتيجة فرضتها على العقل صعاب الحياة العملية . وهذه الحقيقة تكفي بذاتها الى استبعاد الرأى الذى يقول ان ظهور العقيدة الجديدة كان مرجعه الى التأثير الهليني . وعلى الرغم من خضوع العبريين للحكم المقدوني من عام ٣٣٢ وما بعده ، فان سياسة الامتزاج بين الغرب والشرق التى نماها خلفاء الاسكندر تركت أثرا ضئيلا في الفكر العبرى الا في الاسكندرية حيث كانت الطائفة العبرية تستمتع بمكانة لها ميزة خاصة . واعظم استثناء يلفت النظر في العهد القديم هو الذى يورده سفر الجامعة الذى ربما يكون قد كتب قرب نهاية القرن الثالث حيث تتخذ الفردية الدينية ، تحت وازع الهلينية ، صورة البحث المتشكك . ان طبع هيرودوت [٢] لينعكس في هذه الألفاظ : « ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات » ويستبين المذهب الكلبي في الكاتب في يسر في عبارة : « رأيت كل الأعمال التى عملت تحت الشمس فاذا الكل باطل وقبض الريح » .

---

(١) أيوب : ١٩ ، ٢٥ ــ ٧ ، أنظر شارلس (Charles) صفحة ٧١ ودرايفر (Driver) المقدمة صفحة ٤١٨ : « ان فكرة حياة في المستقبل ، مباركة ــ فكرة ناشئة في سفر أيوب » في مجلد (التعليقات النقدية الدولية) عن أيوب يقدم جراى (Gray) العبارة :

الآية ٢٥ : أما أنا فقد علمت أن المنتقم لى حى وأنه بعد هذا سيقف فوق التراب .

الآية ٢٦ : و . . . .

وبدون جسدى أرى الله .

الآية ٢٧ : الذى أراه أنا لنفسى وعيناى تنظران وليس آخر .

في الشطر الأول من الآية ٢٦ توجد صعوبة تكاد تكون مستعصية . والكلمة التى ترجمت (منقذ) في النسخة القديمة معناها منتقم لظلم لايستحق (أنظر هامش النسخة المعدلة) . و (أنا) في الآية ٢٧ للتوكيد . ويفسر جراى في ملاحظاته العبارة بأنها تعبر عن اعتقاد أيوب ليس في حياة بركة دائمة بعد الموت ولكن في رؤية الله بعد الموت رؤية عابرة تبين أن الله معه . وعن الايمان بالبعث أنظر ما يلى ١٥ .

(٢) الجامعة : ١ ، ١٣ ١٤ وازن الأمثال : ٣٠ ، ٢ ــ ٤ لتشكك مشابه . ويمكن تقصى التأثير الاغريقى أيضا (فيما يحتمل) في الأمثال : ١ ــ ٨ وفى سفر (Ecclesiasticus) من الأسفار شبه المقدسة حيث يوجد بيان مجمل عن المثل الأعلى للرجل العاقل ومبدأ الوضيع وينوه عن قيمة وقت الفراغ لحياة الحكمة (مثلا (Ecclus) ٣٨ ، ٢٤) واسم (Ecclesiates) هو الترجمة الاغريقية للفظ العبرى (Qohéleth) ومعناه معلم الحكمة . وعن أدب (الحكمة) الذى ينتمى اليه سفر الأمثال أنظر درايفر (المقدمة) الصفحات ٣٩٢ وما بعدها .

ويبين انعدام الجد التفكيرى فقط كيف كان العقل العبرى وسيطا غير ملائم لتقبل الفلسفة الاغريقية . والآراء التى كان يؤثرهـا هى قواعد السلوك الحكيمة ، عند الأبيقوريين وهم من بين جميع المدارس الهلينية المتأخرة ، المدرسة التى لم تقم أقل وزن للبحوث الميتافزيقية ، ومسألة أيوب يمكن اهمالها على التو بانكار الجزاء الخلقى [١] و « الجامعة » مثال منعزل فى أدب « الحكمة » العبرى . ان آلام الشهداء ، الحاسديم ، فى عهد انطيوخس افيفانس Antiochus Epiphanes والعاطفة الوطنية العنيفة التى اتسمت بها ثورة المكابيين التى أثارتها جهوده فى فرض الهلينية قسرا ، أخمدتا روح الحرية العقلية فى فلسطين وضمنتا انتصار الخاصية التى تفرد بها العبريون .

١٥ ـ وفى غضون السبى ، أصبح الأمل فى الملكوت قوة مسيطرة فى حياة العبريين الدينية وكان نموه تدرجا واتخذ ضروبا من الصور المعينة . فحينا كان يضيق بحيث يتوافق مع أشد مذهب قومى صرامة وحينا آخر يوسع حتى يحطم كل حاجز كان يفصل العبريين عن العالم الوثنى . وهو يرتبط فى الغالب ، وخاصة فى السنوات التى سبقت ميلاد المسيح مباشرة بالاعتقاد فى مجىء مسيا ، الملك من نسل داود الذى يجب أن ينقذ العبريين ويستهل مملكة يهوه [٢] . ولكن هذه الظاهرة ، ليست جوهرية ولب التصور هو انشاء « مجتمع أعيد إحياؤه ، يجب أن تتحقق فيه الارادة الالهية » [٣] .

ولقد أدمج الترقب القديم « ليوم يهوه » ـ ولم يعد بعد ذلك يفسر كمحنة غضب على العبريين ولكن كوعد بالفداء ـ فى رجاء الملكوت التى أعلن

---

(١) الجامعة : ٨ ، ١٤ و٩ ، ٢ الصدفة تحكم العالم (٩ ، ١١) قواعد السلوك الأبيقورية من طراز أقل رفعة ، القريبة من المذهب القوريني (Cyrenaicism) (٣ ، ١٢ وما بعدها و٥ ، ١٨ وما بعدها و٩ ، ٧ ـ ١٠). هذه ونصوص أخرى كثيرة تورد للذاكرة نغمة رباعيات عمر الخيام .

(٢) مسيا معناه (المسوح بالطيب) ويعادله فى الاغريقية Christos (Christ) (الذى مسحه يهوه بالطيب) كان تعبير يطلق كثيرا على ملوك ما قبل السبى .

(٣) شارلس (Eschatology) الأمور الأخروية ، صفحة ٨٤ ـ يتصور المذهب العبرى السابق للمسيحية ، المملكة المثالية أحيانا على أنها حكم أمير دنيوى من نسل داود وأحيانا على أنها حكم الهى بحكومة من الكهنة . ولايوجد ذكر لمسيا فى عاموس أو صفنيا أو ناحوم أو حبقوق أو يوئيل ولا فى دانيال أو فى النصوص الأخيرة ، اشعياء : ٢٤ ـ ٢٧ ، ٦٥ ـ ٦٦ وكثيرا ما يذهب التصور الى أن الملكوت تكون تحت حكم يهوه مباشرة .

عنها اشعياء وارميا وبينها حزقيال فى وضوح [١] . وفى نبوءة حزقيال يستعرض التصور فى أعظم صورة شاملة له ، كتاسيس كنيسة من الكهنة تسبقها دينونة لا رحمة فيها للأمم والعبريين غير المؤمنين ، أما بركات الملكوت فيختص بها الأبرار من العبريين وتكون لهم وحدهم [٢] .
ويرجع بعض انتصار هذا التفسير الضيق ، فى النهاية ، بين يهود العودة ، الى الاضطهاد الماحق فى عهد انطيوخس وبعضه الى عدم قدرتهم على ادراك كل اتجاهات عقيدتهم فى التوحيد . والا ، ما كانوا ليعجزوا عن الوصول الى الاستنتاج بأن اله الأرض كلها لم يحصر عنايته الرحيمة فى شعب واحد له امتياز ولكن شاءت ارادته بأن معرفته يجب أن تكون ، عن طريق العبريين ، نورا لجميع الأمم على الأرض . ولقد عبرت ، فى الواقع عن هذا التصور الأكثر اتساعا للملكوت ، نبوءة السبى وما بعد السبى . كان يوجد فى حياة العبريين الروحية ذلك الشىء الذى لا قبل له على أن يحتبس داخل الحدود التى رسمها حزقيال . هكذا كانت رؤيا الملكوت التى الهمت رسالة اشعياء الثانية [٣] . وهو يستهل بصوت التعزية : « تعزوا ، تعزوا ، يا شعبى» وطمأنينة بافتداء قادم عندما «يكشف عن مجد يهوه وكل الأجساد تراه معا » . ولو أن الرجاء فى نجاة عاجلة على يد قورش الفارسى يزدوج بذكرى عدم اخلاص العبريين السابق والتأنيب على عدم ايمانهم الحالى ، [٤] فان النغمة السائدة هى نغمة الوثوق من رحمة يهوه . انه المخلص المنعم الذى « سيطعم قطيعه كراع » وانه غفر فى سماح ، ذنوب شعبه : « بفيضان

---

(١) عن (اليوم) انظر عاليه ٤ ـ عن اشعياء أنظر عاليه ٧ ـ وارميا : ٢٣ ، ٥ ، ٦ ، ـ حزقيال : ٣٤ ، ٢٣ وما بعدها و٣٧ ، ٢٤ وما بعدها . ولكن لا يوجد رجاء فى مسيا ، فى حزقيال (انظر كوك المرجع المذكور آنفا « المقدمة » ، صفحة ٣٠) .

(٢) وازن أر : ٤ ، ٢ و١٢ ، ١٤ـ١٧ و١٦ ، ١٩ حيث شملت الملكوت الشعوب . وقد ورد الرأى الأضيق ، على سبيل المثال فى اشعياء : ٦٦ وفى نبوءة يوئيل (حوالى ٤٠٠ ق.م) .

(٣) تجىء تنبوءات اشعياء الثانى فى الأصحاحات ٤٠ ـ ٥٥ ، ويرجع تاريخها الى زمن غزو قورش لبابل (٥٣٨) . وتضم هذه الأصحاحات (أغانى خادم يهوه) الأربع ومن المرجح أنها لكاتب آخر ـ الأصحاحات : ٤٢ ، ١ـ٤ و٤٩ ، ١ـ٦ و٥٠ ، ٤ـ٩ و٥٢ ، ١٣ و٥٣ ، ١٢ والأحد عشر أصحاحا الأخيرة من سفر اشعياء (٥٦ ـ ٦٦) ربما وضعها مؤلفون مختلفون وترجع الى تاريخ لاحق . وعلى أية حال فيمكن أن يعد من الأمور المقررة أن الأصحاحات ٤٠ ـ ٦٦ لا تحوى أية تنبوءات من اشعياء نفسه .

(٤) اشعياء : ٤٠ ، ٢٧ وما بعدها و٤٢ ، ١٨ـ٢٥ ، ٤٩ ، ١٤ـ٢١

الغضب حجبت وجهى عنك لحظة وباحسان أبدى أرحمك قال وليك الرب»[1]
وكانت دعـوة اشعياء الثـانى للايمان أكثر من أن تكون للتوبة • ان علمه باللاهوت أكثر وعيا وأكثر جنوحا الى التأمل بالقياس الى ذلك الذى كان لدى الأنبياء السابقين انه يفرض معتقداته فى التوحيـد كحقائق نظرية ، ليس بتوكيد العقيدة ولكن بالدليل المقنع • ان يهوه هو الخالق المعترف به ، الحافظ للكون ، الاله الواحد الأبدى الذى لا نهاية له والذى تظهر يده القادرة خلال الطبيعة كلها والتاريخ كله : « من فعل وصنع داعيا الأجيال من البدء ، أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا هو »[2] • ولقد توارت آخر آثار للشرك ، كما يتميز عن التوحيد • ان آلهة الوثنيين أصنام ، أشياء لا وزن لها وباطلة• « لا اله غيرى »[3] • وعلى توافق تام مع هذا الادراك الجلى للوحدة الالهية ، فان الرؤية تنفذ الى ما وراء حدود القومية ، الضيقة ، وتطالع خلاص جميع الشعوب داخل الملكوت المعـاد[4] • ويذهب التصور الى ان أورشـليم هى الحاضرة المنتظرة لكنيسة عامة : « فتسير الأمم فى نورك والملوك فى ضياء اشراقك»[5]• ان فى «أغانى خادم يهوه» الأربع ، تجد رسالة العبريين العامة أنبل توكيد لها • ولا توجد هنا أية فكرة عن السيطرة السياسية أو السيادة الانسانية • ولقد صورت أمة العبريين البارة كخادم ، لا يتـألم من أجـل خطيئته الخاصة ولكن من أجل خطيئة شعبه « محتقر ومرفوض من النـاس رجل أحزان ومختبر البلية » ، وأرسل الى أراض غريبـة ليخلص أولئـك الذين فى العبودية ويعلن عن مجىء الملكوت •

---

(١) اش : ٤٠ ، ١١ و٤٣ ، ٢٥ و٥٤ ، ٨
(٢) اشع : ٤١ ، ٤ وازن ٤٠ ، ١٢ — الآخر و٤٥ ، ٥—٨ و٤٤ ، ٢٤ و٥١ ، ١٣
(٣) اشع : ٤٤ ، ٦ وازن ٤٤ ، ٩—٢٠ و٤٦ ، ١—٧
(٤) تستعرض علاقة الأمم بالملكوت فى صور شتى فى الستة وعشرين أصحاحا الأخيرة من اشعياء • فى وقت، تظهر أمة العبريين كدولة امبراطورية تدين لها جميع الشعوب بالولاء • اش : ٤٥ ، ١٤—١٧ (القصاص يقع على الشعوب) ٤٩ ، ٧ و٢٢ ، ٣ و٥٤ ، ٣ وفى غيره ، تقبل الشعوب ملكوت يهوه عن ارادتهم الخالصة اشع : ٢ ، ٢—٤ (= ميخا ٤ ، ١—٣) ، نص يُرجع الى ما بعد السبى : ٢٥ ، ٦ ، ٧ (ربما حوالى ٣٠٠ ق٠م) •
(٥) اشع : ٦٠ ، ٣ وازن مز : ٢٢ ، ٢٧—٣١ و٤٥ و٨٦ و٨٧ واشع : ١٩ ، ١٨ — ٢٥ نص متأخر يسترعى البال جدا فيه تندمج أشور ومصر فى الملكوت على قدم المساواة التامة مع العبريين • راجع أيضا ما يقصـه يونان تمثيلا •

وليس من المغالاة في القول ان هذه الفقرات وأمثالها من فصول اشعياء الأخيرة تركت على أبصار الناس طابع نظام مجتمع مثالي ، ظل باقيا طوال الأزمنة اللاحقة . ولقد رأى المسيحيون فيها منذ البداية أقرب توقع لملكوت الانجيل . لقد كان الخصي الاثيوبي يجيل التفكير في « أغنيات الخادم » في مركبته عندما قابله فيلبس ، الشماس ، في الطريق من أورشليم الى غزة . ان أغنية سيمون التي سجلها القديس لوقا ، تنهض دليلا على أنه كان يوجد في زمن مجيء المسيح ، على الرغم من انتصار التخصيص في المذهب اليهودي الصادق ، أولئك الذين كان يراودهم الأمل الأعظم في الملكوت وتكون « نور اعلان للأمم ومجدا لشعبك اسرائيل »[١] .وعلاوة على هذا، فمن المرجح حقا أن المسيح الذي أخذ فقرة قريبة من « أغنيات الخادم » موضوعا له عندما كان يبشر في المجمع ، تأثر بها ، عن وعي ، في رسالة الخلاص التي حملها .

١٦ ــ ولقد تحول مبدأ الملكوت ، بطريقة تلفت النظر ، في القرنين السابقين لميلاد المسيح ، عن طريق الامتزاج بالاعتقاد ، الغريب عن الفكر اليهودي في زمن أكثر بكورا ، في بعث بعد الموت[٢] .وكانوا يتصورون ملكوت يهوه ، في التقاليد الشعبية وفي تعاليم الأنبياء على أنها خلاص العبريين ، يحقق في تاريخ الأمة القادم على الأرض ، وكان بعد زمن متأخر، وتحت دافع الألم الشخصي القاهر ، أن اليهود دفعوا الى ربط الرجاء في

(١) الأعمال : ٨ ، ٢٦ وما بعدها ولوقا ٢ ، ٣٢

(٢) راجع (الأخرويات) لتشارلس الفصلين الخامس والسادس .. ان الاعتقاد اليهودي في بعث بعد الموت ، عندما ظهر هكذا في زمن متأخر ، لم يكن بأية حال ، عودا جديدا لآراء بدائية . لقد كان نتاج مسائل خلقية ودينية تنتمي لنضوج المدنية العبرية . لقد أودى دين يهوه ، على التدرج ، بعبادة السلف مع ما كان يلازمها من اعتقاد باستمرار حياة الروح في شيول. ولقد مضت قرون قبل أن ينجم هذا الايمان الخلقي الجديد في البعث ، عن دين يهوه المتطور . وكان تصور حياة مستقبلة يرتبط ارتباطا وثيقا في الدين اليهودي بتصور بعث من الموت . وبين الاغريق ، من الجهة الأخرى ، اتخذ شكل الاعتقاد في عدم موت الروح ، التي كان خلودها صفة جوهرية ولم يكن هناك موضوع عن بعث . ولكن مبدأ خلود الروح الافلاطوني كان يشترك مع مبدأ البعث اليهودي ، في أنه كان مستقلا عن الاعتقادات البدائية في البقاء (ولو أنه استخدم مواد استمدت من الاعتقادات الدينية الشعبية) . وكانت عقيدة افلاطون ترجع الى أسباب علمية (وفي هذا ، فانها على نقيض تام مع عقيدة اليهود) . أنظر ما يلي فصل ٤ ، ١٧ وفصل ٥ ، ٢٠ و٢١ . ويقوم الاعتقاد المسيحي بالخلود وهو يتآلف بالاعتقاد ببعث الموتى لحياة أبدية على أساس مزدوج (ا) على المذهب اليهودي فيما بعد السبي (البعث) ، وعلى الفلسفة الافلاطونية (الخلود) . راجع ك.ك.ج.وب (C.C.J. Webb) محاضرات جفورد (القسم الثاني) عن الشخصية الالهية والحياة البشرية الصفحات ٢٥٧ـ٦٤ . وعن الفلسفة الافلاطونية(الخلود) ، راجع ك.ك.ج.وب (C.C.C. Webb)

الملكوت بالرجاء فى بعث الأبرار حتى يسهموا فى نعيمها وتبعا لهذا ، الى الاعتقاد فى خلود الروح • ولقد كان الرأى التقليدى عن الروح لدى العبريين وكذلك لدى السلالات الأخرى جافيا وماديا يرتبط ارتباطا وثيقا بعبادة السلف ويتجرد عن أى مغزى خلقى • عند الموت ، كان الطيف يسير الى شيول حيث يقيم فى صورة شبه جسمية بينما الروح أو نسمة الحياة التى ميزوها بعد ذلك على أنها مصدر المواهب النفسية العليا ، ترجع الى الله الذى أعطاها • ولا يوجد هنا أى موضوع عن الخلود الشخصى أو الجزاء الأدبى بعد الموت(١) • وكما رأينا ، مر زمن طويل ليدرك العقل العبرى فكرة

---

(١) عن موضوع علم النفس العبرى ، الشيق ، الذى أهمل اهمالا بالغا ، راجع المقالة (١١) بذلك العنوان ، التى وضعها العميد هويلر روبنسن فى (الشعب والكتاب The People and the Book) طبعة بيك الصفحات ٣٥٣ ٣٨٢ • وعند العبريين يكون الكائن البشرى الفرد (الذات) هو «الجسم كمركب يشتمل على أجزاء تستمد حياتها ونشاطها من روح ــ نفس ، ليس لها وجود منعزل عن الجسم » (صفحة ٣٦٦) • وينسب أصل ــ الحياة ، ويشمل القوى الواعية ، الى المادة الجسمية ككل والى أعضائها العديدة (القلب والكلى واللحم والعظام والعين واليد الخ •) • ولا يعرف علم النفس العبرى تقسيما ثنائيا للروح والجسم ، ولسبب أقوى لا يعرف تثليث الجسد والروح والنفس • والجسد هو الانسان والشخصية هى الجسد الذى استودعت فيه الحياة ، وليست الروح المتجسد • ان الكلمة العبرية التى تدل على أصل الحياة هى نفش وتجىء فى المعتاد مترجمة خطأ بلفظ (Soul) فى النسختين القديمة والمعدلة (A.V. and R.V.) • وتعبير آخر ، روح (ويترجم فى المعتاد (Spirit) ومعناه فى الأصل (ريح) باعتبار أنها نفس الله) يستعمل مرارا للدلالة على الالهام ، اشارة الى أصل ــ الحياة كشهقة النشاط الالهى يعمل فى الانسان من الخارج وخاصة فى الالهام التنبوءى وغيره من ظواهر قوة ــ الحياة • ومن أوجه نشاط الانسان ، يشار فى المعتاد الى الوجدان والعواطف بلفظ (نفس) والعقل و (خاصة) الارادة (الضمير) بلفظ (لب) ــ حرفيا قلب ــ وتكون الارادة أصلا ، فى علم الأخلاق العبرى ، فى الله والانسان معا (راجع ماتقدم صفحة ٦٩ تذكرة ٢) • وكان الخيال أو الشبح يذهب الى شيول كنسخة من الانسان كله ويبقى موجودا فى حالة شبح وعلى ذلك فمن الخطأ الجسيم اعتبار شيول موطن الأرواح الراحلة • وكان يستوطن شيول هذه الأطياف (نغايم) دون سواها وعندما يظن بصفة استثنائية أن الموتى ، كما فى حالة صموئيل ، عند اندور ، يرجعون فان القناع الجسمى الذى يحمل فى الحياة ، يظل باقيا • وكذلك الحال فى هومر (ادو ، ١١) ، يجب على الأشباح فى الجحيم أن يشربوا الدم حتى يستردوا الوعى ويتحدثوا مع أدوسيوس • وعلى هذا ، فعندما حان للعبريين أن يتصوروا حياة مستقبلة فانها كانت بعثا حقيقيا للجسد لايجاد تجديد للحياة الجسمية على الأرض • ويوافق مبدأ الايمان المسيحى عن بعث الجسم ، التقاليد العبرية تماما ولو أنه قوى بمعارضته للثنائية المانوية (الرأى أن المادة وخاصة جسم الانسان شريرة شرا ملازما وترجع الى خالق شرير ، فوق مستوى البشر) •

المسئولية الشخصية . وحتى عشية النفى ، كانت الأمة مسئولة عن خطايا أعضائها وكان البرىء والمذنب ، على السواء ، ينالهما الجزاء الذى يقع على المجتمع . ثم حدث مع النفى ، تغير وأصبحت مطالب الفرد فى عدالة يهوه تلح الحاحا يطرد ازديادا ، لارضائها . وقد رأينا كيف أن مفكرين كمؤلف سفر أيوب جاهدوا ، على غير طائل ، للوصول الى جواب عن المسألة . لقد كانت وطأة الاضطهاد فى عهد انطيوخس هى التى فرضت الاعتقاد فى البعث على عقل الشعب اليهودى . ولقد كان قاصرا ، قبل ذلك الوقت ، على أقلية صغيرة تأثرت فيما يرجح بالاتصـال بالأفكار الزرداشتية فى عهد الحـكم الفارسى . ان النصوص الواردة فى العهد القديم التى تشـير اليـه قليـلة ومتأخرة [١] . وعندما تأصل الاعتقاد بين اليهود ، كان فى صورة تتميز بأنها يهودية ، وفى اتحاد وثيق مع الانتظار القومى للملكوت . ولقد ذهبوا الى أن العبريين الأبرار ينهضون منشيول ليسهموا فى تحقيقالملكوت على الأرض . وبهذا وصلوا الى حل يسد مطلب عـدالة يهوه نحـو الفرد المصاب ويرضى الطموح ، الحبيب الى القلب ، الى خلاص العبريين فى النهاية . وتبين كتابات الرؤيا التى ترجع الى القرنين الثانى والأول بأن هذا الايمان لم يكن عقيدة ثابتة ثباتا دائما ، ولكنه يظهر فى صور متباينة وفقا لمجرى التاريخ العبرى المتغير [٢] . وكانت تقوم أسئلة عديدة تسمح باجابات مختلفة . هل كان

---

(١) ان النصين الواردين فى العهد القديم اللذين يظهر فيهما الاعتقاد هما فى نبوءة اشعياء الهامة (متأخرة) : ٢٤ - ٢٧ (وخاصة ٢٦ ، ١ - ١٩ بعث العبريين الأبرار حوالى ٣٠٠ ق.م) وسفر الرؤيا لدانيال (حوالى ١٦٥ ق.م) وفى دانيال : ١٢ ، ٢ نجد بعث (ا) الأبرار حقا (ب) الأشرار حقا (أى المرتدين عن اليهودية) . ولا يوجد فى أحد النصين ذكر لبعث عام . والنظرة الى البعث هى أنه عودة الشبح الى حيـاة جسمية عـلى الأرض ، جددت ، وهو نوع الحياة الوحيد الذى كان يمكن للعقل العبرى أن يتصوره . ولم يخطر لهم على بال قط فكرة روح ، افترق عنها الجسد .

(٢) عن طبيعة الرؤيا واختلافها عن النبوءة ، راجع شارلس (الأخرويات) الصفحات ١٧٣ وما بعدها و٣٨٧ - ٨ والاختلافات الأساسية هى أن الرؤيا ترجع الى تاريخ متأخر وتسمية خاطئة وأكثر شمولا فى مداها . وقد شرعت فى وضع فلسفة دين وتاريخ تسعى الى التغلغل الى ما وراء الحوادث لتصل الى غرضها الالهى وتضم الماضى والحاضر والمستقبل فى رسم مجمل وحد ، خارق العادة ، ينتهى بمجىء الملكوت الالهى والدينونة الأخيرة وبعث الأبرار الى حياة مستقبلة مباركة . وقد حداها ميل لتحديد تواريخ الحوادث القادمة فى احكام زمنى . ان مذهب (الألف سنة) هو نتاج الرؤيا اليهودية . لقد هيأت مخلصا خياليا لروح حب الوطن بين اليهود ، الذين كانوا أضعف من أن يدركوا مطامحهم القومية تسير الى تحقيق . ولقد ترجم تشارلس كتابات الرؤيا اليهودية ، العديدة ، فى مصنفه العظيم The Apocrypha and Pseud epigrapha of the O.T.) وعن الرؤيا المسيحية ، راجع كتاب هذا المؤلف =

العبريون الأبرار فقط ، هم الذين يقومون أو أن الأشرار والوثنيين يسهمون فى البعث ؟ وفى الحالة الأخيرة ماذا كان مصير اليهودى ، غير المؤمن ، والوثنى فى الدينونة التى تسبق اقامة الملكوت ؟ هل كان يسمح للأمم بامتيازاتها أو تفرض عليهم العبودية للعبريين ؟ وكان فى المعتاد ، أن تقابل هذه المسائل بروح التخصيص الصارمة · ومرة أخرى ، ماذا كانت طبيعة الحالة الوسيطة ، بين الموت وقيام الملكوت ؟ هل كان البعث قاصرا على النفس فقط أو الروح المتجسدة وماذا كان شكل جسد البعث ؟ هل كانت الملكوت أبدية على الأرض أو محدودة الأجل ؟ ماذا كانت وظيفة مسيا فيما يتعلق بقيامها وبالدينونة ؟ وبعد أن قطع القرن الأول شوطا ، ظهر تطور آخر بعيد المدى · لقد قام الاعتقاد بأن هذه الأرض لم تكن خليقة لأن تكون مسرحا للملكوت فى كمالها ، وأنه عند مجىء مسيا أو عند ختام حتمه الدنيوى ، سيخلق يهوه سماء جديدة وأرضا جديدة وأنه بعد دينونة أخيرة، تعبر نفس العبرى البار الى حياة أبدية فى الملكوت السماوى · وعلاوة على هذا ، فان مسيا يشخص أحيانا كابن انسان ، وأحيانا كأمير خارج من نسل داود ، عليه أن يخلص الشعب اليهودى من نير الرومان ويستفتح الملكوت الأرضى كمقدمة للملكوت السماوى الأبدى [1] · ومن الشيق تتبع هذه التصورات فى أدب الرؤيا اليهودى ، بعد مجىء المسيح · ولكن قيل ما فيه الكفاية ليتضح كيف كان حاسما انتصار روح الانعزال القومى قبيل ذلك التاريخ ، على نظرة النبوة الأولى ، الأكثر اتساعا · ومن النادر الكشف عن أى أثر فى الكتابات اليهودية فى القرن الأول ق· م· أو القرن الأول

= (سفر الرؤيا) فى (Inter national Critical Commentary) وعن موجز مختصر للموضوع كله ، راجع كتابه (Between the Old and the New Testament بين العهدين القديم والجديد) فى (Home University Library)

ان أهمية الرؤيا اليهودية لفهم البيئة الدينية التى ظهرت فيها المسيحية ، عظيمة جدا وقد قام الدليل على أن تأثيرها على (الأخرويات المسيحية) عميق ودائم فمثلا : تصورات الدينونة الأخيرة والسماء والقصاص الأبدى ترجع أصولها الى أدب الرؤيا ·

(١) يجب التمييز فى وضوح بين مسيا ، فوق مستوى البشر ، ومسيا اللقب· لاتوجد دلالة ، خارقة الطبيعة فى استخدام حزقيال الكثير له (وازن داود · ان اتخاذ المسيح لقب (ابن الانسان) يضفى أهمية خاصة على تاريخ المزامير : ٨ حيث يعبر عن الانسانية ، على وجه عام ، وفى دانيال : ٧ ، ١٣ يدل على أمة العبريين كطراز مثالى للانسانية بالمقابلة بالحيوان = الممالك الوثنية ، وفى انوخ الأول ، وهو سفر رؤيا (القرن الثانى ق·م) يطلق على مسيا ، فوق مستوى البشر ·

الميلادى للسماح للأمم بدخول الملكوت (١) • ومنذ ذلك الحين يبقى التوحيد ويبقى التخصيص - على الرغم من عدم توافقهما الذاتى - فى عقيدة المجتمع اليهودى •

٤ - الخاتمة

١٧ - لقد تقصينا منهاج تعليم النبوة ونتائجه حتى عشية تأسيس المسيحية • ويمكن أن نستخلص نتيجتين من فحصنا • ففى المكان الأول تمتزج حياة العبريين الدينية ، حتى فى أعلى تطور لها ، امتزاجا لا ينفصل بقيود تختص بها • وترجع قوة الدين العبرى الى الاعتقاد بالله أوحد وحكمه العالم حكما خلقيا • أما ضعفه ، المقيم فكان الافتراض الذى لا يمكن محوه بأن الغرض الالهى يتركز فى شعب واحد ، اختير من بين جميع الشعوب ليكون مستودع عطف يهوه الخاص وأن كل مجرى الطبيعة وتاريخ البشر ، يدور بارادة يهوه حول حياة ومصير العبريين • ومما لا يمكن انكاره أن سياسة العزلة المصطنعة قوت الاخلاص الدينى وأوجدت سموا خلقيا يناقض الانحلال السائد فى العادات الاغريقية الرومانية والاغريقية الشرقية ولكنها أبعدت الأمم عن أى نصيب فى الميراث الروحى • ان التاريخ الدينى العبرى ممتلىء بهذه الشواذ الغريبة والأضداد المتناقضة وقد ازدوجت الذلة التى تصدر عن الشعور بالخطيئة الشخصية بكبرياء العضوية فى مجتمع بار ، العنيفة ، غير المعتدلة ، وروح التقوى الداخلية بحرص دقيق فيما يتعلق بالفرائض الخارجية• ولقد نجم عن الايمان بوجود الله وجودا مستمرا وبتنظيمه الرحيم لكل حادثة فى الحياة العامة احترام متعادل لخصائص الواجب الخلقى الجوهرية ولقواعد صبيانية لمدونة مراسم (٢)

وعلى هذا فان الشعب العبرى عجز عن أن يدرك بصفة فعالة رجاء الأنبياء الأعظم أو يكمل رسالتهم الخاصة فى القيام على تعليم البشرية تعليما روحيا• واذا بحثنا عن السبب الذى يرجع اليه هذا الفشل ، واذا سألنا لماذا لم يتح لهم أبدا أن يدركوا عدم التلاؤم بين التخصيص والايمان بحاكم خلقى أوحد للكون ، فيجب أن نشير فى الاجابة على هذا الى ما كان يلازمهم من قيود عقلية ، فعلى غير شاكلة الاغريق ، لم يكن العبرى يفكر فى الأمور تفكيرا يتسم بالعمق • ولم يصل أبدا الى مستوى التقدم العقلى الذى تقوم فيه

(١) ولكن ٤ اسدرس استثناء (IV Esdras)

(٢) وهكذا تعالى الله وباطنيته كمستوطن فى قلب البار ، وعدالته ورحمته، ومبدأ الجزاء الوفاق ومبدأ الغفران الطليق ، والرجاء فى مثوبة مستقبلة عن الأفعال القيمة والسعى فى الخير من أجل الخير ، والحتمية والحرية ، وغضب ومحبة الله - تجىء متلازمة فى الفكر الدينى اليهودى ولو أن صعاب تمحيصها لا تدرك أبدا ادراكا تاما •

دعوى العقل بأن يكون له صوت فى تقرير المعتقدات الدينية والخلقية (١) وهذا هو السبب فى أن أنبل أقوال التقوى العبرية لا تنتظمها مجموعة متجانسة من الحقائق اللاهوتية ، وتعميها الاختلافات والمتناقضات التى غفل عنها واضعوها . وهكذا ، مرة أخرى ، يمكنا ان نشرح ما يمكن أن نطلق عليه عرض الفكر الدينى العبرى ، الحقيقة التى سبق أن لوحظت مرارا وهى أن أقواله يحددها تتابع الحوادث التاريخية التى حدث أن كان لها تأثير على الأمة العبرية . وكانت هذه الحوادث توحى ليس فقط بوقت النبوة العبرية ولكن الى حد بعيد بفحواها . وكلما كانت ذلة الشعب المختار مريرة ، وكلما كانت آلامه عظيمة الشدة ، قوى تيقنهم من الافتداء فى النهاية .

وكانت رؤية العبريين الروحية تتسع بنسبة عكسية لما كانوا ينجزونه من أعمال جليلة دنيوية ، وكان المنطق ، لأنه لا بد من وجود منطق ، يرجع بعضه لمنطق الظرف التاريخى وبعضه الآخر لمنطق الضمير ، الداخلى . ولم يكن قط من البداية الى النهاية منطق العقل . وعلى هذا فقد اتيح للأنبياء أخيرا بأن يروا حقائق ، احداها فى وقت وغيرها فى وقت آخر ، فى عزلتهم واستقلالهم . وما أتيح لهم أن يعرفوا الحقيقة . وهذا هو السبب فى أن العبريين ، حتى بمعزل من قيود القانون ، لم تكن لهم قدرة على توصيل مغزى رؤيتهم الروحية الى شعوب الغرب . وحتى يكون هذا بالأمر المستطاع ، كان يتحتم صوغ الحقائق العديدة فى كل متجانس وتفريق الجوهرى عن العرضى والكشف عما يكون هناك من دلالات وتجديد الصحة النسبية لكل حقيقة بعملية تنسقية يتوافر فيها التوضيح والافاضة . وبهذا وحده كان

---

(١) وعندما جاء دور العقل ، أصبح ينزع الى السفسطة والرسميات ومنطق المدارس الجدب . وفى الوقت نفسه ظل التواصل قائما بين التعليم الروحى الأعلى ودين الشعب . وقد نجح الأنبياء اليهود هنا ، حيث فشل فلاسفة الاغريق . (راجع وب (Webb) ـ محاضرات جفورد ، السلسلة الأولى عن « الله والشخصية » الصفحات ٨٥ ، ٨٦) . ان العلاقة الشخصية بين يهوه وعابده اليهودى لم يأت عليها وهن فى جميع مستويات الادراك الدينى . ويمكننا أن نلحظ أيضا انه بينما الرابطة الوثيقة بين النبوة العبرية والأزمات التاريخية التى انتابت الأمة كانت تقيد أغراض يهوه وارادته بالحوادث الزمنية فانها أضفت على اليهود احساسا قويا بمغزى التاريخ ، الخلقى ، ولم يساورهم جنوح قط . كما كان يساور الفلاسفة الاغريق فى الغالب ، بأن يفرقوا بين القيم المثالية وسير الوقائع . « ان التاريخ بأجمعه هو كشف الغطاء عن الغرض الالهى وعلى هذا فان التاريخ ككل ، له أهمية عند اليهودى ، لم تكن مطلقا عند المفكر الاغريقى أو اليهودى الذى اصطبغ بالهلينية . ان الفكرة العبرية عن الله دينامية وخلقية وعلى هذا فانها تتأصل فى فكرة الزمن » (انج (Inge) ـ مقالات صريحة ـ القديس بولس صفحة ٢١٥) . ان هذا الاحساس بقيمة الواقعة التاريخية كان له تأثير قوى على الفكر المسيحى ـ راجع السفر الثانى الفصل التاسع .

يمكن لتعليم النبوءة أن يصل الى عقيدة دينية يكون لها وقع ليس في القلب وحسب ولكن في العقل · هل كان يصدق أن يحدث مثل هـــذا التحول الأساسى الا بالانفصال عن اليهودية ·

١٨ – والأمر الثانى هو أن حياة العبريين الدينية هيأت السوابق التاريخية للمسيحية · ولقد اعترف المسيح نفسه بهذه القرابة عندما أعلن أنه جاء لا ليهدم الناموس ولكن ليكمل · وعند القديس بولس ، رسول الأمم ، كان الناموس معلما يهدى النـاس للمسيح · وقـد كان عن طريق وساطة المسيحية ، أن ميراث اسرائيل الروحى نقل الى العالم الغربى · وفى عملية النقل النسقية ، أعيد صياغته وحول · وقد أهمل الكثير مما كان يتميز به الدين اليهودى وأصبح ما مثل أساس بناء جديد ومنذ ذلك الحين، سارت الديانتان فى طرقهما الخاصة المتعـددة · وما كان الوعى بالعـلاقات التاريخية الا ليوسع الهوة التى تفصل بينهما · ويكون التواصل ظـاهرا أعظم ظهور ، فى تصور الملكوت الالهى · وكان من الطبيعى أن تلاميذ العقيدة الجديدة يرجعون الى الأنبياء عن سوابق الانجيل ، وليس الى الشريعة لأنه كشف للأنبياء عن رؤية « يوم يهوه » ، عنـدما تسود العـدالة ويتوارى الاضطهاد والظلم ، عندما الناس « يطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل · لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد ؟ » ·

وعندما « لا يسوؤون ولا يفسدون فى كل جبل قدسى لأن الأرض تمتلىء من معرفة الرب كما تغطى المياه البحر » [١] ·

ولقد عاق تقبلهم هذه الحقائق قيود : تحيزهم لما كان لشعبهم الخاص من حقـوق ، وفشلهم فى التوفيـق بين مطلب الفـرد الروحى ومطلب المجتمع وادراكهم الناقص للباطنية الالهية وارجاؤهم المجتمع المثالى لزمن يجىء فى المستقبل · وفى تعليم الانجيل ، تحررت فكرة الملكوت تحررا نهائيا من هذه القيود · أصبح الفرد يستطيع أن يجد الخلاص ويظفر بالحياة الأبدية فقط عن طريق الاندماج فى المجتمع الالهى الذى كان يرتبط أعضاؤه ، الواحد مع الآخـر ، بآصرتهم الشخصية مـع رئيس ذلك المجتمع · وفى النهاية حطمت حواجز القومية الى الأبد وفتحت أبواب الملكوت لليهودى والأممى ، والاغريقى والهمجى ، والأسير والحر ·· ووحـد ايمان ـ أزال الهوة التى كانت تفصل ما هو الهى عما هـو انسانى ـ كل البشرية بروابط أخـوة عامة · ومرة أخرى ، أصبحوا يتصورون اقامة الملكوت على أنها ليست حادثة بعيدة ولكن واقعة حاضرة ، حقيقة حية لها وجود فعـلى فى قلوب النـاس « على الأرض كما فى السماء » [٢] · ولكن بذور مبدأ الايمان ، هذه التى

---

(١) اشع : ٢ ، ٤ = ميخا ٤ ، ٣ واشع : ١١ ، ٩ = حب : ٢ ، ١٤

(٢) عن الملكوت كواقعة قائمة : مرقس ٤ ، ١١ ، ٣٠ وما بعدها (حبة الخردل) ١٠ ، ١٤ و١٢ ، ٣٤ وكذلك متى : ٥ ، ٣ = لوقا : ٦ ، ٢٠ ومتى ٦ ، ٣٣ = لوقا ١٢ ، ٣١ ·

اتت بمثل هذه الثمار فى تجديد البشرية تجديدا روحيا كانت مغروسة فى تربة النبوة العبرية • ولهذا السبب كان يستطيع اليهودى ، بل والمسيحى ايضا أن يعترف بدعوى العبريين فى أن يلقبوا بالشعب المختار : « أنتم فقط الذين عرفتهم من بين جميع عشائر الأرض » • ومن بين شعوب عالم ما قبل المسيحية ، سمح للعبريين دون سواهم برؤية ملكوت الله وما دونوه عن هذه الرؤية ، هو تراثهم لبنى الانسان [1] •

= عن عدم مجىء الملكوت بعد : مرقس ١ ، ١٥ (اقترب) وكذلك متى ٨ ، ١١ و٢٢ ، ٢ وما بعدها وأمثال الكنز المخبأ فى حقل والدرة ذات الثمن العظيم • عن الملكوت كحياة أبدية فى العصر القادم : مرقس ٩ ، ٤٣ وما بعدها و١٠ ، ١٧ وما بعدها وكذلك متى ٧ ، ٢١ وما بعدها •

راجع جاكسون وليك ، التمهيد الجزء الأول ، لأعمال الرسل الصفحة ١٧٨ وما بعدها الذى أخذ منه المراجع آنفة الذكر • ان كلها تجىء اما فى مرقس أو فى تلك الأجزاء من متى ولوقا التى يمكن ارجاعها الى مصدر مشترك ويرمز اليها بالحرف (ل) الذى يعبر عن مرقس • ويذكر كتاب تشارلس (الأخرويات الصفحات ٣٦٤ وما بعدها) متى ١٢ ، ٢٨ ولوقا : ٤ ١٨ـ٢١ (الملكوت حاضرة) مرقس : ٩ ، ١ (مستقبلة ، فى السماء) ، متى : ١٨ ، ٣ ، ٤ ولوقا ١٨ ، ١٧ (حاضرة ومستقبلة على السواء) •

(١) يجب التنويه عن فرق آخر بين المسيحية واليهودية المعاصرة • جاء المسيح ليبشر « بأخبار طيبة تجلب فرحا عظيما » • وكان على هذه الحال أن رسالته استهوت شعوب عالم البحر المتوسط • ولكن الفكرة السائدة فى كتابات الرؤيا اليهودية فى الفترة الواقعة بين ٢٠٠ ق•م ـ ١٠٠ م هى فكرة الانتقام الالهى • وكانت الرسالة للعالم بأسره ، حتى لغير الصالحين بين اليهود رسالة فزع وليس رسالة رجاء • لقد كان اليهود يعتقدون فى مفعول الخوف والعقاب وانصب تعليمهم على عداوة الله عداوة لا هوادة فيها للأشرار غير التائبين• وحتى «عهد البطارقة الاثنى عشر» (القرن الثانى ق•م•) الذى يحوى ما يقرب من مبادىء الايمان المسيحى فى الغفران ، يقصر دون الوصول الى المثل الأعلى المسيحى فى محبة الأعداء • ويذكر مونتفيور (Montefiore) (فى الأعمال ، ١ : ٧٩ لجاكسون وليك) أنه لا توجد فى اليهودية المعاصرة النصيحة التى تتميز بها المسيحية لمحبة تسعى الى الخاطىء ومن سقط • واذا كان هذا واجب الانسان ، فيجب أن يكون كتعبير عن المحبة الالهية التى تنسحب حتى على غير الشكور والشرير • لقد كان كتاب الرؤيا يعجبون لماذا خلق الله جماهير الناس ليلاقوا العقاب الأبدى ولكن لم يناقشوا الواقعة قط • ومما لا ريب فيه أن علم اللاهوت المسيحى استوعب الكثير من هذا التقليد اليهودى ، وفى قصيدة دانتى نقرأ أن جماعات من الأرواح تساق الى الجحيم أمام بصر الشاعر بينما يمر شاعر ملحمة (Statuls) فقط ، أثناء رحلته من المطهر الى الفردوس • ولكن هذا التراث المهالك لم يمح اطلاقا تعليم المسيح الجوهرى ، الجديد عن محبة الله التى تشمل الكون ، ذاك الذى تضمنه، على سبيل المثال ، مثالا الخروف المفقود والابن الضال •

تذكرة إضافية

عن تاريخ العبريين بعد النفى

قد يكون من المفيد أن نلخص فى ايجاز الوقائع البارزة لتاريخ ما بعد النفى ، وهى تقع فى ثلاث حقب :

(١) كان المنفيون المعادون خاضعين لسيادة فارس الوادعة من منتصف القرن الخامس حتى غزو الاسكندر الأكبر المقدونى ، (٣٣٢) .

(٢) وكان يحكمهم ، قرابة قرنين ، أسياد مقدونيون . وكانت فلسطين مرة أخرى ، الغنيمة التى يتصارع للفوز بها البطالمة فى مصر . وملوك آسيا السلوقيون . وقد فتحت الأبواب على مصاريعها للهلينية . وقام اضطراب مدنى فى عهد سليوقد أنطيوخس أفيفانس (١٦٨) بين اليهود الذين يسيرون على الهلينية يعاونهم الملك الاغريقى وحزب المبادىء القويمة مما أدى الى تدخل أنطيوخس بالقوة والى انتهاك المعبد واستشهاد الكثيرين . وقد وجد «الأخيار» نصيرا فى يهوذا المكابى من عشيرة الكهنة الهسمونية (هشموناى) الذين حققوا الاستقلال القومى واسسوا حكومة دينيـة ظلت باقيـة الى أن ظهـر الرومان على المسرح .

(٣) وفى الأعوام ٦٣ ـ ٦١ أعاد بومباى ، بعد أن تم له قهر مثرادطس ملك بنطس ، عدو روما العظيم فى الشرق ، تنظيم ذلك الجزء من اقليم البحر المتوسط . وقد وضع اليهود تحت السيادة الرومانية واحتفظوا بقسط عظيم من الحكم الذاتى يباشره كبار الكهنة . وفى عام ٤٠ آلت الحكومة الى هيرود العظيم الحاكم الادومى ذى القدرة الاستثنائية الذى عاون باستمرار رومـا وعاونته روما .

ولقد أعاد اقامة المعبد فى روعة عظيمة وأسس قيصرية . وكان كأجنبى، غير محبوب بين جمهرة اليهود . وعنـد موته (٤ ق.م.) انقسمت المملكة وهى أبدا تحت السيادة الرومانية . وفى عام ٦ م. أصبحت اليهودية اقليما من المرتبة الثانيـة ، يدير شئونها وال مسئول أمام مبعـوث legatus سوريا ودام هذا النوع من الحكومة (فيما عدا فترة الثلاث سنوات ٤١ـ٤٤ م عندما حكم هـيرود أغربا Herod Agrippa الأول اليهودية كملك) حتى الثورة العظيمة التى حدثت عام ٦٦ وتدمير طيطس أورشليم فى عام ٧٠ .

وكان بنطيس بلاطس Pontius Pilate أحد سلسلة من الولاة في عهد طبريوس · وأخيرا بعد ثورة اليهود الثانية ضد روما في عهد هدريان (١٣٢ - ٥) أصاب الجماعة الضربة القاضية ، ففد الغى اسم اليهودية ، وتاريخ اليهود اللاحق هو تاريخ التشتت ·

ويجب أن يلاحظ بعد هذا :

(أ) ان الوطنية القومية اليهودية ازدادت شدة وانعزالا بازدياد صرامة الحكم الأجنبي ، الفارسي والاغريقي والروماني · وكانت كل محاولة لفرض الآراء الغربية تثير اندلاع مقاومة عنيفة · وقد كسب الحزب القومي قوة في عهد الحكم الروماني على الرغم من الاحترام المدروس الذى كانت الحكومة الامبراطورية تشايع به الشعور الديني اليهودى ، والسلطات الواسعة القضائية والادارية التي منحت الى السنهدريم (سيندريون Synedrion الاغريقية = مجلس) وكان الشعب اليهودى على الدوام ، على وشك الثورة خلال هذه الحقبة ، وكانت الجليل مركز العاصفة الرئيسي ·

(ب) ان جماعات التشتت اليهودية (Diaspora = Dispersion) تزايد عددها وأهميتها في اطراد في خلال الحقبتين المقدونية والرومانية · وكان يوجد على الدوام مستعمرة يهودية في بابل ، عظيمة وهامة جدا · واستقر اليهود في مدن آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، وخاصة في الاسكندرية حيث احتلوا اثنين من أحياء المدينة الخمسة وكانوا يستمتعون بمزايا عظيمة ·

وهناك وضعت الترجمة الاغريقية « للعهد القديم » ، المعروفة بالترجمة السبعينية (Septuagint) في القرن الثاني ق·م· وكانت الاسكندرية مكان اجتماع الفكر اليهودى والهليني ، الرئيسي ، ونرى اليهودية تنحني للنفوذ الغربي ولكن لا تتكسر تحت وطأة الضغط (أنظر ما سيجيء بعد ، فصل ٦ ، ٨ وفصل ٩ ، ٢) · وقد وجد بين اليهود كثير من المرتدين (وكذلك شبه مرتدين كانوا يقبلون العقيدة اليهودية دون ختان ودون غيره من الفروض الموسوية) في الأقاليم التي اصطبغت بالهلينية · ويعطى سفر أعمال الرسل: ٢ ، ٩ - ١١ فكرة عن مدى التشتت ووجود اليهود ، الذى ألمع اليه ، في فارثيا وغيرها من البلاد الشرقية ، خارج الامبراطورية الرومانية ، يقيم الدليل على التبشير بالمسيحية في تلك الجهات في الأزمنة القديمة (ولو أنه لا يعلم الا النذر اليسير جدا عن هذه البعثات) · وتوحي الرغبة التي عبر عنها القديس بولس في التبشير في أسبانيا (سفر رومية ١٥ ، ٢٨) ، بأن اليهود تغلغلوا الى أقصى الغرب في العالم الروماني ·

(ج) انه كان في العهود الاغريقية والفارسية والرومانية أن اليهودية ، وهي تتميز عن دين العبرانيين في فترة ما قبل السبي ، تطورت كدين حتى

بلغت الصورة الكاملة النهائية التى ظلت عليها منذ النصف الأخير من القرن الثانى وبداية القرن الثالث . وهذه العملية النسقية التى بدأت كما رأينا بتنفيذ قانون عزرا والتى حافظت بتأثير النبوة فى المراحل الأولى على استمرار لا ينقطع ، مع دين ما قبل اليهودية ـ كانت تتميز بسيادة تضطرد ازديادا للتوراة التقليدى ، كما يفسره فى المدارس والمجامع ، الكتبة ومن جاء بعدهم من المفسرين الماهنين الذين أدمج عملهم فى النهاية فى « المشناه » وهى مجموعة القوانين التقليدية كما انفذت فى ختام القرن الثانى ، وبعد ذلك فى التلمود (التعليم) الذى وضع فى الجليل فى أواخر القرن الرابع ، وبابل (فى أواخر القرن الخامس) . وأصبح التوراة ، وقد وضع هكذا فى مدونة قوانين ، عقيدة يهودية عامة أساسها الاشتراك فى الفروض والتغلغل فى كل تفصيلات حياة المجتمع اليهودى ، الدنيوية وكذلك الدينية والشخصية والمنزلية والقومية . وقد حل منهج التخصص محل منهج التعليم وانتصر مذهب الشريعة وبطلت النبوة ينطق بها أنبياء أحياء ، ولكن يظل خلق المذهب اليهودى فى شكله النهائى الدائم عملا جليلا حقا قامت به عبقرية الشعب المختار ، الدينية (١) .

---

(١) راجع مور Moore "Judaism" السفر الأول ـ مقدمة ، وفصل السفر ٩ .

الفصل الرابع

قيام الهلينية

١ ـ مقــدمة

١ ـ ان أصول الشعب الاغريقى يعسر اقتفاء اثرها • ولقد رأينا كيف أنه منذ عهد بعيد ، فى الألف سنة الثالثة ، كانت كريت موطن مدنية زاخرة وصلت الى اليونان فى القارة وجزر ايجة والبحر المتوسط • والرأى السائد هو أن صانعى هذه المدنية كانوا يختلفون عن يونانى التاريخ اللاحق ، فى السلالة والخليقة واللغة • وعلاوة على هذا فان شهادة التقاليد القديمة وعلم الآثار الحديث تشير كلاهما الى كارثة أطاحت بدولة كريت ، فى وقت ما ، يقرب من ختام الألف سنة الثانية ، والى فترة لاحقة من الفوضى والاضطراب ، مماثلة لتلك التى وقعت بين سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب وظهور نظام مجتمع جديد فى العصور الوسطى • والأزمنة القديمة أيضا كان لها عصور مظلمة ، ومنها انبعثت يونان التاريخ • وفى كريت ، على سبيل المثال ، دمر حريق أبنية منويا العظيمة ثم بعد قرون لم يصل منها الا اليسير من الوثائق نجد الاغريق الدوريين يحتلون الجزيرة • ولقد أنبأت قصة الديانة الاغريقية عن صراع بين آلهة عجائز وآلهة أصغر منهم سنا وعن انتصار هؤلاء • وقد حفظ الشعراء والمؤرخــون الاغريق ذكريات عن هجرات بالبر والبحـر وعن صراع وامتزاج بين الغزاة الأخائيين والدوريين من جهة والبلاسجيين السابقين للأخائيين من جهة أخرى • والقليل الذى نعلمه عن عصر الانتقال هـذا يوحى بمشكلات لا بنتائج • ولكن هـذا القـدر على الأقل نُعلمه علم اليقين ، وهو أنه فى زمن متأخر فى الألف سنة الثانية ، هبـط محاربون طوال ، صـفر الشعر فاتحو اللون ، من الجذع الهندى الأوربى فى موجات متتابعات الى العالم الايجى من أصقاع الشمال الداخليــة • وبعضهم وقـد جلبوا معهم أسراتهم وما لديهم من متاع كالغوط والفرنجة فى زمن متأخر عن هذا ، شقوا طريقهم قسرا صوب الجنوب بالبر الى طراقية ومقدونيا وتساليا وأفيروس وواصـلوا السير الى اليونان الوسطى وبلوبونسس • وآخرون غيرهم ، ربما فى تاريخ أسبق ، عبروا السبنطس الى آسيا الصغرى وكذلك آخرون كرجال الشمال ، فى القرن التاسع أغاروا بالبحر على سواحل وجزر ايجا • ويمكننا أن نتصور هؤلاء الشماليين الأجلاف وهم لا يختلفون فى عاداتهم وثقافتهم عن المقدونيين فى عصر فيليب والاسكندر أو عن الألبانيين فى زمننـا • ولم يكونوا حـين سادوا فى خلال القرون مدنية كريت القديمة هدامين بكل ما تحمل الكلمة من معنى • ولقد تركت هذه المدنية آثارها على تدرجهم فى الرقى ، ومن المحتمل

أن تفوق الثقافة الاغريقية بموازنتها بثقافة الرومان كان مرجعه الى حد ما ، الى هذه الواقعة وهى الاتصال المبكر بالمدنية المنوية • وعلى أية حال كان اغريق التاريخ نتاج الامتزاج التدرجى بين الآخائيين وغيرهم من دخلاء الشمال والقاطنين القدامى بالعالم الايجى • ومن الطبيعى أن هؤلاء الأخيرين وقد كانوا أكثر عدا أن يطبعوا الغزاة بطابع ثقافتهم • واستقرار الغزاة فى اليونان الأوربية كان يصحبه أو يعقبه هجرات المستعمرين الاغريق الى جزر بحر ايجا وشواطئه الآسيوية والتقاتل مع ذوى قرابتهم الذين عبروا الى هناك بطريق آخر فى زمن أسبق • ومن المحتمل جدا أن ذكرى مثل تلك المعاوك هى التى حفظتها قصة حرب طروادة (١) • ولقد أبحرت احدى تلك الجماعات من المستعمرين ، وهم الأيوليون ، من تساليا الى شمال غربى آسيا الصغرى والجزر التى تقع فيما يلى الساحل • وغيرهم من المستوطنين ، بعيدا الى الجنوب ، اتحدوا فى تحالف فدرالى ، يطلق عليه اسم الجمعية الأيونية حول مقدس بولو فى ديلوس • وكان باسم الأيونيين (يوفان فى العهد القديم) أن قدماء الاغريق عرفوا لدى شعوب الشرق • ويمكننا أن نضع تاريخ هذه الهجرات البحرية عبر ايجا بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق•م• ومن المحتمل كثيرا أن هذه الهجرات ترتبط بالشدائد التى عانتها مصر من جوابى البحر فى عهد الأسرة العشرين (٢) •

وأخيرا فى ختام الألف سنة الثانية تماما وصلت آخر موجة من الغزو الشمالى الى اليونان الأوربية عندما احتل الدوريون وهم جيل من أصلاب المحاربين ، أسلاف الأسبارطيين الذين جاءوا فى تاريخ لاحق ، أجزاء من اليونان الوسطى والغربية ، وعندما بلغوا فى سيرهم مناطق الجنوب دانت لهم السيادة على التدرج ، على الجزء الأعظم من بلوبونسس • وعبر المهاجرون الدوريون أيضا بحر ايجه واستعمروا كريت ورودس وشواطىء آسيا الصغرى الجنوبية الغربية • وكان من أثر هذه الهجرات التى استغرقت عدة قرون وانتهت حوالى سنة ٥٠٠ ق•م• استقرار السلالة الاغريقية واللغة الاغريقية على جانبى بحر ايجة •

---

(١) ان التاريخ التقليدى لحرب طروادة هو ١١٨٤ ق•م• ورأى العلماء فى زمننا الحاضر أكثر تحفظا عما كان عليه منذ قرن • وهذه القلاقل فى بحر ايجا وعالم شرق البحر المتوسط قد تكون السبب فى فقدان الحيثيين لنفوذهم فى غربى آسيا الصغرى • انظر ما سبق قوله فى الفصل الثانى فقرة ١٢ ومحاضرات اشفايش Schweich Lectures لكاولى Cowley عن الحيثيين •

(٢) انظر ما جاء فى الفصل ٢ فقرة ٤ وقد كان بعض الغزاة المتأخرين يمتشقون سيوفا من الحديد من صنع أدخل التحسين عليه وأمامها كانت المدى من البرنز التى يحملها خصومهم الكريتيون قليلة النفع •

٢ ـ دولة المدن الهلينية

٢ : ان حياة الشعب اليونانى خلال القرون البواكر من الألف سنة الأولى ، كما فى حقبة الهجرات السابقة ، يكتنفها الغموض ، وعلمنا بطبيعتها يتألف على الأكثر من نتائج عامة تستند الى استدلالات ترجع الى العصر التالى ٠ وهذا جلى فى جميع الأحوال ، فلقد امتدت المدنية الهلينية منذ فجر تاريخها ، الى ما يلى يونان القارة ٠ وسنرى فى الحال كيف أنه فى القرنين الثامن والسابع ، بسطت هذه المدنية رواقها فيما يوالى منطقة ايجا حول أكسين (البحر الأسود) وفوق أراضى الساحل فى أفريقيا الشمالية وجنوبى ايطاليا وصقلية ٠ وقد أصبحت ايطاليا الجنوبية تعرف لدى الاغريق باسم « هلاس العظمى » وأينما نجد فى عالم البحر المتوسط مدنا اغريقية والتحدث بالاغريقية فهناك ، فيما له شأن بالتاريخ ، نجد اليونان ٠ ولكن الحقيقة التى لها الأهمية الأساسية للمدنية الهلينية هى أنه عندما يرفع الحجاب جزئيا فى القرن الثامن ، نرى الاغريق ، فيما عدا الجماعات المتخلفة التى تقطن بالجزر ، قد تجمعوا فى دول مدينة ، ونرى ممالك الملوك الآباء التى نقرأ عنها فى الأشعار الهومرية قد أخلت فى الغالب أمكنتها للأرستقراطيات الوراثية ، وفى الجماعات المدنية الأكثر تقدما نجد القوانين والنظم الدستورية قد بدأت فى الظهور ٠ وكانت كل من هذه المدن الصغيرة تستمتع بالاستقلال السياسى التام وترقى بمنظماتها التى تتميز بها وبسنن الحياة ، فى سبيل التقدم ٠ ومن الجوهرى أن ندرك أن اليونان الحرة لم تتوحد اطلاقا فى دولة واحدة ٠ والوثاق القومى كان وثاق السلالة واللغة المشتركين وليس ذلك الذى يكون بالاتحاد السياسى ٠ ويجب أن يكون مدار تفكيرنا فى التاريخ الاغريقى على أنه سجل لمئات المدن المستقلة التى تناثرت فى أرجاء جزر وشواطىء البحر المتوسط وكل منها يملك رقعة صغيرة من الأرض المدنية ٠ ورقعة أثينا على سبيل المثال ، التى كانت على اتساع منقطع النظير ، كانت تشمل شبه جزيرة أتيكا ومساحتها تعدل مساحة مقاطعة انجليزية متوسطة٠ وفى عصر بركليس، كان عدد المواطنين الذين يمكن تجنيدهم يبلغ ٣٠٠٠٠ يمثلون سكانا أحرارا تعدادهم زهاء ٢٥٠٠٠٠ بما فيهم النساء والأطفال يضاف اليهم الكثير من العبيد والغرباء المستوطنين (١) ٠

---

(١) انظر تذكرة الفصل الخامس فقرة ٥

كان لدى اسبارطة وهى دولة ـ غزو محدودة جدا نحو ٨٠٠٠ مواطن فى قدرتهم حمل السلاح ، فى زمن حرب الفرس ـ وقد هبط هذا العدد الى ما يقرب من ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ قبيل عام ٣٧١ وفى زمن أرسططاليس الى أقل من ١٠٠٠ وكان لدى أرجوس وطيبة قرابة ٢٠٠٠٠ من المواطنين ـ الجنود ، فى آخر القرن الخامس ٠

وعلى غرار الجمهوريات الايطالية فى العصور الوسطى المتأخرة كانت هذه المدن الاغريقية تحرص حرصا شديدا على استقلالها • وكلما ظفرت واحدة منها مثل أثينا أو سيراكوز الصقلية بالسيادة على الأخريات فان الامبراطورية كانت فى جميع الأحوال ذات أجل عابر وطالما بقيت ، كانت تثير الجفاء العميق بين رعاياها • وكانت الوطنية الاغريقية مدنية وليست قومية • وليس معنى هذا أنهم كانوا مجردين عن الاحساس بآصرة القرابة الهلينيـة المشتركة ، ولكن على النقيض كانوا يدركون فى جلاء ، الهوة التى كانت تفصل موازينهم فى الأخلاق والمدنيـة عمـا كان لدى « الهمج » الذين كانوا يحيطون بهم ولكن الرابطة كانت رابطة شعور ولغة وثقافة (١) • ولقـد وجدت تعبيرا خاصا بها فى الحفلات الرياضـية العظيمة التى كانت تعقـد تحت الرعاية الدينية ومجالها مفتوح لكل الهلينيين وقاصر عليهم ومن بينها كان أقدمها وأبعدها صيتا ، ذلك الاحتفال الذى كان يعقد كل أربع سنوات فى ألومبيـا على تخوم السى تكريما لزيوس ، وقد نظمت من بواكير القرن السادس حفلات أخرى فى نميا بالقرب من أرجس على برزخ كورنت ـ والفوثى ـ على سـهل كريسا عن قرب من هيكل أبولو فى دلفى • ودين الاغريق ، على الرغم من طائفة جمة من الضروب المتباينة المحلية ، كان يكون ارثا مشتركا • وكانت تحاط الآلهة الأولمبية الرئيسية مثل زيوس وبسيدون (Poseidon) وأثينا Athene وأبولو Apollo بالتبجيل فى جميع أرجاء المنطقة الهلينية • وفى عهد التوسع التجارى تطور مهبـط الوحى فى دلفى الى منظمة جامعـة هلينية دينية • وبفضل سهولة المواصلات بالبحـر بين جميع أجزاء العـالم الهلينى ، سرعان ما أصبحت ضروب الفن والشعر والعلم التى قامت فى متنوع مراكز الثقافة ملكا مشتركا لها جميعا • وعلى هذا فان الحاجة الى اتحاد سياسى كأداة للمدنية لم يشعر بها الاغريق طوال حقبة الخلق العظيمة ، فى تاريخهم ، وحتى عندما كانت تسيطر على مدائن اليونان الوسطى والشرقيـة المملـكة المقدونية فى القرن الرابع ، احتفظت مدن ايطاليا وصقلية باستقلالها وظفرت مقدونيا بسيادتها وحافظت عليها عنوة •

٣ ـ والبولس Polis دولة ـ المدينـة كانت من خلق الشعب الهلينى

---

(١) يذكر الأستاذ جلبرت مرى (Five Staqes of Greek Religion) خمس مراحل للدين الاغريقى (صفحة ٨١) أن الوعى بالهلينية كانت نشأته بين الأغريق الأيونيين فى آسيا الصغرى حيث كان التناقض مع الهمج المحيطـين بهم أشد ظهورا ، ولفظ هلينى ، معناه « مثـل الهلينيين » وليس « نسـل الهلينيين » نفس المرجع صفحة ٥٨ وما بعدها •

الخاص (١)٠ ان أمرها فى مستقبل المدنية لايحده حصر ، ففى المكان الأول ، فى حياتها وبنيتها تستعرض ، فى شكل أبسط مما هو عليه فى الدول الكبيرة فى الازمنة الحديثة ، المعطيات والمشكلات الخلقية والاقتصادية جميعا ، اللواتى يجابهن الانسان فى كل العصور كعضو فى مجتمع اشتراكى ٠ وكما صاغ الاغريق فى فلسفتهم ، فى تعابير بسيطة نسبيا ، النتائج الجوهرية للفكر الانسانى تلك التى توارت عن نظرنا الذى جاء فيما بعد ، تحت كتلة مركبة من المواد فهكذا فى نطاق العمل العام فى دولة ـ المدينة ، وطنوا أنفسهم على ادراك الشرائط الجوهرية لحياة المواطن الحقة ٠ ومرة أخرى فان مشكلات المجتمع المتمدين كان يعالجها الاغريق الى أن تصل الى الحل التام الممكن فى ظل ذلك الشكل من التنظيم ٠ ويمكن تتبع تاريخ دولة ـ المدينة الهلينية من بواكيره حتى تدهورها وسقوطها ، ثالثا قدم الأغريق نظريتهم الخاصة فى السياسة فانهم لم يخلقوا فقط دولة ـ المدينة ، ولكنهم كانوا يمعنون الفكر فيها ٠ وانا لنجد فى فلسفتهم كلا من التحليل المثالى والتفكيرى ، لعملهم العام ٠ وتقوم دولة ـ المدينة الهلينية على النقيض من امبراطوريات الشرق الأوليات من جهة ، ومن دول الأزمنة الحديثة ، من جهة أخرى ٠ والدولة الحديثة ، لا حاضرتها ، هى الوطن ، وقد تتغير الحاضرة كما فى روسيا من موسكو الى سان بطرسبرج وبعد ذلك من لينينجراد الى موسكو بينما الدولة باقية كما هى ٠ وقد يقوم للدولة كيان كرابطة المصالح المشتركة (الكومنولث) الأسترالية حتى قبل أن يتحدد موقع حاضرتها المستقبلة ٠ ولكن فى اليونان وفى روما فى عهد الجمهورية كانت الحاضرة هى الدولة بعينها ، وعلى خلاف الممالك الشرقية ، حققت دولة ـ المدينة فى اليونان توحيد الحياة المتمدينة والحرية السياسية ٠ وفى الشرق يكون لحرية الحكومة وجود ولكن فقط بين القبائل غليظة الطباع التى تعيش فى جماعات صغيرة ، ويكون تقدم الثقافة ممكنا فقط عن طريق تكوين مجموعات عظيمة من مثل هذه الجماعات تحت

---

(١) أسس الفينيقيون ، فى موطنهم وفى المستعمرات ، وخاصة قرطجنة دولات ـ مدينة ولكننا لا نجد فى أى مكان الحياة العامة الحرة التى ترتبط بهذا النظام كما فى حالة المدن الاغريقية أو فى روما ٠ ويرى فولر Fowler (دولة ـ المدينة صفحة ٥) فىدولة المدينة ـ أساس الاحساس بميراث المدنية المشترك الذى خلفه الاغريق والرومان (على سبيل المثال ، المؤرخ الاغريقى بلوبيوس Polybius فى القرن الثانى ق٠م) وقد يوجد شك فيما اذا كانت الجماعات الايطالية الحضرية دولات مدينة كاملة التكوين ٠ ان مدينتا لاتيم Latium وقمبانيا Campania كانتا بالحرى مراكز حضرية بين جماعة قبلية وعن روما التى وصفها بلوبيوس « دولة أعظم شبها بدولة هلينية » ، انظر ما يلى فصل ٧ ٠

حكم استبدادى وعلى ذلك تكون الحرية الثمن الذى يبذل للحصول عليه ٠ وهكذا كانت حال الاسرائيليين فى كفاحهم ضد جيرانهم فانهم وضعوا أنفسهم طوعا تحت امرة ملك كمناط رجائهم الأوحد فى الخلاص القومى ٠ وقالوا لا بل يكون علينا ملك فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا (١) ٠

وطوال العصور القديمة ، كان معنى الدولة العظيمة هو الحكم الاستبدادى والى أن ظهر الاغريق كان معنى التقدم فى المدنية خلق دولة عظيمة ٠ لقد كانوا أول من حل مسألة الجمع بين الثقافة والحرية فى مجتمع صغير وحلوها عن طريق دولة ــ المدينة ٠ وقد اجتمعت ارادتهم على أن يشابه الواحد منهم الآخر ووصلوا الى نتيجة فريدة وحققوا فى حياة دولة ــ المدينة ، العامة الحرة تاريخا يتناقض تناقضا فاجعيا مع قصة الاستبداد الرتيبة ومزايا الطبقات الاجتماعية والاستعباد ، التى يجىء سردها فى سجلات الشرق ٠

٤ ــ لقد أوجدت « دولة ــ المدينة » قاعدة المدنية الهلينية والمثل الأعلى لها فى نفس الوقت ٠ ولم يأتنا الا اليسير من العلم عن النسق الذى درجت فيه المستعمرات البدائية الى دول ــ مدينة ، وفى مكنتنا أن نتصور المغيرين الشماليين يسكنون كغزاة بين آهلين معادين فى أزمنة كان البحر يكتظ فيها، بالجوابين من طلاب الغنيمة ويقيمون حصونا بدائية فى مواقع ضاحية على التلال على مسافة قريبة من الشاطىء ، يمكن أن يأووا اليها بقطعانهم فى أوقات الخطر ٠ وفى أثينا فى العصور التاريخية ، كانت قلعة الأكروبول لا تزال « المدينة » ، ومن الجائز أن الجماعات القروية تجمعت هناك للدفاع عن النفس أو تآلفت حول مقدس مشترك للعبادة الدينية ٠ وفى هومر كانت المدينة ، أولا وفوق كل شىء حصنا يمكن الدفاع عنه (٢) ٠

يجب أن نرجع بتفكيرنا الى الماضى، الى زمن كان يذهب الاغريق كغيرهم من السلالات الباكرة، الى أن ثمة قرابة كانت تربط الآلهة والناس وحتى حيوانهم ٠ وبقيام الهجرات وهن الوثاق وبدأت أواصر الأسرة تخلى مكانها للاخلاص للجماعة ٠

---

(١) انظر بيفان Bevan (بيت سليوكس House of Seleucs) سفر ١ فصل ١ وفيه المثال المقتبس من صموئيل الأول ٨١ ٠ ولقد كان الكتاب السياسيون فى العصور الوسطى ، يرجعون الى الفقرة كثيرا ، لدعم مبادىء الأساس الشعبى للملكية والعقد الاجتماعى ٠

(٢) انها مقدسة (hieros) فى هومر، مثلا ، الاليـاذة : ١ ، ٣٦٦ ٠ وقد كانت أقدم المعابد تقام ، بطبيعة الحال ، على القلعة الصخرية على كثب من مقر الزعيم ، وبعد ذلك ، بتقدم أوجه النشاط التجارى ، أصبحت المعابد تقوم حول ساحة السوق (agora) ٠

وأصبحت دولة – المدينة الرمز المادى لهذا الولاء • وكان كل رجل فى العشيرة يراها بعينه المجردة تستوى أمامه وهو يفلح رقعته من الأرض فى الأرباض أو يجتمع مع رفاقه للمقايضة أو للعبادة داخل اسوارها • وفى ساحات المدينة ، كان كل شىء يقع تحت نظره ، ذا قرابة وثيقة ومالوفا • وهناك فى المجتمع الصغير الذى يضم مئات قليلة من المواطنين ، يتجمعون فى أسرات وعشائر ولايزال الاحساس بالقرابة يدب بين حناياهم ، وهناك كانت تسود مساواة فى الزمالة ، حقة (١) • وكان كل شخص يعرف الآخر بالنظر وبين الواحد والآخر من الأغنياء والفقراء والحكام والمحكومين كانت توجد أواصر شخصية مباشرة • ولم تكن تعوق الملوك والنبلاء ، كما فى الحاشيات الشرفية ، قواعد آداب السلوك ورسميات الدولة ولم تقف القواعد الشكلية للتعريف حائلا أمام التواصل الانسانى • ولقد عاش الاغريقى عيشه فى الخلاء ، معرضا للشمس ، يجوس خلال ساحة السوق (agora) أو حلبة المصارعة (palaestra) متلكئا – كما يطيب للفرد من أهل الجنوب أن يتلكأ – وهو يتجاذب الحديث مع جيرانه ، دون أن يعبأ بزمن (٢) ، وكان الاغريق شعب زراع ، يزرعون الحنطة ويغرسون الكرم والزيتون وأتاح لهم عملهم ومناخهم أن ينفقوا معظم حياتهم فى الهواء الطلق ولديهم أوقات فراغ للتواصل الاجتماعى (٣) ولا يمكن تصور نقيضا لحياة مدينة صناعية حديثة حيث يتزاحم الكل لأعمالهم

---

(١) هكذا كما جاء فى الأدوسا (الكتاب السادس : ١ – ١٠٩) فان نوسيكا Nausicaa ، وهى ابنة ملك كانت تغسل الملابس مع خدمها • ويصف هيرودوت (٣ ، ٤٢) طاغية القرصان بوليكراتس Polycrates وهو يطلب الى صائد سمك أن يشاركه الغذاء •

(٢) انظر زمرن Zimmern ، (الكومنولث الاغريقى Greek Commonwealth) الفصل الأول ، من ديدن اليونانى فى زمننا أن يغرق الغريب بأسئلة فيها تشوق ، وكان اليونانى القديم يزهو بجسارته فى الحديث (parrhêsia) وكان متحررا من كل خجل أو تحفظ • وتوضح (الجمهورية ٨ ، ٥٥٧) لأفلاطون أن (الجسارة فى الحديث) دليل على الديموقراطية فى أقصى معانيها ويرى زمرن أن السؤال القصير والجواب الذى يلازم دخول شخصية جديدة فى الفاجعة (دراما) الأتيكية تنعكس فيها هذه الخصلة القومية •

(٣) اللفظ الاغريقى لوقت الفراغ كان Scholé ومنه جاء لفظ School الذى نستخدمه • لأن وقت الفراغ كان معناه ، بالنسبة لهم ، الفرصة للقيام بأعمال لها قيمة جوهرية كتلك التى يختارها الانسان لذاتها (مثلا ، السعى وراء العلم) وهذه الفكرة هى أساس تفرقتهم بين الأعمال (الحرة) والأعمال (الضرورية) ولهذه التفرقة أهمية أساسية فى (السياسة) ، لأرسطاليس • انظر فيما يلى فصل ١٢ – ٩ •

بالمناكب ، وحيث لحظات الاستجمام قليلة ومنتظمة ، أعظم من الحيـاة غـير الرسمية الطليقة التى كانت تحياها دولة ــ المدينة الاغريقية • ولكن وقت الفراغ كان يعنى للاغريق أى شىء الا الكسل • انه كان يهيىء مخلصـا من ضغط المطالب المادية وفرصة لاستعراض العقل والموهبة • ويجب أن يدور تفكيرنا حول الاغريق كرجـال عمل أكثر منهم فنانين أو مفكرين • ان فنهم وعلمهم كانا يتألفان تالفا محكما بمصالح الحياة العملية • ولقد قام النحت وفن العمارة بطبيعة الحال ، بينهم لأن الحاجة كانت تمس اليهما لاقامة بيوت الآلهة والناس وقامت فلسفتهم لأن الحاجة كانت تدعو اليهـا للتحكم البصـير فى العالم الذى كانوا يعيشون فيه • وكان الاغريقى يعجب بالكفاءة أكثر من كل الأشياء ، واللفظ الذى كان يطلقه عـلى الفضيلة (arete) لا ينسحب عـلى السمو الخلقى وحسب ، ولكن على الموهبة العقلية والقدرة على الظفر بالنجاح فى كل ميدان فى الحياة العامة (١) • والمثل الأعلى لرجل قوى ، يعرف مايحتاج اليه من العالم وله القدرة على الحصول عليه ، كان دائما يستهويه ويقصيه عن نهج الاعتدال • ولقد أوجدت دولة ــ المدينة لهذا النشاط العقلى والبـدنى القلق ، مجالا طبيعيا • والحيـاة الوحيـدة التى تستحق العيش ، فى نظر الاغريقى كانت حياة الخدمة كمواطن • وكانت الأسرة تسترعى اهتماما يسيرا وقيمة خلقية ليست بذات خطر • وكان الابن عندما يصل الى سن الرشـد يترك أباه وأمه ، وفى بيته كانت الزوجة لا نفس لها ، ولا وزن لها • ومن هنا ، كان المركز الوضيع للنساء والأطفال وفشل التعليم الاغريقى • ودولة ــ المدينة ، وفى دولة ــ المدينة ، كانت السوق بما يحيط بها من أروقة ذات عمد وأبنية عامة وطنه وعالمه • وعلى هذا فكلما أخذ أفق الاغريق العقلى والخلقى فى الاتساع فان الثقافة التى كانت تجد التعبير عنها فيه كانت فى كل مرحلة ترتبط بالمدينة • ونغمة الرأى العام التى تحدد خـلائق الرجـال وعاداتهم ، بطريقة غير محسوسة ومع ذلك فى قوة عظيمة ، كانت نغمة دولة ــ المدينة المميزة أو ethos (٢) وفى القيام بدور ذى قيمة فى حياة دولة المدينة ، كان أعـلى مطمح للمواطن والمعيـار الـذى يقيس به نجـاحه وسـعادته Spartam nactus es, hanc exorna • والمولد فى دولـة ــ مدينـة وضيعة كان يعد عثور جد خطير • وعلاوة على هذا ، كانت دولة ــ المدينـة

---

(١) كان الاغريق يرون فى رجل مثل نابوليون رجلا بلغ من الفضـيلة أقصى ذراها وكان ثمسطوقلس Themistocles يتجمل بالفضيلة الى درجـة عظيمة •

(٢) لا يغيب عن البال ، الجو الخلقى للمدرسـة أو الكلية أو النـادى أو الكتيبة • ولقد أكد افلاطون :(الجمهورية ٦ ، ٤٩٢) أنه لا يمكن لأى فرد ، مهما كان موهوبا ، أن يقاوم قوة نغمة دولة ــ المدينة ، العامة •

تحدد فحوى واجباته ، لا الخلقية وحسب ولكن الدينية أيضا • ولم يعرف الاغريق التمييز بين الكنيسة والدولة ومن الأزمنة الهومرية وما بعدها كان الحاكم يرأس دين المجتمع بينما كانت تنحصر أعمال الكهنة فى تصريفواجبات الفرائض (١) • وهيأت المدينة أيضا الواعز للتقـدم العقـلى • وفى مجالس الشعب الرسمية ، كما فى التواصل اليومى فى ساحة السوق أو مائدة الطعام أتاحت الفرصة لحرية الفكر والتخاطب • ان مثل هذه الحرية فى النقد ، شىء مستقل تماما عن الأنظمة الديموقراطية وأداة الحكم الذاتى السياسى • وكان الجند يخوضون فى مناقشة أعمال وخلائق ضباطهم من وراء الستار والصغار فى أولئك التى تكون لكبارهم ، فى المدرسة أو الكلية دون أن يكون لهم أى حق فى التصويت لانتخـابهم • وكانت الديموقراطيـة فى اليونان النتيجة وليست السبب ، للنقاش الحر • كان اليونانيون أمة متحدثين وكان حديثهم فى الغالب صبيانيا ويجانب الاخلاص ومن شأنه أن يثير الاحتقار فى صدر الرومانى الذى كان ديدنه أن يعمل فى صمت • وما كان يميز الاغريق عن الشعوب الأخرى التى تشغف بالكلام هو أنهم كانوا يتحدثون أيضا فيما كان جديرا حقا بالمناقشة : القانون والحرية والواجب الخلقى وغاية الحكومة وطبيعة وأسباب الأشياء والفن والشعر والفضيلة وصالح الانسان ، وفوق هذا كله ، كان حديثهم يلائم العقل والمنطـق ، والافصـاح عن التفكير الخالص وتفهم الواقع • ولم يفكر أى شعب اطلاقا بمثل هذا التعمق أو تحدث بمثل هـذه الاجادة عن هذه الموضوعات السامية ، كما فعـل الاغريق • ولم يرسم أى شعب قط ، بمثل هذه اليد الثابتة الخط الفاصل بين الخدعـة والحقيقـة أو وطنوا أنفسهم بمثل هذه العزمة على فهم واستيعاب عالم الطبيعة • وكل هذا كان نتاج المطارحة الطليقة بين العقل والعقل التى أوجدها التواصل المشترك، كمواطنين فى دولة ــ مدينة •

٥ ــ والمثل الأعلى الاغريقى للحياة ، كان يتصور فى حدود دولة ــ المدينة، وكانت السعادة (eudaimonia) عند رجال السياسة والفلاسفة على السواء،

---

(١) ولما لم يكن فى وسع الآلهة أن يجبروا ولكن يحذرون ويعاقبون فهكذا الكاهن كان فى وسعه فقط أن يحذر ويعترض• لقد كان المنوط بشئون المنزل والحراسة ὑπηρέτης=minister, servant لالهه وبين الفينة والفينة فقط يكون المتحدث عنـه • وعنـدما يعطى وحى χρησμός يكون ذلك لأن الرجل قبل عون الاله ἐχρῆτο •

هي النهوض بشرف ، بالواجب المدني (١) ويعبر واضعو الفاجعة والمؤرخون في القرن الخامس ، على التقريب ، في كل صحيفة من كتاباتهم عن احساسهم بقيمة دولة - المدينة وهي تهيء المجال لتحقيق الحياة الصالحة (٢) والفلاسفة الذين كانوا يسعون الى أن يحددوا بالاستدلال العلمي طبيعة ومعيار الصلاح الانساني ، لم يتزعزعوا في اعتقادهم بأن الحياة الوحيدة التي تستحق العيش، كانت حياة المواطن في دولة - المدينة الهلينية . عندما عرض على سقراط ، بعد أن حكم الأثينيون عليه بالموت ، الهرب من السجن ، أجاب بأن التملص من قانون دولة - المدينة حتى عندما يكون قد طبق بالجور كان من الوجهة الخلقية خطأ أشبه بعمل من أعمال العنف يوقعه ابن على أبيه الهرم . وقد حكم أفلاطون بأن كل الدول الاغريقية القائمة فاسدة فسادا لا رجاء في تقويمه . ومع هذا فقد وضع تخطيطا مجملا في جمهوريته ، للمجتمع المثالي على أنه دولة - مدينة هلينية أجرى عليها الاصلاح (٣) . وعنده ، كما كان عند أرسطاليس في الجيل التالي ، كانت المدينة الصالحة توجد حالة الحياة الصالحة لأعضائها وكذلك ما يلازمها . وقد عرف أرسطو دولة - المدينة بأنها جماعة تكونت لحفاظ حياة مكتملة وفيها اكتفاء ذاتي ، وأشكال أخرى من الجماعات يسرت للانسان العيش ولكن دولة - المدينة وحدها ، يسرت له العيش الطيب (٤) ولقد عرف الانسان بأنه (حيوان سياسي) ، مخلوق حي

---

(١) Eudaimonia (ومعناه أن يكون للمرء روح حارس طيب) كان التعبير الاغريقي عن « السعادة » أو « المراح » أي Summum bonum أو المثل الأعلى للحياة البشرية . وعن تفسير هذا المثل الأعلى ، يورده اغريقي مثقف من القرن الخامس ، راجع قصة هيرودوت عن الحديث الذي دار بين صولون وكروسس (١ : ٣٠ وما بعدها) . ولدى العقل الشعبي كانت السعادة في سعود الجد (eutychia) وقد رفض الفلاسفة عن وعي الرأي القائل ان الخير الأعظم كان يعتمد على ظروف خارجة أو نزعات الآلهة التعسفية أو الحظ .

(٢) وازن على الأخص هيرودوت الكتاب السابق ذكره وكذلك الجزء الثالث صفحة ٨٠ وما بعدها وفي العبارة الأخيرة يذكر أن عظماء الفرس كانوا يتحاورون عن مزايا الديموقراطية والارستقراطية والملكية على الولاء . وبطبيعة الحال ، كانت الأحاديث تعبر عن عواطف الاغريق كما كان رومانيو شكسبير في الواقع انجليز عهد أليصابات . راجع أيضا محادثة خشيارشاي مع ديمرطوس Demaratus ٧ : ١٠ وما بعدها .

(٣) أفلاطون ، الجمهورية ٥ : ٤٧٠ وعن رفض سقراط راجع crito لأفلاطون .

(٤) أرسطاليس (السياسة) : ٣ ، ٩ و١٢٨٠ ب ، ١ ، ٢ و١٢٥٢ ب

نزعت به طبيعته نزوع حياة النشاط المدنى (١) • ووظيفة المشرع والسياسى الأصلية ، هى ايجاد الصلاح الخلقى فى المواطن وتعليمه حتى يمكنه النهوض الكامل بمواهب طبيعته فى دولة ـ المدينة • وحتى الرواقيون وهم يكتبون بين أشتات الاستقلال السياسى الاغريقى المتناثرة ، جهدوا فى أن يعيدوا تركيب نسج الواجب الخلقى بتعليم الناس أن يعيشوا كمواطنين فى الجمهورية العالمية، دوله ـ مدينة أساسها العقل الخالص ، مدينة الله (٢) •

٦ : وبهذا تأصلت أرومة مدنيـة الشعب الاغريقى ، تأصـلا عميقا فى تربة دولة ـ المدينة • لقد كانت (الصخرة التى نحتوا منها) و (نقرة الحفرة التى استخرجوا منهـا) • ان فن العمارة والنحت ، والحفـلات الفاجعيـة والأنشودة العاطفية ، والعلم والفلسفة ، والدين والأخلاق ، والطوائف الحرفية وفنون الحرب والسلم ، وتكوين الدستور ومبادىء السياسة العامة ، وأشكال التواصل الاجتماعى ، والحديث ، والأخلاق ، كانت كلها فروعا لتكوين عضوى أوحد دولة ـ المدينة • ولكن للصورة جانب آخـر • ان للحرية سـيفا ذا حدين • وقد أفسحت حياة دولة ـ المدينة المجال لمزاج الوطنية المدنية وكذلك مجال الطموح الشخصى • وفى اليونان القديمة ، كما بعد ذلك بألفى سنة فى فلورنسا فى عهـد دانتى • كانت عوامل التفـكك فى التشيع الحزبى والأغراض الذاتية فى الأفراد تغلى مراجلها عن قرب تحت السطح • انالتوقف Stasis ، وانفصام العرى المدنى ، كان المرض المزمن فى دولة ـ المدينة الهلينية • وكلا الشكلين اللذين اتخذهما وهما عدم قدرة المدن على التضام فى اتحاد سياسى ، حتى فى مواجهة عدو مشترك ، والنضال الداخلى الذى يقوم بين الرجال والأسرات والأحزاب داخل أسوار مدينة واحدة ، عملا على انحلال الاستقلال اليونانى فى نهاية الأمر • وفى الحق ، انا لنقرأ باستمرار عن تحالف المدن لأغراض ترجع الى الدين أو الدفاع • ان تاريخ الاغريق هو فى معظمه تاريخ أحلاف، من حلف الجماعات التى يربطها الجوار الى معبد amphictyonic فى القرن السابع الى الأحلاف الأخائية والايطولية فى القرنين الرابع والثالث• ولكن هذه الضروب من التضام كان ينقصها الدوام والتلاحم اذ كان لها أثر فعال فقط ، فى أغراض عابرة وداخل حدود الهلينية الضيقة، وقد دلت على أنها

---

(١) أرستطاليس ، السياسة : ١ ، ٢ و١٢٥٣ أ • ويصر مؤرخ روما الاغريقى بلوبيوس Polybius الذى ترجع كتابته الى عهد متأخر ، منتصف القرن الثانى ، على أن الدستور يكون صالحا أو رديئا وفقـا لما ينتجـه من مواطنين صالحين أو طالحين من حيث طباعهم الخلقية (بلوبيوس ٦ ، ٤٧) •

(٢) معنى Cosmopolis مدينة (polis) الكون (cosmos)

عديمة الجدوى تماما بالموازنة بقوات مقدونيا وروما (١) • وفى النهاية ، كانت نتيجة المغالاة فى الحرية الوقوع فى العبودية لدولة أجنبية • والاغريق ولهم ذلك الاحساس المرهف بحقائق الحياة ، لم يكونوا متباطئين فى تعرف عوارض موضاعهم الخاصة ولكن كان لا حول لهم فى علاجها ، ولقد أرجع أفلاطون ، ببصره الذى لا يخطىء بالطبيعة البشرية ، أصل الطغيان العام فى الدولة الى طغيان العاطفة التى لا ضابط لها فى الفرد • ولقد رأى أن أعظم أولى المواهب من المواطنين ، من أمثال ثمسطوقلس أو السبيادس Alcibiades بالنسبة الى عظم ما يستحوذون عليه ، كانوا أكثر عرضة لان يقعوا فرائس لشهوة السلطان وأن يحطموا أولا اقتصاد أرواحهم هم ، ثم بعد ذلك اقتصاد المجتمع(٢) • ومع كل ما فيه من روعة جلائل الأعمال ، يزخر التاريخ الاغريقى بالمأساة • ان حطام النفوس التى أتى عليها الدمار يتناثر فى مطوى صفحاته • وهذه الصفحات تعرض التضحية التى اشترى بها عقل الانسان حريته فى أن يفكر وأن يعمل • ولكن يجب ألا تخدعنا حتى نزعم لحظة أن النصر لم يكن يستحق التضحية •

٣ ــ توسع اليونان

٧ ــ ان تأثير دولة ــ المدينة للخير أو للضير يتجلى فى بيان أكبر وضوحا كلما درسنا تطورها فى التاريخ الاغريقى • وقد شاهد القرنان الثامن والسابع انتشارها السريع فى جزر البحر المتوسط وأراضيه الساحلية • وقد كانت الأحوال المناخية والجغرافية تلائم توسع السلالة الاغريقية هذا • وكانت مدن منطقة ايجا تقع اما على الجزر واما على الوديان التى تفصلها سفوح الجبال العالية وأصبحت بذلك فى حماية من العدوان بالبر • ولكنها لم تكن منعزلة عن التواصل المتبادل والا كانت كالمدن السويسرية فى التاريخ الحديث ، لتحتفظ باستقلالها بأى ثمن • وكان البحر وثاق الاتحاد • وقد ضمن خليج كورنث والتعاريج الساحلية التى لا عد لها ، والمداخل ، للاغريق الأوربيين خطا ساحليا بالغ الاستطالة ولا تكاد توجد أية ولاية اغريقية ليس لها مخلص سهل الى البحر • وكان الاغريق سلالة بحرية منذ الأزمنة الأولى • وقد عمل التواصل فى التجارة بينهم وكذلك بينهم وبين الشعوب الأخرى ، وهو يتالف

---

(١) كان يظهر للاغريق أن التحالف والامبراطوريات على السواء ، خطوة تتخلف عن دولة المدينة المستقلة •

(٢) راجع الجمهورية : ٦ ، ٤٩٠ وما بعدها (حيث ترجع الاشارة دون شك الى السبيادس) و٨ ، ٥٦٢ وما بعدها (حيث يبين أن الطغيان ترجع نشأته الى المغالاة فى الحرية الديموقراطية) •

بحرية مدنهم وكيانها الفردى ، على تنمية ثقافة متنوعة زاخـرة ، وندر أن وجدت سلالة ، كائنة ما كانت ، أضفت عليها الطبيعة فى مثل هذا الاغداق عوامل مدنية ، وطبيعية(١) · ان الجبال والبحر والمناخ المعتدل الذى يبعث على النشاط وتربة كانت تتطلب الهمة والمهارة وتجزل لهما العطاء ، ان هذا كله عمل على بعث صفات حب المغـامرة والعمل المتحرر اللذين حملهما الغـزاة الشماليون معهم عندما هبطوا الى العالم الايجى (٢) ·

٨ ـ ولقد تميز القرنان الثامن والسابع بالمغامرات التجـارية والنشاط الجم فى الاستعمار ، ونمو الثروة والتهذيب الاجتماعى والقلق السياسى الذى اتسع نطاقه · وقبيل سنة ٦٠٠ ق·م· كان الاغريق قد أنشأوا مستعمرات تجارية على شـواطىء بروبنطس Propontis (بحـر مرمره) والأكسـين (البحر الأسود) وعلى ساحل افريقيا الشمالى وحول جنوب ايطاليا وعلى الخط الساحلى فى صقلية ، بطوله الا حيث كانت حصون قرطاجنة تتحكم فى غرب الجزيرة الأقصى · ولقد رأينـا كيف أنه فى بواكير القرن السادس اسـتحوذ التجار الاغريق من أمراء موالين فى الأسرة السادسة والعشرين على مقر دائم فى نوكراتيس Naucratis فى دلتا مصر · وكانت تجارة البحر المتوسـط من صقلية الى الشرق قد أفلتت من يـد الفنيقيين الى الاغـريق · وفى أقصى الغرب استمتعت قرطاجنة باحتكار لا ينازع · ولكن فى غيره من الأصقاع تمكن اليونانى التاجر والمستعمر بما له من عبقرية طبيعية يكون فيها مطمئن البال فى أحوال جدد وبين ناس غرباء ، من طرد السلالات السابقة من أسواق البحر المتوسط · وقد لازم هذا التوسع التجارى نتائج بعيدة الأثر فى الحياة الاجتماعية والسياسية · وقامت المدائن الرائعـة مثل مليتوس Miletus فى ايونيا وسيراكوز فى صقلية وسوبارس Sybaris فى جنوبى ايطاليـا ويدل لفظ Sybarite الى يومنا على شخص يتعشق الدعة المترفة · ولقد نهضت الى حيز الوجود طبقة من الأمراء التجار قامت برعاية الفن والشعر فى سخاء ونبل ·

وفى مجال السياسة كان يفـور عـلى الدوام شغب دائم وثورة · فقـد أصبح أولو اليسار الجدد يكافحون من أجل السلطان والامتيازات ضد احتكار النبلاء القـدامى · وقـد نجم عن الكفـاح الحزبى العنيف دافع لجـديد من الاستعمار · ولم يكن من غير المعتاد أن يرسل غير الراضين وكثيرا ما يكون

---

(١) ولكن لم تكن لديهم موارد قوى طبيعية (ومن هنا كانت الحاجة لخدمة العبيد على نطاق واسع) أو زجاج (وعلى هذا فلا كيمياء أو أدوات بصرية) أو فحم (وعلى هذا فلا ألواح مراجل أو بخار) ·

(٢) ولكن المنويين وكذلك الشماليين قاموا بمغامرات بحرية ·

ذلك بارشاد مهبط الوحى فى دلفى الذى علت أهميته فى هذه الحقبة ، كمستعمرين الى أية منطقة غير مأهولة تصلح للتجارة ، حيث كانوا يؤسسون دولة ـ مدينة تتمتع بالحكم الذاتى • وكانت المستعمرة الاغريقية مستقلة سياسيا عن المدينة ، الموطن الأصلى • والأسباب التى تربطهما كانت تلك التى تتصل بالدين أو العاطفة أو التحالف التجارى (١) • وعلى هذا كان العصر ، عصر انتقال سياسى سريع • وقد مهد تنافس النشأة والثراء ، والأرض والتجارة ، الطريق حينا للديموقراطية وحينا آخر للطغيان • وأعظم ظاهرة تسترعى النظر فى تلك الأزمنة ، كانت قيام شكل الحكومة المعروف للاغريق باسم حكم الطغاة • ولو أنها كانت قصيرة الأجل فى أية مدينة بعينها فانها غدت منذ ذلك الزمن ظاهرة مستديمة فى مراكز اليونان التجارية • ويغلب كثيرا ، كما حدث فى أيام النهضة الايطالية أن تاجرا غنيا يطيح بالنبلاء الظالمين بمعونة الشعب ويقيم نفسه حاكما مستبدا • وكان « الطغاة » فى الكثير الغالب حكاما متنورين ذوى شمائل انسانية مثل بسسطراطس Pisistratus فى أثينا فى القرن السادس ولكنهم كانوا يسيئون اساءة بالغة الى تعشق الاغريق للحرية ولقد أثار حكمهم المقت المرير • لقد وضعوا أنفسهم فوق القانون وبذلك ، نبذوا كل دعوى فى حمايته • وكانت سلطتهم انتهاك لطبيعة ethos دولة ـ المدينة الهلينية • يضاف الى هذا ، أن الاغريق كانوا يسهمون الى أقصى حد فى المقت الذى يحس به أحرار الناس فى جميع العصور نحو السلطة التى يكون أساسها امتلاك الثروة • وقد كتب ثيوجنس مواطن مجارا : « ان الاطاحة بطاغية يبدد الناس ليس بخطيئة ولن تعاقب عليه الآلهة » • ويحتفل الشاعر سيمنيدس بحمد قاتلى ابن بسسطراطس بهذه الكلمات : « ان ضوءا عظيما تفجر على الأثينيين عندما ذبح هرمديوس Harmodius وارسطغيطن Aristogiton ابرخس Hipparchus » • وتتجلى نتائج هذه الحقبة فى حياة اليونان العامة أيضا ، فى تقدم القانون والنظم السياسية والسير قدما صوب

---

(١) ومع هذا فاننا نقرأ عن مستعمرات كانت تنافس المدينة ، الموطن الأصلى ، منافسة تجارية مريرة مثل كورنث ومستعمرتها كركورا Corcyra انظر ثقوديدس Thucydides : ٣ ، ٨٢ وما بعدها ، حيث يجىء وصف الثورات فى كركورا كمثال لنتائج الكفاح ، الحزبى الخلقى والسياسى ، فى العالم الهلينى فى أواخر القرن الخامس • وعن مهبط الوحى فى دلفى والاستعمار ، أنظر هيردوت ٤ ، ١٥٠ ـ ٨ (قورينا) •

الديموقراطية ، بهدم الحقوق المتوارثة (١) • ومما كان له شأن عظيم توسع الثقافة فى مجال الشعر والفن والعلم •

٤ - بواكير أدب الشعر

٩ - ان أدب اليونان ، كأدب الكثير من الأمم يستفتح بالأغنية وأقدم ما بين أيدينا من قصائد شعرية هما ملحمتان تنسبان الى هومر ، الالياذة والأودسيا • وتسرد الالياذة قصة معارك حربية على « السهول الداوية فى طروادة التى تعصف فيها الرياح » وغضبة وجسارة أخلوس Achilles وذبحه هكتور Hector رجل طرواده - وتقص الأودسيا تجوال أدوسيس Odysseus الذى استغرق عشرة أعوام فى البحر والبر بعد أن سقطت طروادة ورجوعه الى اتيكا وذبحه الخطاب الذين أفسدوا بيته (٢) • انهما الملحمتان الباقيتان من ملاحم كثيرة سابقة وتمثلان الثمرة الناضجة لفترة مستطيلة من الخلق الشعرى • ولقد أحضر أول المستعمرين الاغريق فى آسيا الصغرى ، الذين ينتمون الى الأصل الايولى ، معهم من تساليا الجنوبية ، الأغانى الشعبية الراقصة والأغانى القصصية القصيرة التى تسبح بحمد

---

(١) ان تدخل فارس التى كانت تستطيع التعاون دائما مع حكم القلة oligarchy أصاب تقدم الديموقراطية العادى اصابة بالغة • وهذا هو سبب بقاء حكم القلة الى القرن الرابع •

(٢) لا يعرض تتابع الحوادث فى أية واحدة من الملحمتين نتيجة لتخطيط واسع ، وكما أشار منذ عهد قريب السيد ث•س•لويس Mr. C. S. Lewis فى مقدمة الفردوس المفقود ، فى افصاح وتنوير ، أنه من خصال بواكير ملاحم البطولة فى اليونان كالحال بين شعوب أوربا الشمالية ، وعلى غير شاكلة ما جاء من ملاحم « ثانوية » ، أنها لا تعالج موضوعا عظيما مثل تأسيس روما (فرجيل) أو سقوط الانسان (ملتون) ويكتب فى الصفحات (٢٨ - ٢٩) « ذلك النوع من العظمة ينهض فقط عندما يقوم ثم حدث يمكن أن يبرز على أنه أتى بتغير عميق فى تاريخ العالم ، فى دوام قليل أو كثير ••• ومجرد الصعود والهبوط الذى لا نهاية له والتبديلات المستمرة التى لا هدف لها ، من مجد وبؤس التى تتكون منها الظاهرة المروعة لما يسمى عصر البطولة لا تسمح بمثل هذا التخطيط • ولا يكون حدث بذاته فى الواقع أكثر أهمية الى حد جد بعيد ، من حدث آخر ••• لا شىء له بقاء ، ولا شىء يتعدى مغزاه اللحظة ويوجد من البطولة أو المأساة الشىء الكثير وعلى ذلك يوجد الشىء الكثير من القصص الطيبة ولكن لا يوجد « تخطيط عام ••• » وخالص النتيجة ليس شكلا انموذجيا وانما ضروب من الأشكال والألوان الجميلة » •

الآلهة والسلف القبلي والتي تتكون من أبيات يكون فيهـا البيت من سـتة مقاطع «انه أفخم وزن صاغته شفاه البشر» (١)· وقد حيكت هذه الأغاني في ملحمتين عظيمتين في جزيرة لسبس أو على شواطىء شمال غربي آسيا في المدة التي تقع بين عامي ١٢٠٠ و٨٠٠ واتخذت الملحمتان شكلهما الحاضر بعد أن أتى عليهما فيما بعد ، تعـديلات واضـافات وتطهير من الشـوائب بين المستوطنين الايونيين على مسافة أبعد الى الجنوب (٢) · ويمكننا أن نتقصى في الملحمتين تغـيرات في اللغـة والفـكر والعـادات ونمو الأفكار الخلقيـة · والأوديسيا وهي على وجه عام أحدث الاثنتين ربما تعبر عن المزاج الابداعي (الرومانسي) في عصر المغامرات البحرية ، ولا يمكننا أن ندخـل هنـا في مشاكل يدور حولها الجدل والى أي مدى كانت الملحمتان أو احداهما من عمل شاعر واحد ولكن نشير فقط الى أن العلماء في زمننا يميلون الى أن تكون لهم نظرة محافظـة في هـــذه المسائل أكثر مما كان لهم منـذ نصف قرن · والقول ان هومر كان شخصية واقعيـة وان الاليـاذة والأوديسيا يجب أن تنسبا الى تأليفه لم يعد بعد مما يمكن دحضه ، في استعلاء كنافلة · وعندنا كما كان عند الاغريق ، يمثل هومر كل الأسـطورة الملحميـة بأجمعها ، والأعجوبة هي أن تلك السلالة أمكنها في ذلك العهد الباكر أن تنجب مدرسة من شعراء بلغوا أرفع شأو · ولا يوجد أدب باق بين ظهرانينا استهل بمثل

---

(١) «الى فرجيل» لتينيسون Tennyson · لم يكن قصيد أدب الشعر القديم يقفى · وكان دانتي أول شاعر عالمي عظيم يستخدم القوافي · وتعتمد الأوزان الاغريقية واللاتينية على عدد المقاطع وليس عـلى النبر · ومن هنـا كانت صنوف المحاكاة الحديثة فمثلا الأبيات التي يكون فيها البيت من ستة تقطيعات لا تقدم الا تأثيرا ضئيلا جدا عن الوزن كما استعمله الأقدمون · وقد يكون البيتان الآتيان Bothie of Tober-na-vuolich لكلوغ Clough مثالا لا يصل الى الكمال :

So in the	golden	morning they	parted and	went to the	westward
There hath he	farmstead and	land, and	fields of	corn and	flax fields.

والوضع العادي للسطر ذى الستة أقدام هو

— U U	— U U	— U U	— U U	— U U	— U
— —	— —	— —	— —	— —	— —

بحساب أن المقطع الطويل ، له ضعف قيمة القصير

(٢) انها باللهجة الايونية ولكن كان تأليفها في الأصل بالايولية · وعن علم اللاهوت عند هومر ، ارجع الى تاريخ دين الاغريق ، لنلسون Nilsson .

هذا المجد كأدب اليونان واستهلاله بهاتين القصيدتين • وفى فحواهما وصوغهما ، على السواء تعنو لهما السيادة التى لا تقارع على الشعر الملحمى فى كل سلالة وزمن ، ان ما تنطويا عليه من مغزى لما أعقبهما من مدنية اليونان والعالم مثلوث العرى فقد كان جمالهما وروعتهما معينا دائما للالهام الشعرى ، وفى مكنتنا أن نقتفى تأثيرهما خلال مدرجة الأدب والفن الاغريقيين بأكملهما • ان الشعر الرومانى وخاصة الانياد لفرجل صيغ الى حد كبير ، على أنموذج الالياذة والأوديسيا ، ولا تزال روح هومر تصعد الأنفاس فى شعر العالم الحديث ولقد قيل ان اسخولس Aeschylus أطلق على رواياته من نوع المأساة « فضلات من وليمة هومر العظيمة » ويمكن لشعراء جميع العصور أن يرددوا صدى أقواله • ان وداع هكتور لاندروماك Andromache والذكرى التى تجيش فى هيلن عن أخوتها الذين قضوا نحبهم وهى ترقب جيش الأخائيين من أسوار طروادة واستعطاف بريام Priam لأخلوس من أجل جسمان هكتور عندما عنّ للملك الهرم « أن أجسر على ما لم يجسر عليه أى رجل على الأرض قبلى ، أن أبسط يدى أمام وجه ذابح ابنائى » ـ تثير نفس المشاعر فى القارئين فى أية أمة ولغة وفى الزارع الذى لم يؤت من العلم شيئا كما فى العالم أو الشاعر (١) • ومنذ فجر الشعر الاغريقى كان موضوعه كل ما هو أعظم شيوعا فى الحياة والمشاعر الانسانية • ثانيا ـ على مضى الزمن أصبحت القصائد الهومرية تقرأ وتدرس كمستودع للحقائق الخلقية والدينية • ان سطورا كعبارة أخلوس الى المبعوثين « بغيض لدى كأبواب الجحيم ، ذاك الذى يقول شيئا بشفتيه ولكن يخفى شيئا آخر فى قلبه » أو عبارة أدوسيس « تحمل يا قلبى : لقد تحملت ما هو أسوأ كثيرا من هذا » ـ كانت نصوصا يحفظها أطفال الاغريق ، يشبهون فى ذلك أطفال انجلترة الحديثة وهم يحفظون آيات من الكتب المقدسة (٢) • ان القصائد

---

(١) الالياذة : ٦ ، ٣٩٠ وما يليها و ٣ ، ٢٣٤ وما يليها و ٢٤ ، ٥٠٥ ـ ٦ (ترجمة لنج وليف وميرز Lang, Leaf and Myers)

(٢) الالياذة : ٩ ، ٣١٢ ـ ١٣ أوديسيا ٢٠ ، ١٨ • ومن الجهة الأخرى، كانت توجد فقرات عديدة يراها شعور الاغريق الخالقين ، الذى ارتقى ، لا تليق بتعليم الصغار كالحوادث التى وردت فى « قصص الآلهة ، الفاضحة » التى ربما كانت اضافات متأخرة تعبر عن المجانة والشك الدينى عند الايونيين فى القرن السابع مثل مكر هيرا بزيوس (الياذة : ١٤ • ١٥٣ وما بعدها) ومباغتة ما وقع من حب بين هفيستوس Hephaestus وافروديت (أوديسيا : ٨ • ٢٦٦ وما بعدها) الذى نعاه أفلاطون (الجمهورية : ٣ ، ٣٩٠) وعراك أثينا Athena مع آرس ـ Ares وافروديت (الياذة : ٢١ • ٣٩١ وما بعدها) ، التى يمكن موازنتها بالتقليد الهزلى فى توم جونس Tom Jones ـــ

الهومرية كان لها نصيب عظيم فى تكييف وتوطيد دعائم الأفكار الخلقية والدينية في الأجيال اللاحقة (١) . ثالثا - ان لهذه القصائد قيمة من حيث التاريخ . انها تصور فى اخلاص مكين حياة رءوساء ومحاربى العالم الايجى في أواخر قرون الألف سنة الثانية . ويعسر علينا فى الحق أن نقول فى توكيد عما اذا كان الأشخاص عاشوا فعلا أو ان الحوادث وقعت فعلا ولو أن حصار طروادة ليس من غير المحتمل أنه واقعة تاريخية. انه صدق أن الشعراء يتغنون بعصر تولى ودخلت في الصورة ألوان عادات جاءت فيما بعد . ومع هذا فاننا نعلم الكثير عن العادات القديمة ، عن الزواج والعبادة الدينية وعن طرق اقامة المنازل وأحوال الحياة المنزلية وأساليب القتال ، والزراعة وجوب البحار . وعندما نقرأ وصف أنظمة الملك ومجلس الشورى ومجمع الشعب (كما فى الكتاب الثانى من الالياذة) وعن ترس أخلوس (فى الكتاب الثانى عشر) وعن القصور والسلاح والملابس فاننا نجد تأييدا جليا لدقة وصفها فى كشوف شليمان Schliemann وخلفائه . كان عالم هومر عالما حقيقيا. ومظهران من بين المظاهر الأخرى ، يبرزان فى أتم جلاء . ان الحياة التى صورت هى حياة ارستقراطية اقطاعية . ولا نسمع الا اليسير عن عامة الشعب اذ ليس لهم دور يؤدونه وحتى العبيد هم أسرى يرجعون الى الامارة بالمولد. والشعر الذى بين أيدينا لم يكن شعرا شعبيا ، كما أن دينه لم يكن دينا شعبيا ، لقد وضعه للنبلاء من الرؤساء مسددون كانوا يتغنون بشرف أسرهم وعشائرهم . ومع هذا فانه بالرغم عن هذه الصفة غير الديموقراطية فاننا نتنسم عبق الحرية فى العالم الهومرى حيث لا يوجد استبداد سياسى أو كهانة ، والدسيسة والسحر على السواء نادران والنساء يعشن فى مساواة

= (الكتاب الرابع فصل ٨) - مقابلة مولى سجروم Molly Segrim (نساء القرية). وينبئنا فيلدنج Fielding «أنها معركة غنتها ربة الفن على الاسلوب الهومرى». وعن هذه الاضافات المتأخرة أنظر مرى Murray (نهوض الملحمة الاغريقية، المحاضرة العاشرة). ان لها قيمة من وجهة التاريخ مثل زينة هيرا (الياذة : ١٤ ، ١٧٠ وما بعدها) فانها تعلمنا بأمور كثيرة . وما ساقه افلاطون من نقد لهومر والشعراء عامة فى جمهوريته (٢ ، ٣٧٧ - ٣ و٣٩٢) موجه ليس الى قيمتها كشعر ، (الذى اعترف به تماما ، الجمهورية ١٠ ، ٦٠٧) ولكن الى دعواها فى أنها هادية الى التعليم الدينى والخلقى . وهو يعرض بصفة خاصة للاطراء (الجمهورية ٣ ، ٣٩٠) ، كلمات أدوسيس التى اقتبسناها فى النص .

(١) ان هيرودوت (٢ : ٥٣) يعترف بهذا والعبارة اقتبست فى ١١ التى تلى . ويرجع انتصار الدين الالومبى ، (متميزا عن العبادات الشعبية الأعرف فى بدائيتها) ، انتصارا باقيا على الزمن يرجع الفضل فيه ، لحد عظيم ، الى هومر .

مع الرجال الى حد لم يعرف فى اليونان التى جاءت بعد ذلك ويستمتعن بمكانة جليلة الشأن فى الأسرة ، والعبيد يتحدثون الى أربابهم ويتحدث اليهم كما يكون الحديث بين الرجال والرجال(١)• ويصل الشعور الانسانى المشترك قريبا من الذروة فى المجتمع الهومرى أكثر مما يصل اليه فى عالمنا الحديث الأكثر تعقيدا •

١٠ ـ والملاحم الأوليات كن قصصا عن أفعال البطولة وأعمال مشاهير الرجال • وبعد ذلك ضرب الشعراء على نغمة ذاتية جديدة وفى روح أكثر أن تكون ابداعية (رومانسية) عبروا عن مشاعرهم بالقصيد الغنائى • وكان يتركز اهتمامهم ، ليس فى الماضى ولكن فى الحاضر ، فيما تمرس به الشاعر شخصيا من الحياة • وقد شاهد عصر التوسع التجارى مولد الشعر الغنائى وشعر المراثى وفيه تنوع زاخر فى صيغة الموضوع والوزن ويحوى قصائد حب وحرب وحزن وضجر وأنشودة الجنازة وأغنية الزواج والقصائد الغنائية المذهبية والتهكم الشخصى والسياسى • ان الزمن لا يمكن أن يذوى جمال هذه القصائد الذى لا يفنى • انهن يتحدين الترجمة ولكن صدى من روعتهن يمكن أن يحس وقعه فيما نقل روستى Rossetti عن سافو Sappho

١

كالتفاحة الحلوة التى يعلوها الاحمرار فى أعلى فرع
فوق أعلى غصن ـ التى نسيها القاطفون لثم داع
لم ينسوها ، كلا ، ولكن لم يظفروا بها لأن أحدا لايستطيع الظفر بها الى الآن

٢

كزهرة عنصل ، برية يعثر عليها فوق الربى
تمزقها وتدميها أقدام الرعاة المارة
الى أن تداس النورة الأرجوانية فى الأرض

ويمكن توضيح عنصر الملحمة بالبيتين اللذين كتبهما سيمنيدس فى بواكيرالقرن الخامس علىقبر الموتى الاسبرطيين فىترموبولاى Thermopylae « اذهب ، أيها الغريب وخبر رجال لاكديمونيا Lacedaemon اننا نرقد

---

(١) عن النساء ارجع الى الادوسيا• ان العلاقات بين الجنسين تعالج فى رفق وتحفظ• وعن العبيد انظر يومايوسEumaeus فى الادوسيا انه نبيل بمولده وقد أسر فى الحرب ويعامل كتابع للأسرة ، مكرم ، راجع التذكرة الاضافية فصل ٥ ، فيما يلى •

هنا اطاعة لأمرهم » • وقد كتب الشعر الغنائى ، كما يدل اسمه ، ليغنى بمصاحبة الموسيقى وكان يصحب القصيدة الغنائية المذهبية التى تقدمت الى أن أوفت على كمال عظيم فى نفس هذا العصر ، الموسيقى والرقص ، وكان الجوق يحتفل بمديح الآلهة أو الأبطال أو المظفرين فى الألعاب ، ان قصائد بندار Pindar الغنائية الباقية الى الآن (وهى ترجع الى القرن الخامس)، وتعد احدى مفاخر الشعر الاغريقى ، وضعت أصلا لتكريم الانتصارات فى الألعاب الرياضية • وسنرى فى الفصل القادم كيف حيكت عبقرية الاغريق فى الشعر الغنائى ، مع الملحمة فى الفاجعة الاتيكية •

١١ ـ وجنبا الى جنب مع أشكال الشعر الغنائى هذه ، أدى الاهتمام المتزايد بالتفكير الخلقى الى قيام شعر الحكم والأمثال (١) • الذى يعبر عن نقد للحياة ، ساذج ، ونصائح عن السياسة أو التعقل ووصايا عن العمل الخاص والعام • ولقد قام الشعر التعليمى فى أزمنة أسبق بين زراع اليونان الوسطى كشطر مقابل للملاحم الهومرية ، بين الارستقراطية الأيولية والايونية • وهو لايزال موجودا فى القصائد التى تنسب الى هزيود البيوطى(٢)• ويمكن موازنة شعر الأمثال فى آخر القرن السابع وفى القرن السادس بمصنفات بيرز بلاومان Piers Plowman أو جور Gower « الخلقى » ، فى الأدب الانجليزى • ولقد عبر ثيوجنس مواطن مجارا فى أوزان المرثية عن احتقار الشريف الدورى للعامة من الشعب الذين استلبوا من طبقته الثروة والسلطان وتغنى رجل السياسة الأثينى ، صولون بخدمة الولاء للمدينة وواجب الكبح فى استخدام السلطة ، لشعب كان ينزع دائما الى تخطى جادة الاعتدال • وهذا اللون الجديد من الشعر له اعتبار خاص عندما نذكر كيف كان الشعراء لا الكهنة ، فى نظر الاغريق ، المعلمين المعترف بهم للحقائق الخلقية والدينية • وليس معنى هذا أن الاغريق كانت تعوزهم التقوى فلقد تجاوز الأثينيون فى عهد صولون ، كأعقابهم ابان زيارة القديس بولس الحد فى خشية الله (٣) • وفى بعض الأحايين كانت رابطتهم بعبادات دولة ـ المدينة

---

(١) gnomic poetry — (gnome = a maxim)

(٢) « الأعمال والأيام » لهزيود يقدم صورة شيقة للحياة فى الجزء الأخير من العصر المظلم الذى أعقب الهجرات الشمالية الى ايجا ، طالع يور Ure « النهضة الاغريقية » ـ الفصل الثانى «The Greek Renaissance»

(٣) الأعمال: ١٧ ، ٢٢ • ان التعبير الاغريقى الذى ترجم «superstitious» فى النسخة القديمة والمعدلة (من الانجيل باللغة الانجليزية) معناه الحرفى « يخاف الأرواح (الوسيطة بين الآلهة والناس) » • وكانت هذه الأرواح كائنات الهية مثل هرقل وغيره من أبناء الالهة فى قصة الاغريق الدينية •

تتصاعد فى غلو جنونى (١) • وكان جزءا من وظيفة الشاعر ان يقص ويفسر حكايات الآلهة والأبطال وسمح لهم بمجال عظيم فى اختيارها واعادة تكوينها• ولقد قال هيرودوت ان شاعرى الملحمة الأولين هومر وهزيود : أعطيا الآلهة ألقابهم وقسما بينهم صنوف التكريم والفنون ووضعا أشكالهم»• وكان يرمى الى أنهما رسما ثم مذهب وتناسق للعدد الجم من العبادات المحلية وعلى هذا ساعدا على تبلور الخطوط الرئيسية للتقاليد الدينية فى الأزمنة اللاحقة • ولا يستطيع أى فرد أن يدرك الدور الذى قام به الشعر فى حياة الاغريق وتعليمهم الا اذا وضع نصب عينيه رابطته الوثيقة بدينهم (٢) •

١٢ - ولقد كان شعراء الأمثال الرواد الأوائل لما صنفه بندار وكتاب الفاجعة فى القرن الخامس وذلك بأنهم حاولوا جعل التعليم الشعرى يتلاءم مع الوعى الخلقى الذى كان يطرد نموا فى ذلك الزمن • ولقد أدى القلق السائد بما لا معدى عنه ، بين ناس أوتوا قدرات عقلية نادرة ، الى تغيرات فى نظرات الناس للحياة والى استبدال القيم الخلقية القديمة بقيم جدد ومن عوارض هذا المزاج المتأمل ذيوع الاقوال المأثورة التى جرت مجرى الامثال نحو « اعرف نفسك » و « لا شىء تجاوز الحد » و « القاعدة تكشف عن الانسان » وهى تمثل استقراءات شعبية من التجاريب الخلقية • ولقد اتخذ تصور معيار خلقى ، شكله فى المثل الأعلى للسفرسونيه Sôphrosyné وهو تعبير يتحدى الترجمة بلفظ انجليزى واحد ومعناه الحرفى « حفظ العقل سليما » أو كما يجوز أن نقول « الرأس صافيا » (٣) • ونوانه البدائية هى لفظ aidés الهومرى أو الاحترام وهو الشعور الداخلى الذى كان فى

---

(١) مثلا عن حادث تشويه تماثيل هرمس عشية ابحار الارمادا الى صقلية عام ٤١٥ ، أنظر ثوكيديدس : ٦ • ٢٧ وما يتلوها وتأثيره على الجماهير يمكن أن يوازن بما كان يمكن أن يكون لتدنيس صور العذراء من أثر على مدينة اسبانية فى زمن الأرمادا عام ١٥٨٨ • وعن علم اللاهوت الهومرى انظر نلسون (تاريخ الدين الاغريقى) • كان مجتمع الآلهة الاولمبية انطباعيا فى صفته على شاكلة المجتمعات البشرية فى عصر البطولة • وكانوا يتصورون الآلهة وقد اتخذوا شكل الانسان ويختلفون عن الناس فى درجة المعرفة والقوة فقط ولكنهم كانوا خالدين • ولم يكن لهم علم غير محدود أو قدرة غير محدودة ، ومع هذا فان كل شىء فى حياة البشر كان يعتبر خاضعا لنفوذهم•

(٢) انظر افلاطون الجمهورية ٢ و٣ عن مكانة القصص الشعرى عن الآلهة والأرواح والناس ، فى التعليم الخلقى للشباب من حكام المدينة المثالية •

(٣) يفسر ارسطاليس (قواعد السلوك ٦ فصل ٥) التعبير بان معناه الحرفى الفضيلة (التى تحفظ الحكمة العملية "phronésis" سليمة) • ويعنى لفظ Phronésis القدرة على الحكم الصائب فى مسائل سلوك الانسان•

أزمنة الحروب الهمجية يغل يد الرجل عن ايقاع الأذى البالغ باليتيم والهرم والمستعطف أو العدو المغلوب على أمره ويكبح النزعة الى الجبن أو عدم الولاء ويحفظه مطيعا للوالدين والحكام والآلهة (١) • والمعنى الجوهرى للفظ سفرسونيه Sôphrosyné ، كما نشأ فى العقل الاغريقى هو كبح جماح النفس وطاعة القانون سواء أكان قانون الدولة أو المبدأ الداخلى أمام الغواية التى تستبد به لاساءة استخدام الثراء والسلطان واخضاع الولاء المدنى لمطالب الطموح الشخصى • وبالاضافة الى هذا الواجب السلبى ، فقد كان يدل على الخصلة الايجابية ، فى النظر الصافى وليد المعرفة بالذات ذاك الذى يساعد الفرد أو المجتمع على أن ينهضا بأمورهما فى اتزان حكم خلال اللحظات العصيبة من تاريخهما • والعبارة المعروفة « الحكم الصائب فى جميع الأمور » ربما تقدم أقرب تعبير عن المعنى (٢) • ونقيض هذه الحكمة المنقذة كان هبرس Hubris وقد جاء التعبير فى الملحمات الأولى • ومعنى أصله ، تجاوز الحد فى عنف ، ولؤم النصر وكبرياء الحياة التى تطأ بالقدم شريعة الآلهة والناس، غير المكتوبة • وهبرس Hubris هو أقرب ما يعادل فى الاغريقية لفظ خطيئة ، وأعظم اطلاق تميز به كان على التعطش الذى لا تطفأ سورته ، التعطش للسلطان ذاك الذى يدفع انسانا أو أمة دفعا الى الأمام كأن شيطانا ركبهما فى مسلك التوكيد الذاتى الذى لا يكبح جماحه • وهذه العاطفة التى تعمى والتى تنتهك الحرية الشخصية كما تنتهك القانون العام ، على السواء ، تستغوى الضحية فى جنون من الثقة بالذات الى موارد الهلاك • وهى تثير فى الآلهة وفى رفاقه القصاص nemesis الشعور الحق بالاستنكار • « ان خطيئة قديمة تولد على الدوام خطيئة جديدة حية لتزيد من ويلات nemesis

---

(١) انظر Murray نهوض الملحمة الاغريقية ، الصفحات ٧٨ وما يليها • وفى الالياذة : ٤ ، ٤٠٢ وما بعدها ، عندما يوبخ اجا ممنون Agamemnon ديومادس Diomedes لتباطئه فى جمع رجاله للمعركة فانه لا يحير جوابا ، « احتراما aidôs لصوت الملك المبجل aidoios » • وعندما يجيب اسثنالس Sthenelus غاضبا بدلا عنه يؤنبه ديومادس • لأنى لا أحس شعور القصاص nemesis نحو اجا ممنون ، راعى الشعب عندما يحض الأخائيين المدججين على القتال •

(٢) ارجع على الأخص الى تحليل السفرسونيه فى افلاطون ، الجمهورية: ٤ ، ٤٣٠ وما يليها وارسطاليس « قواعد السلوك » الكتاب الثالث ، ويمثل التعبير لدى هذين الفيلسوفين نتاج الاحترام aidôs المفكر ، ذلك الشعور البدائى الذى وصل الى شكل واضح التحديد ، من السمو الخلقى والعبارة التى جاءت فى النص ، مقتبسة من الدعاء فى عيد الفصح فى كتاب الصلاة العامة الانجليزى •

البشر (١) · هكذا صور الشاعر الاغريقى وهـو يجهد فى اعطـاء الجبرية المتوارثة والاستحقاق الفردى حقهما ، السحابة التى تتجمع للقدر الذى يتفقد ذنوب الآباء فى الأبناء لأجيال متعاقبة من سلالة تقارف الخطايا · وعندما ظهر الطغيان فانه اعتبر ختام مظهر الخطيئة فى الحياة العامة لدولة ـ المدينة (٢) · وبعد ذلك أطلق التصور على مجموع عمل أمة رفعتهـا كبرياء الامبراطورية لتهـدد الاسـتقلال الهلينى كما كانت حـال الغزو الفارسى وسيادة أثينـا البحرية (٣) · ولقد كان اليونانى يعرف تمام المعرفة موطن ضعفه والعواطف الأثيمة التى كانت أبدا فى ترقب لتستغويه على توكيد فرديته فيما يتعدى الحدود التى رسمها العقل والقانون · ولقد كان من العسير عليه ، بما كان له من ملكيات عظيمة ، أن يلج ملكوت روحه ذاتها · أما المشاعر الغاوية فان أهمها كان الحض Peitho والرجاء Elpis والعاطفة Eros · وكان يذهب التصور الى أنها عوامل شخصية لا دوافع مجردة · «ان الحض التعس يبرز قوته · انه وليد القدر المنذر Ate الذى لا يمكن تحمله وكل دواء لا نفع فيه » (٤) · وكتب هزيود « ان الرجاء هو رائد سيء لرجل معوز » وسفوقلس « الرجاء

---

(١) اسخ · أغام · صفحة ٧٦٠ وما بعدها · عنـدما تأمر كلتمنسترا Clytemnestra سيدها اجا ممنون بأن يطأ الأرجوان وهو يدخل منزله ، عند عودته من طروادة استعدادا للمصير الذى أعدته له فانه يفعل ذلك فى وجل : (وأنا أطأ مواد البحر هذه ، أرجـو ألا تصيبنى عينى اله ، بعيدتين بغـيرة (phthonos) · لأن لدى احترام aidôs عظيم لتبديد مادة ، أن اتلف بخطاى ثروات وأنسجة اشتريت بفضة) (أغا ، ٩٤٦ ـ ٩) ·

(٢) سفو · و · ت ٨٧٣ (الخطيئة Hubris تنجب طاغية) ·

(٣) عن خطيئة hubris فارس وما نتج عنها من قصاص nemesis انظر اسخولس Aeschylus (الفرس) وتاريخ هيرودوت وخاصة هير : ٧ ، ٧ ـ ١٨ ، (محادثة خشيارشاى وأرطبانس Artabanus) · وعن خطيئة الاثينيين فى الشطر الأخير من القرن الخامس ، نحو رعاياها راجع ثقوديدس: ١ ، ٧٥ ، ٧٦ و٣ ، ٣٧ وما بعدها وخاصة الديالوج الميلى Melian ٥ ، ٨٩ وما بعدها ، وقد أعقبتها مباشرة الغزوة الصقلية (القصاص) ، وكان الاغريقى ليفسر فى يسر نمو القومية الألمانية السريع على أنها سياسة لصبغ العـالم بالقوة ، بالصبغة الألمانية كمثل للخطيئة القومية · وعن القصاص nemesis راجع مرى فى المؤلف المشار اليه انفا · والفكرة تتصل بصفة قاطعة بقواعد السلوك · وبينما يعبـر الاحترام aidôs عن شعورى بعـدم امكان تصـور مسلك كهذا فان القصاص Nemesis يعبر عن اعتقادى بأنى (أو شـخص غيرى) يجب الا يفعل هكذا ·

(٤) اسخ · أغام : ٣٨٥ ·

الذى يشطح بعيدا ولو أن الكثيرين يجدون فيـه عزاء فانه لكثيرين خـدعة يعطى أجنحة لحلم الحب والشخص الذى يراوده لا يدرى شيئا الى أن يحرق قدميه بالضرام الملتهب » (١) • ويرى الشعراء والفلاسفة على السواء ، أن الحب طاغية يستعبد ضحاياه الذين أعموا ، للعاطفة الجامحة • ويهتف ديترا (Deianira) عاثر الجد « ان الحب يحكم حتى الآلهة بارادته وكذلك أنا أيضا، كيف اذن ، لا يحكم آخرين مثلى ؟ » •

لأن قلب الحب به جنـه
وذهبُ هو التماع جناحه
والكل ، تحت تأثيره السحرى
ينحنون ، عندما ينب وثبته • (٢)

وقد عن لعصر لاحق أن يرى فى هذه القوى الثلاثة ، الايمان والرجـاء والمحبة ثالوثا من الفضائل هو منتهى مجد حج الانسان الروحى • ولـكن عند الاغريق فى هاتيك الأزمنة العظام كانت أرواحا شريرة تستغوى المقامر فى لعبة الحياة لأن يجازف بكل ما لديه ، دون بصر ، فى رمية واحدة ، قائلة وبذلك يثير قصاص السماء • لأن الآلهة الألومبيين كانوا غيـورين وكانوا

---

(١) هزيود (الأعمال والأيام) ٤٩٤ ، سفو• انغ ٦١٦ وازن عن الرجاء اسخ•أغام ٩٩٠ وما بعدها وسفو•طراخ ٦٦٦ وثقوديدس ٣ ، ٤٥ و٥ ، ١٠٣ وكورنفورد Thucydides Mythistoricus

(٢) سـفو • .Trach : ٤٤٣ — ٤ ابر .Hipp : ١٢٦٨ وما بعدهـا (ترجمة مرى) وراجع أيضا صورة افلاطون للروح يسيطر عليهـا • ارس Eros طاغية فى الجمهورية : ٩ ، ٥٧٢ — ٣ والافتتاحية الأغنية المذهبة فى سفو•انتغ• : ٧٨ وما بعدها ترجمها سونبرن Swinburne (أغنية لأثينا) هكذا :

« الحب فى صراع لا يغلب ، الحب يتأتب أسـلاب عظام الناس
لم يغن أبدا فى مثل هـذه الحلاوة من حنجرة سـيدة أو حمامة
الحب الذى مهاده بالليل خدود فتاة ، ملس
وسيره يكون على بحار ، وسطوح وطيئة لا تعدم الحب
وليس واحد من كل من يعيش ، وشيك الزوال أو أبديا
يستطيع الفرار أو الاستخفاء من الحب ولكن من يعانقه بشدة يجن جنونا » •

يسعون بطيفهم لايقاع الأذى بالانسان لئيم الطبع الذى يجسر على انتهاك ما لهم من حقوق (١) ٠

ويزخر الأدب الشعرى الاغريقى بالتأملات التى تتركز حول فكرتى السفرسونيه والهبرس وهما الشطر الهلينى المقابل لتعليم قواعد السلوك عند أنبياء العبريين ويمثلان الاعتراف الواعى من جانب الشعراء بوظيفتهم كمهذبين للاخلاق ، للشعب الاغريقى ٠ ولكن فى القرن السادس ، كان صوت آخر قد أصبح مسموعا ، ان الفلسفة كانت تقيم دعوى منافسة ، تعارض الشعر ، لتعليم الحقيقة عن العالم والحياة الانسانية ٠

٥ ـ مولد الفلسفة

كتب ارسطاليس « ان الرغبة فى المعرفة طبيعية فى كل الناس » ومرة أخرى وهو يعبر عن رأى أفلاطون « ان التعجب كان أول ما هدى الناس الى الفلسفة » (٢) ٠ والرغبة التى تدور فى مخيلته هى حب الحقيقة المجرد عن النفع ، الحافز على التفكير لمجرد التفكير وليس كوسيلة لأغراض عملية وحسب ٠ « ان الرجل الذى تأخذ به الحيرة والعجب مدرك لجهله ، وعلى هذا فيما أنهم جنحوا الى الفلسفة حتى يتخلصوا من الجهل ، فمن الواضح أنهم درسوا العلم ابتغاء المعرفة وليس من أجل أى غرض نفعى » ٠ وعند الاغريق كان حب الاستطلاع لمعرفة أسباب الأشياء وفحص طبيعتها الداخلية يجىء طبيعيا ٠ وفى فجر تاريخهم كانت تجتاحهم كل رغبة الطفل لمعرفة الكيف والسبب ٠ » ولقد كانوا فى مبدأ الامر ، يتعجبون من الأشياء المحيرة الواضحة وبالتدرج شيئا فشيئا تقدموا الى البحث فى المشاكل الأكثر جسامة كظواهر القمر والشمس والنجوم وأصل الكون »(٣)٠ وفى هذا الميل الى الاستطلاع ، الذى يتجرد عن النفع كما كان يعلم ارسطاليس ، كان مولد العلم والفلسفة ٠ ولم يفرق الاغريق بين الاثنين لأن المعرفة لم تكن قد وضعت لها بعد

---

(١) عن غيرة (phthonos) الآلهة ، انظر هيرد٠ ٣ ، ٤٠ ـ ٤٣ (قصة فلوقراطس) و٧ ، ١٠ (خطاب ارطبانس) وانكار افلاطون انكارا عنيفا بأن الله غيور الذى ردد صداه ارسطاليس وكل الفلاسفة الذين أعقبوه يدل على احدى خطوات التقدم العظيمة التى جاء بها التفكير العلمى على الدين الشعبى (افلاطون Phaedr : ٢٤٧ وارسطاليس .Met : ١ ، ٢) ٠

(٢) أرسطاليس ـ متا : ١ ، ١ و٩٨٠ أ ٢١ و١ ، ٢ ، ٩٨٢ ب و١١ وما يليها ترجمة روس Ross (بتعديل طفيف جدا) ، وازن افلاطون .Theaet ١٥٥ د ٠ ويوضح افلاطون بالقصة التى جاء فيها أن اريس Iris ، رسول الآلهة كان ابنا لثاوماس Thaumas (التعجب)

(٣) ارسطاليس .Met : ١ ، ٢

مصورة تقسمها الى أقاليم ٠ ان عالم التجارب الانسانية فى كليته وتفصيله، كان موضوع بحثهم العام ٠ وكان عصر التوسع هو الذى أنعش نزعة التفكير المتأصلة على هذا النحو فى العبقرية الاغريقية ليكون لها نشاطها الفعال ٠ وكانت مليتوس وهى مركز عظيم للتجارة الايونية والمغامرات الاستعمارية، مسقط رأس الفلسفة الاغريقية (١) ٠ والقلق الذى لحظناه فى ميدان السياسة كان يفور أيضا فى عقول الرجال المفكرين وكأن عالما أوسع قد تكشف أمام أنظارهم فرأوا العادات التقليدية تتباين بتباين الأحوال المحلية والوقتية والقصص القديمة تدحضها التجارب الأوسع نطاقا٠ووجد أن سقولا Scylla وخروبدس Charybdis اللذين جاءا فى الأدوسيا كانتا مجرد ظاهرتين طبيعيتين ، صخرة ودوامة٠ ولقد فصمت هجرات ذلك العهد ، المتعددة ، عرى الحلقات التى كانت تربط المعتقدات الأولى بمواضع خاصة ٠ ولأول مرة فى تاريخ المدنية البشرية ، سارت الروح العلمية وقد تخلصت من الاشتباك بالمعتقدات الدينية الشعبية ٠

١٤ ـ وقد تميزت محاولات أول الفلاسفة المليزيين فى تفسير الكون ، عن أية محاولات سبقتها بمظاهر ثلاثة ، ففى المكان الأول ، كانت تحمل ، كغيرها مما خلقته العبقرية الهلينية ، طابع الفردية ٠ والعلم الشرقى ، اذا جاز لنا تكريمه بهذه التسمية (٢) ، كان فى معظمه لا ينتمى الى أحد ، اذ كان العمل الجليل الذى تتوارثه وتستحوذ عليه طبقة أو طائفة (٣) ٠ ولكن ثاليس وأنا كسيماندر Anaximander وأناكسيمانس Anaximenes أول فلاسفة مليطوس فى القرن السادس يبرزون كشخصيات ولكل منهم ما أضافه

---

(١) كانت مليتوس على اتصال بمدنية بلاد ما بين النهرين بالطريق العظيم الذى يسير من ساحل ايجا شرقا عبر آسيا الصغرى وبمصر بالمستعمرة الملزية التى أنشئت حديثا فى نوكراتيس ٠

(٢) ان العلم الشرقى جدير بكل تكريم ٠ لقد أخذ فلاسفة اليونان معظم أصول علومهم عن مصر القديمة ٠ ويمكن الرجوع الى ما جاء فى هامش صفحتى ٣٦ ، ٣٧ عن الطب فى مصر القديمة ، على سبيل المثال ٠ (المترجم)

(٣) راجع بورنت Burnet « الفلسفة الاغريقية الأولى » الصفحات ١٨ وما بعدها ٠ وكما أوضحنا فى الفصل السابق ، لم يكن الأنبياء العبريون بأية حال مفكرين علميين٠ وتنسحب الملاحظة التى جاءت فى النص على الرجال الحكماء فى مصر وبابل وكذلك على مؤرخى الحوليات وواضعى مدونة القانون بين العبريين ٠ حتى النبوة أصبحت لا تنسب الى أحد عندما أصبحت تأملية مثلما جاء فى اشعياء ٤٠ ـ ٦٦ بينما صارت أسفار الرؤيا ، التى جاءت بعد ذلك اما غير منسوبة الى أحد أو مرتبطة بمعلمين سابقين (مثل نوخ) انظر ما سلف ذكره فى الفصل ٣ فقرة ١١ ، التذكرة ٠ والفقرة ١٥ ، التذكرة ٠

اضافة متميزة الى تقدم الفكر (١) . وعلى شاكلة افلاطون وارسطاليس فى زمن لاحق ، أسسوا مدارس ولكن التقليد فى مجموعه كان مؤسسا على العمل الخلاق للأفراد المفكرين ، أولئك الذين بقيت أسماؤهم والذين كانت شخصيتهم تسيطر فى تزايد تدرجى ، على منهاج التقدم العقلى . وفى الموضع الثانى ، كان أسلوبهم علميا على أتم وجه وكانت الملاحظة يتسع نطاقها بالتجربة (٢) . وينيرها الفرض . ولو أن مدى الوقائع التى يمكن الوصول اليها كان محدودا وكذلك وسائل البحث فان هدفهم كان الكشف عن مبادىء لها ارتباط بالضرورة ، بين مختلف المظاهر المتغيرة . «لا شىء يمكن أن ينبعث من لاشىء» ـ « لا شىء يحدث لغير شىء ولكن كل شىء يحدث عن سبب وضرورة » (٣) . وعلى غير شبه بالفلكيين الكلدانيين الذين اقتصروا على استخدام رصيدهم من الوقائع التى حصلوا عليها بالملاحظة لتكون أساسا لتفسيرات خيالية فان المفكرين الاغريق وطنوا أنفسهم على فهم العالم كعالم له قانون عقلى ، بمذهب ووحدة تكوين . وقد تابعوا هذا المنهاج فى ثقة وشجاعة لا يحيدان وأظهروا عبقرية نادرة فى الفرض العلمى وفى النهج المنطقى على السواء . ويكتب الأستاذ بورنت « لا يكاد الفيلسوف الايونى يستوعب بضع نظريات هندسية ويسمع أن مظاهر السموات تعود للحدوث فى دورات ، حتى يتهيأ للعمل فى البحث عن قانون فى كل مكان فى الطبيعة وفى جسارة تكاد تصل الى خطيئة hubris ليقيم مذهبا ينتظم الكون » . وعلى هذا ، تمكنوا من أن يكشفوا فى مدى قرنين أو ثلاثة قرن النظرية الحقيقية للكسوف وكروية الأرض وحقيقة دورانها كغيرها من الكواكب السيارة ، حول مركز نظامها (٤) . هذه هى الثمرات الأولى التى جنتها روح اتخذت لنفسها كلمتى المرور « الاحتفاظ بالظواهر » و « اقامة الدليل » . وثالثا ، تتجلى عبقرية الفلاسفة الاغريق العلمية فى تصورهم الواضح للمشاكل التى عنوا بحلها وبعد أن رفضوا نهائيا السعى الذى لا ثمرة فيه ليروا بداية الكون الأولى فى فوضى أول عصر والذى كان قد أنهك فى اليونان كما فى غيرها مهارة الأجيال السابقة ، فانهم التمسوا الحقيقة التى تكمن وراء ما هو كائن . وكانوا

---

(١) عاش ثاليس حوالى عام ٥٨٥ وأناكسيماندر حوالى عام ٥٦٥ واناكسيمانس حوالى ٥٥٠ ـ ٥٤٥ .

(٢) وازن ملاحظة اناكسيماندر على علم الأحياء البحرى وتجربة أنبادقليس Empedocles على الساعة المائية ليبرهن على أن الهواء جسم مادى : بورنت « الفلسفة الاغريقية الأولى » صفحة ٧١ و ٢٢٩

(٣) فارمنيدس Parmenides.-fr ٨ وأنبادقليس ١٢ ولوسبوس Leucippus (بورنت : الفلسفة الاغريقية الأولى صفحة ٣٤٠) . وقد أشير الى الأجزاء وفق الترقيم فى الترجمات التى وضعها بورنت .

(٤) الفلسفة الاغريقية الأولى ، صفحة ٢٣ و ٢٥

يتساءلون ما هى حقيقة العالم الأساسية كما نعرفه الآن ؟ والرغبة فى ايجاد وحدة ومبدأ فى متنوع اشكال الطبيعة التى لاتستقر على حال، اتخذت شكل بحث عن مادة اولية تبقى ثابتة وسط التغير ، عن مادة فعالة توجد الطاقة ، وتولد حركاتها التى تحددت وفق قانون ضرورى ظواهر تجارب الحواس . ولقد كانت هذه المادة الأولية التى يطلقون عليها اسم فيسس physis (الطبيعة) موضوع بحثهم وعنوان عجالاتهم (١) . وقد اعتقد تاليس أنها الماء ، ووجدها غيره فى البخار أو فى النار أو فى تآلف أو توافق أصول متضادة . واختلفوا أيضا فى تفسيراتهم للنسق الذى ينهض به عالمنا من هذه الحقيقة القصوى . ولكنهم جميعا على السواء يبدأون من وقائع مشاهدة ويتقدمون بالاستدلال المنطقى صوب تصور كون منظم، فيه بفعل قانون الضرورة ، يولد «الواحد» «الكثير» وتنقسم تفصيلات «الكثير» فى «الواحد» (٢) .

١٥ - وليس فى وسعنا أن نفعل أكثر من تبيان منحى هذه الأفكار الأولى لنوضح كيف أنها تقدم تتابعا منظما للتفكير العلمى :

(أ) أدت أول جهود المفكرين الايونيين التى ألمعنا اليها فى القسم السابق ، فى بداية القرن الخامس ، الى فلسفة هيرقليطس Heraclitus

---

(١) ان ترجمة فيسس physis بلفظ (طبيعة) قد يكون مضللا اذ ينقل الانتباه من النهج النسقى الى الأصل . ان physis هو لفظ يدل دائما على (اسم فعل) معناه نهج نسقى كنمو نبات .

(٢) لقد استمدت المعرفة بهؤلاء المفكرين الأوائل من أجزاء متناثرة من كتاباتهم ومن اشارات جاءت فى مصنفات المؤلفين الاغريق المتأخرين . وثاليس وحده هو الذى لم يترك كتابة بعده . وقد ذهب أناكسيماندر ، خالفه ، الى أن الفيسس physis هى جوهر مادى لا حد له تحوى وهى ممتزجة كل الأصول المتعارضة (الرطب والجاف والحار والبارد) فصلت عن الجرم الذى لا حد له بنهج غربلة نسقى وبذلك سبب قيام عوالم لا عد لها ، ومن بينها عالمنا . وكان أناكسيماندر أول من أدرك أن الأرض تسير طليقة فى الفضاء وليست فى حاجة الى سند مادى . وكان أساس الطب الاغريقى الأول (القمايون Alcamaeon انظر ما يلى صفحة ١٢٥ ، تذكرة ٢) يقوم على نقائض أناكسيماندر . وتصوروا الصحة على أنها isonomy أو متعادلة مع الحار والبارد والرطب والجاف - وكان المرض طغيان أحد الأضداد على الآخر . أما أناكسيمانس وهو ثالث الفلاسفة المليزيين من حيث الزمن فكان يذهب الى أن فيسس physis هى البخار الذى ينهض منه عالمنا بالتكثيف والتنقية . وعن معلومات مفصلة عن هؤلاء وغيرهم من المفكرين الأوائل ، انظر بورنت الفلسفة الاغريقية الأولى ، و « من ثاليس الى افلاطون » .

الأفسوسى Ephesus [١] • الذى كان مبدؤه الرئيسى أن حياة الطبيعة كانت تتألف من نضال قوى متعارضة والواحدة فى توتر مع الأخرى ، وتكون فى عملها المتبادل وحدة العالم المنسجمة • والنار وهى أعظم العناصر نشاطا تتحول الى هواء وتغذيها الرطوبة فى معايير متعادلة والصيف والشتاء واليقظة والنوم والنهار والليل والحياة والموت كلها تمثل الصراع العام الذى لا ينقطع بين « الطريق الصاعد » ، والطريق الهابط » • « ان الحرب هو أب الكل ملك الكل» «ان الطريق الصاعد والطريق الهابط واحد ونفس الأمر» •«ان الناس لا يعلمون كيف أن ما يختلف مع نفسه ، يتفق مع نفسه • انه توفيق لنغم توترات متضادة كالذى يكون لقوس وكنارة » • وقد أدرك هيرقليطس أن قانون الطبيعة هو قانون تغير لا ينقطع وأن العالم كما يظهر للحواس هو أبدا فى حالة صيرورة وزوال ولا يكون فى أى مكان « موجودا » وليس شىء ، يمكن أن نقول عنه فى أى مكان « انه كائن » • وقد قال « انك لا تستطيع بأن تخطو فى نفس النهر مرتين » وأضاف واحد من أتباعه « لا ، ولا حتى مرة واحدة » • ونتائج هذا الفكر عن السيل الذى لا ينقطع فى عالم ـ الحس ظاهره ، كما سنرى فيما بعد ، فى فلسفة أفلاطون •

«ب» وفى نفس الوقت الذى حدث فيه هذا التقدم بين الايونيين الاغريق ، كان الحافز للبحث العلمى بذور فى الغرب • (أ) فى القرن السادس كان فيثاغورس وأتباعه فى جنوب ايطاليا قد أسسوا دراسة الرياضيات فى ميدان الهندسة البحتة وكذلك فى تطبيق الرياضيات على فروع العلم الأخرى وخاصة على نظرية الأصوات الموسيقية وعلى الفلسفة على وجه عام [٢] •

---

(١) عاش هيرقليطس بين عامى ٥٠٠ و ٤٨٠ وقد تأثر أيضا بالعلم الفيثاغورى الأول • والاقتباسات التى تلى مأخوذة من الشذرات ٤٤ و٦٩ و٤٥ و٤١ (وازن ٨١) •

(٢) عاش فيثاغورس حوالى سنة ٥٣٠ وكان موطنه ساموس الايونية واستقر فى ايطاليا • وقليل هو الذى يعرف عن حياته أو عن تعليمه الشخصى مستقلا عن تعليم مدرسته • وقد جمع الفيثاغوريون بين البحث العلمى ومبدأ للحياة دينى ، وقاموا بدور فعال فى سياسة جنوب ايطاليا • ومنذ هذا الحين لا تكون الفلسفة الاغريقية أبدا ذات نزعة عقلية وحسب • انها توجه التجربة praxis والنظرية theoria على السواء • واستمرت المدرسة فى عملها حتى ردح عظيم من الزمن فى القرن الرابع • وعلى النقيض من الفلاسفة الاغريق الشرقيين كانت أبحاثهم يغلب أن تكون رياضية • راجع سر • ت • هيث Sir. T. Heath ، تاريخ الرياضيات الاغريقية» خاصة الصفحات ٢ ـ

ومبدؤهم « أن الأشياء هى أعداد » لم يكن تمثيلا خياليا ولكن النتيجة الاستدلالية التى وصل اليها مفكرون وجدوا أنفسهم فى تحليلهم للتجارب يواجهون فى كل منعطف قوانين تسمح بوضع صيغ رياضية . ولقد كانوا يتحسسون طريقهم نحو مذهب يشبه مذهب ديكارت Descartes الذى قرر حقيقة الكون المادى ، المستقلة فى حدود خواصه الهندسية كامتداد له شكله الهندسى . وهذا ، على التحقيق كان الموقف الذى اتخذه أفلاطون فى طيمايوس Timaeus تحت تأثير سلفه الفيثاغوريين [(١)] . (ب) ومدرسة فكر أخرى، الاليائية ، التى أسسها فارمنيدس Parmenides الاليائى كان موطنها أيضا جنوب ايطاليا [(٢)] . وقد كشف فارمنيدس فى منطق قويم عن النتائج التى تستتبع الفروض التى كان المفكرون السابقون قد قبلوها دون نقاش . وقد كان الكل يسلمون فرضا ليس فقط أن الطبيعة physis أو الحقيقة كانت واحدة ولكنها كانت أيضا مادية . وعلاوة على هذا ، فان الجميع كانوا يتصورون أن هذا الجسم الواحد مستحوذ على حركة ملازمة وبذلك استمد منها ظواهر التجربة وفيرة العدد . ولقد أوضح فارمنيدس أنه اذا كان الواقع واحدا وماديا فان الكثرة والحركة على السواء خدعة .

= و١٦٦ وما بعدها حيث جاء تلخيص لأعمال الفيثاغوريين الرياضية (وتشمل اقليد الكتب ١ و٢ و٤ و٦ وربما ٣) .

(١) كان الفيثاغوريون يفسرون الأعداد فى حدود الهندسة وكانت الوحدة نقطة لها موضع فى مجال فراغى ومن هنا وجد التعبير أشكال (رياضية) . راجع بورنت « الفلسفة الاغريقية الأولى » الصفحات ٩٩ وما بعدها و « ثاليس الى أفلاطون » الصفحات ٥١ وما بعدها . ويبين بورنت كيف أثر الكشف بأن أنغام الكنارة تعتمد على نسب رياضية ، على التفكير الرياضى . وقد حفز العلم الفيثاغورى أيضا على دراسة الطب والفصاحة فى جنوبى ايطاليا وصقلية . وعلى هذا فان أهميته كانت عظيمة جدا . والرأى أن العالم المادى يتكون من عناصر فراغية (أو فراغية زمنية) وأن طبيعته يمكن تفسيرها فى حدود معادلات رياضية ، له مكانته البارزة فى علم الطبيعة والفلسفة المعاصرين . ويفسر أحدث مذهب ميتافزيقى (علم ما وراء الطبيعة) فى هذا القطر (انجلترة) مذهب الأستاذ س . الكسندر S. Alexander (الفراغ والزمن والاله ــ محاضرات جفورد Gifford فى جلاسجو ١٩١٦ــ١٩١٨) الكون بأنه تولد من عناصر زمنية ــ فراغية خالصة أى لحظات ــ نقطة . ان دراسات الفيثاغوريين العلمية أو صلتهم ، فى فجر التقدم العلمى ذاته ، الى تصورات أنتجت ثمارا خارقة العادة .

(٢) عاش فارمنيدس بين عامى ٤٨٠ ــ ٤٥٠ وحوالى التاريخ الأخير زار أثينا ، راجع أفلاطون .Parm ١٢٧ . وقد ورد فى النص ، رأى بورنت عن مكانته فى الفلسفة الاغريقية .

وقد قبل هذا الدحض لواقعية عالم الحواس المتغير ولكن منطقه أقام في الحقيقة البرهان على قياس الخلف reductio ad absurdum [١] على الفروض المقبولة . ومن الآن ضحى جميع المفكرين بوحدة الطبيعة واحتفظوا بايمانهم بالعقيدة الفارمنيدية الأخرى ، بأن الواقع كان من طبيعة الجسم [٢]

(٣) ونتيجة لفلسفة فارمنيدس ، قام في منتصف القرن الخامس عدد من مذاهب الكثرة . ان انبادقليس Empedocles من أغريغنطوم Agrigentum في صقلية وأناكساغوراس Anaxagoras من اقلزومنا Clazomenae في آسيا (أول فيلسوف يتخذ أثينا موطنا له) ، ولوسبوس Leucippus من مليطوس (معلم دموقريطس ومؤسس مدرسة الذرة) ، كلهم يتفقون مع الفيثاغوريين في اتخاذ موقفين ، الرأى التقليدى بأن الواقع مادى ، والرأى الجديد الذى ساقهم اليه فارمنيدس بأنه ليس واحدا ولكن كثرة [٣] . ثم

---

(١) قياس الخلف reductio ad absurdum - قياس أساسه البرهنة على صحة المطلوب بابطال نقيضه أو فساد المطلوب باثبات نقيضه .

(المترجم)

(٢) ان نقائض زينون Zeno ذائعة الصيت مثل نقيضة أخلوس والسلحفاة ، قدمت دعما لانكار أستاذه فارمنيدس للحركة . وبالطبع كانت توجد طريقة أخرى لاخروج من المأزق بالتمسك بالقول ان الواقع واحد ولكن الوحدة كانت روحية وليست مادية . وقد ظهر هذا الرأى أول ما ظهر عند سقراط وأفلاطون راجع فصل ٥ - ١٧ و٢٠ .

(٣) عاش أنبادقليس حوالى عام ٤٦٠ وعاش أناكساغوراس ولوسبوس حوالى ٤٥٠ ، أما دموقريطس فانه ينتمى الى الجيل التالى وتأثر بالسفسطائيين ويمكن الرجوع الى الفصل ٥ ، ١٣-١٥ عنهم. لقد كان منتصف القرن الخامس زمن نشاط عظيم خالق في الفكر الاغريقى ويجب أن يلاحظ أيضا أنه أصبح للعلوم التى تتصل بعلم الحياة أهمية متزايدة في غضون القرن الخامس . ولقد أينعت أيضا مدارس الطب وهى ترتبط ، في البداية ، ارتباطا وثيقا بالفلسفة كمدرسة القمايون القروطونى Alcmaeon of Croton ، في جنوب ايطاليا ، الذى خصص عمله للجماعة الفيثاغورية . ولكن بعد ذلك استقلت عنها كما في حالة مدرسة أبقراط في القرن الخامس ، في جزيرة قوس . ولقد كان القمايون المؤسس الحقيقى لعلم النفس « راجع عن هذا وعلى وجه عام عن علم النفس الاغريقى الباكر ، والنظريات الاغريقية عن المعرفة الأولية (بير Beare) وتاريخ علم النفس (برت Brett) وعلى الأخص الصفحات ٢٤ ، ٢٥ وفصل ٥ » ويستبين من النحت الاغريقى اللاحق (مدرسة فرغامس Pergamos) شيء من المعرفة بعلم التشريح راجع بورنت ، الفلسفة الاغريقية الأولى ، الصفحات ٢٦ و ١٩٣ وما بعدها .

التمس أنبادقليس وأناكساغوراس بعد ذلك سبب الحركة ، ووجدها الأخير فى النوس nous أو الذهن [١] . ولو أنه فسر فعله آليا ، كفعل عامل طبيعى خارجى [٢] . وقد لخص منهاج التقدم التفكيرى بأجمعه ، الذريون الذين كانوا أول من أكد واقعية الفضاء الفراغ وأرجعوا الكون الى مجموعات من الذرات التى لا عد لها ، متجانسة ولكن تختلف فقط فى الجرم والشكل والموضع . تسرع فى الفضاء اللانهائى فىحركة لا تنقطع [٣] . وباذاعة هذا المذهب فان الجهد لتصور العالم فى حدود عناصره المادية أنجز سبيله الى التمام .

١٦ – وكان من الطبيعى تماما أن المشكلات التى تتعلق بطبيعة الواقع عما اذا كان واحدا أو كثرة ، يجب أن يجيب عنها هؤلاء الفلاسفة الأوائل فى حدود الطبيعة . وكانوا يعنون بلفظ Physis اما جسما واحدا واما كثرة من الجسوم ، وفى الحالة الأخيرة تكون الجسوم اما محدودة واما غير محدودة العدد وتختلف فى نوعها أو تتجانس . وكان لابد أن يجيء وقت تنهض فيه فكرة واقع روحى ، فى عقل المفكرين الاغريق ، ولكن لم تكن الساعة قد حانت بعد لهذا وتظهر كل مرحلة للفلسفة الاغريقية متعاقبة فى نظام التقدم المنطقى اطاعة لقانون لم تفرضه ظروف خارجية ولكن طبيعة العقل الانسانى الملازمة. ويجب ألا نظن أن هؤلاء الباحثين الطبيعيين كانوا يتجاهلون وقائع حياة الانسان العقلية والخلقية . والتمييز ، وهو جد مألوف ومع هذا فانه جد محير للفكر المعاصر ، بين المادى والروحى لم يكن حتى ذلك الحين قد تحددت معالمه . فعلى سبيل المثال ، ذهب أناكسيمانس المليطى الى أن الروح هو بخار [٤] . وتسمية هذا مادية بالمعنى الحديث يكون أقل صدقا من القول ان

---

(١) مذهب الكثرة – يقابل الواحدية ويعتمد فى تفسير الكون على مبادىء متعددة كعناصر (أنبادقليس) ومونادات (ليبنتز) .

(٢) عن عدم رضاء سقراط عن تصور الذهن كقوة آلية (ميكانيكية) واستبعاد العمل الذى توفر فيه الغرض ، راجع البيان الهام عن تاريخه العقلى الباكر فى أفلاطون فايدو Phaedo الصفحات ٩٦ وما بعدها .

(٣) كتب دموقريطس من أبدرا فى طراقية ، خليفة لوسبوس والأبعد منه صيتا ، فى الثلث الأخير من القرن الخامس عندما كانت آراء السفسطائيين الجدد التى تثير مسائل عن نظرية المعرفة وقواعد السلوك قد ملأت الآفاق . ان مذهب الذرة لأبيقور (راجع فصل ٦ – ١٨) مؤسس على مذهب دموقريطس .

(٤) كان « هواء » أناكسيمانس يشتمل على « نسمة » الحياة والريح والبخار .

بخاره كان شيئا ليس مجرد مادة . ومرة أخرى ، تحدث هيرقليطس عن نار توقع الجرم بكل شيء وعن الشمس تراعي حدود العدالة [١] . بينما الحب والكفاح وهما القوتان المحركتان عند أنبادقليس كانا يصوران كتلتين ماديتين ونوس nous «عقل» عند أناكساغوراس على أنه يملأ الفراغ، ولكن لم يكن الا بعد انقضاء شطر عظيم من القرن الخامس أن تفكير الناس ومسلكهم استرعى نفس الانتباه الذي كان يوجه الى مشكلات الطبيعة المادية . ثم جاء في البداية السؤال : بما أن الموازين الخلقية والمعتقدات الدينية وقوانين ومنظمات دولة - المدينة تقدم ، كالطبيعة المادية ، مشهدا من عدم الاستقرار والتغيير ، فهل هي ، نتيجة لهذا ، ذات قيمة محلية وعابرة فقط و « أوضاع » أقامتها بصفة مصطنعة ، قوانين وضعها الانسان ؟ أو هل يوجد ثم فيسس physis أو خلق أدبي طبيعي . ثم قانون لا يتغير ، من وضع الله أو الانسان تكون الأوضاع المتغيرة هي شكلها العابر . كان لا معدى عن مثل هذه الأسئلة في زمن ساده القلق السياسي عندما كان قد قوم أذهان الناس أكثر من قرن من البحث العقلي . ولقد سألهم اغريق الأعوام الوسطى من القرن الخامس وبمجرد أن تلقوا السؤال فانهم أنجبوا ، كما سنرى في فصل تال ، ليس فقط الفلسفة السياسية والخلقية ولكن تصوروا فسيح المجال ، جديدا عن طبيعة الواقع ومكان الانسان ومصيره في الكون .

١٧ - ويبقى علينا أن نشير الى الرابطة المزدوجة للعداوة والامتزاج بين الفلسفة حديثة المولد والدين القديم [٢] . فمن جهة كان من شأن توسع مجال

---

(١) شذرة ٢٧ وازن شذرة ٢٩ . « أن الشمس لا تتخطى حدودها ، فاذا فعلت فان الارينوس Erinyes ، خدمة العدالة سيكشفن أمرها . وعلى هذا ، فان الأشياء عند أناكسيماندر تقوم بالتعويض والترضية ، الواحد نحو الآخر ، لجورها في مرحلة من الزمن ، (بورنت - الفلسفة الاغريقية الباكرة ص ٥٢) .

(٢) وفقا لغرضنا من تركيز الانتباه على تلك العوامل التي كان لهما أعظم تأثير مباشر على الأزمنة اللاحقة ، فقد أهملنا موضوع الدين الاغريقي الشيق الا فيما كان له من أثر على تاريخ الفلسفة الاغريقية . ولقد ألقت البحوث الحديثة الكثير من الضوء على هذا الموضوع وهو ذو أهمية ليس فقط لفهم الشعر الاغريقي والقانون والحياة اليومية ولكن أيضا بالطبع ، لدراسة الأديان الأولى ، دراسة موازنة . وثمة مسألة لها أهمية خاصة لقراء هذا الكتاب هي التفرقة بين الآلهة الألومبية الذين يمثلهم أبولو وآلهة الأسرار الذين يمثلهم ديونوسيوس ، وكان الأولون كائنات فوق مستوى البشر أضفيت عليهم الصفات المثالية ومتعالين تعاليا بعيدا وكان يعسر تصور أي شيء له خصيصة الاتصال الروحي الشخصي معهم . أما الآخرون فكان يمكن ، لمن تلقن أسرارهم ، الاتصال بهم اتصالا مباشرا ، في حالة الجذب =

الاختبار بين الناس ونمو المزاج النقدى ويقظة المطامع الخلقية العليا بعث مذهب التشكك (الارتياب) ولكن هذا التأثير كان ينحصر فى الأقلية الذين كانوا يفكرون فى جد فى مثل هذه المسائل أو على الأغلب فى الجمهور المثقف. وكان يمكن لاناكساغوراس أن يعلن أن الشمس ليست الها ولكنها حجر يبلغ حجمه حجم بلوبونيس ، وكان الأثينى فى القرن الخامس يحس بارتياع لاخلاصه وحكم على الفيلسوف بالزندقة (عدم التقى) وكان مرجع هذه العداوة ليس الى مج للتفكير ولكن لولاء متأصل لعبادات المدينة ، التقليدية .

وكان هذا ، السبب الأصلى لعدم الثقة فى العلم والفلسفة التى عبر عنها تعبيرا رائعا فى تهكم مسلاة (كوميديا) أتيكا القديمة . وكانت احدى الاتهامات التى وجهها الى سقراط متهموه تهمة ادخال آلهة جدد وتعليم الناس أن يكفروا بالآلهة الذين كانت تعبدهم المدينة . وكان أمرا ذا مغزى عظيم فى الحياة الاغريقية أن المعارضة ضد الفلسفة ، كان لا يتزعمها الكهنة ، ولكن الشعراء والسياسيون . وكان الفلاسفة من جانبهم يشددون النكير دون هوادة ، على المعتقدات التقليدية . وخاصة فى ايونيا موطن العلم والتاريخ حيث كون الأمراء التجار جمهورا مثقفا ، كان ذيوع روح التشكك سريعا وعاما . وكتب اكسنوفانس Xenophanes القلوفونى (Colophon) « لقد نسب هومر وهزيود الى الآلهة كل الأمور التى تكون عارا وخزيا بين الناس ، السرقات والفسق وخداع الواحد للآخر » ولقد قال هيرقليطس « يجب أن يطرد من القوائم ويجلد بالسياط هومر وكذلك أرخيلوخس Archilochus . ولقد أشار أفلاطون فى الجمهورية الى أن النزاع بين الشعر والفلسفة ظل دهرا طويلا ، وكان لا يعنى نزاعا بين الفن والمعرفة ، لأن هذين ليس لهما مجال للصراع ولكن بين الدعاوى المتنافسة ، للتقليد الدينى والعقل العلمى ، فى تعليم الحق [1] .

١٨ - وفى موضوع علاقة العلم الجديد بعقائد دولة - المدينة المتأصلة كانت

= العاطفى وعن طريق طعام وشراب الفروض المقدسة . ولقد قدمت ديانات - الأسرار موادا للفلاسفة (راجع ما يلى § ١٧ وفصل ٥ § ٢١) . أما دين الألومبيين فقد أثار العداء وحسب راجع محاضرات جفورد لوب (C.C.J. Webb) عن « الشخصية البشرية والالهية » ١ ، ٧٧ وما بعدها ويجب قراءة « مولد المأساة » لنيتشه Nietzsche - راجع أيضا « خمس مراحل للدين الاغريقى » لجلبرت مرى ومؤلفات أخرى ذكرت فى قائمة الكتب الملحقة بالمجلد الثانى من هذا الكتاب .

(١) أفلاطون « الجمهورية » : ١٠ ، ٦٠٧ واكسنوفانس ، شذرة : ١١ وهيرق ، شذرة : ١١٩ وازن شذرة : ١٦ و٣٥ و٤٣ .

توجد من البداية نتيجة واضحة . وكانت الحال مختلفة وأقل بساطة فيما يتعلق بموجة احياء الدين الشعبى البدائى التى اجتاحت اليونان فى القرن السادس . ووراء عبادة الآلهة الألومبية التى رعاها الشعراء الهومريون وأرستقراطية العصور المظلمة ، ربما كان مايزال راسخا فى أذهان جمهرة الشعب قدر من المعتقدات القديمة ، ربما تكون ما تبقى من الدين المينوى السابق لقيام الهلينية [١] . وهذه المعتقدات البدائية التى تظهر آثار منها فى القصائد الهزيودية وحتى فى القصائد الهومرية كانت ترتبط بعبادة الموتى وبآلهة العالم السفلى وخاصة بتجسد الاله غير الهومرى ديونوسيوس . وديونوسيوس وأورفيوس كانا كلاهما يرتبطان ارتباطا وثيقا بطراقيا . ولقد لقيا اعترافا رسميا فى الفرائض التألهية لاليوسس Eleusis فى أطيقا التى كانت تتكون من ضروب التمثيل الفاجعى للحوادث المقدسة والاحتفالات الأساسية لتطهير روح المعابد من الذنوب . والتطهير كان جوهر النهضة التى حدثت فى القرن السادس . ويظهر الأنبياء ومطهرو المدن مثل افيمانيدس Epimenides الكريتى ـ الذى استدعى لتطهير أثينا ـ فى العالم الهلينى ، وكذلك تظهر جمعيات الاخوان المنظمة التى تماثل الكنائس ومنعزلة عن وشائج القرابة ودولة ـ المدينة ، وهى التى أقامت أساس العبادات المقررة . وكانت لديهم كتابات شعرية مقدسة منسوبة الى أورفيوس البطل الأسطورى وتحوى مبادىء معينة لعلم اللاهوت ، وخاصة فيما يتصل بمصير الروح فى عالم ما بعد القبر ، وكانت جمعيات الاخوان الأرفية تذيع التعليم عن وجود للروح سابق وعن خلودها الملازم بسبب قرابتها للآلهة وتجسدها المتعاقب فى أشكال الناس والحيوان البدنية وتطهيرها من الذنوب باتخاذ الجذب مع الاله [٢] ، وكانت تقدم

---

(١) ربما كان الغزاة الشماليون (الأخائيون) هم الذين أدخلوا عبادة أبولو والدين الألومبى ، على وجه عام ولو أن العبادة الجديدة قد تغير مظهرها بتمثيل معتقدات الشعوب الايجية ، الأقدم منها . ويمكن تفسير الارتباط الوثيق بين طغاة القرن السادس والانتعاش الدينى ونشأة الفاجعة (الدراما) الباكرة (التى اتصل قيامها بعبادة ديونوسيوس) ، اذا اعتبرنا أن سلطانهم كان سلطان الرأسماليين الأثرياء الذى يعتمد على التعضيد الشعبى ضد الأرستقراطية الاقطاعية وكان هؤلاء ، بطبيعة الحال ، يرتبطون بالعبادات الدينية الألومبية ، التقليدية .

(٢) يعتمد الاعتقاد فى الخلود على الاعتقاد بقرابة الانسان بالله ، ولايمكن الوصول الى الخلود الا بأن يصير المرء الها . وفى التعليم الأورفى تتصور الروح بأنها اله هوى ويمكن اطلاق سراحها من سجن الجسد بالتطهير والفرائض المقدسة (الجذب ـ ecstasy ـ وباليونانية ecstasis معناه «الخروج» عن الجسد) وتستعيد ألوهيتها (راجع بورنت ، الفلسفة الاغريقية الأولى =

للناشئين الرجاء فى نعيم أبدى وفى هذه الحياة تعانى الروح الحبس ، والجسم هو قبرها ، وعن طريق سلسلة من الحلول فى الأجساد تنجز دورة مصيرها • وعمليا ، كان يبشر بهذه المبادىء وتقبل فى شكل مادى غليظ ، فكان التطهير يعنى مراعاة محرمات غريبة واحتفالات سطحية ، والحياة الأخرى فردوس للاستمتاع الحسى – وفى عبارة التحقير لأفلاطون – «نشوة سكر أبدية » (١) • ومع هذا فقد كانت الآراء التى تتأصل فى التعليم الأورفى خليقة بتفسير أعلى • لقد استخدمها شعراء مثل فندار وأسخولس فى الجهد الذى بذلوه للتوفيق بين السلطة الدينية ومطالب الوعى الخلقى فى زمنهم ، الأكثر سموا (٢) • و « فايدو » لأفلاطون هو أثر تذكارى لا يفنى للاستجابة التى كان يمكنهم اثارتها من الفلسفة • وفى هذا ، وفى غيره من كتاباته ، فان نفس المفكر الذى صب جام غضبه على صانعى الغفران وأشياع صنوف الأسرار الخرافية ، حول المبادىء الأورفية عن حبس الروح فى الجسد وعن سابق وجودها وعن خلودها وعن دينونتها فى عالم آخر الى أداة لأسمى تعليم

= فصل ٢ الصفحات ٨٠ ــ ٤) • أما فى الدين الهومرى (الألومبى) ، فان الآلهة والناس طبقتان من الكائنات مختلفتان ، ولا يمكن أن يصبح أى انسان الها وعلى ذلك ، فلا يوجد خلود لبنى الانسان • وفقط قلة من المحظوظين ، كان يحملهم الآلهة الى الومبس أثناء حياتهم ولم يكن يحمل أحد بعد الموت • ويعتقد هزيود أن الأبطال يمكنهم الذهاب عند الموت الى الوسيوم Elysium بدلا من الجحيم Hades • وكان الأمر جد مغاير فى الدين البدائى وفى نهضته فى القرن السادس • ويجب أن يلاحظ أن اعتقاد الاغريق فى الخلود استخدم موادا استمدت من الدين البدائى بينما نهض اعتقاد العبريين فيه فى استقلال تام عنه • راجع عاليه فصل ٣ § ١٥ صفحة ٩٧ تذكرة • وعلى هذا فان تصور الاغريق ، على غير شاكلة تصور العبريين كان يدل على وجود سابق أى الخلود es parte ante كما es parte post راجع عن الموضوع كله « المذهب الأورفى Orphism» لجوثرى Guthrie

(١) راجع النص بأجمعه عن تذبذب الأسرار والتعليم الأورفى (الجمهورية: ٢ ، ٣٦٣ وما بعدها) •

(٢) راجع فندار « الومب • » : ٢ ، ٦٢ وما بعدها و « شذرات » : ١٢٩ ــ ٣٣ وأسخولس ، أما • : ٢٦٩ وما بعدها « الدينونة بعد الموت » وبقخا Bacchac لأريفيدس ــ احدى أخريات رواياته (شيقة على الأخص لأجل المسائل التى تثيرها) •

دينى ومتافيزيقى (١) • وهنا كان أفلاطون يقتفى الخطوات الفيثاغورية (٢). وكانت أبحاث هذه المدرسة العلمية ترتبط ارتباطا وثيقا بعقائدهم الدينية ومذهب الزهد الذى اتخذوه قاعدة الحياة • وكان فيثاغورس نفسه قد وضع المثل لهذا الامتزاج وهو يعلم أن العلم كان التطهير الحق للروح وأن الخلاص يكن ادراكه بالتنشئة فى خفاياه • ومنذ ذلك الوقت كانت الفلسفة تعنى للمفكر الاغريقى « مذهبا للحياة »-(٣) • والفيلسوف فى نظر الفيثاغوريين وفى نظر أفلاطون ، كان قديس المذهب العقلى وفى اجتماع الحديث الفلسفى Symposium فان العقيدة الأورفية فى اتحاد المتعبد مع الهه عن طريق الجذب تصاغ فى حدس عقلى للجمال المطلق وهو منتهى الطواف الشاق تصعيدا فى سلسلة جبال الاستدلال العلمى (٤) • وسنرى ثمرات أخرى لهذا التصور عندما يحين الوقت للتحدث عن الأفلاطونية الحديثة فى القرون الأولى من العهد المسيحى • ومن نفس المصدر الفيثاغورى فاض التمييز ، الذى استمد عن طريق التشبيه من الألعاب الهلينية ، لثلاثة ضروب من الحياة الانسانية ، فالبعض كأولئك الذين يغشون تلك الاحتفالات لبيع سلعهم اختاروا سبيل الرضى المادى سبيل الكسب وأسباب المتعة وآخرون كاللاعبين المتنافسين يطمحون لنيل التكريم فى ميدان العمل ، فى السياسة أو الحرب بينما يوجد أولئك الذين يؤثرون ، على مثال المتفرجين فى الألعاب ، حياة المتفرج يتأملون بعقل لا تعيقه ميول بيت سجنه الجسدى ، مرأى الحق الكامل ، وتصور التأمل العقلى (thecrio) هذا ، كأرفع نشاط انسانى قريب لما هو الهى ، ذاك الذى أدركه أولا الفيثاغوريون ونماه أفلاطون وأرسطو يأتى بنا الى صميم العبقرية الهلينية عينه •

٦ ـ الخاتمة

١٩ — ان نسق التوسع الذى دون فى هذا الفصل يوضح صفة الهلينية العقلية • يوجد منطق ملازم فى كل ما خلقه الاغريق • ونظرة الى فنهم المعمارى والمامه التام بالصوغ والوظيفة والتوازن الرياضى تكفى لأن توضح

---

(١) وخاصة فى الأساطير التى تتصل بالأمور الأخروية فى Phaedrus, Republic, Phaedo, Gorgias راجع « أساطير أفلاطون » لاستوارت و « الفكر الدينى فى اليونان » لآدم •

(٢) أهديت Phaedo الى الرابطة الفيثاغورية فى اليونان الأوربية ، لقد عقد سقراط الصلات الوثيقة بعدد من الفيثاغوريين الذين التجأوا الى اليونان بعد نفيهم من ايطاليا فى غضون النصف الأخير من القرن الخامس •

(٣) وازن أفلاطون ، الجمهورية : ١٠ ، ٦٠٠ •

(٤) أفلاطون : ندوة الفلاسفة .Sym : ٢١٠ •

كيف بعثت الروح العلمية الحياة فى الفن التخيلى • والاعتقاد أن « الله يهندس دائما » كان يتحكم فى نظرتهم للطبيعة وفى انتاجهم الجمالى • والفن لدى الاغريق يعتبر أبدا أحد أشكال الحكمة (Sophia) وليس فقط المفكر الاغريقى، ولكن الفنان الاغريقى أيضا كانا يملكان الاحساس بالحق الذى أدى بهما الى أن يفرقا فى وضوح بين المثالى والواقعى وأن يعطيا كلا منهما حقه • وقد كانا يشعران أيضا بالهام تلك القوة التى خصص لها حياته شاعر من بين الشعراء المعاصرين ، ولج تماما روح اليونان القديمة ، — رؤيا الجمال العقلى [١] • ان الصرامة والصدق هما طابع الفن الاغريقى ، فمثلا عندما يقول هومر «هيلن» فانه يعنى « هيلن » وعندما يقول فرجل « ديدو » فانه يعنى « كليوباترة » أو « قرطاجنة » ويمكن تبين منطق مماثل فى منهاج تقدمهما • لقد رأينا آنفا كيف أن سجلات التاريخ السياسى وأدب الشعر والفكر العلمى تكشف عن تتابع أشكال منتظم [٢]• وما لحظه الفلاسفة الايونيون فى الطبيعة يصدق أيضا على عقل اليونان • ففى كل مكان يوجد تنوع وتغير ، ولا شىء فى استقرار • ولكن التغيرات ولو أنها لا تنقطع وتستغرق كل شىء ، فانها كانت تسير على هدى قانونى عقلى • وطراز يتبع طرازا ومدرسة تقتفى أثر مدرسة فى تعاقب منطقى الى أن ينتهى مدى كل الشكول الممكنة وتكمل دورة التقدم • وكانت خدمة اليونان الأساسية للمدنية أن تخلق فى العمل وتحدد فى الفكر الخصائص الجوهرية فى تجارب الانسان • ان الصيغ التى نستخدمها اليوم للتعبير عن الفروق والتجميعات التى تكون أساس فهمنا للعالم فى السياسة —الملكية monarchy والأرستقراطية aristocracy والديموقراطية democracy وفى الأدب — الملحمة Epic والقصيدة الغنائية lyric والفاجعة drama والمأساة tragedy والمسلاة comedy وفى المعرفة — أسماء الفنون والعلوم الشعر poetry والطبيعة physics والفلك astronomy والرياضة mathematics والتاريخ history والفلسفة philosophy نفسها ، كلها صيغ اخترعها الاغريق • والشكول التى ميزوها وسموها هكذا هى التى أنشأوها فى سير تاريخ حياتهم • ولا توجد سلالة أدركت فى مثل هذه البصيرة الصافية

---

(١) راجع شلى Shelley « أنشودة للجمال العقلى » •

(٢) راجع على الأخص دراسة شكول الحكومة السياسية التى تحوى عيوبا ، فى جمهورية أفلاطون الكتابين الثامن والتاسع حيث يعرض النظام المنطقى الذى يعالجها فيه أفلاطون ، أشباها كثيرة لمنهاج تطور التاريخ الاغريقى الواقعى •

وحددت فى مثل هذه الدقة ، حقائق الحياة والمعـرفة [١] • وبسبب هـذه الموهبة العجيبة فى الحكم العقلى ، التى عاونتهم فى الفكر والعمل على ادراك الموضوعات التى وضعت لها هذه الصيغ ، أن جميع الأجيال المتعاقبة رضيت وفى الواقع أجبرت ، على أن تقيم البناء على الأسس التى أرسوها •

---

(١) ان سـجلات العيادات الطبية للأبقراطيين ، على سبيل المثال ، هى بيانات دقيقة عن الوقائع لا تثقلها أية زيادة فى اللغـة فوق ما تدعـو اليه الحاجة • وحتى الخطباء الاغريق كان ديدنهم الاقتصاد العجيب فى خطبهم •

الفصل الخامس

عظمة أثينـــــا

١ - دولة أثينا

١ - كان فى أثينا فى القرن الخامس أن المدنية الاغريقية وصلت ذراها. وكانت أثينا فى ذلك الوقت أهم مدينة تجارية وسياسية فى العالم الهلينى الذى كان تفيض اليه كل تيارات الأدب والفن والمعرفة وفى عبارة بركليس رجل السياسة فيها ، الشهيرة ، أصبحت « مدرسة هلاس » . ولا يوجد فى التاريخ ما يعادل الثروة وتنوع العبقرية الخالقة اللذين انتجتهما أثينا فى هذا القرن أو ضمنتهما اليها من جميع أرجاء اليونان . وفى مدينة واحدة لم يكن تعداد سكانها الأحرار ، أكثر من تعداد سكان بلدة انجليزية متوسطة الحجم، كان يقطن خلال ثلاثة أجيال من مدى الحياة الانسانية ، رجال سياسة مثل ثمسطوقلس وبركليس والثلاثة من شعراء المأساة أسخولس وسفوكلس ويوربيدس ، وشاعرا المسلاة (كوميديا) أرسطوفانس Aristophanes وفيدياس Phidias ومدرسة النحاتين الرائعة التى كانت له ، والمؤرخان هيرودوتس وثقوديدس والفيلسوف أناكساغوراس وسقراط أعظم معلمى البشر أجمعين ، وتلميذ سقراط الخالد ، أفلاطون . وكان يوجد غيرهم كثير ، لا عد لهم - رجال سياسة وشعراء ومفكرون ، من بينهم عدد وفير ليسوا أكثر من مجرد أسماء للأزمنة التى ترادفت وهم مع ذلك ، فى عهد أقل التماعا كان يمكن أن يكونوا من بين مشاهير رجال التاريخ . ويخال ان فردية المدنية الاغريقية بذلت الجهد فى فترة نضجها الوجيزة لتتجاوز حدود أجل عمل ممكن .

٢ - ولو أن أثينا تطورت الى مدينة تجارية عظيمة ، فان أساس حياتها المدنية كان زراعيا . ولقد انضم ، قبيل القرن السابع ، سكان أتيكا فى اتحاد (كومونولث) واحد ، وأخلت الملكية مكانها لحكم أرستقراطية من ملاك الأراضى وأصبحت فروق طبقات الأشراف والزراع وأصحاب الحرف ، وقد تحددت نهائيا وغدت مساوىء الدين والعبودية الشخصية واضحة وضوحا بينا . وصار الأصاغر من ملاك الأرض مدينين للكبار لدرجة ميئوس منها وسمح لهم بأن يرتهنوا حريتهم الشخصية لدائنيهم . ولقد رأى ختام ذلك

القرن نشر مدونة قوانين وهو حادث له أهمية فى تاريخ كل الجماعات الأولى وعلى الأخص فى حالة أثينا حيث كان « القانون المتماثل » Isonomia فخر مواطنيها ووصل علم الاختصاص القضائى الى مستوى من الكمال لا يضارع فى العالم الهلينى [١] . وبفضل قربها من البحر وفرضتها فرايوس Piraeus تمكنت أثينا من الحصول على قسطها الكامل فى توسع التجارة . وهنا ، كما فى أماكن أخرى ، كان فيض الثروة وقيام حكم الأغنياء من التجار مما زاد القلق السائد شدة . وكان مصدر المتاعب يرجع الى أن الامتيازات السياسية أصبحت تنحصر فى ملاك الأرض . وسمح صولون بادىء ذى بدء ، للذين يملكون رأس مال تجارى بأن يشتروا الأرض من الملاك الذين يعوزهم المال ، وعلى ذلك يكونون أهلا بصفة فعالة لحقوق المواطنين وللوظائف العامة . وفى بواكير القرن السادس وقد استدعى صولون لتولى زمام الحكم حتى يحل الأزمة الاقتصادية واتاه النجاح — باصلاح القانون الجنائى وخاصة بانشاء المحاكم الشعبية التى كان الحكام مسئولين أمامها — فى وضع أسس الديموقراطية . وفى المجتمع القديم ، كانت محكمة القانون وليست الجمعية ، موطن الحرية السياسية حيث ظفر الشعب بالرقابة على السلطة التنفيذية . وأعقب هذا فى تتابع سريع تغييرات دستورية طوال القرن السادس . وكان حكم بسسطراطس الاستبدادى ، الذى ربما كان يستند الى تعضيد عماله فى مناجم أتيكا الجنوبية ، يتميز ، بصفة ملحوظة ، باحترامه للقانون واجراءاته الدستورية وتشجيعه للزراعة والتجارة وانعاش الفن والثقافة . وقد شجع أيضا صغار المستردين للأرض البور فى أتيكا . وقد مدت أثينا فى ذلك الحين علاقاتها التجارية والسياسية على كل شاطىء بحر ايجا [٢] . وكان حكم

---

(١) عن Isonomia راجع هيرد : ٣ ، ٨٠ وما بعدها وازن ٥ ، ٧٨ وفيه التعبير المستعمل iségorié « المساواة فى الحديث » .

(٢) راجع الاستاذ ف٠ن٠يور Prcf. P.N. Ure «النهضة الاغريقية» فصل ٧ — عن علاقة الطغيان على وجه عام وطغيان بسسطراطس على وجه خاص ، بالرأسمالية واستخدام العمال .

وقد عالج البحث فى استيفاء أعظم فى مؤلفه الذى جاء بعد ذلك « أصل الطغيان » وقد كان حكم بسسطراطس من الأهمية بحيث يعتبر فاتحة عصر جديد لأثينا فى الفن والأدب والدين . ولقد أصبحت أثينا عندئذ مركز النفوذ الهومرى فى اليونان . وعن هذا ، راجع مرى Murray « خمس مراحل للدين الاغريقى» صفحة ٦١ . وبازدياد سكانها ، كانت أثينا تجلب مايلزمها من المواد الغذائية من يوبيا Euboea والأكسين . ولهذا كان امتداد قوتها البحرية فى الشرق والشمال الشرقى أمرا جوهريا لبقائها . وكانت حالها كحال هولندا فى أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر . وهذا =

بسسطراطس الاستبدادى قصير الأمد ، لأن التعطش الى المساواة السياسية وقد أثير فى لفيف المواطنين الأثينيين ، أصبح من الشدة بحيث لا تشفى غلته ولا يقبل هوادة . وقد نفيت أسرة بسسطراطس بثورة شعبية تظاهرها قوة اسبرطية ولكن أعداءهم الحقيقيين كانوا القمايوندا Alcmaeonidae وهم أسرة منافسة ، من النبلاء . وفى ختام القرن أوقع اقلسثينس Clisthenes ضربة قاضية على نفوذ الأرستقراطية الاقليمى وأعاد تنظيم الحكومة على أساس ديموقراطى صريح . ولم يسمح فقط للمقيمين الأجانب بكسب حقوق المواطن الكاملة ولكنه حل التجمعات السياسية التى كان أساسها روابط الأرض المحلية ، واستبدلهم بقبائل جدد جلب أعضاءها من أنحاء متفرقة فى أتيكا . وكان من أثر هذا ، أنه عندما فاضت موجة الغزو على اليونان فى فجر القرن الخامس ، استطاعت أثينا أن تواجه الأزمة بصدة من المنظمات السياسية حقيقية بمزاج مواطنيها وبمكانتها الجديدة فى اتحاد (كومونولث) دول ـ المدن الهلينية . ثم فى قدرتها على التقدم السياسى وفى حرية التواصل بالمدن الأخرى ، قدمت أثينا فى هذا الوقت وما بعده نقيضا ظاهرا للدولة التى كانت لها السيادة على أرض اليونان الأصلية ، اسبارطة [1] . ومن موطنهم فى وادى يوروطاس Eurotas المنعزل ، أخضعت الأرستقراطية الاسبارطية بلوبونيسس الجنوبية اخضاعا تاما . وبفضل شجاعتهم التى لا تجارى ومهارتهم فى استخدام السلاح ، اعترف بهم دولة عسكرية دانت لها الزعامة فى اليونان . ولكن اسبارطة كانت ثكنة ، لا دولة ، وكان يتحكم فى تدريب وحياة مواطنيها ، الهدف الأوحد وهو حذق فن الحرب . وقد احتفظت بمنظماتها البدائية قرونا ، دون أن يطرأ عليها تغيير ، فى الغالب . ولما كانت تحقر التجارة ، فقد قامت بحراسة تخومها من تدخل الأجانب ، فى بأس . ولم تضف الا القليل أو أنها لم تضف شيئا على الاطلاق مما له قيمة دائمة فى بناء المدنية الهلينية . وكانت قوتها ترجع الى شدها أزر العهد القديم Ancien Régime فى كل مكان فى اليونان ، فى سياستها الشعبية Herrenvolk ومبدأ العزلة الذى ضمن لها سيادتها . ولقد أنجبت جنودا شجعانا . ولكن لم تنجب الا القليل من رجال السياسة الممتازين . وكان المواطنون أولو المواهب العظيمة أهدافا للريبة فى موطنهم ، وعندما كانوا يتحررون من جو التقاليد الاسبرطية ، يصبحون فرائس للفساد ، سهلة .

= يفسر السبب فى أن الديموقراطية الأثينية كانت دائما تنادى بالتوسع الامبراطورى .

(١) يعبر ثقوديدس عن هذا التناقض فى خطبة المبعوثين الكورنثيين فى اسبارطة فى ٤٣٢ ، ١ ، ٧٠ وكذلك فى خطبة الجنازة لبركليس ٢ ، ٣٥ـ٤٦ التى جاءت مقتبسات منها فى § ٥ من هذا الفصل .

وأنا لنعجب للصيت الذى أحـرزته اسـبارطة فى عينى اليونان المعـاصرة وللسلطة الخلقية التى بسطتها على الكثير من أحسن العقول الهلينية • ولمـا قنط أفلاطون من خلاص أثينـا السياسى ، تطلع صـوب اسـبارطة بحثا عن العلاج ويرجع السبب الى هذا : أنه ولو أن الارستقراطية الاسبارطية كانت ضيقة وغير مثمرة وظالمة فقد ظهر أن ثباتها والتمسك بوحدة المبدأ والولاء للدولة يكمل النقص الذى كانت الحاجة تمس اليـه لديموقراطية أثينـا العاطفية التى لا استقرار لها [١] •

٣ - وأتاحت الحرب مع فارس الفرصـة العظمى لأثينـا • لقد سـبق أن سردنا قصة نهوض الدولة الفارسية السريع واخضاعها الاغريق الآسيويين تحت نيرها • وهدد أسطولها البحرى الذى جنـد رجـاله من مدن فينقيـة التجارية ، بتحويل ايجا الى بحر فارسى • ولقد اصطدم الحكم الذاتى فى دولة - المدينة الاغريقية بالقيصرية الفارسية بينما ألقت الحركات الديموقراطية وهى تهدد الحالة الراهنة ، الاقتصادية والسياسية ، بحماتها المحافظين بين يدى فارس • وقد وصم القوميون الاغريق هذه الوسيلة للنجاة « بالميدية » لأن تاريخها يرجع الى ما قبـل قيام فارس • وقد أوقعت القوة البحرية التى كانت لبوليكراتس الساموسى ، الخطر على تحكم فارس فى سـواحل آسـيا الصغرى • وفتحت غزوات دارا فى طراقيا عينى مليطوس التى كانت فى البداية قد طغت عليها « الميدية » • وقد أكدت ثورة الاغريق الايونيين فى السنوات الأولى من القرن الخامس ، للحكومة فى سوس الحاجة الى تعزيز حدودها الغربية ، وفى عام ٤٩٠ ، أرسلت حملة تأديبية بحرا ضـد الأثنيين الذين كانوا قـد قدموا قوة عسكرية مسلحة كعون للثورة الفاشلة التى أشعلها ذوو قرابتهم الايونيون • وقد قوبل جيش فارس وأوقعت به الهزيمة ، على سهول مراثون Marathon على سـاحل أتيكا الشمالى الشرقى • ومن العسـير ، بالنظر الى

---

(١) ان صـورة أفلاطون للحكومة التيموقراطية (شكل للحكومة يؤهل فيها الأفراد للوظائف بمـا يملكون) فى الجمهورية : ٨ ، ٥٤٧ - ٨ يماثل بصراحة شكل الحكومة الاسبرطية • ومبـدءاها الهـاديان هما « الشرف » (timé) و « النصر » وهى أقل أنواع الحكومات « غير العادلة » فسادا ، وبعد ذلك ، فى « القـوانين » نجد أفلاطون أقل تسـامحا ، لحد عظيم ، نحو المنظمات الاسـبرطية • ويوجه أرسـتطاليس النقـد القـاسى لاسـبرطة فى « السياسة » ٢ - ٩ و٧ - ١٤ ، ١٥ ويصرح بلوبيوس (٦ ، ٤٨ - ٥٠) فى فحصه المنظمات الاسبرطية أنه لا يوجد مثيل لها للاحتفاظ بالاسـتقلال والاكتفاء الذاتى فى الداخل ولكنها غير كفيلة تماما بمباشرة العلاقات الخارجية والامبراطورية •

الحوادث التالية التى كان لها شأن أعظم ، أن ندرك ما كان يعنى هذا النصر لليونان . ولأول مرة قوبل التمثال الفارسى الهائل فى الميدان المكشوف . وبالنسبة لأثينا ، قدمت مراثون ذكرى لا تفنى وبعد ذلك بزمن مديد عندما سرد أعظم خطبائها كيف جمع مواطنوه شملهم أمام كفاح الموت ضد مقدونيا ، فانه رجع بفكره الى أولئك الذين سقطوا ممجدين فى مراثون (١) وأما بالنسبة للفرس فليس ثمة شك فى أن الموقعة لم تكن تعنى أكثر من صد عنيف لسياستهم الأمامية على الحدود . وجعلت القيام بعمليات على نطاق واسع أمرا لا مناص منه ، ولكن جمع المجندين الامبراطوريين تطلب زمنا . وسببت ثورة فى مصر وموت الملك دارا تأخيرا لسنين عدة . ولم يكن الجيش حتى عام ٤٨١ قد تجمع تحت قيادة خشيارشاى فى سردس ، بينما كان الأسطول فى ايجا مرابطا عن كثب ، لغزو اليونان غزوا نهائيا . ولقد وافت اللحظة الحاسمة المدنية الهلينية آخر الأمر وأثناء تقدم الفرس ، قدم نصف المدن الاغريقية خضوعها وقام مهبط الوحى فى دلفى بدور الخائن للدعوة الهلينية . كانت اسبارطة وهى العمود الفقارى للدفاع بالبر تفكر ، كما كان العهد بها دائما ، على الأخص فى البلوبونيسس . وفى تلك الآونة ، تقدمت أثينا كنصير للحرية الهلينية . ولقد شاهد مواطنوها مرتين ، من ملجئهم الجزرى فى سلاميس دون خوف نهب أراضيهم وتدمير مدينتهم . ولقد أحرز أسطولها النصر الحاسم فى سلاميس (عام ٤٨٠) وفى السنة التالية ، حارب جنودها جنبا الى جنب مع المشاة الاسبرطيين فى « الرحمة الختامية » فى فلاطيا Plataea ووجدت أثينا فى شخص ثمسطوقلس قائدا له قدرة غالبة فى الحرب وفى السياسة ، ونجت اليونان وكانت نجاتها ترجع على الأخص الى وطنية أثينا (٢) .

وكان هذا آخر تهديد يوجه للحرية الهلينية من الشرق . وكان الخطر مزدوجا ، ففى الغرب أيضا كانت قرطاجنة قد هاجمت اغريق صقلية فى سنة غزو خشيارشاى فلحقت بها هزيمة قاصمة فى الهمرا على يدى جيلو Gelo طاغية سيراكوز . واستهل نصر جيلو حقبة باهرة فى سيادة سيراكوز . وفى

---

(١) دمستينس Demosthenes دى كرونا de Corona § ٢٠٨ .

(٢) راجع هيرد ٨ و ١٤٣ وما بعدها عن وطنية الأثينيين فى هذه الضائقة . وقد أورد قصة حملة عام ٤٩٠ فى الكتاب السادس ، ٩٤ ـ ١٢٠ وحملة خشارشاى فى ٧ ـ ٩ . وقد وضع اسخولس هزيمة خشيارشاى فى فاجعة ، فى « الفرس » الكتاب الذى صنفه .

الحق تحتل سيراكوز من ذلك الحين المكانة الثانية بعد أثينا ، كمركز للفن والثقافة الهلينيتين [١] .

٤ ـ وكان انتصار اليونان رائعا ، ولكنه على أية حال لم يكن أعجوبة . وهو يقدم أول مثال واضح ، فى التاريخ عن انتصار دنيوى للنوع ضد الكم . ولقد صنع الاغريق فى سلاميس وفلاطيا ما صنعه الاسكندر بعد ذلك فى أسوس Issus وجوجميلا وكليف Clive فى الأزمنة الحديثة فى بلاسى Plassey [٢] . ان تاريخ الانسان يكذب فى كل مرحلة المثل الأحمق بأن « الله يكون الى جانب الكتائب العظيمة » ، واذا كان نابوليون قال هذا على الاطلاق فلابد أن قوله كان يحمل فى مطواه تحفظا بأن « يكون النوع متعادلا » والأعجوبة الحقة هى فى استخدام الأثينيين للنصر الذى حازوه . ولقد أظهروا فى ساعة النصر ، نفس البصر بالحقائق واتساع النظر ، كما فى ساعة الخطر الداهم . وعندما ارتضت اسبارطة والدول الاغريقية الأخرى بما نالوه من أكاليل الغار ، أجمعت أثينا الرأى على أن تواصل الجهاد حتى تتحرر كل مدينة اغريقية فى منطقة ايجا من النير الفارسى

وكانت السياسة وكذلك روح الوطنية دون ريب ، تشيران الى هذا الاتجاه ولكن مما فيه شرف أثينا الخالد ، أنه فى هذه اللحظة لاءمت أثينا بين دعوة نفع المدينة ودعوة الاستقلال الهلينى . ولقد جنت الثمار ألف ضعف ، فى العظمة السياسية كما فى حياتها الداخلية التى تتصل بالمدينة وفى تجارتها وامبراطوريتها فى البحار ، وكذلك كما سنرى ، فى أنبل ثمرات الثقافة العقلية ، التى كانت أبدا من نصيب النوع الانسانى . وقد تركتها حرب التحرير (٤٧٨ ـ ٤٧٠) سيدة مياه ايجا دون منازع . وقد

---

(١) وجه بندار عددا من أحسن القصائد الغنائية الى الأمراء الصقليين بما فيهم هيرو Hiero خليفة جيلو . وقد زار اسخولس صقلية أكثر من مرة ومات فى جيلا Gela وكان جورجياس Gorgias الليونتينى Leontini من مشاهير السفسطائيين وأستاذ الفصاحة . وفى القرن الرابع زار افلاطون سيراكوز فى مناسبتين أو ثلاث . وكان جيلو القائد العام لاوليجارشية (حكومة الأقلية) من الرأسماليين ، قاصرة عليهم ، وقد دعت المدن الايونية فى غرب صقلية قرطاجنة وهى فى يأس . وتقدم سيراكوز نقيضا يسترعى البال ، لأثينا الديموقراطية .

(٢) رأى الأثينيون أنفسهم فى وضوح ، أن النصر يرجع الى قوة ومهارة أسطولهم البحرى والى ذكاء ثمسطوقلس ولروح حب الوطن التى لا تحيد ، التى تشيع فيهم (انظر ثقد ١ ، ٧٣ و٧٤ و١٤٤) .

أمن تحصين المدينة ومرفئها ، فرايوس من منافسة اسبارطة لها فى البر - وكانت أساطيلها تقوم بالحراسة على ايجا الذى أصبح من الآن موصدا ، كما كانت أراضى ساحل آسيا الغربية ، أمام الفرس · وكانت هذه الحقائق أساس التفاهم الذى أنهى فى عام ٤٤٨ الصراع الذى استطال حتى بلغ أربعين سنة ونيفا · ولقد تركت أثينا وفى حيازتها احتكار التجارة الشرقية · وكانت المدن المحررة ما تزال منتظمة فى جمعية تحت رياستها ولها خزانة مشتركة فى جزيرة ديلوس المقدسة ، كانت تقدم اليها كل مدينة حصة معينة للاحتفاظ بالأسطول البحرى الحامى · وفى روعة بالغة ، حققت أثينا ما انتوته وقطعت العهد به · ولكن والقرن يسير فى مداه ، حدث تغير فى سياستها · لقد تحولت الدولة التى عقدت لها الرياسة على الاتحاد الديلى الى مدينة ذات سيادة على امبراطورية خاضعة لها · ولقد غدا حلفاؤها القدامى تابعين يلتزمون بدفع الضريبة وكان مطلبهم فى الانفصال عن الجمعية يداس تحت الأقدام فى عنف ، ونقلت الخزانة الى أثينا واعيد وضع منظماتها الداخلية لصالح سيادة أثينا · ولما كانت أثينا ديموقراطية فان المدن الخاضعة يجب أن تكون أيضا ديموقراطية · ومن خصائص التاريخ السياسى الاغريقى أن الصداقة والعداوة بين الدول كانا يعتمدان الى حد عظيم على اللون السياسى للحزب الحاكم · وقد تحالفت الحكومات الديموقراطية مع أثينا والحكومات الارستقراطية مع اسبارطة · وفى زمن بركليس (٤٦٠ — ٤٣٠) كانت الامبراطورية الأثينية تشمل جزر ايجا ومدن طراقيا وآسيا الصغرى الساحلية والسبنطس والمجاز البحرى الى الأكسين · ولو أن نكسس Naxos ثارت عام ٤٦٥ وساموس عام ٤٤٠ · وأكثر من هذا ، فان أثينا أظهرت نشاطها فى محاولات فاشلة لبسط سيادتها على اليونان الوسطى وفى حملة عسكرية أنفذتها الى مصر وانتهت بنكبة · ونمت المدينة فى الثراء والسكان كنتيجة طبيعية لتجارتها الواسعة المتنوعة · ومع الكراهية المريرة التى كان يشعر بها رعايا امبراطوريتها ، لا يوجد أى دليل على أنها كانت تحكم حكما غير عادل · ويجب أن يكون الهادى فى حكمنا اعتبارين · بتركيز القضايا التى تنسحب على مدن مختلفة وكذلك أعظم الدعاوى الجنائية خطورة ، فى المحاكم الأثينية ، فان أعلى مذهب فى الادارة القضائية ، رقيا ، كان يوجد فى العالم فى ذلك الحين ، فتحت أبوابه لكل اليونان الشرقية ، وعلاوة على هذا ، كانت أثينا تدرك تماما الواجب الذى تفرضه عليها سيادتها · وكان لزاما على مواطنيها ، كما كان يشعر على الأقل ساستها الذين كانت لهم الصدارة ، أن يعيشوا عيشا خليقا بقدر امبراطوريتهم · ولقد حازت جهود بركليس لادراك هذا المثل الأعلى ثقة شعب ديموقراطى · ولم يصل حلم اتحاد جامعة هلينية تحت زعامة مدينة واحدة ، اطلاقا ، قريبا من تحقيقه كما فى عهد الامبراطورية الأثينية فى زمن بركليس ·

٥ ـ وعندما نضع الى جانب قوة أثينا الخارجية لنمعن النظر فى حياتها العامة الداخلية ، نجد أنه منذ عهد اقلستينس كان يهيمن على الحكومة ارادة لفيف المواطنين الأحرار (١) . ولقد رأينا كيف أنه ، عند الاغريق كانت حياة المواطن الحقة هى خدمة الدولة في السلم وفى الحرب وقد حقق هذه الفكرة فى اسبارطة ، الأرستقراطية الحاكمة . ولما كانوا قد وهبوا الضياع التى يقوم بالعمل فيها الرعية من السكان ، فقد تاح لهم وقت فراغ ليخصصوا كل حياتهم للخدمة العسكرية . وقد جهد بركليس وخلفاؤه فى القرن الخامس فى جعل مثل هذه الحياة ممكنة لديموقراطية أثينا . واستحداث الأجرة لحضور المجلس ومحاكم القانون ، التى كان أعظم مشاغلها الدعاوى السياسية ، كان الوسيلة التى استخدمت للوصول الى هذا الهدف . وعلاوة على مهمة الحكومة المحلية ، كان مباحا لكل مواطن أن يحضر بشخصه وان يدلى بصوته وأن يتحدث فى الاجتماعات الأسبوعية للمجلس ذى السيادة (Ecclesia) حيث كانت تبرم مواضيع السياسة الخارجية والامبراطورية والمواضيع المالية ويعين الحكام وتناقش تقاريرهم وتفحص . وكان مجلس الرأى Boule يعهد اليه بتحضير التشريع للجمعية وكان يجتمع عشر العدد (prytany) كمجلس تنفيذى دائم ، فى دار البلدية كل شهر فى السنة . وكانت لجان تتألف من بضع مئات من المحلفين يختارون بالقرعة من لفيف المواطنين ، تصدر أحكامها فى الاتهامات الدينية والسياسية . ولقد صب الشاعر المحافظ أرسطوفانس التحقير المرير على مغالاة هؤلاء الدبابير (٢) الأثينيين فى الدعاوى القضائية . ولقد تصاعدت روح التشيع وكان الحزب الأرستقراطى ينادى بالسلام والصداقة مع اسبارطه ، أما الحزب الديموقراطى بقوته بما يضم من السكان البحريين ، فكان يناصر توسيع الامبراطورية فى البحر والبر . ولكن عندما نتسامح فى المغالاة فى الروح الحزبية والمطامح الفردية فان الديموقراطية الأثينية لم تكن غير جديرة بالمثل العليا للسياسى العظيم الذى وطد سيادتها .

(١) يمكن أن يكون تعداد سكان أطيقا الأحرار فى عصر بركليس قد بلغ حوالى ٢٥٠٫٠٠٠ نسمة ويؤكد ثقو ٢ ، ٣١ أنه حوالى عام ٤٣٠ كانت تبلغ قوة المواطنين الأثينيين ٣٠٫٢٠٠ . ويجب أن يضاف اليهم نحو ٢٠٫٠٠٠ من الطبقة التى لها أقل ملك فيكون المجموع ٥٠٫٠٠٠ من المواطنين الذكور البالغين . وربما يبلغ تعداد النساء والأطفال والعجائز أكثر من ضعف هذا العدد ، وبذلك ربما كان يصل المجموع الكلى الى ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة من الأحرار يضاف اليهم ٥٠٫٠٠٠ من الأجانب المستوطنين metics . ويظهر فى احصاء عام ٣٠٩ ق.م نقص فى المواطنين الذكور البالغين ، يبلغ ٢١٫٠٠٠ يضاف اليهم ١٠٫٠٠٠ من الأجانب المستوطنين .

(٢) أرسطوفانس « دبابير » .

ولقد عبر بركليس عن هذا المثل الأعلى فى خطبة له فى الثناء على الجنود الذين سقطوا فى معمعة القتال فى حملة عام ٤٣١ · وقد سجل الخطبة المؤرخ ثقوديدس ويمكن اقتباس النص الآتى لتوضيح تصور بركليس للديموقراطية الأثينية :

« ان شكل حكومتنا لا يدخل فى مجال التنافس مع أنظمة غيرنا ، واننا لا نحتذى حذو جيراننا ولكننا نضع المثال لهم · وهو صدق أن الديموقراطية تطلق علينا لأن الادارة فى أيدى الكثرة وليست القلة ولكن بينما القانون يضمن المساواة فى العدالة للجميع على السواء فى منازعاتهم الخاصة فان دعوى التفوق يعترف بها أيضا وعندما يمتاز مواطن فى أية ناحية فانه يفضل للخدمة العامة ، ليس كامتياز ولكن جزاء للفضل · ولا يكون الاملاق مانعا ولكن يمكن للانسان أن يحقق نفعا لوطنه مهما كان شأنه مغمورا · ولا يوجد احتكار فى حياتنا العامة ······ وبينما لا نخضع لأى قسر فى تواصلنا الخاص فان روحا من الاحترام تشيع فى أعمالنا العامة ويجنبنا عن ارتكاب الخطأ ، الاحترام للسلطة وللقوانين اذ لنا اعتبار خاص لتلك التى وضعت لحماية الذين وقعت عليهم مساءة وكذلك لتلك القوانين غير المكتوبة التى تجلب على الخارجين عليها تنبيذ الرأى العام ··· اننا عشاق للجمال ولكننا بسطاء فى أذواقنا واننا نثقف العقل دون خسران للرجولة · والثراء نستخدمه ليس للحديث والزهو ، ولكن عندما يوجد نفع صادق فى استخدامه · والجهر بالفاقة عندنا ليس مذلة ، والمذلة الحقيقية هى فى القعود عن عمل شىء لتحاشيها · ان المواطن الأثينى لايهمل الدولة لأنه يعنى ببيته · وفيما بيننا ، حتى أولئك الذين ينهمكون فى الأعمال ، لديهم فكرة جد طيبة عن السياسة ونحن ، دون سوانا ، نعتبر الرجل الذى لا يهتم بالمسائل العامة ، ليس شخصا لا ضرر منه ، ولكنه شخص لا جدوى فيه · واذا كانت قلة منا مبتكرين ، فاننا جميعا حكام صادقون لثمة سياسة · والعائق العظيم أمام العمل ، فى رأينا ، ليس النقاش ولكن الافتقار الى تلك المعرفة التى تكتسب بالنقاش ، ارهاصا للعمل · لأن لنا قدرة خاصة على التفكير قبل العمل وعلى العمل أيضا ، بينما ناس آخرون لهم شجاعة وليدة الجهل ولكن يترددون بعد امعان الفكر ··· والخلاصة ، أقول ان أثينا هى مدرسة الاغريق وانه يبدو أن الفرد الأثينى فى ذاته ، يستطيع أن يكيف نفسه فى أعظم شكول العمل تباينا ، بأجل ما يكون من قدرة ، متعددة النواحى ، وكياسة · وليست هذه كلمة لغو عابرة ولكنها الحق والواقع · والتوكيد تصدقه المكانة التى رفعت اليها هذه الخصال الدولة لأننا أجبرنا كل بر وكل بحر ليفسح طريقا أمام بسالتنا وغرسنا فى كل أوب ، آثارا خالدة لصداقتنا وعداوتنا · هذه هى المدينة التى لأجلها حارب هؤلاء الرجال وماتوا فى نبل · ولم يكن فى وسعهم

احتمال الفكرة بأنه يمكن أن تستلب منهم ، وكل واحد منا على قيد الحياة يجب أن يكدح فى اغتباط لأجلها » (١) .

٦ - ان امبراطورية أتينا وحكم الديموقراطية الذى خلقها ورباها كان كلاهما قصير الأمد . ويقع التاريخ الأثينى فى القرن الخامس فى ثلاث حقب تتميز الأولى بنهوض قوتها فى الحرب الفارسية والثانية ببلوغ ذراها فى زمن بركليس والثالثة بدهورها وسقوطها . والحياة العامة الاغريقية هى فى كل مكان سجل من التغيير متنوع المناظر . ولقد أظلت سحائب أيام قيادة بركليس السعيدة ، حتى قبل موت السياسى العظيم (٤٢٧) وكان منافسو أثينا يتحينون الفرصة لجمع الشمل ومهاجمة سيادتها . وأتى الواعز من دول البرزخ وخاصة من كورنث التى كانت مصالحها التجارية فى اليونان الغربية يتهددها مطمع أثينا المتزايد . وبينما كان الكورنثيون يدفعون الى النشاط قوات اسبرطة القوية ، ولو أنها متكاسلة ، كانت المدن الخاضعة فى الامبراطورية الأثينية ترقب فى تلهف الفرصة المواتية للثورة . وفى عام ٤٣١ قام الصراع الذى يعرف فى التاريخ باسم الحرب البلوبونيسية (٢). وفى الواقع تورطت كل اليونان فى الصراع وقد ناهضت قوة أثينا البحرية من جانب ، تحالفا ينتظم أعداءها تحت القيادة الاسبرطية . واستمر مع فترات انقطاع حتى عام ٤٠٤ عندما أعقب تدمير الأسطول البحرى الأثينى سقوط المدينة الامبراطورية . وقد سرد ثقوديدس قصة الحرب وقام بنفسه بدور فى مشاهدها الأولى فى توليف سيبقى أبد الدهر خلقا رائعا للتاريخ الذى يتبع فيه التأمل . وعنده ، كان الصراع فاجعة تتركز حول خطيئة الديموقراطية الأثينية التى كانت تأخذ فى النمو ، وتنتهى hubris بالقصاص nemesis الذى نجم عندما تخطوا ، فى محاولة غزو صقلية، المعلم . وكما فعل سالفه هيرودوتس فى تقفى أثر يد عناية الهية غيورة ، فى القصاص الذى لحق الامبراطورية الفارسية عندما ألقت بجحافلها فى صلف القوة ، ضد اليونان ، رأى ثقوديدس فى روح فلسفة أكثر نضجا فى الجائحة التى أصابت المدينة وطنه فى اللحظة التى ظهر فيها أن تعطشها لامبراطورية عالمية قد أدرك مرماه ، عملية لا ليان فيها للقوانين التى تقرر مصير الأمم . والديالوج الذى يقص فيه انذار أثينا النهائى الى سكان جزيرة ميلوس بتوكيده الذى لا هوادة فيه ، أن الضرورة لا تعرف أى قانون وأن حاجة السياسة الملحة لا تعبأ بكل مطالب الفروض الخلقية وأن طغيان القوى على الضعيف هو الحق الطبيعى للآلهة والناس ، يجىء بعده دون فاصل ، قصة ابحار الأرمادا ضد سيراكوز وما أصابته من ضروب النجاح الأولية

---

(١) ثقو ، ٢ : ٣٧ - ٤١ (ترجمة جوت Jowett) .

(٢) كان يتوقع حدوثها من حرب سابقة (٤٦٠ - ٤٤٥) .

وما أعقب ذلك، من نكبات ثم ذهابها أبابيد (١) . ولم تقم لأثينا قط قائمة بعد هذه الضربة . ولما رأى السبياديس صديق سقراط وأعظم شخصية سياسية التماعا وتعددا في نواحي قدرته ، أن النائبة أوقعت عليه العار ، انضم الى أعدائها ونصح بالتحالف مع فارس التى أمدتهم بموارد غير محدودة لخلق قوة بحرية . وما كانت اثينا لتقهر الا بالبحر . وقد استمر شعبها فى القتال فى ثبات وشجاعة عجيبين ضد كثرة هائلة ولكن دم حياتهم كان قد نضب معينه وكان لا مندوحة من الخراب فى النهاية (٢) . وعندما وافت النهاية ، كانت حامية من الاسبرطيين المقوتين تعسكر فى الأكروبول ، ووقعت المدن الخاضعة التى كانت قد ثارت ضد أثينا والأمل يحدوها فى استعادة استقلالها فى قبضة الظافر ، ولا حول لها . ولو أن أثينا استطاعت آن تزيح نير اسبارطة ، ولو أن الديموقراطية استعيدت وفاضت التجارة مرة أخرى فى فرايوس ، الا أن امبراطوريتها أصبحت فى خبر كان . ووجدت عبقرية المدينة ، بعد فترة وجيزة من الروعة السياسية والعسكرية ، موطنها الحقيقى الدائم فى ميادين الأدب والفكر .

٢ - الفن والأدب فى أثينا فى القرن الخامس

٧ - نوهنا فيما سبق بأن جميع ألوان النشاط الخالق التى عبرت عنها العبقرية الاغريقية تجمعت فى أثينا فى أزمن القرن الخامس العظام . ويصدق هذا ، فى المكان الأول ، على فنون العمارة والتصوير والنحت التى تربطها قرابة . ولقد كان الوازع للثلاثة وازعا دينيا ، اقامة وزخرفة المعابد لعبادة الآلهة . وكان الطرازان ، الدورى والايونى فى فن عمارة المعبد ، الواحد ضخم وقاس والآخر أكثر أناقة وزخرفة ، قد تطورا فى الحقبة السابقة ، من أشكال بدائية للبناء بالخشب (٣) . وكان النحت أيضا منشؤه حفر الخشب وقد حل محل دمى المعبد الخشبية فى عصر التوسع التجارى وتحت

(١) راجع ثقو. ، ٥ ، ٨٩ وما بعدها عن الديالوج الميلى . وتورد هذه الآراء فى الحاح للذاكرة دفاع الألمان عن انتهاكهم حياد بلجيكا فى عام ١٩١٤ ، ان ثقوديدس يكتب كمتفرج فى عيادة للمرض السياسى .

(٢) كان الحزب الأرستقراطى والمشايع لاسبارطة يعمل داخل المدينة لصالح العدو . وكان يرجع نشاطهم الى عام ٤١٥ (ثورة الأربعمائة) وكانت صيحة - الحرب ، السياسية « العود الى عام ٤٦٠ » أى قبل بركليس .

(٣) من المعابد الأثينية فى عصر بركليس كان ثسيوم Theseum وبارثنون Parthenon (راجع § ٨) أهم مثالين للطراز الدورى والارخثيوم Erechtheum ومعبد « النصر دون جناح » (Nike Apteros) للطراز الايونى .

رعاية الطغاة الأثرياء التماثيل من الحجر · وفى القرن السادس ، تقدمت مدارس أرجوس وسسيون Sicyon وأيجينا Aegina وأثينا تقدما سريعا فى مهارة الصنعة وفى معرفة التركيب التشريحى وحرية المعالجة وتحرر فن النحت من ارتباطه القاصر على الموضوعات الدينية · وتوضح تماثيل اللاعبين الرياضيين الاهتمام المتزايد بطرز جمال الرجولة · ولقد وصلت هذه التطورات الباكرة الى قمتها فى المدرسة الأثينية فى عصر بركليس تحت زعامة فيدياس · وقد قدم الى أثينا أيضا بوليجنوتس Polygnotus مواطن ثاسوس Thasos ، أعظم مصور فى ذلك الزمن والذى اشتهر بانشاءاته العظيمة الهائلة مثل نهب طروادة وأدوسيس فى الجحيم وقد امتدحه ارسطاليس لحذاقته فى تصوير خليقة الانسان (١) · ولقد دمر الغزاة الفرس أبنية أثينا وفى الجيلين التاليين وطن ساستها العزيمة على جعل المدينة الجديدة خليقة بمكانتها فى الامبراطورية · وجهد بركليس على الأخص ، فى تدريب المواطنين على حب ما هو جميل عن طريق أبنيته وما يزخرفها من أفانين النحت · وفى عصر كانت فيه الكتب نسبيا ، لا سبيل الى الوصول اليها ، فمن المستحيل المغالاة فى تقدير قيمة الأبنية الرائعة ، فى التعليم · وكان الاكروبول فى أثينا ببوابة المدخل ومعابده وتماثيله ، يؤدى للاثينيين فى ذلك الزمان ، نفس الخدمة التى كانت تؤديها الكاتدرائيات التى تزخر بالنحت ، لمدن أوربا فى العصور الوسطى · وفى عبارة جاءت فى «الجمهورية» يختتم أفلاطون حجته بأن حكام المدينة المثالية ، من الشباب ، يجب أن تحط بهم بيئة من الرشاقة والجمال بهذه الكلمات :

هل يجب أن نقتصر على الاشراف على الشعراء وقسرهم على أن يضفوا على انتاجهم طابع الخصال الخلقية الطيبة وجزاء مخالفة ذلك عدم قرض الشعر بيننا ، أو هل يجب أن نبسط اشرافنا على أساتذة كل حرفة أخرى على السواء ونمنعهم من أن يطبعوها بتلك العلامات سيئة النوع من الانحلال والخسة وعدم الأناقة سواء فى صور الكائنات الحية أو فى الأبنية أو أى عمل آخر من صنع أيديهم · ونمنع منعا كليا أولئك الذين لا يستطيعون القيام بغير هذا ، من العمل فى مدينتنا حتى لا تكون تربية أوصيائنا بين صور الرذيلة كما فى مراع غير صحية يقتطفون الكثير كل يوم ، قليلا قليلا ، من أمكنة عديدة ويطعمون منه حتى يجمعوا ، دون أن يشعروا ، كتلة عظيمة من السوء فى قرار أرواحهم ؟ ألا يجب علينا ، على النقيض ، أن نلتمس فنانينا من طابع آخر ، أولئك الذين بقوة العبقرية يمكنهم أن يقصوا طبيعة ما هو جميل ورشيق حتى ان شبابنا ، الذين يقطنون كما هى الحال بصقع صحى يتاح لهم أن ينهلوا الطيب من كل مكان ويقع أى فيض من الأعمال

(١) ارسطاليس ، الشعراء فصل ٢ وفصل ٦ والسياسة ٨ ، ٥

النبيلة على أعينهم أو آذانهم ، كعاصفة تجلب العافية من المراتع الصحية ودون أن يحسوا ، يظفر بهم منذ نعومة أظفارهم ليكونوا على تشابه وحب وانسجام مع جمال العقل ، الصادق ؟ (١) . ولا يستطيع أى فرد أمضى حداثته تحت ظلال ثمة كتدرائية رائعة أو داخل حيطان كلية من كلياتنا العتيقة أن ينازع هذا الحكم على ما للفنون من تأثير خفى غير مدرك على خليقة وعقل الانسان .

٨ — وأهم الأبنية التى أقامها بركليس على الأكروبول كان معبد أثينا العذراء ، البارثنون . ولم يعرف ضريب فى أى عصر لأعمال النحت التى كانت تزين المعبد ، من صنع فيدياس وزملائه من مهرة الصناع . وفى بواكير القرن التاسع عشر جلب لورد الجن معظم ما تبقى منها الى انجلترة وهى الآن فى المتحف البريطانى . لقد صور على الطنف مثلثة الشكل مولد الالهة أثينا من رأس زيوس والصراع بين أثينا واله البحر بسيدون على امتلاك تربة اتيكا . وعلى ألواح الأفاريز التى كانت تزخرف الشريط الخارجى من الحجر المحيط بالمعبد فوق صف العمد الدورية ، نحتت مشاهد الكفاح فى أسطورة البطولة ، فى المباراة بين سنتورس Centaurs ولابثس Lapiths . وعلى النقيض من المناظر المصورة على المعبد من الخارج ، كان الافريز الذى يربط الحائط الخارجى للناوس cella يحمل رسوما بالنفش البارز الوطىء عن الحياة التى تتصل بالمدينة ، لأثينا المعاصرة ، الركب الدينى فى عيد الجامعة الأثينية ورجالا فى المركبات وعلى متون الخيل والأغنام والماشية تقاد للتضحية وحكام المدينة والموسيقيين والفتيات اللواتى يحملن الرداء المنسوج المقدس ، قربانا لأثينا وهى تجلس بين الهة الأولمب . والشكل الأوسط فى المجموعة ، تمثال أثينا الهائل الذى صنعه فيدياس من الذهب والعاج ، أتى عليه البلى . ولكن الأشكال المصنوعة من المرمر فى متحفنا الوطنى ، تكشف للرجل الانجليزى المعاصر أكثر من أية آثار تذكارية أخرى من العصور القديمة عن صفات النشاط والاسترواح والمثل الأعلى الرفيع والجمال الرزين ، التى تميز بها الفن فى عصر بركليس (٢) .

٩ — وفى مجال الأدب ، فلأثينا القرن الخامس الذكر الباقى لخلق شكلين من التعبير ، جديدين ، الفاجعة (الدراما) فى الشعر والتاريخ فى النثر .

---

(١) أفلاطون « الجمهورية » ٣ ، ٤٠١ (ترجمة ديفس Davies وفوغن Vaughan) لاحظ تعرف أفلاطون أهمية ما دون الشعور .

(٢) يجب ألا يغرب عن البال أن خارج المعبد وكذلك الأشكال المنحوتة كانا ملونين .

ان الحافز على تمثيل الشخصيات تمثيلا فاجعيا يشترك فيه كل بنى الانسان فى الواقع لأنه كما ألمع أرسططاليس فى « نقد الشعر » تتأصل عادة المحاكاة والبهجة فى انتاجها فى طبيعة البشر [١] . ولكن توجد هوة واسعة بين ارتجالات الاغريق الأوائل والسلالات الأخرى ، التى تظهر فيها الغلطة وأمثال تلك النماذج العليا التامة من الفن الدرامى كالمأساة والمسلاة فى أثينا فى عهد بركليس . واحصاء وتفسير هذا الكنز الزاخر من الأدب الفاجعى يقعان خارج نطاق هذا السفر ويكفى أن نشير الى عدة خصائص مميزة تكون المعرفة بها مطلبا لدراسة الروايات عينها دراسة فطنة [٢] . والقارىء فى زمننا عندما يراوده التفكير فى الفاجعة ، فانه يفكر فى شكسبير ، بما لا معدى عنه ، ولكن الرواية الاغريقية كانت تختلف اختلافا بينا فى الجو وفى التركيب جميعا عن الطراز الشكسبيرى ويرجع بعض الاختلاف ، الى الأحوال التاريخية التى ظهرت فيها الفاجعة الأتيكية الى حيز الوجود [٣] . فعلى سبيل المثال ، كان يؤلف المأساة والمسلاة شعراء مختلفون وكانتا تمثلان فى أعياد مختلفة ، الواحدة تعالج الموضوعات المثالية والأخرى تصور طبيعة الانسان فى مستوى أوطى من المستوى العادى وكانت تثير الضحك بالسخرية من نقائص

---

(١) أرسططاليس « نقد الشعر » فصل ٤ ، توضح هذه العجالة كيف أن الاغريق ، فى الشعر كما فى غيره من الميادين ، لم ينتجوا التواليف وحسب ولكنهم كانوا يصلون بالتفكير الى نظرية انتاجها والقسم الموجود بين أيدينا من « نقد الشعر » يعالج فى معظمه المأساة ، وقد فقد الكتاب الثانى الذى يعالج المسلاة . ويشير أرسططاليس (١٤٤٩ أ ١٠) الى أن المأساة والمسلاة كليهما ، ترجعان الى الارتجال .

(٢) عن الآراء فى الترجمات الانجليزية ، راجع فهرس المراجع .

(٣) ان الفارق بين الفاجعة الشكسبيرية والهلينية كان مرجعه أصلا الى الاحساس بالنظام والقاعدة وهو من خصائص العقل الاغريقى . وقد وضع الفرنسيون ، بعد ذلك ، التقليد فى صوغ قانونى فى مبدأ توحدات الفاجعة (توحد المكان والزمان والعمل ، الثلاثة قوانين للدراما الاتباعية(الكلاسيكية) ـ المترجم) وهو ما لم يضعه الاغريق مطلقا ولم يكن له الا اليسير من الأثر فى هذه البلاد حيث قام شكسبير بعمله ، دونه . « وكان للتوحدات أثر فى فرنسا لأن الفاجعة الفرنسية كانت قد برهنت على أنها ليست حد فعالة دونها . ولقد وضع شكسبير ، دون أن يسير عليها ، نماذج مسرحية عجيبة من ابتكاره وبلغ بعضها الكمال فى الصوغ والتماثل » . (و. ب. كر W. P. Ker عن « المثل الأعلى لعالم الآداب القديمة ـ مواضيع ودراسات لأعضاء الجمعية الانجليزية » المجلد السادس) .

البشر [١] . وكانا يختلفان فى ظروف أصلهما. فقد قامت المأساة (تراجيديا = tragos = عنزة) من الترانيم التى كان يغنيها جوق يرتدى جلود المعز ، بين الدوريين فى بلوبونيسيا الشمالية بينما درجت المسلاة فى صقلية وكانت نشأتها فى المجون الذى لا ضابط له ، لقيمى الولائم الصاخبة (Komos = عصبة من الماجنين) الذين كانوا ينعشون مواكبهم فى فصول الحصاد وجنى الكرم بقذف شخصيات من رفاقهم من أجلاف المهرجين بين الحشد الذى يحلق حولهم . ومما يسترعى الانتباه الخاص ثلاث خصائص أخرى تبرز من خلال تاريخ الفاجعة الاتيكية . (١) فى « الحوادث » الفاجعية أو الفصول وفى القصائد الغنائية المذهبية التى كانت تغنى فى الفترات التى تقع خلال التمثيل ، نجد الاتجاهين الأساسيين فى الشعر الهلينى الباكر ، وهما يتألفان فى وحدة أعظم ، الملحمة والقصيدة الغنائية . انه وجود هذا العنصر الأخير بما يصحبه من موسيقى ورقص حتى ان الفنون الثلاثة تكون

---

(١) انظر أرسطاليس « نقد الشعر » فصل ٢ ، ٢ وفصل ٥ ، ٥ ويجب أن يلاحظ أن أرسطاليس يتجاهل الفاجعة التى تكون واقعية تماما. وفى ختام « ندوه الفلاسفه » لافلاطون (٢٢٣) يصور سقراط وهو يقيم الدليل على أن شاعر المأساة يجب أن يكون أيضا شاعر المسلاة . وفى مقدمة Samson Agonistes يتحدث ملتون عن « خطأ الشاعر فى مزج مواد المسلاة بحزن واكتئاب المأساة » . ومن الجهه الأخرى ، يقول شلى فى « الدفاع عن الشعر » الذى صنفه ، ان « ما جرت عليه العادة الحديثة من خلط المسلاة بالمأساه ولو أنه عرضة لأن يساء استخدامه اساءة عظيمة من حيث مراميه ، هو دون ريب توسيع للمجال الفاجعى » واضرب مثلا بالملك لير King Lear وتعريف أرسطاليس ، الشهير ، للمأساة ، فى « نقد الشعر » فصل ٦ — ١٤٤٩ ب ، ٢٤ وما يتلوها هو ما يأتى : « المأساة هى محاكاة عمل يتسم بالجد وكذلك بما له من عظم ، يكون كاملا فى ذاته : وفى لغة لها أدوات ميسورة التناول ، فان كل صنف يوضع على حدة فى أجزاء التوليف ، فى صيغة فاجعية وليست قصصية بوقائع تثير الاشفاق والرهبة وبذلك يحقق التطهير catharsis لأمثال هذه العواطف » (ترجمة بايوتر Bywater) وتشير الشطرة الثانية الى مزج الأغنية المذهبية بالموسيقى والرقص وكلمة « جد » والاشارة الى الاشفاق ، والرهبة ، هو ما يفرق بين المأساة والمسلاة ولفظ Catharsis ، تعبير طبى معناه « التطهير » . ويناقش بايوتر تفسيرات التعبير المختلفة فى تذكرات النص فى طبعته «نقد الشعر». ان العواطف تطرد كأنها بمطهر عن طريق نفس اثارتها فى الفاجعة — وعلى حد قول ملتون فان المتفرج « يصرف ، يغمره السلام والعزاء وسكينة العقل وقد زال كل انفعال » (ختام سطور Samson Agonistes) .

انتاجا واحدا من الجمال الفنى تكون فيه كلمات الأغنية العامل الحاسم ، هو الذى يظهر لنا عند أول تعرفه أنه غير مألوف [١] . وكانت الترنيمة المذهبية فى ذلك الحين أو dithyramb — النواة الأصلية للفاجعة . وقد فصل على التدرج عنصر القصص وتحول أولا ، الى شكل فواصل ينطق بها قائد الجوق بين أجزاء الترنيمة ثم الى اشراك مجيب hypocrites أو ممثل يتحدث من مسرح (وهنا نجد بداية الديالوج والتمثيل) ثم الى اضافة ممثل ثان وأخيرا ممثل ثالث . وبهذا تدرج العامل الفاجعى صعودا على حساب عامل الشعر الغنائى الى أن أصبح دور الجوق ، وهو الغالب فى الأصل ، يخضع خضوعا تاما للديالوج والتمثيل [٢] . وفى هذا ، وفى اختيار المدار بما يغلب أن يكون عاما ، من قصص البطولة ، نرى تأثير شعر الملحمة . لقد بين أرسطاليس الذى كان شغوفا بتقصى أثر السوابق لما جاء بعد ذلك من أشكال أن « كل أجزاء الملحمة تضمها المأساة ولكن أجزاء المأساة لا توجد كلها فى الملحمة » [٣] . وبهذا نمازجت الطرز الأولى من شعر الملحمة والشعر الغنائى ، وكذلك الموسيقى والرقص وانضوت تحت شكل التمثيل الفاجعى فى هذا الخلق المتفوق ، للعبقرية الشعرية الاغريقية [٤] .

(١) راجع أفلاطون « الجمهورية » ٣ ، ٣٩٨ لقد سار من الموسيقى وفن الرقص فى تطورهما ، فى اليونان ، تربطهما آصرة وثيقة بالشعر الغنائى الذى كان الغرض منه دائما أن يغنى بمصاحبة الموسيقى والرقص .

(٢) تبين « الفتيات المتوسلات » لأسخولس وربما كانت أقدم فاجعة اغريقية باقية الى الآن ، أن « الجوق » ما يزال له السيادة ، والتجديد الحاسم كان اشراك الممثل الثانى ، وهو يرتبط باسخولس الذى استخدم ثالثا بعد ذلك . ولم يكن يوجد اطلاقا أكثر من ثلاثة ممثلين لهم أدوار يدور فيها حديث ، يشركون خلال فاجعة اغريقية ولو أنه قد يظهر ممثل واحد فى أجزاء مختلفة من مشاهد مختلفة . وأقوال الرسل التى تجىء كثيرا فى روايات المأساة الاغريقية تعيد الى الذاكرة الفواصل القصصية ، التى كانت فى عهد أسبق .

(٣) « نقد الشعر » فصول ٥ و٢٦ وازن الفصول ٤ و٢٣ و٢٤ .

(٤) ان التمثيلية كلها كانت شعرا واستخدمت أوزان الشعر الغنائى فى الأغانى المذهبية والوزن iambic القدم الذى تكون فيه النبر على المقطع الثانى (♩♪ = — ◡ هو القدم iambic) الذى لا تصحبه موسيقى ، ويتكون من ستة أقدام («أعظم الأوزان قابلية للنطق» كما يقول أرسطاليس) فى الديالوج والأحاديث . ويوضح كولريدج Coleridge وزن iambic بالعبارة « الأوزان iambic تسير من القصير الى الطويل » ويقول السيد =

(٢) وكانت الأحوال الخارجية التى أنتجت فيهـا الروايات لهـا تأثير عـلى خصائصها • لأنها ، لسبب ، كانت تمثل فى الهواء الطلق فى مسرح نحت فى منحدر الأكروبول على مقربة من معبد ديونوسيوس وكان يشهدها حشد عظيم من المتفرجين ربما يبلغ عددهم زهاء ثلاثين ألفا يجلسون فى منحنيات متحدة المركز ، ترتفع فوق الفرقة الموسيقية والمسرح اللذين كان موضعهما فى القاعدة[١] • وقد جعل هذا من الضرورى استخدام الوسائل الاصطناعية لمساعدة النظر والسمع ، والأحذية ذات النعال العاليـة لرفع قامـة الممثل والتحشية والأقنعة التى ترمز للدور الذى يمثل ، وقد ركبت فيها أنابيب للتحدث ، لمعاونة الصوت حتى يصل الى أقصى مداه • ولقد عظمت هـذه الأدوات ، بالضرورة ، الصفة التقليدية للفاجعة الاغريقية التى كانت تمثل الأنواع فى أشخاص الأفراد • ومع هذا فقد نجح واضعو الفاجعة والممثلون الاغريق باتقانهم الصنعة ، فى التغلب الى حـد كبير ، على هـذه الحوائل • ويمكننا أن نتتبع نمو وضع خصائص الفرد ونحن نسير من أسـخولس الى سفوكلس ومن سفوكلس الى يوربيدس • ولكن حتى فى آخر تطور لها ، كانت الفاجعة الاغريقية أبسط ، الى حد بعيد ، فى مدارها وتكوينها ، من الفاجعة فى أوربا الحديثة [٢] • (٣) وكان شعراء الفاجعة ، كالرياضيين فى الألعاب ، يصاول الواحد الآخر ، للظفر بجائزة • وعندما نذكر أن كل متسابق كان يقدم أربع روايات تمثيلية فى احتفال واحد وأن المباريات كانت كثيرة وتقع مرارا عديدة ، فيمكننا أن نقـدر وفرة الخلق الفاجعى فى أثينـا القرن الخامس • وليست الروايات التمثيلية الباقية لدينا وهى سبع فاجعات لأسخولس وسبع لسفوكلس وثمـانى عشرة ليوريبيدس ، واحـدى عشرة مسلاة لأرستوفانس ، الا جزءا يسيرا من مجموع المؤلفات الدرامية التى أنتجها هؤلاء وشعراء غيرهم من ذلك العصر ، كثيرون • وكان لغشيان هذه الاحتفالات المستمر والدربة التى اكتسبت فيها على الحكم بالجـوائز ما أتى ، فى زمن كانت فيه الكتب نادرة ، بتأثير تعليمى له قيمة خارقة العادة ، على الجمهور

= فرنون رندال Mr. Vernon Rendall « ان المقادير الانجليزية قلما تكون واضحة ، ولكن قد تكون أكثر وضوحا فى الكلمات الأجنبية التى أدخلت الى اللغة الانجليزية مثل a rose, acanthus, asphodel, Chrysanthemum (iambic ـ مكونة من I àm ـ النبر فيها على المقطع الثانى – المترجم)

(١) وعلى هذا كانت التمثيليات منظوزة و « بفضل الوسائل التى أشير اليها فى النص) كانت مسموعة لحشد عظيم كالذى يجتمع فى زمننا لمشاهدة مناظرة تجريبية أو مباراة دولية فى كرة القدم •

(٢) على سبيل المثال ، كان يوجد مجال أقل الى مدى بعيد ، من الفاجعة الحديثة ، للمدار الفرعى •

الأثينى . ونعلم من توكيد أفلاطون لأهمية مقاييس الانشاء الفاجعى ، الحقة ، من الوجهة الخلقية على تدريب الاحداث ماكان لتعليم الشعراء من أثر عميق على عقول المستمعين [١] . وكما فى السياسة ، كذلك فى الأدب ، لابد أن المواطن الأثينى كان فى جميع الأحوال ، حكما صادقا ، لما له قيمة جمالية ، ان لم يكن المبتكر له .

١٠ - ويشير الشاعر شلى فى عجالة ، سبق لنا أن اقتبسنا منها ، الى الفاجعة الأثينية قائلا انه « مما لا نزاع فيه أن الفن نفسه لم يفهم قط أو ينتهج وفق فلسفته الحقيقية ، كما فى أثينا » . وبعد أن وكد الحصلة العقلية للفن الهلينى ، كما سميناها آنفا ، يضيف : «لان الأثينيين استخدموا اللغة والتمثيل والموسيقى والتصوير والرقص والمنظمات الدينية لكى ينتجوا تأثيرا عاما فى تمثيل المثل الاعلى فى ذروته ، للعاطفة والقوة ، وكل قسم فى الفن وصل به فنانون وانتهم مهارة فى أبعد حدها ، الى مرتبة الكمال فى نوعه وقوم فى تناسب جميل ووحدة ، الواحد تجاه الآخر . وعلى المسرح الحديث ، لا يستخدم الا القليل فقط من العناصر القادرة على التعبير عن شكل تصور الشاعر ، فى آن واحد . ان لدينا المأساة دون موسيقى ورقص وموسيقى ورقص دون أعلى تمثيل للشخصيات وهو ما يليق أن تصاحباه ، وكلاهما دون دين ووقار . لقد أصبح من المعتاد ابعاد التعليم الدينى عن المسرح ، فى الواقع » [٢] . انه هذا الترابط الوثيق بالعرف الدينى ، هو الذى تتألف منه أعظم خصائص الفاجعة الأتيكية ظهورا . وكان يحتفل بأعياد « الفاجعة » تكريما لاله الطبيعة ديونوسيوس وقد عقدت رياستها لكاهن ديونوسيوس على مقربة من معبده بمصاحبة المراسم الدينية [٣] . وفى وسط الأركسترا orchêstra أو حلبة الرقص ، كان يقوم محراب الاله . ولقد كان شهودها واجبا من واجبات المدنى مفروضا على كل مواطن صالح . وكجزء لا يتجزأ من عبادة دولة - المدينة ، فان الأعياد كان يعهد بها ، بصفة مباشرة ، الى الحكام المدنيين . وتقدم الروايات التمثيلية نفسها الأمثلة العديدة عن الشعور بحب الوطن الذى يجيش فى

(١) أفلاطون ، الجمهورية : ٢ و ٣ .

(٢) شلى « دفاع عن الشعر » .

(٣) لكن معلوما أن المأساة والمسلاة كلتيهما تنتميان فى الأصل الى ديونوسيوس أى الى دين التأله المتميز عن الدين الأولمبى . وفى القرن الخامس ، فان أبولو وهو الاله الأولمبى المثالى ، وليس فى خدمته تأله ولكن معرفة بالذات خالصة - يأتى فى الفاجعة بما يليق له ويتركز دين سفوكلس حول أبولو . انظر ولاموتز - مولندورف Wilamowitz-Moellendorff محاضرة عن أبولو (اكسفورد - مطبعة كلارندن ١٩٠٨) .

نفس الشاعر . وكان مدار الرواية - على الأقل فى المأساة - يستمد فى المعتاد ، من قصص الآلهة والأبطال التقليدية ويمكن أن يستدل على مدى وتنوع هذه المادة من الحقيقة الواقعة وهى أن أكثر من مائتين من مختلف الموضوعات، على ماهو معروف ، عالجها واضعو الفاجعة فى القرن الخامس . وعلى هذا ، كانت الفاجعة الاغريقية تدور حول مواقف متتالية وحوادث كانت - على الرغم من الحرية التى كان يسمح بها للشاعر فى معالجة الشخوص والوقائع المفصلة - مألوفة تماما للمستمعين الذين كانوا يعتقدون أنها وقعت فعلا فى أزمنة البطولة ، المواضى . ومن هذا كله ، قام فى عقل الجمهور الأثينى ترابط وثيق بين شعر الفاجعة وتعاليم الحقائق الخلقية والصلاح . ويقوم الدليل على أن الأمر كان كذلك حتى فى المسلاة من دعوى أرسطوفانس بأن شاعر الفاجعة كان المعلم الخلقى للمواطن البالغ (١) . ولكن كان الثلاثة العظام من واضعى المأساة ، أسخولس (٥٢٥ - ٤٥٦) وسفوكلس (٤٩٦ - ٤٠٦) ويوريبيدس (٤٨٠ - ٤٠٦) هم الذين أودعوا فى تقاليد الاغريق الدينية معنى روحيا جديدا . وسعى أسخولس فى لغة أوحت مرارا بأنها تتماثل مع نصوص جاءت فى النبوة العبرية لكى « يبرر طرق الله للناس » وأن يفسر سيادة زيوس القديرة حتى يمكن أن يجعل البر الالهى على توائق مع حقائق الألم والخطيئة ، وأن يلائم بين قوانين الجبرية والقدرية التى لا ليان فيها وحرية الارادة البشرية (٢) . وفى سفوكلس تمثل المراسيم الالهية بأنها تعمل عن طريق خليقة الانسان ، الوسيط الخفى ، والحيد دون تعقل والعمل الأحمق الذى يكون وليد العماية والجهل ، يستنزلان القضاء غير المتوقع على طبيعة هى ، دون هذا ، نبيلة (٣) . وكان الشاعر على دين أبولو ، اله

---

(١) أرسطوفانس « الضفادع » ٢ ، ١٠٠٩ و ١٠٥٥ وازن ٦٨٦ : «انه جد خليق بالجوق المقدس أن يقدم النصح ويعلم المدينة ما هو صالح » وفى ١٥٠٠ وما بعدها ، حيث يدعو Pluto أسخولس بأن ينقذ دولة - المدينة الأثينية بالنصائح الحسنة . وفى الجوق السابق (١٤٨٢ وما بعدها) يبين فى وضوح النقيض بين حكمته ومهاترة سقراط التى لا طائل تحتها ويدور كل المشهد الختامى (١٤١٨ وما بعدها) حول وظيفة شاعر المأساة فى المحافظة على الدولة .

(٢) راجع على الأخص برومثيوس المقيد Prometheus Bound وربما كان يظهر الملحق ، برومثيوس الطليق Prometheus Freed زيوس وقد روضه الألم على الشعور الانسانى .

(٣) هكذا كان مصير أوديب Oedipus فى « أوديب ملك » راجع أرسطو « نقد الشعر » فصل ١٣ ومأساتان (تراجيديتان) شبيهتان نجمتا عن الخطأ فى الحكم والنوازع العمياء تكونان موضوع عطيل Othello والملك =

الطهارة والنور ، بكلمة النداء التى تضمنها « اعرف نفسك » ومثله الأعلى لقواعد السلوك السفرسونية Sôphrosyné وهى تتعارض مع توكيد الذات وكبرياء الحياة (هبرس Hubris) ٠وفى جد خلقى معادل ، ولو أنه يعبر عن مذهب الشكاك الدينى الذى يتناقض مع التقى المحافظ فى سالفيه ، مزق يوريبيدس ، قناع التبجيل الذى كان يخفى أفعال وخصال الآلهة عن التحليل النقدى ، وفى واقعية لا هوادة فيها ، أظهرها للعيان كما كانت فى الواقع ٠ ويخال أنه يقول : انكم تطلبون الحقيقة وها أنا ذا أعطيها لكم ، إذا كانت هذه الأمور ، كما تعتقدون ، حدثت فعلا فان الآلهة الذين ارتكبوها لم يكونوا صالحين ولكنهم كانوا أشرارا ، وليسوا آلهة مثاليين ولكن قساة ينزعون الى الانتقام وفيهم شر عواطف النوع الانسانى ٠ لقد كانت صورة مزعجة ، تلك التى رسمها ، تعبر عن المزاج الذى تغير فى عصر عقلى المذهب وكان يوريبيدس كذلك جادا الى غور عميق فى هذا التحليل الذى لا رحمة فيه للعقيدة الصادقة ، وفى عزمته التى لا يعتريها وهن ، لأن يرى الحق ، وأن يواجه حقائق الحياة ٠ وفوق كل شىء فى اشفاقه على الضعيف والمنكوب ، على النساء والأطفال والأسرى والعبيد وعلى جميع الضحايا الذين لا عد لهم ، لجور الانسان والقانون الطبيعى (١) ٠ وكان قد وافى الزمن عندما كانت القوى خارقة الطبيعة لعقيدة أسبق، تخلىالسبيل لقوىالطبيعة ، أمام العقول المفكرة ٠ ولكن بمجرد أن أصبح هذا جليا ، فان مهنة الشاعر ، كمعلم للمعرفة صار مقضيا عليها وتطلع الناس الى العلم ، وليس الى الشعر ، للهداية فى البحث عن الحق ٠

= لير King Lear وعن دهاء الخليقة ، راجع فلوكتيتس Philoctetes ويبين مصير دينرا فى طراخنيا Trachiniae ، جيدا كيف أن الأمل والخوف يتحدان فيعميان حكم امرأة ضعيفة ويستغويانها الى موارد الهلك — راجع عاليه فصل ٦ ، ١٢ ٠

(١) توضح هبوليتس Hippolytus هذه النقاط ٠ ومن الناحية الأخرى ، تبين أنه كان فى قدرة يوريبيدس أن يندمج فى روح ديانة ديونوسيوس ٠ وكلما كان القرن يتقدم فى مداه ، كانت تؤخذ قصص الآلهة فى حد أقل، وبينما كان الجمهور الأثينى المثقف يسير وفق عبادات دولة المدينة فانه كان متشككا فى صراحة ٠ ويمكننا أن نتتبع فى صور الأوانى ، فى ذلك الزمن تحول الاهتمام من الموضوعات الدينية الى مسائل الصنعة فى تجميع الأشكال وانجازها ٠ وهكذا كانت الحال فى فن عصر النهضة فان الدافع التعبدى يخلى السبيل أمام الدوافع الجمالية الخالصة ، فى معالجة صور العذراء Madonna

١١ ـ وكانت « المأساة » قد وطدت لنفسها مكانا فى أثينا قبل الحروب الفارسية . ولكن كانت تلك الأزمة وما أعقبها من توسع الحياة العامة الاثينية هما اللذان أوجدا الحافز فى سبيل تقدمها . ان كل واحد من واضعى « المأساة » ، الثلاثة العظام يمثل أحد العصور الثلاثة التى ينقسم اليها تاريخ أثينا القرن الخامس ، بطبيعة الحال . كان أسخولس قد حارب فى مراثون وفى مصنفه « الفرس » وضع فى صيغة الفاجعة الانتصار البحرى فى سلاميس . وفن سفوكلس هو التعبير الذى وصل الى مرتبة الكمال لمثالية عصر بركليس . ويعبر يوريبيدس ، كما لاحظنا ، عن القلق العقلى الذى يبسط رواقه فوق أثينا فى سنى الحرب البلوبونيزية . ولكن فى المسلاة الاتيكية نجد أعظم آصرة مباشرة بين الفاجعة والحياة المدنية الأثينية . وكان أرسطوفانس ، كمعظم شعراء المسلاة ، محافظا أضفى المثل الأعلى على الديموقراطية المعتدلة فى زمن الحروب الفارسية . ولما كان ذا منحى شخصى وفيه مجانة رابلية Rabelais لدرجة لا يمكن تصورها فى أحوال الحياة الحديثة فانه هال التهكم ، فى رواياته التمثيلية ، على الاتجاهات الجديدة فى الشعر والفلسفة والسياسة ، التى قامت فى الثلث الأخير من القرن [1] . وفى الفرسان (٤٢٤) كان هدفا لسخريته كليون Cleon السياسى الديموقراطى وفى « الدبابير » (٤٢٢) المحلفون فى محاكم القانون الشعبية وفى « العصافير » (٤١٤) أحلام الامبراطورية الجامحة التى أدت الى الكارثة الصقلية وفى « الضفادع » (٤٠٦) فن يوريبيدس الحديث ، وهو الذى يمثل فى « المأساة » الثقافة الجديدة وفى « السحب » (٤٢٥) آراء وتعليم سقراط وفى ليسستراتا Lysistrata (٤١١) و « السيدات فى البرلمان » (٣٩٢) مطالب النساء فى أن يسهموا فى الحياة العامة للمدينة ، المطالب التى نادى بها الكلبيون من أتباع سقراط وبعد ذلك أفلاطون فى « جمهوريته » [2] . ان لأغانيه العاطفية التى تتناثر فى رواياته التمثيلية جمالا خارق العادة . ومن مظاهر « الكوميديا القديمة » التى أتاحت للشاعر فرصة خاصة للتهكم الشخصى كانت « براباسس Parabasis » وهى بقية من احتفالات القربة الصاخبة ، القديمة ، وفيها كان الجوق يستدير فى وسط الرواية التمثيلية ويخاطب الحاضرين بأغنية فيها مساس بأشخاص أو بموضوعات اليوم . ولقد أوقع سقوط أثينا وانهيار سياستها الديموقراطية ، الضربة القاضية على مثل هذا النقد السياسى

---

(١) كانت لغلظة « الكوميديا القديمة » مغزى تعبدى ، ومن الضرورى أن نتذكر هنا كما فى كل مكان فى الفاجعة ، علاقتها الوثيقة بالعبادات الدينية .

(٢) راجع « الجمهورية » الفصل الخامس . العنوان الاغريقى لرواية ارسطوفانس التمثيلية هو Ecclesiazousai ومعناه الحرفى « أعضاء الجمعية الشعبية ، ecclesia من الاناث » .

الصريح • والحال مع الشعوب كالحال مع الأفراد في أنهم يستطيعون فقط الاستمتاع بالسخرية طالما كان وعيهم بالأمان باقيا لا يتزعزع • وفى ساعة القوة ، كان الأثينيون يحبذون حق كل مواطن فى الافصاح عن دخيلة عقله دون أن تقيده قوانين القذف • وقد عبر عن حرية الكلام هذه التى اختصوا بها ، أصرح تعبير فى « الكوميديا القديمة » • ومن الجهة الأخرى فانه بقيام القرن الرابع ، كفت المسلاة عن أن تكون شخصية أو تعنى بالسياسة وكانت « الكوميديا الجديدة » كوميديا أخلاق تصور طرزا من الحياة الاجتماعية فى مناهج اتبعها الرومانيان فلاوطس Plautus وطرنس Terence وفى الأزمنة الحديثة موليير Molière وواضعو الفاجعة الانجليز فى عصر الاصلاح • وقد شاهد نفس العصر تدهور المأساة • ولكن أعمال واضعى الفاجعة فى القرن الخامس تظل مع نحت فيدياس من عداد جلائل الأعمال التى بلغت الذروة التى قامت بها العبقرية الهلينية فى مجال الخلق الجمالى • وفى عبارة شاعر معاصر وهو يجيل الفكر فى تمثال زيوس الهائل الذى صنعه فيدياس من ذهب وفضة لمعبد ألومبيا وفى المأساة التى صور فيها أسخولس المارد الجبار الذى وهب الناس النار و لعنون وقد صفده بالأغلال ، « على القوقاز المغطى بالصقيع » طغيان الاله ذاته ، القلق •

قضى الاله العظيم المصنوع منذهب وعاج ، عندما سقط الندىعشية أمس أن رغام الأرض أو زبد المحيط رمز رأسه •

والأرض والمحيط سيكونان ظلالا ، عندما يحين حين بروميثيوس [(١)] •

١٢ — لقد كان موطن أدب النثر الاغريقى ايونيا حيث تطور الى صورتين ، الفلسفة والتاريخ [(٢)] • وقد سبق أن تحدثنا عن الفلاسفة الايونيين الأوائل • كان اناكسيماندر أول من عرف أنه صنف كتابا • وكان

---

(١) سونبرن Swinburne « أثينا » و « الفاجعة » المشار اليها هى بالطبع « بروميثيوس المقيد » • ولا يغيب عن القارىء تأثير نماذج وقوانين الانشاء التى قدمها واضعو الفاجعة الاغريقية وأرسطاليس فى « نقد الشعر » على الأدب الفاجعى الأوربى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وهو تأثير كانت نتيجته ، من وجوه عدة ، أشكالا صورية مصطنعة • وتوضح «فاجعات» كلدرن Calderon وكورنى Corneille وراسين Racine وفولتير Voltaire هذا التأثير فى مستويات من الجودة متباينات • ويمكن أن يشار فى هذه المناسبة الى Samson Agonistes لملتون و Iphigenie لجوته • ولكن « بروميثيوس الطليق » Prometheus Unbound لشلى تمثل روح الفاجعة الاغريقية تمثيلا أبعد من هذا بكثير فى قدرته •

(٢) كذلك كان الحديث المنظوم فى الفاجعة وكان الوزن Iambic من أصل ايونى •

أدب اليونان الغربية شعرا حتى شوط بعيد فى القرن الخامس عندما أدت دراسات جورجياس الصقلى الفصاحية الى تطورات هامة فى كتابة النثر ولو أن فارمنيدس وأنبادقليس كانا قد أوضحا فلسفتهما نظما · وكان أول مؤرخ نقدى ، هقطايوس Hecataeus من أهل مليطوس وكان له دور بارز فى الثورة الايونية ضد الفرس · وتبين كلمات كتابه الافتتاحية ، المحفوظة فى جذادة أنه ضرب على نغمة علمية جديدة بالموازنة بتواريخ البلدان ، الاخبارية فى جيل أسبق · « يتحدث هقطايوس المليطوسى ، انى أكتب كما أرى أنه صدق لأن تقاليد الاغريق تخال لى أنها متعددة ، ومضحكة»[١] · لقد خلق الاغريق التاريخ ، كما خلقوا الفاجعة ، اذ كانوا أول من فهم كنه حقيقتها الجوهريتين ، التفرقة التى لم يدركها قط فى وضوح مؤرخو الجوليات الشرقيون بين الواقع والخرافة والحاجة الى تفسير للحقائق المدونة يقوم على الاستدلال العقلى[٢] · والقول انهم قذفوا بشخصيتهم فى كتابتهم ودونوا انطباعاتهم وأحكامهم هو طريقة أخرى فقط لذكر الدعوى نفسها · لقد كان التاريخ العبرى لا ينسب الى اسم بعينه ، انه كان نتاج جماعة · وحتى الأنبياء يضعون التمهيد لرسالتهم ليس بالعبارة « هكذا يقول أشعياء بن عاموس » ولكن « هكذا يقول الرب » · لقد كان المؤرخ الاغريقى كالفيلسوف الاغريقى يتكلم كل منهما باسمه الخاص · « هذا هو عرض لبحث هيرودوتس الهلقرناسى Halicarnassus و « كتب ثقوديدس الأثينى عن حرب البلوبونيزيين والأثينيين » · ولقد فعلوا ذلك عن صواب لأن التاريخ والفلسفة على السواء ، يعبران عن نقد المفكر الفرد نقدا تأمليا لحقائق الحياة · ولقد وصل الينا مؤلفان تاريخيان عظيمان من القرن الخامس وكلاهما يرتبط ارتباطا وثيقا بأثينا فى عصر بركليس · ان هيرودوتس اتخذ موطنه هناك أعواما

---

(١) مرى Murray _ « الأدب الاغريقى القديم » ·

(٢) وعلى هذا فان الساميين ، على الرغم من كل احساسهم بالمغزى الدينى للحوادث التاريخية ، لم يتركوا تاريخا جديرا بهذا الاسم · والأسفار التاريخية فى العهد القديم ، على سبيل المثال ، ليست الا مجرد تاريخ اخبارى ، التعبير عن حكم جماعى وليس فرديا · وكان الاغريق أول من أقاموا الحكم على الماضى بالاستدلال العقلى · وكان مدلول كلمة historiê فى الأصل واسع النطاق _ كان معناها « البحث » وكانت تنسحب على جميع البحوث فى مسائل الواقع ، والتاريخ الطبيعى والجغرافيا وعلم الانسان (انثروبولوجى) وكذلك التاريخ السياسى · ولقد نبئنا أن مؤرخا اغريقيا من القرن الرابع (افورس Ephorus) وجه اللوم فى صراحة لادخال الأسطورة (mythos) فى التاريخ

قبل أن يلحق بمستعمرة بركليس فى ثورى Thurii فى ايطاليا الجنوبية ، وكان تقوديدس أثينى المولد وتشبع فى حداثته بتقاليد سياسة بركليس العظيمة • وكان هيرودوتس رحالة نافذ البصيرة وزار مصر وفينقيا وبابل وسواحل الأكسين وكذلك كل أرجاء العالم الهليني ونزعته المتحمسة للاستطلاع والرغبة فى فهم ما يسمعه ويراه « الأعمال العجيبة التى قام بها الاغريق والهمج وخاصة لتذكر الأسباب التى لأجلها شن هؤلاء الحرب ، الواحد على الآخر » مما يجعله على الراجح أعظم من توفرت فيه الخصائص الاغريقية من بين جميع الكتاب الاغريق [١] • وفى السياسة الهلينية تجيش فيه عواطف قوية نحو أثينا والحكومة الديموقراطية • انه مرارا وتكرارا يظاهر المساواة فى القوانين وحرية القول ضد دعاوى الطغيان [٢] • وفى منهاج العقل ، له صفات النوع لجيل كان يتأرجح على خط الحد بين التصديق والتشكك • انه يوشك على الدوام أن ينبئنا بأن تقاليد شعبه الدينية حكايات عجائز ولكنه لا يستطيع قط أن يوطن نفسه تماما على أن يقول ذلك • وهو يرى الى ماوراء كل الطبيعة وتاريخ البشر ، يد اله خفى « اله يشكل مصائرنا ، وينحتها فى أول صورة ، لما سنكون » • ولقد ظفر ، بعدالة ، باسم « أبى التاريخ » ليس لمجرد أن تاريخه هو أول تاريخ موجود يفرق بين الحق والخرافة ويسعى الى معرفة أسباب الأمور التى تحدث ولكن أيضا لأنه سعى أولا الى أن ينظم قصته لغرض واحد وهو أن يستعرض قيام فارس والقصاص الذى لحق بها لخطيئتها hubris ، باستخدام اليونان أداة لذلك [٣] • وكان موضوع

---

(١) ولد هيرودوتس فى حوالى عام ٤٨٤ فى هلقرناسس فى آسيا الصغرى الجنوبية الغربية وزار أثينا حوالى عام ٤٥٠ واستقر فى ثورى عام ٤٤٣ وكان قاريا Carian فى تبعته ، ايونيا فى ثقافته وأثينيا فى عواطفه وآخر اشارة فى كتابه (٧ فصل ٢٣٣) هى الى الحوادث التى وقعت فى العامين ٤٣١ ــ ٤٣٠ فى بداية الحرب البلوبونيزية والعبارة المقتبسة جاءت فى الجملة الافتتاحية من الكتاب الأول •

(٢) انظر الفصل ٤ § ٥ تذكرة ا عاليه ووازن بالنصوص التى أشير اليها فيه ، ٥ ، ٧٨ و٩٢ وما بعدها (عن الطغيان فى كورنث كتوضيح لمساوئه) وعن وطنية أثينا الديموقراطية ٧ ، ١٣٨ وما بعدها و٨ ، ١٤٣ وما بعدها •

(٣) عن خطيئة خشيارشاى راجع ٧ ، ٧ وما بعدها وعن غيرة العناية الربانية وعدم ثبات رخاء البشر ١ ، ٥ ، ٣٠ وما بعدها • والأسفار ١ ــ ٥ تصل بالتاريخ حتى الثورة الايونية والسفر ٦ حتى انتصار مراثون بينما تسرد الأسفار ٧ ، ٩ قصة غزو خشيارشاى • كان فى نية هيرودوتس أن يكتب تاريخ حرب التحرير (راجع ٧ ، ٢١٣) ولكنه ترك عمله دون أن

ثقوديدس أكثر تركزا ونظرته للأمور أعظم مراعاة للنهج العلمي ، وكان هدفه تدوين الحرب البلوبونيزية حتى سقوط أثينا عام ٤٠٤ [1] • وبينما يسرد هيرودوتس قصة الخطيئة الفارسية hubris بكل ما لدى فنان أدب من سماحة واستفاضة مزهوا فى بهاء الظفر الرائع ، فان ثقوديدس سجل قصة أثينا فى وقار صارم كئيب تدفعه الرغبة الوحدة فى كشف الغطاء عن الحق فى واقعه المرير • وبين المؤلفين ، حدث ليس فقط سقوط أثينا ولكن عصر الاستنارة • وفي اللغة وأكثر من ذلك فى الفكر ، ينتمى ثقوديدس الى صفوف السفسطائيين • ولما كان يكتب كسياسى لتعليم السياسيين ، فانه يحلل فى دقة أسباب ونتائج الظواهر الخلقية والسياسية [2] • ولقد أشرنا الى قصته عن الحملة الصقلية التى دونها فى شدة فاجعية لا مثيل لها فى الأدب التاريخى لأن ثقوديدس كان يعتقد كما كان يعتقد يوريبيدس أن منهاج الحياة البشرية لا تقرره عوامل خارقة للطبيعة ولكن يقرره القانون الطبيعى •

وهو يبدي ضيق تشكك تام فى قبول الدعوى بوجود دافع لعمل الانسان لا غرض من وراءه وله كل ايمان رجل ينتهج المذهب العقلى ، بالعقل كمفتاح يكشف أسرار خلائق الرجال ومسلكهم • وأخيرا فى الأحاديث التى يزخر بها مؤلفه ، يمكننا أن نتتبع تأثير فن الفصاحة الجديد الذى كان موطنه صقلية

يتمه • ولقد أدمج ثقوديدس خلاصة السنوات ٤٧٨ ـ ٤٣٢ فى السفر : ١ ، ٨٩ ـ ١١٧ من تاريخه •

(١) لقد كان ثقوديدس منفيا عن أثينا لمدة عشرين عاما نتيجة لفشله كقائد للأسطول لانقاذ أمفيبولس Amphipolis فى سنة ٤٢٣ • ولم يكن صديقا للديموقراطيين الذين جاءوا بعد بركليس (مثل كليون Cleon) وكان من أعوان مذهب التحرر المعتدل البركليسى • ولقد عاش بعد سقوط أثينا (٤ ، ١٠٤ ـ ٧ و ٥ ، ٢٦) ولكن سار بتاريخه فقط حتى عام ٤١١ • وقد استمر اكسنوفن Xenophon فى كتابه Hellenica وهو عمل أقل مرتبة من عمل ثقوديدس ، فى القصة من هذه المرحلة حتى موقعة منطنيا Mantinea (٣٦٢) •

(٢) راجع على الأخص ، العبارة الافتتاحية (١ : ١ ـ ٢٢) ـ قصة الطاعون فى أثينا وأثرها الخلقى (٢ : ٤٧ ـ ٥٤) الدراسة التحليلية للثورات السياسية (٣ : ٨٢ ـ ٤) عرض القصاص الأثينى والطغيان الامبراطورى (١ : ٧٤ ـ ٨ و٣ : ٣٧ وما بعدها و٦ : ٨٣ وما بعدها وفوق كل هذا الديالوج الميلى ٥ : ٨٤ وما بعدها) والمقابلة بين الخليقة والسياسة الأثينيتين والاسبارطيتين (١ : ٧٠ ، ٢ : ٣٥ ـ ٤٦) وكذلك Cornford Thucydides Mythistoricus

ولكن سرعان ما وجد جوا صالحا فى أثينا [١] . وفى الربع الأخير من القرن الخامس ، بدأ يكون له أثر حاسم على النثر الآتيكى . واتخذت الخطابة فى المحاكم والسياسة مكانا معترفا به ، كصورة لفن أدبى . وفى القرن الرابع، لا نجد المستوى العالى للخطابة الاغريقية فى خطب ديمسثينس فقط ، ولكن فى ديالوجات أفلاطون الفلسفية ، العمل الجليل الذى وصل الى أعظم كمال فى النثر الذى عرفته اليونان والعالم على الاطلاق ، فيما هو راجح .

٣ - السفسطائيون وسقراط

١٣ - لاحظنا أن تاريخ ثقوديدس ، وتراجيديات يوريبيدس ، وكوميديات أرسطوفانس على السواء ، فى مختلف طرائقها تحمل طابع الحركات التفكيرية الجديدة ، التى كانت تموج فى العصر البركليسى ، وكانت نزعة الفكر المتزايدة تتجه نحو مسائل النظرية الخلقية والسلوك . وكان بعض هذا يرجع الى شعور بالاصطدام بالواقع فيما يتصل بالبحوث الطبيعية فى الحقبة السابقة ، وكانت خطوط التفكير المتنوعة قد أنجزت حتى تمامها وأصبح يواجه الناس تيه من النتائج المتضاربة التى يبدو ان التوفيق بينها كان مستحيلا . ولقد قنطوا من الوصول الى اليقين فى مثل هذه المسائل ، وتحولوا الى السعى نحو معرفة لها اتصال مباشر أعظم ، بالحياة العملية . وكذلك غدا للعلم الطبيعى نواحى تخصص أكثر ، وكان المتخصصون يميلون الى استنكار اقتحام الفيلسوف للأمكنة التى هى حرم لهم . وعلى أية حال فان المشكل الخلقى كان ينادى بأعلى صوت لمعالجته وفقا لمناهج البحث العقلية. ولقد رأينا فى الفصل الأخير ، كيف أن نقدا للمقاييس والمنظمات الخلقية ،

---

(١) عن خطب ثقوديدس راجع «الكلمة الافتتاحية» من وصفه (١ ، ٢٢) وعجالة جب Jebb فى Hellencia . والخطبة الجنازية التى اقتبست عاليه (§ ٥) تكاد لا تكون شيئا غير ، تقرير دقيق لعبارات وحجج بركليس وربما ألقيت على مسمع من ثقوديدس نفسه .

ومما يسترعى النظر عند قراءة أعمال المؤرخين الاغريق (والرومان) قربها الوثيق للشعر وخاصة الشعر الفاجعى فى الصيغة والفحوى والغرض. ولقد كانوا يفهمون التاريخ على أنه شىء جد مختلف عما يذهب اليه تصورنا فى القرن العشرين . انه كان فنا وليس علما ولم يكن يدرس قط ، كما تدرس العلوم ، فى الجامعات . فضلا عن هذا ، فانه كان يكتب لتقوية رجال الأعمال . ويبدى كونطليان Quintilian ملاحظا (Inst. Orat. ١٠ ، ١ §§ ٣١ ، ٣٤) : « ان التاريخ يأتلف ائتلافا وثيقا بالشعر ويمكن أن يشبه بقصيدة منشورة وغرضه هو السرد وليس اقامة البرهان ...... وقيمته الرئيسية هى فى تقديم أمثلة لتعليمنا » .

كان النتيجة المنطقية للجهد الذى يبذل للعثور على جوهر دائم يقع فيما وراء تغيرات الطبيعة المادية . ولقد عمل على تنمية الاهتمام ، الذى استيقظ حديثا ، بالمسائل التى تتصل بقواعد السلوك ، الأحوال الخاصة للحياة العامة فى أثينا الديمقراطية ، والطموح العام لمقياس أعلى ، فى الدين والأخلاق الذى جهد الشعراء ، على تحقيق بغيته . وكان العهد من عام ٤٥٠ وما بعده عهد خصب خارق للعادة ، فى النقد وفى الانشاء على السواء ، فى الفكر السياسى والذى يتصل بقواعد السلوك ، وقد مهد هذا كله الى ثورة قوية الأثر فى حياة الاغريق العقلية ، وعن طريق الاغريق فى الحياة البشرية . ولأول مرة فى التاريخ ، سلط نور العقل الصافى على مسألة سلوك الانسان . ولقد كان عصر استنارة كالعصر الذى أطلقت عليه مثل هذه التسمية ، فى أوربا القرن الثامن عشر ، حيث كان فيه فولتير قطب الرحى . وكما أن الاستنارة الحديثة أدت الى فلسفة « كانت » الانشائية العظيمة ، فكذلك مهد العصر الأسبق الطريق لفلسفة أفلاطون . ويمكن أن يعتبر قول فروطغراس : « الانسان مقياس كل الأشياء » دليل ذلك العصر [1] . وقد قام اعتقاد واسع النطاق فى العالم الهلينى مؤداه أنه فى المهن الخاصة وفى الفنون ، على السواء ، وفى فن العيش على وجه عام ، لا سبيل للنجاح بغير اعداد من المعرفة يقوم على الاستدلال العقلى ، وأن الفضيلة (areté) لا تعتمد على القدرة الطبيعية أو على هبات الثراء وحسب ، كما كان يتوهم الناس على وجه عام ، ولكن على عدة من النظريات المكتسبة . وقد قامت الحاجة الى نوع جديد من التعليم تأهب له وقام على تنشئته لفيف من المعلمين النابهين وقد جعل أساتذة الثقافة الجديدة معرفتهم تأخذ وجهتها نحو المران على الحرب والموسيقى والزراعة وكذلك التدريب الأكثر تخصصا على الفروسية وفن المسرح والطبخ . وقد وضعوا كتبا للتعليم أطلق عليها technai (فنون)

---

(١) وقد شرع فروطغراس من أبدرا فى طراقية ، الذى ولد حوالى عام ٥٠٠ وتوفى حوالى عام ٤٣٠ ، لمستعمرة بركليس فى ثورى . وقد طلب الى أحسن عقول فى اليونان القيام بهذا العمل . ولقد وضع تخطيط المدينة هيبودامس من مليطس ، أعظم مهندس معمارى وكان هيرودوتس ، كما ذكرنا آنفا أحد سكان المستعمرة . ومعنى قول فروطغراس ، الذى اقتبس فى النص ، أن حكم أى فرد كان المعيار لما كان مرغوبا فيه ان يفعل أو لايفعل فى أى موقف عملى . وبعد ذلك طبق المبدأ آخرون لدعم نظرية عن نسبية المعرفة ، أى ، أن أى شىء يدركه الانسان ادراكا حسيا يكون صادقا لديه عندما يدركه . وأن هذا هو الصدق الوحيد الذى يمكن الوصول اليه . راجع ثياططس لأفلاطون (Plato's Theaetetus) عن هذا التطور ، ونقدا له على أنه القول الفصل ، كأى شىء فى الفلسفة يكون كذلك .

عن طائفة عظيمة من مثل هذه الموضوعات ، وعلاوة على هذا كله ، فانهم كانوا يعلمون الفصاحة ، فن مخاطبة الجماهير الذى كان لا غنى عنه للأرستقراطى الذى كان يجد نفسه على الدوام مهددا باتهامات أمام المحاكم الشعبية وللشباب الطامح الى مراتب الشرف السياسى فى محكمة القانون وفى الجمعية • ولقد أثر نهوض الفصاحة لا على خاصية الحياة العامة الاغريقية فحسب ، ولكن على تطور الأدب الاغريقى عن طريق الفنيين القريبين له ، النحو والأسلوب ولكن أهميتها الكبرى كانت فيما قدمته من تدريب على السلوك العام ، فى الحياة العامة والخاصة • عندما سأل سقراط فروطغراس ، فى ديالوج أفلاطون الذى يحمل اسمه ، ما الفوائد التى سيحصل عليها تلميذه الحدث ، أجاب بأنه سيعلمه أن يتكلم وبذلك يجعله يوما بعد يوم مواطنا أفضل وأكثر قدرة على الاضطلاع بالشئون سواء أكانت شئون دولة — المدينة أم شئون بيته الخاصة [1] •

وفى الواقع استهل واضعو الفصاحة عهدا جديدا فى البحث الخلقى ، ان الالفاظ رموزا لأفكار ، ودراسة التعبير عن الأفكار الخلقية يترتب عليه تحليل الأفكار نفسها •

١٤ — وكان يطلق على القائمين بالتعليم الجديد السفسطائيين Sophists وكان معنى اللفظ ببساطة أساتذة الحكمة (Sophia) ولم يكن بعد قد اتسم بالدلالة التى كان مصدرها أفلاطون ، بأن الحكمة التى جهروا بها كانت خدعة [2] • ولقد قدموا من جميع أصقاع العالم الهلينى ، وكانوا يرتحلون

---

(١) أفلاطون ، فروط : ٣١٨ — ١٩ وازن ٣٢٨ و « الجمهورية » ٦٠٠ ، ويجب دراسة الديالوج بأجمعه على أنه مثال لتعليم السفسطائيين • ولقد قال اسقراطس فى القرن التالى ان السفسطائيين كانوا يدعون أن أولئك الذين يأخذون العلم عنهم « سيعرفون ماذا يجب أن يفعل وعن طريق هذه المعرفة يحققون السعادة » •

(٢) ان ما يوحى به التعبير مبدئيا هو التعليم المهنى ، ولو أنه يطلق أيضا فى معنى أوسع على أى رجل حكيم ، كأن يكون شاعرا • ان هيردوتس يدعو صولون سفسطائيا • ولقد كان السفسطائيون كثيرا ما يأخذون أجرا عن تعليمهم ، وقيل أن فروطغراس سمح لتلاميذه فى نهاية الفترة الدراسية ان فروطغراس كان أول من سمى نفسه سفسطائيا • ولقد كان أفلاطون بأن يدفع كل منهم ما يعتبره موازيا تعليمه • ويقول أفلاطون (فروطغ ٣١٧) يفرق بين الفيلسوف الصادق والسفسطائى تفريقا دقيقا مطبقا نقيضته المحبوبة « حقيقى » و « ظاهر » راجع غرغ • .Gorg : ٤٦٣ ووازن سف .Soph ٢٢١ « الذى يتمرس بفن من فنون الخديعة ، الذى دون معرفة

من مدينة الى مدينة ويلقون المحاضرات والتعليم غير الرسمى فى جميع فروع المعرفة (١) ٠

وقد ادعى هيبياس (Hippias) وهو أحد جماعة السفسطائيين الذين قدموا الى الفروطغراس ، بأنه أستاذ كل فن ، وعلاوة على ما قدمه من بحوث ذات قيمة حقيقية فى علمى الرياضة والفلك فانه كان يعلم علم التقويم وعلم اثارة الذاكرة (mnemonics) وعلم الأصوات ودراسة الايقاع ونظرية النحت والتصوير والموسيقى والمهن الصناعية ٠ وقد جاء فى قصة أنه ظهر فى الألعاب الأولمبية وهو يرتدى ملابس ، كلها من صنعه ٠

وقد كان أيضا عالم أخلاق وشاعرا وخدم دولته الوطنية كسفير ، ومن الخطأ الظن بأن علم السفسطائيين كان سطحيا لأنه فى تلك الأزمنة ، كان من الأيسر أن يكون المرء عارفا بعلوم وبفنون عديدة عما هى عليه الحال الآن - حيث تتطلب المقادير العظيمة من المواد ، التخصص ٠

ووراء عداء أفلاطون للطراز ، يمكننا أن نتبين احترامه الصادق للمفكرين العظام من أمثال غرغياس وفروطغراس ، ولقد قال الأخير : « ان الثقافة لا تزدهر فى الروح الا اذا سبر المرء أغوارها» ولم يكن السفسطائيون شيعة تلتزم مبدأ منتظما ، وانا اذا التمسنا نظيرا فى العصر الحديث ، فاننا نجده فى الصحفيين فى زمننا أو فيما كان للكتاب أمثال هكسلى Huxley ورسكن Ruskin وماثيو أرنولد Matthew Arnold من تأثير على الرأى العام الفطن فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر (٢) ٠ وكان فى مقدور

حقيقية بما هو خير يمكنه أن يضفى على نفسه مظهر تلك المعرفة » ٠ وهكذا قال أرستطاليس فى « الفصاحة » Rhet : ١ و١ و٤ « مدع يداجى بالمعرفة مستخدما ما يعلم أنه باطل بغرض الخديعة والكسب المالى » ولقد كان جورج غروط George Grote (تاريخ اليونان : ٨ فصل ٦٧) هو الذى أنقذ صيت السفسطائيين من الوصمة التى ورثوها من أفلاطون وأرستطاليس ٠ وفى هذا ، سبقه الى حد ما ، هجل ٠

(١) مثل غرغياس ، من ليونطيتى فى صقلية ، وهبياس من الس Elis وفردقس Prodicus من الجزيرة الايجية قاوس Ceos واثراسومخس Thrasymachus (راجع « جمهورية » أفلاطون : ١) من خلقدن Chalcedon

(٢) أو ، مرة أخرى ، هربرت سبنسر ٠ ومن بين الكتاب المحدثين يمكن موازنة مستر برنارد شو وهـ٠ ج٠ ولس بالسفسطائيين الاغريق ٠ ويمكن أن نجيل الفكر أيضا فى التوسع السريع فى جامعاتنا فى تطبيق

أفلاطون أن يحقر السفسطائى وينعته بأنه « مصدر بالجملة لبضائع روحية صنعها آخرون » ، وفى أحوال معينة كان للزراية ، دون ريب ما يبررهـا ولكن كان بينهم عدد ليس بالقليل جمعوا فى أشخاصهم مواهب الوسـيط العقلى ومواهب المفكر المبتكر .

١٥ — وكانت المناقشات التى تتصل بعلم الأخلاق ، التى أثارها تعليم السفسطائيين تتركز حول لفظى طبيعة (physis) وعرف (nomos) [١] . وقد اختلف أفراد السفسطائيين اختلافا بعيد المدى فى النتائج التى وصلوا اليها ، فكان بعضهم مثل هبياس يذهب الى أن أساس الواجب الخلقى هو قانون الطبيعة غير المكتوب ، الأبدى والالهى ، فى حين يعتقد غـيرهم مثـل ثراسومخس Thrasymachus أن الحق للقوة بموجب قانون الطبيعة أو، مرة أخرى ، أن العدالة الاجتماعية كانت تصالحا مصطنعا فرضه على القوى الضعيف ، فى الدفاع عن النفس . وأنكر غيرهم أيضا مثل فروطغراس ، وجود أى مبدأ طبيعى لا يتغير وكانوا يعلمون أن قواعد العرف فى المدينـة يجب أن يقبلها ويراعيها المواطن [٢] . وتهيىء هـذه المناقشـات فى نغمتها شبها يلفت الناظر بتلك التى جرت فى استنارة أواخر القـرن الثامن عشر والتى تضمنتها كتابات روسو Rousseau وتوم بين Tom Paine ووليم جودون William Godwin .

وفى مقدمة اعلان الاستقلال الأمريكى وفى بيانات الثورة الفرنسـية وفيما أثاره فى زمننا ، المنـادون بدعاوى الانسـان الأعلى (السوبرمان)

النظريات على الأعمال ، فى الزراعة والهندسة والتجارة والعلوم الاجتماعية وخاصة أعمال الرعاية والخدمة الاجتماعية . ومن شأن التعليم فى زمننا أن يعمل لأجل الكثرة ما كان السفسطائيون يدعون عمله نحو القلة .

(١) Nomos = « العرف » وكذلك «القانون» أى ما يكون من وضـع الارادة البشرية ويمكن أن يشرع أو يلغى ويختلف باختلاف الزمان والمكان . وكثيرا ما يستخدم فى معنى « القانون والعادة » كما جاء فى نص لأرسطاليس (علم السلوك — ٥ فصل ٢ § ١) بأن ما لا يأمر به nomos فانه يمنعه .

(٢) عن آراء هبياس راجع اكسنوفن .Mem : ٤ ، ٤ وازن انطيغون ، لسفوكلس ٤٤٩ — ٥٧ عن مبدأ مماثل . وعن ثراسومخس ، راجع أفلاطون « الجمهورية ١ » ووازن خطاب غلوقن Glaucon فى مستهل الكتاب الثـانى ويجىء حكم أفلاطون النهـائى عن التناظر التاريخى بين nomos, physis فى « القوانين ٨٨٩ » .

والدولة العليا ضد قيود التقديرات [1] الخلقيـة التقليدية ، وانهـا لتمثل عبقرية الاغريق ، فى ادراك المشاكل الجوهرية والدائمة فى سلوك الانسان ، ولقد أفاضوا البحث فى موضوع الطبيعة والعرف ذاته ، فىمتنوع تطبيقاته ، على أصل المجتمع واللغة ومركز المرأة والرقيق الاجتماعى ، واقامة نظام الملكية الخاصة وصحة التقاليد الدينية [2] .

وكان نتاج المناظرة استخلاص تصور أكثر صدقا ، عن الطبيعة وللطبيعى على أنهما يعنيـان ، ليس حالة بدائيـة وهمية تتجـرد عن كل اكتسـابات اجتماعية ، ولكن بالحرى الادراك التام لطبيعة الانسـان الاجتماعية ، وكان هدف أفلاطون فى « الجمهورية » ـ الكشف عن هذا المثل الأعلى لشخصـية انسانية ، اكتملت لها خصائصها ، وبهذا يشفى الانفصام الجافى بين نفـع أو صالح الفرد وذلك الذى يكون للمجتمع .

وسنعودفيمابعد الى حله للمشكل، وهو الذى جعلته بحوثالسفسطائيين النقدية ميسـورا . ولو أن تعليمهم كان ينحو منحى التشـكك ، وبهذا أثار الخصومة المريرة فى المحافظين أمثـال أرسطوفانس ، فقـد ثبت مع هذا أن نتائجه كانت فى جوهرها انشـائية ، وكان من الضرورى التحليل التـام للمعتقدات التقليدية ، اذا كانت القيم الخلقيـة ليعـاد صـوغها عـلى مبادىء عقلية ، وقـد أتى نقـد السفسطائيين النفـاذ بالثمار عـلى مذهبى أفلاطون وأرستطاليس ، التفكيريين .

---

(١) كان الانسان الأعلى superman موضـوعا شائعا فى اليـونان فى النصف الأخير من القرن الخامس. وكان يمثل البطل هرقلس Heracles راجع تمثيليـة أريفيدس « هرقلس المجنـون » . وعن الدولة العليـا راجـع الديالوج الميلى Mellian dialogue فى ثقوديدس .

(٢) عن أصـل المجتمع ـ راجع افلاطون ـ فروطغراس صـفحة ٣٢٠ وما بعدها والجمهورية : ٢ (خطاب غلوقن) . أما عن الرق فانظـر التذكرة الاضـافية عن هـذا الفصـل . ويجب ألا يغيب عن الذاكرة أنه بينما كانت الثقافة الاغريقية تقوم ، دون ريب ، على أساس الرق فان الاغريق كانوا أول شعب شك فى مبرراته . وعن الشيوعية راجع أفلاطون : الجمهورية ـ ٤ ، ٤١٦ ـ ١٧ و ٥ . وينتقد أرستطاليس ـ السياسة : ٢ هذه الآراء وخطط فلياس الخلقدونى Phaleas of Chalcedon لوضـع تعـادل بين الملـكية الحقيقية وامتلاك الدولة للعبيـد ، وما يترتب عليـه من رقابة الدولة عـلى الصناعة.وعن مركز النساء ، راجع أول التذكرات الاضافية فى هذا الفصل.

١٦ — وأبعد المفكرين شهرة ، فى ذلك العصر ، دون منازع كان سقراط الأثينى (٤٦٩ — ٣٩٩) أعظم معلم بشرى عاش على الاطلاق (١) . وبين فيض العبقرية التى ازدانت بها أثينا فى النصف الأخير من القرن الخامس كانت شخصيته فريدة ولها تأثير فى الروح ، الى أقصى حد . كان مظهره الغريب وأساريره — الشكل البدين والرأس الصلعاء ، والأنف المفرطح والشفتان المكتظتان والعينان الجاحظتان — يذكر أفلاطون بصور اله الغاب سلنوس Silenus وكان يسير فى خيلاء وهو حافى القدمين مهلهل الثياب، خلال شوارع أثينا « كابن الماء » كما يقول أرسطوفانس ، وكانت عاداته وسمته يبعثان الانزعاج فى نحو غريب ، عندما كان يفاجىء جماعة من السفسطائيين أو الصاخبين فى وليمة ، أو نبلاء أحداث فى حلبة المصارعة ، أو وهو واقف فى تجهم وصمت مددا من الزمن فى طريق المرور أو فى المدخل ذى العمد وقد استولت عليه غيبوبة تألهية (٢) . والهاتف الداخلى أيضا — (الشىء الالهى) "daimoneon" كما كان يدعوه — الذى كان يقدم اليه النصح فى صوت مسموع ليتجنب الخطر فى اللحظات الحاسمة فى حياته وينهاه على سبيل المثال ، من ولوج السياسة ، كان مما يتفرد به عن غيره من معلمى زمانه (٣) . ولقد كان يعيش فى فقر نسبى ويحقر أن يستولى على أجر عن القيام بما كان يعتبره رسالة الهية ، وكان يقف فى معزل عن السبل المعترف بها للوصول الى الميزات المدنية ، الا فى فرصتين حدثتا فى ختام حياته عندما أجبر على أن يكون فى الطليعة فى السياسة ، وأظهر الاستقلال

---

(١) ان أهم المصادر للمعرفة بسقراط هى مذكرات اكسنوفن Xenophon's Memorabilia والسحب "Clouds" لأرسطوفانس وديالوجات أفلاطون . وما ذكر فى النص يرجع أصلا الى المصدر الأخير . وليس من الميسور فى هذا المؤلف مناقشة الأسباب التى تحدو الى رفض اعتبار سقراط أفلاطون ، أسطورة فاجعية . وللقارىء أن يرجع الى كتابات الأستاذين بورنت Burnet وتايلور Taylor (اللذين أثرت آراؤهما على ما أورد هنا) على أن يذكر أن ما وصلا اليه من نتائج ليس ، بأية حال موضع قبول عام . ومع هذا فان المؤلف مقتنع أنه اذا لم يقبل أفلاطون على أنه المصدر الأساسى عن سقراط ، فمن المستحيل تقديم تفسير مفهوم لفلسفة أفلاطون أو تأثير سقراط أو « تهكم » أرسطوفانس . راجع بورنت من ثاليس الى أفلاطون Thales to Plato وتايلور «متنوعات سقراطية Socratica Varia » ومقدمة طبعة بورنت لكتاب أفلاطون Phaedo

(٢) أفلاطون "Symposium" — ندوة الفلاسفة ٢١٥ — ٢٢ وعن الغيبوبة Sym. : ١٧٤ — ٥ قابل أرسطو : الغيوم ١٥٠ .

(٣) عن daimonion راجع Apol. : ٣١ ، ٤٠ و Rep. : ٦ .

الذى كان ديدنه فى مقاومة وصـــاية الديمقراطية ووصـــاية الطغيان ، عـلى السواء [١] • ومن الوجهة الأخرى ، فانه خدم فى مناسبات عديدة فى بسالة ظاهرة فى الميدان ، وكانت شجاعته الشخصية مضرب الأمثال فى جميع أرجاء اليونان [٢] • ولم يكن سقراط معتزلا ، ولم يكن فى طبعـه شيء من الصرامة التى تكون فى الأرستقراطية العقلية أو زهد المتطهرين •

وكآخر ــ كان يأتى طاعما شاربا ، وكانت رقة حاشيته صفة تميز بهـا كضبط النفس الذى أثار اعجاب وحسد معاصريه • وكان سر تأثيره فى قوة شخصيته وفى سحر حديثه • وفى هذا ، كما كان أيضـا فى مظهره العجيب ومسلكه ، ورحابة اهتمامه الانسانى وميله الشديد للجدل وحبه للمدينة التى لم يغادر حيطانها قط الا عند الاحتجاج ــ «انى أتعشق المعرفة، والناس الذين يقطنون بالمدينة هم معلمى ، وليس الاشجار أو الريف» [٣] • ــ فانه يورد الى ذاكرتنا أحيانا دكتور جونسون ، ولم يترك أية كلمة مكتوبة ، ولكنه عاش مدى سبعين عاما تحت بصر الجمهور ، ينفق أيامه فى محادثات مع أقرانه من كل صنف وحالة ، الأغنياء ، والفقراء ورجال السياسة وقواد الجيش والشعراء والمفكرين والوضعاء من رجال الحرف والنسوة الدنيويات ، محادثات يصـفها أفلاطون بأنهـا مضحكة عند أول سـماعها • وحديثه يدور حـول الحمـالين والحدادين وراتقى الأحذية ، وهو أبدا يكرر نفس الأشـياء فى نفس الألفاظ حتى ان أى جاهل أو أى شخص غمر لم تصقله التجارب قد يحس ميلا الى الضـحك منه • ولكنها ألفاظ هى، فى صميمها الألفاظ الوحيـدة التى تحمـل معنى فى مطواها والتى هى الهيبة الى أعظم حد ، وتزخر بالجميـل من صـور الفضيلة ومفهومها أعظم ما يكون رحابة ، أو بالحرى تنسحب على واجب الرجل الخير الكريم ، بأجمعه [٤] •

١٧ ــ وعندما يلخص أرسـتطاليس ما أضافه سـقراط لتاريخ الفكر فى عبارة « الاستقراء والتعاريف العامة » فاننـا نتعرض الى هزة من الرجوع للواقع وذهاب الوهم (٥) • ان عمل حياته لابد أنه كان يعنى أكثر من ذلك • ان أرستطاليس بالطبع معنى بخدمة سقراط للمنهج الفلسفى وكل باحث يعلم كيف أن اصلاح المنهج يعلن مقدما عن كل تقدم حاسم فى تاريخ العلم • وفضلا

---

(١) كانت المناسبتان فى ٤٠٦ و ٤٠٣ راجع افلاطون .Apol : ٣٢ •

(٢) راجع .Symp فى النص المذكور •

(٣) أفلاطون : .Phaedr ، ٢٣٠ •

(٤) على فم القبيادس ، يمتدح سقراط .Sym ٢٢١ ــ ٢ •

(٥) أر Met: : ١ ، ٦ و ٨ ، ٤ •

عن هذا ــ فان استقراء سقراط كان يتضمن الاعتراف بطبائع الأشياء ، الحقيقية التى تشتمل عليها مظاهرها المحسوسة ، بينما «التعريف» فى اعتباره كما فى اعتبار أرسطاليس لم يكن مجرد ألفاظ ، ولكن التعبير الدقيق عن جوهر الأشياء المعرفة • وفى حداثته ، كما تعلم من « الغيوم » ومن نص عن تاريخ حياته فى « فيدو » لأفلاطون كان سقراط باحثا شغوفا فى المذاهب الطبيعية التى اكتسحت وقتذاك الميدان • ولكنها عجزت عن ارضائه لأنها كانت تتحدث فقط عن « كيفية » الأشياء وكانت رغبته تجنح الى معرفة « أسبابها » ، وخرج من نفس الباب الذى دخل منه [١] • والفيثاغوريون وحدهم ، الذين هدتهم البحوث الرياضية الى التفكير فى حقيقة فطنة تقع الى الخلف من مرأى الظواهر المحسوسة ، كان يظهر أنهم يبينون الطريق الذى يؤدى الى هدف مسعاه ، المعرفة التى يدعمها الاستدلال العقلى بالخير المثالى • ولقد كان سقراط مفكرا يسير على النهج العلمى ومتألها دينيا فى الوقت عينه • وكان ايمانه بالعقل لا تطفأ غلته ــ انه كان ابن اليونان الصادق فى اعتقاده أنه فقط بالكدح العقلى تستطيع روح الانسان أن تصل الى رؤية الحق الكامل ، ولهذا كان تقويم الفلسفة فى نفس الوقت ، انجاز دعوة دينية • وقد حفظت القصة التى تحكى كيف أنه وهو بين الثلاثين والأربعين عاما من عمره أعلن مهبط الوحى فى دلفى أن سقراط أحكم الناس، وعلى ذلك استدعى الى الرسالة التى خصص لها بقية حياته [٢] • وقد سأل نفسه كيف يتأتى ذلك بما أن الله وحده هو الحكيم وهو ، سقراط ، لا يعلم من الحكمة شيئا• ولدينا هنا التفسير لتصور سقراط لأروس Eros أو الحب ، وليد الوفرة والحاجة الذى كان يتلاعب حوله فى أحاديثه مرة فى مزاح ومرة فى جد عميق ــ الفكرة أن الانسان خليقة عالمين ، ويتوسط الطريق بين الجهل والمعرفة وخلاصه يكون فى التعطش بعاطفة عنيفة للحكمة "Philosophia" ذلك التعطش الذى يقود الروح صعودا من حب مسائل الحس الزائلة ، الى حدس جمال عقلى ، نوره وحده هو مصدر النعمة والحق لحلم الحياة القلق [٣] • وقد صدق سقراط مهبط الوحى بقوله : « انه ولو لم يؤت من العلم شيئا آخر ، فانه يعلم أمرا واحدا ــ جهله هو ، بينما كان غيره يظنون أنهم حكماء وهم ليسوا على شىء من ذلك • وهذا هو « تهكم » سقراط (irony منهج

---

(١) راجع Phaedo : ٩٦ وما يليها • فى مطلع شبابه ، قابل سقراط فارمنيدس وزينون وكذلك فروطغوراس : أفلاطون : .Parm ١٣٠ : ١٣٥ و ,.Protag : ٣٦١ •

(٢) .Apol : ٢١ وما يليها •

(٣) شلى «ترنيمة للجمال العقلى» .Hymn to Intellectual Beauty • راجع .Symp : ٢١٠ وما يليها •

سقراط فى المناقشة بادعاء الجهل) الذى كان يثير مثل ذلك الدهش والضجر فى سائليه (١) . كيف كان يستطيع أن ينقذ أرواحهم بالكشف عن معرفة هو لا يزال يبحث عنها - الا باقناعهم بجهلهم هم ، وبذلك يوقظ فيهم الرغبة فى أن يعرفوا ؟ وهذه كانت فى الحق الرسالة التى تهيأ لها فى ولاء لا تعتريه كلالة ، أن يأتى بالفحص على موازين الرجال فى السلوك والغايات التى يحبونها ويعيشون لأجلها ويختبرها بمنطق صارم مبدد ، الى أن ينزاح عن السامع طمأنينته ويقر أنه أصبح مشلولا ولا حول له .. ولقد قال سقراط « ان حياة لم تفحص لا تستحق العيش »(٢) .

وقد شبه نفسه بنعرة أرسلها الله ليلسع حصانا كريما هو الشعب الأثينى (demos) ليخرجه من عفوة الخمول ، ومرة أخرى يشبه نفسه بقابلة روحية تأتى بمولد أفكار صادقة فى أرواح الناس (٣) . وعلى هذا يمكن أن نتخيله وهو يسأل انجليزيا معاصرا - ماذا كان يعنى على وجه التدقيق بمثل هذه التعبيرات ، الشرف "honour" الرجل المهذب "gentleman" أو مسيحى "Christian" ولماذا حدا به الطموح لدخول « البرلمان » ولماذا أرسل ابنه الى الجامعة أو الى مدرسة عامة .

وكان سقراط يعمل دون هوادة ليكشف غموض آراء الناس فى مثل هذه المسائل وأنهم لم يقطعوا بالتفكير فيها نهاية الشوط أو يواجهوا بديلا لها ، وفوق كل شىء أن نظراتهم ومراسهم العملى لم يكونا الا انعكاسا باهتا لرأى يمثل المستوى العام لما يراه العالم المحيط بهم . وهذا يعتبر الموضوع ذا الاهمية القصوى الدرة غالية الثمن ، الخير الأعظم وغاية الحياة!.

وعلى هذا ، اتخذ تعليم سقراط ، صورة سلبية تكذب مغزاها الحقيقى . وتخلى عن لقب معلم لأنه كان يعلم أن الحكمة المنقذة يجب أن يظفر بها كل انسان لنفسه ، وأن مهمته الخاصة تكون فقط فى أن ينتزع حجاب الجهل الذى يخفى الناس عن أنفسهم . والمعرفة بالذات وهى شعار معبد دلفى ، كانت الشىء الوحيد الذى يحتاج اليه فى الحياة وقوام الفضيلة .

وكان يقول ان الرذيلة هى الجهل، أو اذا اقتبسنا مايظهر أنه طرفا نقيض

---

(١) Symp. : ٢١٦ - Eiron = sly ماكر (بورنت الذى يقابلها باللفظ الاسكتلندى "Canny") . كان يوجد الكثير من الحس المشترك فى سقراط ويستخلص من تهكم رفضه اطلاق « معلم » عليه Apol. : ٣٣ .

(٢) Apol. : ٣٨ .

(٣) Apol. : ٣٠ ، ٣١ ، Theaet. ١٥٠ ، ٣٥١ راجع أيضا Meno ٧٩ ، ٨٠ لما كان من تأثير على سامعيه .

«لايخطىء أحد بارادته الحرة» [١] • وكان يعلم أن الرخاء دون معرفة بالذات كان مصدر نصف التعاسة والشر فيحياة البشر ، وكان يعلم أيضا ، وأفرط فى علمه ، كيف أن الناس ، يغتفرون أى شيء الا اظهار جهلهم لهم وكيف يمقتون مقتا مريرا تحطيم شعورهم بالرضى عن ذواتهم ، ذلك الرضا الذى قبروا فيه أرواحهم • وقد أنبأ قضاته « لم أكن غير عليم بالعداوة التى أثرتها ونالنى الأسى والخوف من ذلك ولكن الضرورة وضعت على — ورأيت أن كلمة الله يجب أن يكون لها الاعتبار الأول » [٢] • — والقاعدة الرئيسية التى وضعها لاخوانه المواطنين بأنه يجب عليهم « أن يراعوا أرواحهم » ، كانت تحمل دلالة ، تميز عصرا ليس فى الفلسفة الاغريقية وحسب ، ولكن فى الفكر البشرى بأجمعه عن الروح ، وكانت الروح (Psyché) تعنى للاغريقى العادى فى القرن الخامس ما كانت تعنيه لهومر ، وكما سبق أن رأينا [٣] ، للعبريين كذلك ، بأنها أصل الحياة الذى يغادر الجسم عند الموت ويسير الى العالم السفلى حيث يعيش كشبح لا حياة فيه ، فى حالة دونوعى • ان أمر الناس بمراعاة مثل هذه الروح ، كان استخدام ألفاظ لا معنى لها • ومن الجهة الأخرى ، فان المعلمين الأرفيين والفيثاغوريين ميزوا فى تحديد واضح الروح بأنها الهية ، وعلى ذلك خالدة ، عن الجسد الذى احتبست فيه عقابا لخطيئة ما قبل الميلاد ، وهى فى غفوة الا فى أحلام التنبؤ وكانوا يعلمون طريقا للخلاص ، بالتطهير من الحاجة الى العود للتجسد • ومثل هذه الطريقة للتطهير يمكن على اليقين أن توصف بأنها «مراعاة الروح» • ولكن سقراط كان يعلم شيئا آخر يختلف عن أى من هذين الرأيين • لقد رأى فى هوية الروح شخصيتنا الواعية ، الذات التى تملك القدرة على النشاط العقلى — التفكيرى والعملى كليهما — الذى اذا ما روعى فى عناية فانه يجد تعبيرا له فى المعرفة العلمية وفى الطبع الخلقى على السواء • وكان هذا مبدأ ثوريا وجديدا على الاطلاق ، ويمكننا أن نفهم فى يسر ما كان له من مغزى لسقراط والعداوة التى أثارها فى جماعة سامعيه الذين فزعوا لما كان ينطوى عليه من معان ، واخرجهم عن طمانينتهم (٤) •

---

(١) المعرفة بالذات :Phaedr: ٢٢٩ و Mem:, Xem. : ٤ ، ٢ ، ٢٤ وما يليها • الخير هو المعرفة Laches : ١٩٤ و Protag. : ٣٤٥ و Apol. ٢٥ : راجع Mem, Xem. ٣ ، ٩ ، ٤ و Ethics, Arist : ٧ ، ٣ ، ١١٤٥ ب ، ٢١

(٢) Apol. : ٢١ ى •

(٣) راجع ما سبق فصل ٣ § ١٥ تذكرة ١ •

(٤) راجع بورنت عن مبدأ سقراط عن الروح (Proc. Brit. Acad., 1915-6) أعيد طبعه فى « مقالات وخطب » (Essays and Addresses London 1929, pp. 126-62.

١٨ ـ وجاءت النهاية عام ٣٩٩ عندما وصل سقراط الى سن السبعين ، وقد وجد أنه أذنب فى تهمتين ـ عدم التقى وافساد الشباب وحكم عليه بالموت ـ والعجيب حقا هو أنه تأجل زمنا استطال بهذا المقدار وكان الأثينيون كغيرهم من الشعوب الأخرى يحدوهم ميل للاشتباه فى أولى العقل ولم يظهر سقراط قط أنه يضمر للديموقراطية ودا . وكان يعتقد أن الحكومة السياسية ، كأى ناحية أخرى من نواحى العمل ، يجب أن تكون فى أيدى أولئك الذين يعلمون . وفوق هذا كله ، وهنا قوة الاتهام ـ عد من بين المقربين الى سقراط رجلان يحملان من بين الكافة ، المقت الذى نجم عن سقوط أثينا حاكم القلة اقرطياس وهو أحد الطغاة الثلاثين الذين أقامهم الاسبرطيون لتولى زمام الحكم بعد استيلائهم على المدينة والسبيادس الذى أدى به مطمحه الجامح أولا الى الحض على الحملة المشئومة الى صقلية ، وبعد ذلك الى ما قدمه من نصح لأعداء أثينا عن السياسة التى كان فيها دمارها . ولم يكن هذا ، فى نظر الديمقراطيين الذين أعيدوا للحكم الا ثمرة التعليم الجديد فعادوا باللائمة على سقراط باعتباره المصدر الحقيقى لما أصابهم من محن . على أية حال كانت عداوتهم سياسية وليست دينية ، لأن سقراط كان يحرص أدق الحرص على المحافظة على عبادات المدينة . وكما حدث ، فانه كان قريبا من الحكم ببراءته . لو أنه رضى بالانسحاب الى النفى ، أو لو أن دفاعه لم يتخذ صورة تبرير رسالته تبريرا لا يقبل مساومة ويغلب أن يكون فيه زراية ، لكان قد أنقذ حياته دون ريب . ولكن طبيعة سقراط لم تكن لتهيىء أى سبيل لفكرة المساومة على التصالح . لقد أقامه الله حارسا ويجب أن يكون أمينا على حراسته . وقد دفع عنه ما عرض عليه من فرار من السجن ، اذ عده عملا ينطوى على عدم ولاء لقوانين أثينا التى فى كنفها ولد ونشأ ، كما ولد ونشأ والداه ، ومات بتجرع السم [١]، شهيدا فى سبيل العقل وحب الحق [٢] . وهو برفضه أن ينكر ما كان يعتبره

---

(١) hemlock ـ شوكران ـ صرو ـ درست (فارسية) Conium masculatum l. (المترجم) .

(٢) راجع Apology و Crito و Phaedo لأفلاطون ولفايدو الذى خص بها رفاق سقراط الفيثاغوريين ، أهمية خاصة (ا) فى أنها توضح تأثير الأفكار الأورفية والفيثاغورية على سقراط وافلاطون ، عن الروح والفلسفة على أنها نهج فى الحياة والصور (أو الأفكار) على أنها موضوعات المعرفة الحقة ، (ب) للتمهيد الذى يعالج السيرة حيث يسرد سقراط تاريخه العقلى الباكر ، (جـ) للمشهد الختامى الذى يصف موت سقراط وربما كانت أعظم نص فى الأدب المنثور بأجمعه . ويذكر هجل (فلسفة التاريخ ٢٨١) أنه ولو أن سقراط أدى واجبه فى ولاء نحو دولة المدينة ، فان عالم الفكر ، وليس أثينا ، هو الذى كان موطنه الحقيقى .

رسالة الهية ، ولو لمجرد انقاذ حياته وفى رفضه أن يرتكب ضرا ضد سلطة القانون ، بتجنب العقوبة التى أوقعتها المحاكم فان سقراط يقدم أعلى مثال « للمعارض الذى يهتدى بضميره » .

٤ ـ افلاطون

من بين رفاق سقراط الاحداث ، كان أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧) وهو ثرى أثينى من أسرة كريمة خصص أعوام نفيه الاختيارى التى أعقبت الحكم باعدام أستاذه لتلك الكتابات التى حفظت ذكرى عقل سقراط وشخصيته أحسن حفظ . ويقع خارج نطاقنا أن نتتبع أثر ينبوع الفكر ، الذهبى الذى يفيض خلال الديالوجات الأفلاطونية (١) . ان هذه نماذج عليا بلغت الغاية فى الاستدلال العقلى الذى يسير على النهج العلمى ، وفى الفن الفاجعى ، على السواء . ويمكننا أن نقدر تمام التقدير كيف أن أفلاطون ، فى صدر شبابه اجتذب الى كتابة الشعر . ولم تفسح الصورة الديالوجية المجال فقط أمام خيال الفنان ولكنها كانت تعكس ـ بطبيعة الحال ـ الحركة الحية لمحادثات سقراط وتصور أفلاطون الخاص للمنهج الفلسفى على أنه المحاولة الصاعدة للأرواح

---

(١) لقد وصلت الينا جميع كتابات أفلاطون . ولا يمكن أن تذكر هنا الأسباب التى حدت الى تحديد ترتيبها التاريخى لدرجة عظيمة من الاحتمال . ويمكن أن تذكر النتائج كالآتى لارشاد القارىء فى أول تعرف بأفلاطون . والترتيب بين كل حقبة أكثر مدعاة للشك .

الحقبة الأولى ـ (بين ٣٩٩ وحوالى ٣٨٧) :

Crito, Apology, Euthyphro Euthydemus, Cratylus, Lysis, Laches, Charmides, Meno, Gorgias, Protagoras,

(والثلاثة الأخيرة كانت فى ختام الحقبة) .

الحقبة الثانية ـ (حوالى ٣٨٧ الى حوالى ٣٧٥) : Phaedo, Symposium

(مبكرا) و Phaedrus, Republic

الحقبة الثالثة ـ (حوالى ٣٦٧ الى حوالى ٣٦٠) :

Parmenides, Theaetetus, Sophist Politicus (أو السياسى) .

الحقبة الرابعة ـ (حوالى ٣٦٠ الى ٣٤٧) :

Critias, Timaeus, Philebus Laws.

و « الجمهورية » هى نقطة التحول عندما بدأ فكر أفلاطون ، الذى كان دائما لا ينى يتحرك ، فى الانتقال الى ما يوالى خطوط فلسفة سقراط ، وفى الديالوجات الأخيرة ، لا يكون سقراط (الا فى فليبس (Philebus بعد ، المتحدث الرئيسى . وعن الموضوع برمته راجع بورنت Thales to Plato وتذكرة ١ § ١٦ . ورسائل أفلاطون اما أنها أصلية واما أنها على أية حال وثائق معاصرة عظيمة القيمة .

المتقاربة ، بمصاولة العقل للعقل فى السعى وراء الحق المطلق [١] . ومن بين هذه الكتابات تقدم « الجمهورية » التى وضعها بعد عودته الى أثينا ، وعندما بلغ نضج عبقريته مداه ، أفضل مدخل الى دراسة فلسفة أفلاطون [٢]. ولقد أوجزت أعظم ايجاز فى مدى جميع الديالوجات وتستهل بالسؤال ماهى العدالة ؟ وهى تضع صورة للمجتمع المثالى ولتقدم الروح صوب الحكمة الفلسفية وتختتم بصورة للحياة فيما يلى القبر . ويعالج مسائل علم الأخلاق والسياسة وعلم النفس والتعليم والأدب والفن والدين والعلم فى وحدة حية كعوامل فى مسألة الكون الموحدة ، مفكر كان موضع فخاره الذى يزهو به أن يكون « المتفرج على الزمن كله وعلى الوجود كله » [٣] . ولكن جاء الالهام لأفلاطون ليس فقط بدافع الفلسفة ليعرف الحق ، ولكن أيضا عن عاطفة متحمسة للاصلاح العملى . ومنذ حداثته عندما كان يتطلع الى ولوج الحياة العامة فى أثينا وطنه حتى رحلته الأخيرة ، فى شيخوخته الى صقلية التى كانت على غير طائل ، كانت تستبد به رغبة مستعرة لكى يخلص أرواح الناس وأن يقيم ، على قدر ما كانت تسمح به الأحوال الدنيوية ، مدينة الله ، على التربة الهلينية وعنده ، كما كان عند أستاذه سقراط ، كانت الفلسفة أبدا « نهجا فى الحياة » وكان قد تعلم من سقراط أيضا أن الخير كان المعرفة وأن الأساس الوحيد الوطيد للسلوك العملى كان الادراك الذى يقوم على الاستدلال العقلى ، لمبدأ الخير . وعلى هذا فان المسألتين ، التفكيرية والعلمية أوجدتا لأفلاطون حلهما المشترك فى الفلسفة ، فى معرفة يجب أن تكشف حقيقة العالم الداخلية ، كخير مثالى وتكون الهدف لعمل الفرد والمجتمع . ما كنه هذه المعرفة ، وكيف يستطيع الانسان الوصول اليها ؟ هذه هى الاسئلة الأصلية فى فلسفة أفلاطون .

٢٠ ـ ولم يخامر أفلاطون ريب قط فى أن المعرفة يجب أن تكون معرفة ما هو كائن وموضوعها يجب أن يكون له وجود حقيقى . وعنده أن الحقيقة

---

(١) ان تعبير أفلاطون عن الفلسفة ، كعلم وكمنهج على السواء هو dialectic وهو مستمد من الفعل dialegesthai (= يتحادث) ويرتبط بلفظ « ديالوج » . ويقول أفلاطون ان الروح ، حتى عندما يكون الانسان مشغولا فى تفكير منعزل ، تناجى نفسها فى ديالوج (Theaet, 189, Soph., 263) . وكان أفلاطون نفسه يفضل التعليم الشفوى على العبارة المكتوبة راجع ـ .Phaedr : ٢٧٥ وما يليها .

(٢) ربما أكملت الجمهورية فى الوقت الذى كان فيه أفلاطون مشغولا بتأسيس الأكاديمية بين حوالى ٣٨٧ وحوالى ٣٧٨ . وكان حينئذ بين الأربعين والخمسين من عمره .

(٣) "Rep." الجمهورية : ٦ ـ ٤٨٦ .

لا يجب أن تكون قابلة للمعرفة وحسب ، ولكن المعرفة يمكن فقط أن تكون بما هو حقيقى . اذن أين يوجد الموجود الحقيقى ؟ اعتقد هرقليطس أن كل ما يوجد فى عالم الحس هو فى تغير لا ينقطع يصير أبدا الى وجود وينقطع عن أن يكون موجودا ، ولا يظل ثابتا فى وجود . وطبق أتبـاع فروطغراس هذا المبدأ ليبينوا كيف أن كل مظهر عابر ، على الأقل فى مجال الحس ، كان حقيقيا بالنسبة للفرد القادر على الادراك الحسى فى لحظة ادراكه الحسى ، ولقد جردت هذه الآراء الحقيقة من كل معناها ولم يستطع أفلاطون أن يظل قانعا بها وعلى ذلك ، سبق مثل سقراط قبله الى أن يلتمس الموجود فى مكان آخر غير عالم الحس . ويبين التأمل فى تفكيرنا الواقعى أنه يشمل مواضيع من نوع جد مختلف عن معطيات ـ الحس لأن هـذه يمكن معرفتهـا فقط بمعـاونة التصورات العامة التى تدرك ليس بالحواس ولكن بالفكر . وهذا جلى عـلى الأخص فى أحكام علم الرياضة وتلك التى تعبر عن القيم الخلقية والجمالية . ولا توجد خطوط أو دوائر تدرك بالحس ، تتعادل تعادلا تاما واطلاق « خير » على عمل و « جميلة » على صورة يتضمن ميزانا واحدا من الخير أو الجمال ، وتكون الحالات الفردية بالنسبة له تقريبا ناقصا [١] . وعلى هذا اهتـدى أفلاطون الى الاعتقاد بعـالم يمكن أن يدرك بالتفكير فقـط حيث تكون فيـه الصور أو الأفكار فى « وجود » لا يتغير كحقائق مادية ، وهى الأنواع الأولى فى درجة الكمال « يسهم فيها » أو « يحاكيها » نماذجها العديدة المتغيرة ، فى عالم الحس . وهذه الصور وحدها كانت مواضيع « المعرفة » العلمية وامثلتها المعينة ، فى عالم الحس ، من الجهة الأخرى ، كانت مواضيع « الظن » المعرض للخطأ والتقلب ومصدر الخطأ التفكيرى والخـدعة الخلقيـة . وذاك الذى يفكر ويعيش فى عبودية لجسده وأشياء الحواس فانه على الرغم من بصيرته النفاذة فى الظروف الخاصة التى تحيط به يشبه شخصا يسير وسط أطياف حلم فى نومه ، والفيلسوف بعين عقله وقد حددها فى الحقائق التى يمكن أن تدرك بالتفكير فقط ، هو دون سواه الذى له رؤيا يقظة [٢] . ولقد نادى أفلاطون بمبدأ عالمين وربما لأول مرة فى تاريخ الفكر الغربى ، ينسب الوجود الحقيقى للجواهر غير المادية . وبالاضافة الى هذا ، فان الصور ليست ذرات روحيـة

---

(١) راجع Phaedo التى توضح كيف وصل أفلاطون (سقراط ؟) الى مبدأ الصور (أو الأفكار) بدراسة الأحكام الرياضية والخلقية والجمالية .

(٢) راجع الجمهورية : ٥ ، ٤٧١ وما يليها و٦ و٧ . من المحتمل جدا أن مبدأ الصور (ويستخدم أفلاطون اللفظين Eidos (صورة) و Idea فكر ـ واللفظ الأخير غامض فى الانجليزية) ، قال به سقراط وانه استمده من التفكير الفيثاغورى . وقد وضع أفلاطون النظرية ، كما قدمت فى Phaedo و « الجمهورية » ، موضع النقد والتعديل الأساسى فى الديالوجات الأخيرة (وخاصة Parmenides) .

منعزلة ولكنها تكون اقتصادا أو نظاما يمكن ادراكه بالتفكير فقط ومهمة الفيلسوف الأساسية هي في تقصيه . وفي أسمى مكانة في هذا النظام التدرجي الذي يقع فوق ما يدرك بالحس ، تعلو صورة الخير ، أصل القدرة على المعرفة وعلى الموجود ، على السواء في جميع الصور الأخرى وهو في ذاته « يسمو فوق المعرفة والموجود » [١] . وفي « الجمهورية » يعبر أفلاطون عن ضيقه في أن يفسر تفسيرا مباشرا « موضوع المعرفة الأعلى » هذا ولايأتي بتكملة النقص في أي مكان في كتابته ، وفي الواقع فانه يذكر بايضاح في خطاب « لا توجد كتابة لي عن الموضوع ولن توجد أبدا . لا توجد القدرة على التعبير عنه كغيره من فروع الدراسة ولكن نتيجة للتواصل الطويل وحياة عامة أنفقت فيه ، فان نورا يشتعل كشرارة تقفز وعندما تصل الى الروح تجد تغذية لنفسها » [٢] . ومع هذا فاننا نعلم أن الخير كان يكون المرمى لكل مسعى أفلاطون العقلي وأنه كان يلقي محاضرات عن الموضوع في الأكاديمية حتى ختام حياته [٣] . لقد أعطى وحدة ومذهبا للعالم الذي يمكن أن يدرك بالتفكير فقط ، وجاء بالانسجام على الصور في غرض عام واحد وله مكان السيادة .

وكما في عالم الحس تكون الشمس مصدر النور والحياة لكل المخلوقات فهكذا الحال في عالم الفكر ، تستمد الصور قدرتها العقلية ووجودها من صورة الخير [٤] . كان هذا مجمل جواب أفلاطون على السؤالين : ما هي المعرفة؟ وماهو الموجود؟ وهما اللذان يكونان عبء الميتافزيقيا (ماوراء الطبيعة) في جميع العصور وحله عرضة لاساءة التفسير وفي ثلاثة اتجاهات: (١) ان الصور ولو أنها تدرك بالذهن عن طريق التصورات العامة ، ليست معنويات فكرية ولكنها جواهر توجد مستقلة عن ذهن أي مفكر ، في عالم روحي موضوعي [٥] . (٢) وصورة الخير لا يربط أفلاطون هويتها بالله . ان الله ليس صورة ولكنه روح نشيط حي . المصدر – المتحرك بذاته – لحركة السموات وكما يسرد أفلاطون في لغة شبه أسطورية في «طمايوس» ، فانه خالق الكون الذي يدرك بالحس .(أي الكون المحسوس)، نقلا عن نماذج الصور ووفقا لقانون

---

(١) الجمهورية ٦ ، ٥٠٩ هذا التعبير كان النص الذي استمدت منه ، بعد ذلك ، الأفلاطونية الحديثة فكرة الواحد ، الذات الأعلى = الخير وهو أعلى عضو في ثالوث فلوطينس Plotinus الروحي (راجع المجلد الثاني فصل ٩ § ١٢)

(٢) Epp. : ٧ – ٣٤١ (ترجمة بورنت) .

(٣) لقد نشر ارسطاليس تذكراته على محاضرات أفلاطون عن الخير ولكن هذه لسوء الحظ لم يحتفظ بها .

(٤) « الجمهورية » : ٦ ، ٥٠٤ وما يليها .

(٥) في Parmenides : ١٣٢ ، رفض في ايجاز الرأى الذي يقول ان الصور هي تصورات في العقل .

رياضى . ان المبادىء القائلة ان الله هو بذاته الخير الأعظم وان الصور هى أفكاره الأبدية ووجودها كائن فى العقل الالهى ، لم تكن مبادىء أفلاطون ولكن تعديلات لنظرية أفلاطون أوحت ، بطبيعة الحال بذاتها للأفلاطونية الحديثة ولمفكرى العصور الوسطى [١] . وأخيرا (٣) يجب ألا يذهب الظن الى أنه بانكار المعرفة العلمية لأشياء الحس ، فقد نبذها افلاطون على أنها خدعة أو لا قيمة لها . ليس لأن عالم الحس لا حقيقة له ، ولكن لأن حقيقته الجزئية يمكن أن يراها فقط الذهن الذى يدرك اعتمادها على الصور — هو ما يدعو أفلاطون الى أن يصر على أن الصور هى فى ذاتها موضوعات الدراسة العلمية الحقة . وفى الواقع تصور أفلاطون عالم الحس بأن الله صاغه فى الفراغ من أشكال هندسية وهى نظرية لا تبعد كثيرا عن ارجاع ديكارت للجسم المادى الى حدود امتداد له شكل . ولقد كان أفلاطون باحثا متعمقا فى العلوم الرياضية التى كان يعتقد أنها المدخل المناسب للفلسفة . وتوجد أسطورة تقول انه كتب على بوابات الأكاديمية هذه الكلمات « لا تدع أى شخص لا يلم بالهندسة يدخل هنا» . وفى رأيه ، كانت الرياضيات تهىء التفسير للطبيعة المادية ونظريته التى جاءت بعد ذلك، عن الصور، كانت على مايرجح كثيرا مبدأ من مبادىء النسب الرياضية ، قريبا من مبدأ علم الطبيعة الحديث ، الا أنه فى اعتبار أفلاطون ، يتطلب التفسير الرياضى أساسا له — وهو أبعد من أن يعزل الشرح عن حدود الغرض — صورة الخير الذاتية [٢] .

٢١ — وفى طبيعة الانسان ، يظهر التمييز بين النظام الذى يمكن ادراكه بالتفكير فقط ، والمحسوس ، كالتمييز بين الروح والجسد . والروح psyche

---

(١) وهب الله العالم المحسوس روح—عالم حتى يمكنه، الى أبعد حد ممكن، أن يشبه خيره هو . ولقد كان لهذا التصور تأثير على التفكير اللاحق . وكان فيلو Philo (القرن الأول الميلادى) اليهودى المتأهلن ، فى الاسكندرية أول من عالج الصور على أنها أفكار الله . ويذهب بورنت «ثاليس الى افلاطون» الفصل ١٧ الى أن افلاطون كان أول فيلسوف يضع الألوهية على أساس علمى .

(٢) عن العلوم الرياضية راجع الجمهورية : ٧ ، ٥٣٢ وما يليها . وكانت فلسفة أفلاطون ، كفلسفة سقراط ، فى جميع مناحيها ، تنتهج بحث العلة الغائية ، ويرجع الموجود أو الحقيقة لكل جزء فى الطبيعة الى وظيفته أى فى علاقته بغاية أو خير . ويكون أحسن فكرة لصورة الخير كغاية عليا ، وحدة ، تجمع كل الغايات الفردية والجزئية فى وحدة ذات مذهب . وكل قوانين الموجود لأجزاء العالم الخاصة يمكن الاستدلال عليها من هذه الغاية العليا الوحدة . ان مبدأ أفلاطون يبعد بعدا عظيما عن مبدأ الحتمية الميكانيكية ، وأينما يجد قانونا وهو يجده فى كل مكان ، فانه يجد العقل والخير .

عند أفلاطون ، كما كانت عند أرسطاليس بعده هى أصل الحياة والحركة وعلى هذا ، فأينما توجد الحياة والحركة ، توجد روح والروح الانسانية وهى أبعد من أن تكون التعبير الوحيد أو الرئيسى للروح ، ليست الا صورة واحدة من مظاهرها · والفلسفة الاغريقية تتناقض تناقضا تاما مع النزعة الحديثة فى اعتبار الذهن الانسانى الواقعة المحورية للتجربة · وبجانب الروح البشرية وما دون الروح البشرية ، يوجد فى كون أفلاطون روح الله وروح العالم والأرواح الالهية التى تحرك النجوم · وفى شدة اعتقاد عنيفة، كان أفلاطون يؤمن بأن الأرواح خالدة خلودا ملازما ، وبرهانه القاطع الذى ذكر فى فيدرس ومرة أخرى فى آخر ديالوج له « القوانين » يقيم الدليل من واقعة الحركة على ضرورة سبب للحركة التى تتحرك ذاتيا وعلى ذلك لا يمكن أن تبدأ أبدا أو تنقطع عن الحركة [١] · وتبعا لهذا فان الروح البشرية كغيرها من الأرواح كافة ، كانت توجد قبل حلولها فى الجسم وستبقى بعد موت الجسم · وبهذا يشرح أفلاطون كيف أن نسخ الصور ، غير الكاملة ، فى عالم الحس تورد للذهن ، الأنواع الأولى الكاملة التى كانت تعرفها قبل الحلول فى الجسد وتوجد حلا للتساؤل الصعب وهو « كيف يتاح للانسان معرفة تتعالى عن حدود الاختبار الحسى » [٢] · وتساعده أيضا على معرفة السبب فى أن الألم الحاضر هو تكفير عن شر ارتكب فى تجسد سابق وعلى أن ينشىء المبادىء الخلقية الصادقة عن الثواب أو العقاب بعد الموت وفى التطهير الاطرادى فى سلسلة من الحياة [٣] · وهنا يقيم أفلاطون البناء على تربة التعليم الأورفى الذى وصل اليه عن طريق الفيثاغوريين وسقراط · ان الجسم هو سجن وقبر الروح وموته هو تحرير الروح وحياة الفلسفة التى تعلق فكر الذهن على صور ما وراء الحس هو التمهيد لهذا التحرر وفى الحقيقة البحتة ، دراسة الموت [٤]· وتظهر الروح البشرية وهى فى اتحادها الموقوت بالجسد ، ليس فى نقاوتها الطبيعية ، ولكن كاله البحر غلوقس Glaucus فى القصة ، «تتغشاها الأصداف والأعشاب البحرية»، حتى ان طبيعتها الذاتية، «العقل» يكون مستخفيا عن الرؤية الخارجية [٥] · وفى تجاربنا الواقعية تكون الروح

---

(١) Phaedrus ٢٤٥ ج القوانين : ٨٩٣ ب وما يليها · وقد أهملت الأدلة الأولى فى Phaedo و « الجمهورية » فى الديالوجات التى جاءت بعد ذلك ومن المرجح أنها كانت أدلة سقراط خاصة ، بمعزل عن حجج أفلاطون ·

(٢) راجع Meno ، ٨١ ومايليها عن مبدأ التذكر anamnésis · هذا·

(٣) راجع الأساطير فى Republic, X, Phaedo, Gorgias, Phaedrus وأساطير أفلاطون لاستوارت Stewart

(٤) راجع Phaedo ، ٦٤ وما يليها ·

(٥) Rep. ١٠ : ٦١١ ·

وحدة مركبة من ثلاث قوى : العقل وهو الموهبة الفلسفية والسلطة العدل فى اقتصاد الروح الذى يضمن حكمه الانسجام فى الداخل وكذلك مع العقل القريب له فى الأرواح الأخرى وفى الكون ، ثم الموهبة « النشيطة » أو العاطفة المندفعة ، المشاغبة وهى الخادم الطيع للعقل ولكنها عرضة اذا لم توجه ، لأن تقود الروح الى الانحراف فى طريق التوكيد الذاتى والشهوات التى ترتبط بالمتع الجسدية ، بعضها مشروع والبعض الآخر غير مشروع ولكنها جميعا لا يشفى لتعطشها للرضى غلة واذا لم يقومها العقل فى صرامة فانها تهوى بالروح فى مضطرب من الفوضى والتفكك . ويمكننا أن نتصور وراء مظهر الرجل ، الخارجى ، مخلوقا يتركب من ثلاث طبائع ـ تلك التى لرجل (العقل) ولأسد (العاطفة) والعدار hydra [١] ذى الرءوس العديدة (الشهوات) [٢] . ومنهاج « الجمهورية » الخلقى والتعليمى يستند فى معظمه على هذه التفرقة النفسية مثلوثة العرى ، فمثلا صورة ثلاثة أنواع من الحياة ، ألهم بها على التعاقب ، حب المتعة وحب الشرف وحب الحكمة وتحليل الفضيلة الخلقية الى ثلاث الصور المعينة ، الحكمة والشجاعة والاعتدال ، التى ترجع الى أصل واحد وهو العدالة والمبدأ الذى يعاون كل قسم فى النفس على القيام بعمله المناسب ، فى اقتصاد المجموع ويضمن انسجاما أو « موسيقى » فى الروح بأجمعها وتقسيم التعليم الى موسيقى وألعاب بدنية وأنواع تقويم الشهوات و « المزاج » ، التى تكون الأساس الخلقى المطلوب لاستخدام العقل فى الأعوام الأكثر نضجا وأخيرا تصور الفلسفة على أنها تحويل الروح من ظلمة عالم الحس الى نور عالم الصور وعلى أنها استعداد يستمر مدى الحياة ، لمراس العقل مراسا لا يعوقه عائق فى عالم ما وراء القبر [٣] .

٢٢ ـ وعلى النقيض من أولئك الذين كانوا يعتقدون أن الأخلاق ما هى الا مجرد عرف وأن الفرد يجد سعادته الحقيقية فى حياة توكيد الذات ، بين

---

(١) العدار هو فى أساطير اليونان حية عظيمة قتلها هرقل وزعموا أنه كان لها تسعة رءوس كلما قطع رأس منها نبت آخر . وفى أساطير العرب دابة فى اليمن لها شىء أعظم من رءوس عدار اليونان ـ المترجم عن معجم الحيوان لأمين المعلوف .

(٢) « الجمهورية » : ٩ ، ٥٨٨ ـ ٩ قابل تشبيه مركبة الروح Phaedrus ، ٢٤٦ وما يليها .

(٣) عن علم النفس عند أفلاطون وتطبيقه على علم الأخلاق وتعليم الصغار راجع « الجمهورية » : ٢ ـ ٤ ولتدريب العقل تدريبا عاليا ـ « الجمهورية » : ٧ (وخاصة القصة الرمزية عن المسجونين فى الكهف) وكذلك عجالة نتلشب Nettleship عن نظرية التعليم فى « جمهورية أفلاطون » فى المجلد بعنوان Hellenica

أفلاطون كيف أن الانسان فى صميم كيانه ، عينه ، تميز بالتعاون الاجتماعى وقد صاغ موقفين لهما ارتباط وثيق وهما أن كل فرد له بطبعه قدرة فريدة تحدد وظيفته الخاصة فى المجتمع وأن هذه الوظيفة يمكن فقط القيام بها على الوجه الأتم ، حتى تجلب السعادة للقائم بهـا ، عندما يكون المنظم لهـا ، « الخير العام » [١] . ان «اقتصاد» الدولة يتوقف على نفسية المواطنين ، وهذا التماثل بين دولة ـ المدينة والفرد يتحكم فى صورة طرزهما ، الخيرة والسيئة خلال « الجمهورية » بأجمعها . ويلزم تقسيم الوظائف الاجتماعية على أساس خصال المواطنين الفردية ، فأولئك الذين تغلب فى نفوسهم الشهوة يؤدون العمل البدنى بأن يمدوا المجتمع بحاجاته المادية كالصناع والزراع ، والنفوس « النشيطة » تكون الطبقة العسكرية ، والنفوس « الفلسفية » التى برهنت فى اختبارات متكررة على قدرتها على حياة العقل ، يوكل اليهـا أعـلى مهمة وهى الحكم . وبهذا يخلص أفلاطون ، فى خلال خطوات منطقية ، الى نقيضته المشهورة « الى أن يصبح الفلاسفة ملوكا والملوك فلاسـفة فلن يكون خلاص للدول أو لأرواح الناس » [٢] . ولن يكون خلاص للدولة بما أن العقل هو القوة الكامنة فى الروح ، التى تدعو الى الوحدة . وتحقيق العقل فى الحياة الفلسفية هو الضمان الوحيد من الفوضى الاجتماعية ولا يكون خلاص لروح الفـرد لأنه اذا لم يكن للعقل السـيادة فى المجتمع ، فلن يسـتطيع أى فرد مقاومة ما للرأى العام وغوايات العالم [٣] من تأثير مفسد . ولما كان يعتقـد أنه فى مقدور الفيلسوف أن يصل فى مدرجة حياته الدنيوية الى قصـارى المعرفة التفكيرية فى رؤية الخير المطلق فقد استخلص النتيجة اللازمة الطبيعية فى أن الفشل فى التوافق فى السلوك مع تلك الرؤية ، كان مما لا يمكن تصوره وكانت المعرفة فى هذا المستوى الرفيع تتطلب توافق السلوك . وكان من المستحيل ارتكاب الخطيئة ضد النور . ولقد آزرت المسيحية فى الحـال المبدأ الأفلاطونى وأدخلت عليه التعديل . فمن جهة كان للمفتدين فى النعيم الذين يستمتعون برؤية الله رؤية مباشرة ، الخير المطلق non posse peccare

ومن جهة أخرى لم يكن فى مقدور الناس فى هذه الحيـاة الوصـول الى تلك الرؤية المباشرة حتى فى المستوى الأعلى من التأمل التألهى . والقديس ، على الرغم من كل قداسته ، يظل خاطئا . انه يرى الله فقط « من خـلال

---

(١) راجع الجمهـورية : ٢ ، ٣٦٩ وما يليها ويعبر عن مطالب التوكيد الذاتى فى الفرد ثراسومخس Thrasymachus فى الكتاب الأول ، وغلوقن Glaucon وأديمنطس Adimantus فى بداية الـكتاب الثـانى وقليقلس Callicles فى غرغياس Gorgias

(٢) الجمهورية ٥ ، ٤٧٣ .

(٣) الجمهورية : ٦ ، ٤٩٢ .

زجاج ، فى ظلام » per speciem in aenigmate وليس « وجها لوجه »
وصورة الخير عند أفلاطون لم تكن هويتهـا الله (الذى كان « روحا » وليس
« صورة ») ولكن كان يمكن للفيلسوف معرفتها « وجها لوجه » وعلى هـــذا
وقد واتاه بعض الالهام من الاعتقاد بأنه فى مجتمع كامل يجب أن تكون كل
الأشياء مشتركة ويشعر كل عضو بالفرح والحزن فى فرح وحزن كل واحد
غيره ، وبعض الالهام الآخر من شعور بالخطر ، حتى على القلة المختارة ، من
لعنة المصالح الخاصة فان أفلاطون كان ينكر على الطبقات الحاكمة الاستحواذ
على الممتلكات الخاصة واستبدل بالمنزل الخاص أسرة ـ دولة واحدة ينظمها
الملوك والفلاسفة فى حزم لا هوادة فيه · وفى هذه الشروط نرى على الفور
شوق أفلاطون العارم للوحدة وادراكه الواضح لعوامل الشر التى هى أبدا على
أهبة لأن تؤكد مطالبها فى حياة الفـرد والمجتمع · ولقـد تآلفت مثاليتـه
الصارمة ومنطقه الذى لا هوادة فيه ليؤديا به ، فى مزاج مؤسس نسـك بأن
يقصى عنه كل المغريات ، كالممتلكات الخاصة والفن الفاجعى ، التى قد يرجح
أن تثير الاباحية الخلقية · وهو ينحى على عالم زمنه وعلى الأخص نغمة أثينا
القرن الرابع ، السياسية والخلقية ، باللائمة ، فى «الجمهورية» دون تحفظ ·
وكان يظهر له أن الفرد الأثينى قد قذف به بعيـدا عن اتجاهه السـوى فى
طوفان من الفساد العاطفى وأن الدولة الأثينية قد مزقها اربا التشيع الحزبى
والتعاظم الذاتى فى قادتها · واذا كانت نفوس الناس أو المجتمعات الانسانية
لتظفر بالخلاص ، فيجب أن يكون هذا عن طـريق تغير أسـاسى فى القلب ،
تغير يحمل معه تقويم الذات تقويما عنيفا وثورة فى مبادىء الحياة والحكومة ·

وتذكرنا بصيرة أفلاطون النفاذة ، فى شر طبيعة الانسان واحساسـه
المرير بأن المجتمع الواقعى لا رجاء فيه ، مرارا كثيرة ، بتولستوى ولكنه كان
يختلف عن تولستوى فى أنه كان أيضا على الدوام فيلسـوفا · وكان علاجه
لمساوىء العالم هو أن توضع السلطة فى أيدى أولئك الذين يعلمون ، فانهم
دون سواهم ، الذين وصلوا ، كثمرة لتدريب عقلى وخلقى مديد ، الى معرفة
وحب الخير الأعظم ، هم المؤهلون لتكييف خليقة المواطن وتوجيـه سياسة
الدولة · وعلى النقيض من المثل الأعلى عند الديموقراطية البركليسية فان
أفلاطون يبشر باشتراكية الأساتذة ·

وفى تشبيه شهير جاء فى الكتاب السـادس من « الجمهورية » ، يمثـل
الشعب الأثينى بربان سفينة دمث الطبع غير أنه متكاسل ، سـهل التـأثر
بتملق النوتية الدهاة الذين يتنافسون الواحد منهم مع الآخر فى التزلف
اليـه ليوكل سكان السـفينة لواحـد منهم ، ولم يكن واحـد منهم قـد
تعلم قط فن الربان أو أوتى المعرفة الحقـة التى يكون فيهـا صالحا لقيـادة
السفينة على الطريق الأقوم · وطوال الزمن يظل الربان الحقيقى الذى أتقـن
مهنته مهملا ووحدا وعلى هذا ، فى رأى أفلاطون وقع الشعب الأثينى فى أيدى

مغامرين لا يقيمون وزناً لشيء وليسوا بأكفاء · بينما الفيلسوف بحقه الطبيعي ، الحاكم ، الخليق بالحكم بنشأته ، يحكم عليه بخمود حياته الخاصة [(١)] ·

٢٣ — ولا حاجة للقول ان أفلاطون فشل في اقناع مواطنيه وواصلت آثينا سيرها حتى مجيء المغير المقدوني · ولما كان لا يعتريه كلال في جهوده في القيام بالاصلاح العملي فقد زار ، ثلاث مرات ، سيراكوز الصقلية والأمل يحدوه في أنه كناصح لطاغية ، قد ينجح في انشاء الدولة التي تقوم على أساس فلسفي ولكن كان قد وصل في « الجمهورية » الى الرأي بأن المدينة المثالية كانت « أنموذجا أقيم في السماء » لا يمكن تحقيقها تحقيقا كاملا على الأرض [(٢)] · وفي اثنين من الديالوجات الأخيرة « السياسي » و «القوانين» عبر عن مزاج أكثر اعتدالا نحو الصور الموجودة للحكومة وفي مصنفه الأخير وضع تخطيطا مجملا لسياسة في المستوى الثاني تكون مجالا للمثل الأعلى الذي يتكافأ مع حقائق الحياة ولكن وظيفته الحقة في خلال الأربعين سنة الأخيرة من حياته كانت في الأكاديمية كلية البحوث العلمية والفلسفية التي أسسها ومنحها الهبات · ويمكن أن تقيم الأكاديمية وهي على حق ، الدعوى في اعتبارها أقدم جامعة في التاريخ · وكان الطلاب يهرعون الى هناك من جميع أنحاء العالم الهليني وخاصة أدكسس Eudoxus [(٣)] وهو رياضي وفلكي من كوزكس Cyzicus وأرسططاليس الشاب من ستاجيرا ، على الساحل المقدوني · وكان أعضاء المدرسة يسهمون في حياة مشتركة ويقيمون في الأكاديمية وينهمكون لا في الدراسات الفلسفية الخالصة فحسب ، ولكن في البحوث ، في الرياضيات وعلم الحياة ومسائل الأخلاق والقضاء · وكان من بين جلائل أعمالها وضع الهندسة المجسمة ، ولقد نادى أفلاطون عند وضع تخطيط مجمل ، لمنهاجه في الدراسات العليا ، في « الجمهورية » بمعاونة الدولة لهذا العلم الجديد [(٤)] · ويرجع أساس النهج الذي سار عليه بعد ذلك الفكر والمراس التعليمي في العصر الاغريقي — الروماني وفي العصور الوسطى على السواء ، الى انشاء أفلاطون للأكاديمية ولقد جرت العادة في البحث عن المصلحين في التشريع من بين صفوف المدرسة · وآخر مصنفات

---

(١) الجمهورية : ٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٦ ·

(٢) الجمهورية : ٩ ، ٥٩٢ ·

(٣) عن أدكسس راجع هيث Heath في « تراث اليونان » الصفحات ١١٧ وما يليها وقد كشف عن نظرية التناسب التي جاء شرحها في اقليدس الكتاب الخامس وكذلك منهج الفناء في قياس المساحات والمجسمات منحنية الأضلاع ، الذي أفاض فيه بعد ذلك ، ارخميدس ·

(٤) الجمهورية : ٧ ، ٥٢٨ ·

أفلاطون «القوانين» هو مثل لهذا الفرع من بحوثها [١] . وللأكاديمية تاريخ طويل باقي الذكرى . لقد كانت النموذج للمؤسسات التى جاءت بعد ذلك مثل كلية أرسطاليس فى اللسيوم Lyceum « الملعب الرياضى » وكليات الرواقيين والأبيقوريين واستمرت قائمة كموطن مركزى للتعليم الأفلاطونى طوال ألف سنة الى أن قطع الاعانة نهائيا عن المدارس الوثنية وألغى نظامها ، الامبراطور المسيحى جوستنيان (٥٢٩ م) .

٢٤ — لقد ظهرت فلسفة أفلاطون ، بسبب اعراضها عن الدنيويات ومثاليتها الكاملة، التى لاتقبل انتقاصا، لعقول كثيرة، أكثر قربا لروح المسيحية منها لروح اليونان التى كانت تتطلع الى هذه الحياة وفرصها لارضاء مطامح الانسان العقلية والخلقية . وفى هذا التوكيد صدق ، ولو أن للاختلافات أهمية حيوية أكثر من التشابه . ان مبادىء أفلاطون عن خلاص النفس عن طريق تقويم العقل تقويما شاقا وقيام أرستقراطية علمية بالتوجيه الروحى للمجتمع ، تقصينا فى شوط بعيد ، عن المثل الأعلى لحكومة روحية يكون دخولها ليس للحكيم والمتعقل ولكن بروح الطفل الصغير . وعلاوة على هذا ، فقد قام الدليل على أن أصول التصورات فى فكر أفلاطون ، أتت بالثمار فوق ما كان يتوقع ، فى صوغ المثل الأعلى الهلينى فى الحياة . وظل الاعتقاد الذى عبر عنه فى « الجمهورية » بأن أسمى حياة ليست حياة المتعة أو السلطان ، ولكن حياة التأمل ، المثل الأعلى الذى كان له السيطرة على الفكر القديم . وعندما فقدت دولة — المدينة استقلالها وأوصدت الحياة العملية للنشاط العام أمام المواطن الاغريقى فان أحسن العقول شغلت نفسها ، فى زيادة مطردة ، بالسعى وراء المعرفة . ان أرسطاليس ولو أنه كان على نقيض أفلاطون ، فى الكثير الغالب ، فانه مع هذا يقيم البناء فى كل مرحلة ، على أسس أستاذه ويمكن بالحرى أن يعتبر أول أفلاطونى عظيم أسهم فى اعتقاده بأن حياة الفلسفة هى الحياة التى تجد فيها الروح أتم رضى وتقرب قربا عظيما مما هو الهى . وفى القرون التى ترادفت بعد ذلك ، كانت نفس العقيدة يشترك فيها على السواء الأفلاطونيون والأرسطاليون والرواقيون والأبيقوريون [٢] ولم

---

(١) ان وضعه لمدونة القانون الاغريقى وخاصة الأثينى ، كما تطور فيما بعد ، كان له تأثير عظيم على القانون الهلينى وعن طريق القانون الهلينى ، على القانون الرومانى ، راجع ما يلى فصل ٧ § ٦ تذكرة ٢ .

(٢) وخاصة أشياع الأفلاطونية الحديثة راجع السفر الثانى فصل ٩ ١٠ — ١٤ .

تكن محصورة فى العالم الوثنى · ولما انتزع عنها التفسير العقلى الخاص بها ، بصفتها حياة الفلسفة فان المثل الأعلى لنشاط التأمل ، أصبح يسيطر على مسيحية القرون الوسطى (١) واصبحت مريم ومرثا اللتان ذكرهما الانجيل تمثلان نوعين من الحياة ، الحياة النظرية وحياة العمل والنشاط وقد اختارت الأولى النصيب الأفضل · ان قيام الرهبنة وكتابات دانتى وفنون النحت التى تزدان بها كاتدرائيات العصور الوسطى كلها شواهد على السيطرة التى ظفرت بها هذه الفكرة ، وهى نتاج العبقرية الهلينية والعبقرية المسيحية مجتمعتين ، على مطامح البشرية ، الروحية · ان أفلاطون مثل جميع عظماء الاغريق ، سواء أكانوا فى الأدب أم فى الفلسفة ، له اعتبار شىء ذى نفع عام · وكلما تعرض روح الانسان عن عالم الحس والتغير وتتجه صوب ما هو أبدى ولا يتغير وله وحدانية ، سواء أكان فى التأمل العقلى أم الدينى ، فانها تكون قد أقامت دعوى القوابة بروح أفلاطون ·

(١) راجع ما يلى فصل ١١ ·

تذكرة إضافية

من بين الاسئلة الحلقية التى كان المفكرون فى عهد الاستنارة فى القرن الخامس فى اليونان يلقونها على أنفسهم ، كأن يوجد سؤالان يتشوق اليهما القارئ فى عصرنا ، بصفة خاصة وهما (أ) مسألة مركز النساء فى المجتمع (ب) مسألة الرق ٠

أ ـ مركز النساء [١] :

فى الخطبة الجنازية كما أوردها ثوديديس ، خاطب بركليس النائحات من النسوة بكلماته المعروفة تمام المعرفة : « اذا كان لزاما على أن أتحدث عن الفضائل النسوية الى أولئك من بينكن اللواتى سيصبحن أرامل منذ الآن فاسمحن أن أجملها فى نصيحة واحدة وجيزة : انه لمجد عظيم ألا تظهر المرأة ضعفا أكثر مما هو من طبيعة جنسها وألا يتناولها الحديث بالخير أو بالشر بين الرجال» [٢] ٠ وهذه العاطفة التى لا يمكن تصورها على شفتى رجل سياسة معاصر يقدم تعزية علنية لثكالى الحرب ، لا بد أنها كانت تظهر مناسبة للمقام تماما لدى غالبية مستمعى بركليس من الجنسين ٠ ومنذ قرن قبل ذلك ، كان ثيوجنس قد كتب « اننى أمقت المرأة التى تتملكها نزعة الاندفاع هنا وهناك » وبعد ذلك بقرن ، أعلن مناندر Menander « ان باب المنزل هو حد المرأة الحرة» ٠ولم يكن للنساء دور فى حياة أثينا العامة المدونة ٠ ومع هذا ، ففى الفن والشعر كما فى الدين ، فانهن حاضرات فى كل مكان ٠ وقد يكن حينا موضوع شفقة وحينا آخر موضوع رعب وقد يضفى عليهن المثل الأعلى فى فزع ، أو يؤنى عليهن بالتحليل فى تدبر دقيق ، ولكن لايهمل شأنهن أبدا ٠ كانت بطلات هومر يستمتعن بوقار وحرية يتناقضان مع خضوعهن وانعزالهن فى الأزمنة اللاحقة ولو أنه من الجائز أن فروسية الآخائيين ، كفروسية العصور الوسطى ألقت على زوجات وبنات الرؤساء هالة من الرومانسية « الابداعية » أنكرت على النسوة من أصل

---

(١) راجع بالاضافة الى المراجع الموضحة فيما بعد ، أكسنوفون Oeconomicus (ترجمة دكينس Dakyns) ، وبنيكى Benecke «النساء فى الشعر الاغريقى» Women in Greek Poetry وزمرن Zimmern الجزء الثالث فصل ١٢ ٠

(٢) ثقو٠ : ٢ ، ٤٥ ترجمة جوت Jowett ٠

وضيع (١) . ولا يوجد أدب فاجعي فيه مثل هذه الوفرة من صور النساء كما في الادب الاغريقى ، الذى لم يهمل أى مظهر من مظاهر البشرية النسوية ـ الا (حتى الأزمن الهلينيستية) الحب الذى يقع بين فتى وفتاة ، بغير أن يرتاد (٢) . ان كلتمنسترا Clytaemnestra وأنتيجون Antigone وميديا Medea وفيدرا Phaedra والسستس Alcestis يقفن فى مستوى بطلات مآسى شكسبير ، العظيمات . وفى حياة الاغريق الواقعية ، لا نتبين الا القليل الذى ينطبق على هذا الاهتمام . والمرأة الوحيدة التى كان لها شأن يذكر فى التاريخ الأثينى اسفزيا Aspasia كانت أجنبية وارتبطت ببركليس فى رابطة ليس فيها تكافؤ (٣) . وفى اثينا كانت دائرة المرأة المنزل. أما دائرة الرجل ، من الناحية الأخرى ، فكانت المدينة ولم يكن للمنزل الا شأن يسير فى حياته . وفى اسبارطة ، لأسباب عسكرية ، كان يسمح للنساء بحرية أعظم وقد كن يتدربن على التمرينات العلنية حتى يشببن أمهات جنود ، قويات ـ ولقد انبئنا أن النتيجة هى أنهن كن ، على ملاحتهن ، سريعات الحركة ، يملن الى الترف والبخل والعصيان وينزعن الى الدسائس السياسية (٣) . ولقد أثار ابعاد النساء عن الحياة العامة الاغريقية الكثير من

---

(٣) ومن المرجع أيضا ، كما يذكر الاستاذ مرى **Murray** (نهوض الملحمة الاغريقية صفحة ٧٥ Rise of the Greek Epic p. 75) ، ان تقليد نظام الأمومة الذى كان حينا من الزمان سائدا فى العالم الايجى ، بقى بعد الغزو الأخائى . ويشير نفس الكاتب (ص ١٢٤) الى أنه فى الالياذة ، كملحمة حرب ، لا نسمع الا القليل عن النساء (الا فى نصين عظيمين الالياذة ٣ و٦ ، ٢٣٧ حتى النهاية) فى طروادة . ويظن أنه فى الحملات العسكرية ، كانت النساء محظورات . ولقد كان صموئيل بتلر يصدق النقيضة الشيقة أن امرأة كتبت الأوديسيا وربما كانت نوسيكا Nausicaa (انظر كتابه « مؤلفة الأوديسيا ») .

(٢) ان الاستثناء الوحيد فى رواية باقية لدينا من العصر الاتباعى هو حب هيمن Haemon وانطيجون فى « انطيجون Antigone » لسفوكلس. وفى « المسلاة الجديدة » فى القرن الرابع يكون الحب بين فتى وفتاة ، الذى ينتهى بالزواج موضوعا شائعا .

(٣) بعد قانون عام ٤٥١ ، الذى كان ينص على أن كلا الوالدين يجب أن يكونا مواطنين ، اذا كان الأطفال ليعتبروا شرعيين ، أصبح هذا الزواج الثانى من النسوة غير المواطنات ، امرا ذائعا ولم يكن يلحق به شين .

(٤) وفى زمن لاحق، أصبحن يملكن جزءا عظيما من الأراضى الاسبرطية. وعن النسوة الاسبارطيات ، راجع أرسطاليس « السياسة Politics ٢ ، ٩ وكذلك أفلاطون : القوانين ٧٨٠ وما يليها و Protag., ٣٤٢ : و Euripides ، Andromache ، ٥٩٥ وما بعدها .

الاعتراضات فى القرنين الخامس والرابع . ومما يدل على أن خطط الاصـــلاح كان يدور التفكير فيها ، المسلاتان ليسستراتا Lysistrata (٤١١) وبرلمان النســاء Ecclesiazousae (٣٩٢ أو ٣٨٩) وفيهمــا نال أرسـطوفانس مطالبهن فى التحرر ، بالتقريع . وكان يوجد بين الكلبيين نسوة مبعوثات ، ولقد كانت تجيش في يوريبيدس عاطفة من الاشفاق والاشمئزاز لمصير النسوة اللواتى كان يفرض عليهن عند الوضع تحمل آلام أشد قسوة من تلك التى يلاقيها الرجال فى معمعة القتال [1] . ولقد تأثر أفلاطون من ضــياع مادة طيبة لخدمة الدولة . وكان يعتقد أن الاختلاف بين الجنسين لم يكن اختلافا فى النوع ولكن فى الدرجة . كانت النساء فى الواقع أضعف من الرجال ولكن لسن أقل قدرة على أن يسهمن فى وظائف المدينة بما فيها وظيفة السـيادة الفلسفية ويمكن أن يكون للنساء مكان فى كل من الطبقات الثلاث فى مدينته المثالية . وكما يسهمن فى الوظائف فكذلك يسهمن أيضا فى تعليم الرجال ولا يوجد تفكير هنـا فى « حقــوق المرأة » وكان لزاما أن يتبــع فى تعليمهن المناهج الموضوعة للرجال ، ليس لصالح جنسهن ولكن لصالح المجتمع ويسير النص بأجمعه الذى جاء فى الكتاب الخامس من « الجمهورية » على مذهب المنفعة الى حد عظيم . وعلاوة على هذا ، فان أفلاطون يقترح الغــاء البيت الخــاص وادماج جميع المواطنين من كلا الجنسين فى أسرة ــ دولة واحدة والارتباطات الزوجية وتربية (أو التخلى عن) الأطفال والتغذية فى بواكير الطفولة يجب أن تسيطر عليها ، بصفة شاملة ، الحكومة [2] . وكانت الدوافع التى جهر بها :

(أ) تحسين النسل للمحافظة على نوع الطبقة الحاكمة .

(ب) الخوف من التفرق والتشيع المدنى (Stasis) اللذين ترجع نشأتهما الى المصالح والممتلكات الخاصة .

(جـ) مطمح مثالى الى مجتمع لا يعرف تفرقة بين «مالى» و «مالك» ، ولكن يدق فى نبض واحد ينتظم جميع الأعضاء [3] .

---

(١) "Medea", Eur. : ٢٤٨ وما يليها ومناجاة السستس Alcestis لنفسها فى الرواية التى تحمل اسمها يستفاد منها أمور كثيرة عند موتهــا سيصيب طفلها الابن حظه ولكن ما سيكون من أمر البنت ؟

(٢) ان وأد الأطفال ، الذى يرجح أن أفلاطون أقره فى بعض الحالات ، كان شائعا فى كثير من المجتمعات القديمة ولو فى غير أثينا على ما يحتمل . ان خطب اساوس Isaeus تقدم الأدلة على ما يناقض هذا . لقد كان ، على وجه عام ، الأطفال من الاناث هم الذين يلاقون هذا المصير .

(٣) انظر الجمهورية : ٥ .

وأخيرا وطن أرستطاليس نفسه على حصر مشروعات المصلحين من الأحرار المتطرفين في داخل حدود الحس المشترك . واعتقد ، على عكس افلاطون ، أن النساء يختلفن عن الرجال في النوع وعندهن نقص في القدرة العقلية والقدرة الخلقية ولو أنهن لا يفتقرن كلية اليهما . وعلى هذا فبينما يحال بينهن وبين حق المواطنين الكامل ، يجب أن يحكمهن الرجال حكما دستوريا لا حكم طغاة ، كالعبيد . ويجب أن يستمتعن بحرية محدودة ويلقن تعليما ، جعل بحيث يتناسب مع وظيفتهن الثانوية في دولة ـ المدينة ، وما يظهر أنه كان متأثرا به هو عدم وجود فطنة علمية لديهن وخصيصة العقل الذي يكون له السلطان [١] . ويمكننا أن نسمعه يردد صدى صوت تفوق الذكور في كل عصر : « كوني طيبة أيتها الفتاة الحلوة ، ودعي من له القدرة » ـ والرجال ـ « كونوا مجتهدين » وظل على اتصال وثيق بالفكر الاغريقي السائد وهو يضع فيه خميرة من بهار التحرر ولكن في معالجته للقيم المثالية وحقائق الطبيعة البشرية ، على السواء ، فانه كان يتخلف عن أفلاطون شوطا بعيدا.

ب ـ الرق [٢] :

كان الرق بين الاغريق ، كما كان على وجه عام خلال الأزمنة القديمة جزءا من نظام تقليدي وبهذه الصفة كان يقبل دون سؤال . ونقرأ في هومر وخاصة في الأودسيا عن عبيد ـ قليلي العدد نسبيا ـ يؤسرون في القرصنة أو الحرب . لقد كان مصيرا يمكن أن يلاقيه أي انسان . كان يومايوس Eumaeus ويوروكليا Eurycleia عريقي النسب ولو أنه كان يشطر عن الضحية « تصف رجولته » فلم يكن يترتب عليه أي عار . كان يومايوس يستمتع « بحياة طيبة » كملحق بالأسرة ، مكرم ويتحدث الى أسرة سيده كما يتحدث رجل الى رجل . وكانت خطوط الفواصل الاجتماعية أقل حدة في تلك الأزمن الأكثر بساطة [٣] .

ويظهر في العصر التالي مع الغزو الدوري نوع من الرق جديد . ان الرقيق كانوا آهلين مقهورين يرتبطون بالأرض كالعبيد في اسبرطة Helots Penstae, في ثساليا ، وبعد ذلك أيضا ، جلب انتشار الصناعة والتجارة في أعقابه تجارة الرقيق في العالم الايجي ، والمناطق الرئيسية التي كانوا يؤخذون منها كانت بين همج آسيا الصغرى وتراقيا والأراضي التي تقع

(١) راجع على الأخص « السياسة » : ١ ، الفصلين ١٢ ، ١٣ وما وجه من نقد الى « الجمهورية » في ٢ الفصول من ٢ ـ ٤ .

(٢) راجع عن الموضوع زمرن فصل ١٥ وقاموس سمث عن الآثار والفن Smith's Dictionary of Antiquities, Art. servus.

(٣) عن يومايوس Eumaeus راجع الأودسيا : ١٥ ، ٣٨٠ وما يليها .

حول أكسين ، وكانت الأسواق الهامة ، في الولايات البحرية التى كانت تسيطر على تجارة النقل مثل خيوس وبعد ذلك أثينا • وفى أثينا ، كان يستخدم العبيد : (أ) فى البيوت للأعمال المنزلية وليس كما كانت الحال بعد ذلك فى روما ، للمتعة (ب) فى الصناعات العظيمة وخاصة فى مناجم الفضة فى لوريون I aurion (جـ) كرقيق دولة ألخ ، كمجدفين فى السفن الحربية [(١)] • وقد أوردت قائمة الاحصاء عن سنة ٣٠٩ ، عددا من العبيد يبلغ ٤٠٠٫٠٠٠ فى أتيكا • وكانت الغالبية العظمى همجا أما الأسرى الاغريق فكان المجال مفتوحا أمامهم للفدية • وكان يوجد ما يخفف من مصير الرقيق الأثينى العادى ويمكن مقابلته مقابلة موفقة بمصيره فى عصر لاحق فى روما أو فى مزارع ملاك الرقيق المسيحيين فى زمننا الحاضر • وكان القانون الأتيكى يبسط حمايته على الرقيق ولم تكن حياته رهن مشيئة سيده • وكان تعذيب الرقيق محصورا داخل حدود محكمة ، ولم يكن يوجد تمييز فى الملابس بين الرقيق والأحرار ولو أنهم كانوا ممنوعين عن ارتياد المعابد وميادين وأبنية الرياضة والحديث Gymnasia ، والجمعية العمومية ، فانهم فى الكثير الغالب كان يسمح لهم بحرية الكلام والعمل • ويدعو اكسنوفن الرقيق « الزميل العامل » للمواطن ، الذى يجب أن يحكم بالحث وليس بالعنف ويوعز اليه بأن يعمل عن طيب خاطر على أمل التحرر • وهو يأتى بالتعليق على اللين الذى يعامل به العبيد فى أثينا وحكمه تؤيده الصور المرسومة فى « المسلاة الجديدة » وتقريع أفلاطون الساخر للاباحية التى يتصف بها الرقيق فى الدولة الديموقراطية [(٢)] • ولقد أصبحت عادة شائعة أن يمنح السيد رقيق منزله العتق اما فى حياته ، واما فى وصية عند موته • ودون ريب ، كان يختلف مصير الرقيق اختلافا عظيما تبعا لمركزه كخادم أسرة أو صبى مهنة فى التجارة أو مرة أخرى، بما فيه عثور جده، كمستخدم فى المناجم • والحقيقة البشعة كانت ماثلة خلال التاريخ الاغريقى كله • ولكن التوكيد بأن المدنية الاغريقية كانت تعتمد على الرق كأساس لها ، يصدق فقط بتحفظات والأمران لا يختلف الواحد منهما عن الآخر اختلافا فيه تناسب • كان الرق على مجال واسع قد جاء لاحقا لقيام الفن والعلم الهلينى

---

(١) كان الرجل الفقير يمتلك عبدا واحدا لمنزله وقد يقتنى الغنى عددا قد يصل الى الخمسين • وكانت مساوىء الرق أكثر وضوحا فى المناجم • وقد كان نسياس Nicias يمتلك ألفا من الرقيق فى لوريون • قابل ثقو : ٧ ، ٨٧ عن محن الأسرى الأثينيين فى محاجر سيراكوز • ولقد أورد برواننج Browning فى قصيدته مغامرة بلاوستيون Balaustion's Adventure قصة ظفر بعض هؤلاء الرقيق بحريتهم بتلاوة يوريبيدس •

(٢) Xen. ، Mem. : ٢ ، ٣ ، ٣ والجمهورية Ath. : ١ ، ١٠ ـ ١٢ وأفلاطون : الجمهورية : ٩ ، ٥٦٣

وازداد كلما سار ذلك الفن وذلك العلم الى تدهور . ان الأمم الأخرى مثل مصر وأشور التى كانت تستخدم الرقيق فى اعداد أكثر وفرة عجزت عن أن تحقق ثقافة يمكن مقابلتها بثقافة اليونان . وعلى ذلك فلا يمكن تفسير الصفة الفريدة التى اختصت بها المدنية الاغريقية ، على أنها ترجع الى الرق . وفوق كل شىء كان الاغريق أول من ناقش المبرر الخلقى له [١] . حتى لو أن ثقافتهم كانت ترجع الى الرق ، فكذلك كان أيضا فكر أولئك الذين وصلوا ، مثل السفسطائيين ، الى أصول هذا الشر . لقد كان موضوعا عاما بين شعراء وفلاسفة القرنين الخامس والرابع ، أن الرق لا يقوم على أسس طبيعية ولكن على العرف . ولقد كان الكلبيون ينادون فى جسارة بالتحرير . وكان السفسطائى ألكيداماس Alcidamas يبشر فى أرجاء اليونان بأن « الاله خلق جميع الناس أحرارا وأن الطبيعة لم تستعبد أى انسان [٢] . وقد نعى أفلاطون استعباد الاغريقى للاغريقى [٣] . وعلى هذا المثال فعل أرستطاليس الذى عالج الموضوع فى « السياسة » كالعهد به ، بروح مصلح محافظ [٤] . وكان يعتقد أن العبيد بالطبيعة كانوا ، مثل معظم الهمج ، أولئك فقط الذين بسبب قصور فى العقل والقدرة الخلقية فقدوا أهليتهم للاشتراك فى حياة دولة ـ المدينة . ومثل هؤلاء الرقيق «الطبيعيين» كان مقضيا عليهم بالعبودية كأدوات لازمة للحياة الخيرة ، للمواطن الهلينى الحر . لقد كانوا وسائط لغايات آخر ، ولم يكونوا غايات فى أنفسهم وفى لغة زمن جاء بعد ذلك كانوا « متاعا » ولم يكونوا « أشخاصا » ويجب أن يحكم الرقيق حكما استبداديا ، لصالح سيده ، وليس لصالح الرقيق ذاته الا أن يكون ذلك بصفة عارضة . وكان يجب حقا أن يعامل بروح انسانية ولقد ذهب أرستطاليس ابعد من هذا حتى صرح أن الرقيق ، بهذه الصفة ولو أنه لا قدرة له على حياة العقل ولا يستطيع أن يكون له أية علاقة صداقة (philia ـ رابطة الاتحاد الاجتماعى) مع سيده ، فان مثل هذا الارتباط قد يكون ميسورا له بصفته انسان . ان منحاه يتناقض تناقضا ظاهرا مع المثل الأعلى المسيحى للروح الانسانى . وعند أرستطاليس لا يكون للفرد من الناس ، على شاكلة هذا ، قيمة جوهرية ولم يخطر له على بال أبدا أن

---

(١) راجع مرى : نهوض الملحمة الاغريقية الصفحات ١٦ وما يليها .

(٢) وهكذا يوريبيدس Ion : ٨٥٤ ـ ٦

« الاسم فقط هو الذى يرى فيه العبد عارا
وفى كل الأمور الأخرى ، فان رجلا كريما استعبد
لا يقل مستوى عن طبيعة الحر » .

(٣) « الجمهورية » : ٥ ، ٤٦٩ . يظهر أنه لا يوجد رقيق فى « الجمهورية » وفى « القوانين » حيث يعترف بالرق ، توجد نصوص لتخفيف مساوئه .

(٤) راجع على الأخص « السياسة » : ١ ، الفصول ٣ ـ ٧ و١٣ .

السلالات المتخلفة يمكن أن تدرب حتى تصل الى القدرة على حياة أتم وتقرر مصيرها نسبيا . وكان أرفع وظيفة لهم هي القيام على خدمة حاجات المواطن الهليني المادية . ان طرق الحصر هذه طليقة في ظاهرها . لقد أدت عند الاغريق كما عند غيرهم ، الى مساوىء خلقية لا يرغب أي شخص في التخفيف من خطورتها . وان ما حدث من أن المفكرين الاغريق أدركوا وجود المشكل وحاولوا ايجاد حل له ، يدل على تقدم عظيم على كل ما تحقق حتى ذلك الحين في التاريخ . وفي قصر الرق على أولئك الذين لم يكن لهم قدرة على الحياة الحرة فانهم صاغوا مبدأ يمكن أن يتوسع في تطبيقه في نطاق لا حد له ومثال ذلك ما فعله الرواقيون . وتوجد مشاكل مماثلة في العالم الحديث ولو أن حالة الرق وطرازه قد عفا عليهما الزمن . وعلى سبيل المثال : كيف يمكن تحقيق مستوى من الثقافة ، رفيع دون التضحية بالكثرة في سبيل قلة تاح لها وقت فراغ وكيف تذاع المعرفة بين الجماهير دون المجازفة باستقرار المجتمع [١] . ان ما تسير عليه الأمور في عصرنا الحاضر كما يقوم عليه الدليل في معاملة السلالات المتخلفة والسير الرتيب وبشاعة الأحوال الصناعية في البلاد المتمدينة ، على السواء ، هو على نقيض صارخ مع المثل الأعلى الذي جهر به . وليس من اللائق لناقد أن يقذف حجرا على الاغريق القدامى ، لأن ما قاموا به فعلا كان دون مستوى وصايا أعظم مفكريهم .

---

(١) ان قراء روايات هنري جيمس Henry James لهم أن يعجبوا ، كيف يمكن للعالم المثقف الرائع الذي صور فيها أن يحتفظ بكيانه وهو بمعزل عن الرق الموجود افتراضا وليس فعلا ، في الجالبين لراحته غير المثقفين .

الفصل السادس

الثقافة اليونانية المقدونية

١ ـ الاسكندر

١ ـ بانبلاج فجر القرن الرابع نلج عالما جرى عليه التغيير · ولم تعد السلطة السياسية تتركز بؤرتها فى أثينا واسبارطة ، ولكن مكانها انتقل الى مراكز جديدة فى الشمال ، وبدأت أحلام حكم عالمى فى مجال لم يسبق له مثيل فى التاريخ الاغريقى تثير مطامح رجال السياسة والقادة العسكريين · ولم تكن لسيادة اسبرطة ـ قصيرة الأمد ، تلك التى أعقبت سقوط الامبراطورية الأثينية ـ الا أهمية يسيرة أو لا أهمية للمدنية ، وسرعان ما أيقنت المدن البحرية خواء دعوى اسبرطة الظافرة فى أن تكون محررتهم من نير الأثينيين ، وأن أصبع طغيانها الصغير أغلظ من حقوى أثينا · وكان العالم الاغريقى يتحرق خجلا وسخطا عندما أعادت فى صلح أنتالسيداس Antalcidas (٣٨٧) المدن الأسيوية الى ملك فارس ، ومما كان له مغزى أبعد فى خطورته ، اتجاه مركز الثقل السياسى صوب الشمال ، أولا الى طيبة فى بويوثيا عندما حطمت تشكيلاتها المتكتلة المتراصة مشاة الاسبرطيين الذين كانوا مرة ، أولى منعة ، فى لوكترا Leuctra (٣٧١) ثم عن طريق ثساليا الى مقدونيا · ان قيام مملكة مقدونيا هو الواقعة الأساسية فى تاريخ يونان القرن الرابع [١] · وكانت تربط المقدونيين آصرة قرابة مع الاغريق فى السلالة واللغة · ولما كانوا من سكان الجبال الأصلاب ومحاربين بنشأتهم ، ويملؤهم نشاط مضطرم ويخلصون الى رؤساء عشائرهم فقد حافظوا على عاداتهم البدائية التى كانت لغزاة العالم الايجى الأولين · على الرغم من قشرة الثقافة التى تحيط ببلاط كان قد رحب بؤلفى الفاجعة يوريبيدس وأغاثون Agathon · ان ملكا قويا داهية يستطيع أن يظفر ويستحوذ على اخلاص النبلاء الجامحين وأتباعهم ، كان ليجد فى هذا الشعب أداة رائعة لسياسة عسكرية عظيمة ·

---

(١) سمح للمقدونيين الذين كانوا قد حاربوا مع الاغريق ضد فارس بدخول الألعاب الألومبية ، عام ٤٧٦ ·

وفى الواقع كان مثل ذلك الملك ، فيليب الذى ارتقى عرش مقدونيا عام ٣٥٦ وهو فى سن الثانية والعشرين . وفى شبابه كانت تنشئته فى طيبة حتى يقدر الثقافة الهلينية ، وما كان أقرب لغرضه ، أن يتقن تنظيم المحاربين ، للمشاة المتكتلين المتقاربين (phalanx) . وعلى غرار بطرس الأعظم الروسى الذى استخدم المدنية الغربية لتوثيق شمل امبراطورية شبه همجية فقد نقل فيليب حاضرة ملكه من الداخل الى موقع ضاح على مقربة من الساحل وأعاد تنظيم مملكته ودرب المحاربين من رعاياه على فن الحرب .. وبهذا السلاح الذى صنعه فتح تراقيا الى الشرق وأفاد من التفرق الدائم بين الدول الاغريقية فى اخضاع مدن ايجا الشمالية وأمكنه أحيانا بالقوة وأحيانا بأعمال السياسة التى كان فيها أستاذا لا يجارى أمكنه بهذا كله الظفر بالسيطرة على تساليا واليونان الوسطى . وحاز ذروة النصر فى خايرونيا Chaeronea (٣٣٨) على جيشى طيبة وأثينا مجتمعين فغدت اليونان كلها تحت قدميه . وكانت خايرونيا ــ التى تتجلى فيها البطولة ، تعنى أكثر من فشل جهود دمستينس Demosthenes خطيب أثينا الوطنى ، لانقاذ دعوة الحرية الهلينية . لقد دق فى ذلك الميدان المشئوم ناقوس موت دولة ــ المدينة المستقلة . ومنذ ذلك الحين ، أصبح تاريخ اليونان السياسى تاريخ غزاتها المقدونيين .

٢ ــ وكان اخضاع اليونان فى اعتبار فيليب مجرد الخطوة الأساسية لتحقيق مشروع امبراطورية ،كان يعتمل فى عقول رجال السياسة والمفكرين فى اليونان خلال نصف قرن ونيف . وقد بينت هزيمة الغزاة الفرس عام ٤٨٠ تفوق جيش من المواطنين مدرب ، يدفعه الولاء لدولة ــ المدينة الحرة فى الحرب على الوفرة الهائلة من المجندين سيئى النظام والتقويم ، الذين كانت رابطتهم الوحدة فى الاتحاد ، خضوعهم المشترك لطاغية شرقى ــ وتعلمت فارس أن تعترف بهذا التفوق ، وقبل ختام القرن الخامس رحبت بزعماء العصابات المرتزقة من المغامرين العسكريين condottieri فى خدمتها بينما تمكنت بأربها السياسى وذهبها من بث الفرقة فى الوطن الاغريقى .

ولقد أوضح ارتداد ١٠٫٠٠٠ من المرتزقة الاغريق من قلب الامبراطورية الفارسية حتى الأكسين عبر أرض وعرة وبين آهلين معادين يناوئهم جيش من الأعداء ــ أن اليونان لا يمكن التغلب عليها حتى لو كانت الحرب على غير تربتها .

ومنذ تلك اللحظة (٤٠١ ــ ٤٠٠) خامرت فكرة حرب انتقام ، غزو يونانى لفارس ، عقول القادة الاغريق[1] . ولقد رأى الفلاسفة وأصحاب

---

(١) مثل الملك أجسيلاوس Agesilaus الاسبرطى وجيسون Jason من فراى Pherae الزعيم التسالى القوى .

المثل العليا من السياسيين من أمثال أفلاطون واسقراطس في حملة صليبية قومية ضد الهمج الفرصة للاتحاد الهليني وعلاج الصراع الداخلي (١) . ولكن دول ـ المدينة في اليونان كانت تحرص على استقلالها حرصا جاوز الحد ، دعاهم الا يتسامحوا في قيام تكتل سياسي . ولقد فرض الاتحاد من الخارج ، الملك المقدوني . ولما دانت السيادة لفيليب بعد خايرونيا بقوة عتاده ، أعلن عن المغامرة التي طال وضع الخطة لها . وكان جيشه قد نظم وأخذ أهبته للحرب عندما مات بيد سفاح (٣٣٦) . ووقع عبء تحقيق المهمة على عاتق ابنه الاسكندر .

٣ ـ ان الاسكندر يجيء في ختام فصل قديم في تاريخ العالم وبداية آخر جديد . كان غزو خنسيارشاي لليونان قد استهل ناحية جديدة في المباراة العتيدة بين الشرق والغرب. وكان اجتياح الاسكندر للامبراطورية الفارسية ختام هذه القصة في الفاجعة التاريخية . وكانت الكارثة تعشى البصر في سرعتها . ففي ربيع عام ٣٣٤ عبر الاسكندر السبنطس وسحق حرس الفرس الأمامي على جرانيقس Granicus واجتاح الأراضي الساحلية في آسيا الصغرى واستوثق التحكم في الطريق العام العظيم التي تيسر عبر جبال الداخل حتى بوابات كيليكية وفي السنة التالية ، ظفر بأول نصر له عظيم على الملك دارا بشخصه في اسوس Issus في الركن الشمالي الشرقي من أرض المشرق وقد عرض عليه الملك المغلوب الشطر الغربي من امبراطوريته حتى الفرات غير أنه رفض في استعلاء تصالحا فيه مساومة .

ان الاستيلاء على صور في عام ٣٣٢ بعد مقاومة تنبيء سلفا عن مقاومة قرطاجنة أو أورشليم ـ كان الساميون مروعين عندما يحاصرون ـ جعل الاسكندر يملك زمام القوة البحرية في شرق البحر المتوسط وأعقب هذا اجتياح كنعان ومصر .

وفي عام ٣٣١ واصل السير الى قلب الامبراطورية الفارسية وظفر بالغلبة في ذروتها على دارا في جوجميلا ، في وادي دجلة . وقد كشف موت الملك الهارب ، في الصيف التالي للعالم عن غرض الاسكندر الحقيقي الذي كان الى ذلك الحين ، ملكا مقدونيا وقائدا عاما للاغريق ، وهو الآن يبرز للأمام كوارث للمملكة الفارسية ، « كملك الملوك » ، بدلا عن دارا . ولقد شهدت السنوات الخمس التالية سلسلة من الحملات الرائعة والتقدم دون عائق وأخضع فيها الاسكندر الولايات الشرقية حتى أكسس

---

(١) يظهر أن هذا ما ينطوي عليه ما جاء في جمهورية أفلاطون ٥ ، ٤٧٠ ـ ١ .

جاكسرتس Jaxartes والى ما وراء الهندوكوش ، واخترق ممر خيبر وفتح البنجاب واجتاز وادى السند حتى مصبه · وعندما رفض جيشه السير صوب الشرق الى الكنج Ganges عاد الأسطول عن طريق الخليج الفارسى والقوات البرية عبر صحراء مقران المروعة ، ورجع الاسكندر الىسوس حاضرة فارس القديمة في ربيع ٣٢٤ وقد خصصت شهور قليلة لتنظيم الامبراطورية واسعة الأرجاء · وقبيل يونيو من عام ٣٢٣ كان قد جمع فى بابل جيشا لجبا لغزو بلاد العرب · وهناك اخذته فجأة حمى ووافته المنية بعد مرض دام عشرة أيام ، وله من العمر اثنان وثلاثون عاما ·

٤ — وقد فتحت غزوات الاسكندر عالما جديدا أمام اليونان ، وبتوسيع مدى المعرفة أتت بنتائج هامة على الفكر العلمى · ولكن أعظم جلائل أعماله كان نشر الهلينية على العالم الشرقى · وتظهر عبقرية الاسكندر السياسية فى أعظم بيان فيما انتواه عن تدبر ، من صهر الروح الهلينية والروح الشرقية فى كتلة واحدة ·

فمن جهة تبنى الوسيلة الفارسية فى العيش واللبوس الفارسى والعادات الفارسية — ومارس وشجع التزاوج المتبادل واعترف بديانات الشعوب المغلوبة وصار فى جميع الأمور شرقيا أمام الشرقيين · ومن الجهة الأخرى أدمج فى نظام المشاة المتكتلين المتقاربين ، الفرس وربى شبابهم على الثقافة الهلينية ورقى أشرافهم فى خدمته · ولما كان يدرك فى وضوح أن سياسة المزج هذه يجب أن تقوم على أساس اقتصادى ، جهد فى أن يخلق مذهبا للتجارة العالمية يربط النيل ودجلة والسند ، بالبحر المتوسط[1] · ان قلة من أتباعه المقدونيين كانوا قادرين على أن يسهموا فى هذه الأفكار العظيمة وانا لنقرأ عن سخط وعصيان بين حين وآخر فى الأعوام التى تلت عام ٣٣٠ مما كان يدفع الاسكندر الى ندرة من أفعال القسوة هى على نقيض بين من ديدنه فى السماحة وانسانية طبعه · وكانت أداته الهامة فى العمل على تلاحم الشرق بالغرب ، تأسيس المدن على النموذج الهلينى وكانت مدن الامبراطورية

(١) كان الاسكندر يقدم نفسه فى كل مكان على أنه نصير الأديان والعادات الوطنية · وقد أظهر مجاملات خاصة ، على سبيل المثال ، لليهود ومن المحتمل أن اليهود كانوا منتشرين فى جماعات عظيمة فى أرجاء الامبراطورية الفارسية وكانوا يحافظون على طرق المواصلات الداخلية (وخاصة مع بيت المقدس) ، قدموا له خدمة عظيمة كمرشدين فى سيره فى بلاد لابد أنها كانت ، فى الواقع ، غير معروفة · ويتحدث مهافى Mahaffy عنهم فى « امبراطورية البطالمة » صفحة ٨٥ ، على أنهم « ادارة مخابراته الطبيعية » ·

الفارسية قليلة العدد وهى حقيقة تفسر نهائية انتصاراته الحاسمة فى الميدان .

وكان الاسكندر يقيم المدائن فى كل مكان أثناء تقدمه

الاسكندرية وهى أشهرها جميعا ، فى مصر ، وفى وادى الفرات ، وفى أقصى شمال شرقى التركستان ، وعلى ضفاف السند ، وعلى شواطىء الخليج الفارسى . وهذه المدائن بمستعمراتها من المقيمين المقدونيين والهلينيين كانت تكون المراكز الدائمة للثقافة الاغريقية . وكانت نتيجة هذه السياسة ، التى اتبعها خلفه ، ان حياة الاقليم الشاسع من ايجا الى السند ومن القزوين الى الحبشة أتت عليه الروح الهلينية بالتحول في درجة تعظم أو تصغر ، وقد تأصل العلم الاغريقى فى بابل وتأثر فن ودين وحكم الهند السياسى ، بطابع العقل الاغريقى . وعندما تمعن الفكر فى أن هذا العمل العظيم يمثل جزءا فقط من سياسة الاسكندر أنجزه فى شهور الفراغ القليلة بين الغزوات ، تدرك أنه حدث لا يكاد يوجد له مثيل فى تأريخ البشر .

٥ ـ وقد ادعت الأسرة الحاكمة فى مقدونيا أنها من سلالة اغريقية وكان الاسكندر فى خصائص الخليقة الجوهرية ، اغريقيا ـ وفى أوقات ، كانت العواطف الجامحة تحطم حدود ما كان يتجمل به من شمائل انسانية وتقويم نفسى بطبيعته ولو أنه اظهر ، عن أعمال العنف القليلة المدونة ، ما يوازيها من ندم عارم .. ولم تكن الثقافة الاغريقية عنده ، كما كانت عند الكثرة من ضباطه قشرة رقيقة تحجب الطبع الهمجى فيه ـ ان شعرها وفكرها أثارا اثارة عميقة طبيعته المتحمسة المستعرة ، وكان لمدة ثلاثة أعوام فى حداثته وهو بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة تلميذا لأرسطاليس أعظم مفكر فى عصره ، ولقد تغذى خياله بقصيد هومر ، وفى بلاطه ومعسكره كانت تقام احتفالات الألعاب الرياضية وتمثيليات الفاجعة ، وفى ساعة الانتقام من طيبة عفا عن منزل بندار من أن تلتهمه ألسنة النيران . وعندما كان يجلس « كملك الملوك » على عرش دارا العظيم أو يتخذ فى مصر انواع التشريف التى كان يتميز بها فرعون ، لم يكن أبدا ضحية مجده الخاص ، ولكن ظل قلبا وعقلا اغريقيا وكانت له قوة بدنية عظيمة وشجاعة ويجازف بحياته فى تهور ظاهر فى الميدان . وحدث مرة فى الهند أنه وثب مع ثلاثة رفاق داخل مدينة محاصرة واصابته جراح كادت تقضى عليه . وكان لزاما على ملك المقدونيين غلاظ القلوب ، الذين كانوا ينزعون الى الحرب ، أن يملك زمام ولائهم بالبسالة الشخصية . ان قلة من الشخصيات التاريخية العظيمة يتجردون عن ضعة الروح ، كما كان الاسكندر .

ولما كان مكشوف الطوية ، صادقا ، متحمسا فى الصداقة الشخصية ـ ويتسم بصفات الفروسية للأصدقاء والأعداء على السواء ، وتستبد به

كبرياء نبيلة وحب للشرف فانه قسر قواده وجنوده كليهما على خدمته بوشيجة قوية من المغناطيسية الشخصية ، وكانت نقاوة خصاله الخلقية مضرب الأمثال ، وأعجوبة زمانه . وبهذه الخصائص فى عقله وشخصه كان يأتلف صفاء البصيرة وقدرة على أن يلائم بين الوسائط والغايات وأسمى نفوق فى فن الحرب والجمع النادر بين الخيال السياسى وفن ادارة شئون الدولة ، فى ذروته . وكان بطل خياله الابداعى (الرومانسى) أخلوس الالياذة ولكن فى الاسكندر ترى وقد ازدوج بالحماس والشجاعة وحب المجد الذى كان للبطل الهومرى ، ميراث الثقافة الخلقية والعقلية الزاخر الذى جاءت به السلالة الهلينية فى مجرى تاريخها الطويل .

٦ — وقد جاء فى الأسطورة أن الاسكندر وهو فى النزع عندما سأله قواده عمن يورثه امبراطوريته ، أجاب « للأقوى » ولمدى عشرين سنة كانوا يتآمرون ويتحاربون من أجل الميراث ، الى أن قررت معركة أفسس فى فروجيا (عام ٣٠١) — الخطوط العريضة للتقسيم ، للعصر اللاحق . وقد آلت شبه جزيرة البلقان الى لوسماخس Lysimachus وكونت مملكة مقدونية منفصلة لها السيادة على اليونان الأوربية وكان بطلميوس قد احتل مصر عقب موت الفاتح العظيم مباشرة ، واستمرت أسرته فى حكم ذلك القطر الى أن اندمج فى الامبراطورية الرومانية . ووقع معظم أملاك الاسكندر ، الأقاليم الآسيوية من ايجا حتى السند ، فى يد سلوكس الذى أصبح منذ ذلك الحين ملكا على آسيا . ولا يمكننا أن نتقصى التاريخ المفصل للمشاحنات التى وقعت بين هؤلاء الحكام خلال القرنين التاليين اللذين ثارت فيهما العواصف والتغيرات . لقد كانت سياسة شرق البحر المتوسط فى أيدى حكام مستبدين ، هلينيين كثيرا ما كانوا قادة قادرين فى الحروب والسياسة ، وكثيرا ما كانوا ابداعيين (رومانسيين) فى شخصياتهم وأقدارهم ، ومن الجهة الأخرى ، كثيرا ما كانوا مجرد أوساط ، لعبا للفرص والظروف ، مغامرين محبين لذواتهم او هاوين فن ، فيهم خمولة ، أو عبيدا للفساد والعاطفة التى تنزع للانتقام (١) . وفى عصر كان يتيح فرصا لا حد لها للعبقرية الفردية فاننا لا نجد زعيما للناس من الطراز الأول الا الى تلك اللحظة التى سار فيها فى فجر القرن الثانى

---

(١) ان أول السلوكيين ، وأول البطالمة وحكام فرغامس الأتاليديين هم أمثلة للحكام ذوى القدرة ، دمتريوس Demetrius محاصر المدن (Poliorcetes) وفورهس الافيروسى Phyrrus of Epirus زعيم عصابة المرتزقة من الجنود المغامرين ، الرومانسى وانطيوخس افيفانيس Antiochus Epiphanes (مظهر الله) من هواة الفن . وتضيف « الأميرة — النمرة » التى ترجع الى أصل مقدونى اضافة عظيمة ، الى الاهتمام بأشخاص العهد (راجع بيفان Bevan — بيت سلوكس House of Selencus) .

شخص البطل القرطاجنى العظيم الى مصيره ، عبر المنظر العام للعالم الشرقى يضمر الى النهاية المريرة ، كراهية لروما لا يخمد أوارها .

ولكن هنيبال كان ساميا ومنفيا فى بلاد غريبة ، وكان حكامها الانتيجونيين والبطالمة والسلوكيين قد صيغوا فى قالب جد مغاير . وأهميتهم للتاريخ ترجع غالبيتها تقريبا الى توسيخ سياسة الاسكندر فى صبغ الشرق بالهلينية . وبخلاف ذلك فقد تابعوا طريقة التعاظم الشخصى او اتبعوا فى مناهجهم فى الادارة النماذج التى وضعها السلف من حكام مقدونيا ومصر والامبراطورية الفارسية .

ولما كانوا اغريقا فى السلالة واللغة والعادات ، فقد كانوا يديرون دفة الحكم فى القصور الهلينية بمعاونة الجند الهلينى والوزراء الهلينيين . وفى نية مدبرة نشروا المدنية الهلينية وحافظوا عليها ، وسبقوا فى جيلهم رسالة روما التاريخية فى زمن لاحق ، وكان تأثير هذه السياسة فى الشرق وفى الغرب على السواء لا يمكن حصره . وكان معظم نجاحها مستقلا عن شخصية الملك الذى كان كما لاحظنا لا يعمل شيئا أو فظا جافى الطبع . أن بلوبيوس يوصم اسم البطالمة فى صراحة بأنهم شخوص لا أهمية لهم [١] . ومع هذا فقد كان هؤلاء البطالمة عينهم هم الذين درجوا على تأليه الحكام . لقد كان ملوك مصر القديمة يعبدون على أنهم المظاهر الجسدية لآمون (= رع) وحتى الاسكندر عبد كاله أثناء حياته . وسرعان ما شاعت العادة ، بين السلوكيين مثلا . وفى منشأها كانت هلينية دون أن تكون شرقية . ان الدين الالومبى كما رأينا قد صور الآلهة فى شكل الانسان وفى نهج غريب عن ديانات الشرق ، وكان اختلافهم عن الناس اختلافا فى الدرجة لا فى النوع ، الا فى واقعة خلودهم . وفى العصر الهلينى كانت الحاجة الى الخلاص يحس بها احساسا ملحا ، والاناجيل الفلسفية (التى سأتحدث عنها قريبا) كانت عسيرة الفهم عسرا تجاوز الحد ، لتستهوى الخيال الشعبى ، لماذا اذن لا يجب اعتبار مخلص حى الها ؟ وزيادة على ذلك فان الممالك التى تركز الحكم فيها والتى اقيمت فى الجيل الذى جاء بعد الاسكندر كانت فى حاجة الى رمز

---

(١) انه يقابل « عدمهم » (Oudemeia) بقدرة السلوكيين العالية ٣٤ ، ١٤ . ولو أن الاسكندرية كانت مركزا هاما للثقافة الهلينية (راجع القسم الثانى) فقد حكم البطالمة مصر على مناهج الفراعنة القدامى ، واستخدموا القطر كضيعة شخصية تأتى بالكسب قاصرين همهم على سيادتهم ونفعهم . وانا نسمع القليل عن وزراء السلوكيين ولكن يبدو أنه أحسن القيام على الحكومة حتى تحت حكم ولاة خاملين . ان البيروقراطية كانت قد وطدت نفسها ، قبيل هذا الوقت ، فى عالم البحر المتوسط .

ظاهرى للوحدة والولاء الشخصى للحاكم . وقد حققت عادة التأليـــه هــذه المطالب الجديدة فى عهد السيادة المقدونية كما بعد ذلك ، فى عهد ســيادة الامبراطورية الرومانية ، وانها تظهــر للعبريين والمسيحيين الذين ترعرعوا فى عبادة اله واحد ، خالصــة ، لعنة كفر . ولكن الاغريقى والرومانى كانا ينظران اليها نظرة جد مغايرة . ولم تكن تعنى عندهم أكثر ما يعنى الوضــع فى قائمة القديسين ، عند المسيحيين الكاثوليك فى زمننا ، الا قليلا .

لقد كانت طريقة طبيعية للتعبير عن العرفان بالجميل لمنافع الخــلاص . ولو كان ما لدينا من سجلات وافيا أكثر مما هو عليه ، لكنا على الأرجح قد وجدنا أن مهمة بسط الهلينية كانت فى أيد بيروقراطية قديرة ، وأن الأداة الادارية كما حدث بعد ذلك فى عهــد الامبراطورية الرومانيــة حافظت عــلى كفاءتها على الرغم من شطحات الأفراد من الحكام . ومثل يســترعى النظر ، لهذه الكفاءة هو تقدم الزراعة المصرية تقدما سار على مذهب منظم ، فى عهــد البطالمة وهى مهمة كان قد أهملها الحكام الفرس . ونتيجة لهذا ، أصــبحت مصر أهم مخزن للغلال فى الامبراطورية الرومانية ، وزيادة على هذا ــ فان المدينة الهلينية وهى أداة السياسة العظيمة كان منشأنها بمجرد أن تؤسس ، أن تزدهر عن طريق حيويتها الخاصة ، العضوية . وسنتحدث فى قسم ثان قادم ، من هذا الفصل ، عن طبيعة الثقافة التى نشــأت على هذا المنوال فى الاســكندرية عند مصب النيــل وفى انطاكية على الاورنط وفى ســلوكيا على الدجلة وفى مائة مدينة أخرى كانت تدين بوجودها الى الاسكندر وخلفــائه . ولقد كان الملوك السلوكيون فى آســيا ، من بين الأسرات الثــلاث الاغريقية المقدونية هم الذين حملوا أثقل عبء ، ومع هذا فقد ساروا قدما فى العمــل عــلى نشر الهلينيــة بمــا كان له عظيم الأثر . وكانت كل من مقدونيــة ومصر دولة متضامة متجانســة ومن السهل نســـبيا الدفاع عنهــا ، بينمــا كانت الامبراطورية الاسيوية يعوقها عدم الوحدة الداخلية والتماسك ، كما كانت الحال عينها فى فارس فى زمن مضى ، وقام الدليل على أن ملوكها كانوا غير أكفاء على أن يصاولوا فى نفس الوقت منافسيهم فى الغــرب ، وفى الشرق ، البطالمة والمقدونيــين من جانب ، ومن الجانب الآخر الدولة الفارثيـــة التى نهضت فى القرن الثالث فى ايران (١) . وسرعان ما اســـتعادت البنجــاب اســتقلالها (٢) ، وآلت الولايات الى الشرق من دجلة ، الى الفارثيين ، وفى

---

(١) كان الملوك الفارثيــون أسرة ســقوثية ، واســـتقروا عــلى الهضبة الايرانية .

(٢) يجب ألا يغيب عن البال أن مدنا اغريقية بمستعمرات اغريقية أقيمت فى البنجاب وأن النفوذ الاغريقى فى ذلك الجزء من الهند لم ينته باســتعادة الاستقلال . لقد كتب أمير وطنى الى انطيوخس الأول يطلب منه أن يرســل سفسطائيا اغريقيا الى البنجاب ، وأجاب انطيوخس أن السفسطائيين لا يباعون (بيفان ١ ، ٢٩٧) .

بواكير القرن الثانى وجد خلفاء سلوكس أنفسهم محصورين فى الأراضى التى تقع بين الفرات والمشرق وقد حبسوا بين فارثيا وروما · وبعد مائة سنة ، توارى حكمهم حتى من سوريا وواجهت جحافل الرومان الفارثيين على الفرات ·

ومع هذا - ففي خلال هذه القرون القلائل حقق بيت سلوكس أمورا عظيمة للمدنية · وبتأسيس طائفة عظيمة من المدن فى سوريا وبلاد بابل وفى آسيا الصغرى والأراضى الواقعة حول القزوين ، فانهم غرسوا الهلينية فى الشرق الأوسط ومهدوا ساحة اجتماع للفكر الاغريقى والشرقى (١) . ولم يكن الدين من جانب واحد وحسب · واذا كانت الثقافة الهلينية قد تأصلت فى آسيا ، فان ديانات الشرق أيضا بدأت تسيطر على عالم البحر المتوسط · وكان الاندماج مشحونا بنتائج هامة · انه كان فى انطاكية الحاضرة السورية للسلوكيين أن تلاميذ الديانة التى قدمها الشرق الى الغرب أطلق عليهم لأول مرة الاسم الاغريقى المسيحيون (٢) .

٧ - لقد ذكرنا آنفا أن قيام الدولة المقدونية كان معناه سقوط دولة - المدنية الهلينية ، كوحدة سياسية مستقلة ، وكان هذا الثمن الذى دفعته اليونان للفرصة التى تاحت لها فى بسط الهلينية على الشرق · وكان هذا العمل الجليل ميسورا فقط لدولة عظيمة ، وفى الأزمنة القديمة فى طول مداها ، كان معنى الدولة العظيمة ، الحكم الاستبدادى ، وسنرى كيف أن روما أيضا كفت عن أن تكون جمهورية عندما استحوذت على امبراطورية عالمية · ان الأساليب التى تستخدمها الأمم الحديثة للتوفيق بين ممتلكات فسيحة الأرجاء والاحتفاظ بالحرية السياسية وهي الطباعة والنقل بالبخار وطرق المواصلة بالكهرباء ، وفوق هذا كله الحكومة النيابية ، لم تكن معروفة للأقدمين · ولكن توكيدنا ولو أنه صادق فى معظمه ، يجب أن يقبل بتحفظات معينة · ويرجع أحد الأسباب الى أن المدنية الهلينية ماتت موتا عسيرا ولقد شاهدت

---

(١) حلت سلوكيا على الدجلة محل بابل التى أصبحت منذ ذلك الحين مجرد مركز دينى · وظلت سلوكيا مدينة اغريقية فى عهد الفارثيين (Tac; Ann. : ٦ ، ٤٢) وقد نسب اسطرابون (١١ ، ٥٠٩) ، الذى عاش فى عهد أغسطس عدم تقدم موارد هورقنيا Hyrcania واقليم القزوين فى زمنه الى ما وقع من أن الاغريق لم يحكماهما اطلاقا · لقد قامت الحكومة الاغريقية المقدونية فى حماس بتنمية التقدم المادى والاقتصادى ، الطرق والرى والمصارف ·· الخ · وعن عاليه ، راجع بيفان ١ ، ٢٨١ وعلى وجه عام الفصول ١١ الى ١٤ من كتابه ·

(٢) الأعمال : ١١ و ٢٦ بدأ مذهب مثرا فى الذيوع فى آسيا الغربية فى عهد خلفاء الاسكندر ، راجع السفر الثانى فصل ٩§ ٨ ·

الحقبة الاغريقية المقدونيــة مكافحات متكررة بين القوات التى تنــاصر النزعة الجمهورية وتلك التى تنزع الى الحكم الاستبدادى ، ولم يكن فى قلة من الحالات أن الجمهــوريات كانت قادرة عــلى الاحتفـــاظ بكيانها - وكان الأمر كذلك فيما يوالى حدود امبراطورية الاســـكندر فى الغرب حيث ظلت جماعات مثل سيراكوز وطرنطم Tarentum ومسيليا Massilia مستقلة الى أن أدمجت تحت حكم روما • وفى جهــات أخــرى نجد المدن الفردية تحتفظ أو تسترد اســتقلالها طبقا لظــروف الزمان والمكان المتغيرة • وفى اليــونان الأوربيــة فازت أثينا واسبارطة وفاز التحالف الايطولى والتحالف الاخائى بحكم ذاتى لفترة عابرة ، وشبيه هذا يصدق على بوزنطيــة ، وهرقليا ، عــلى الأكســين وخيوس وبعض بلدان ايجة ، ولقــد اســتمتعت المدينـــة الجزرية ، رودس « خاصة » بعهد باهر من الرخاء التجارى تحت حكومة جمهورية ألغت القرصنة وبسطت حمايتها على الولايات الأضعف دون فرض ضريبة وأنشــأت مدونة قانون بحرى ، جليــلة الشأن وقامت بالوصــاية على الدين والثقــافة جميعا وحافظت على ابتعادها عن المشاكل الدولية حتى منتصف القرن الثانى [١] .

ومثل آخر : كانت فرغامس Pergamos التى ازدهرت كموطن للفــن والثقافة تحت حكم ولاة منها ، بيت أطلس Attalus وكانوا أمراء من التجار ذوى ثراء دافعوا عن ذمار الهلينية ببسالة ضد حملات المغول الهمج على آسيا •

ولكن غالبية المدن الهلينية كانت خاضعة سياسيا لاحدى الممالك المقدونية الثلاث ولقد سمح لهــذه المدن ، فى معظم الحالات بالحرية التــامة فى الحكومة المحلية واعترف بكثير منها مثل أزمير أو المدن الهــامة فى كليكية وفينيقيــة ووادى الاورنط بأنها «مقدسة ومعصومة» ، تقوم خارج مذهب الادارة العادى، وكان مركزها تحت الحكام المقدونيين• كما كان فى عهد روما ، مماثلا لمركز المدن الهانسية الحرة فى زمن الامبراطورية الرومانية المقدسة • وكان الحكام حريصين على مراعاة صور الاحترام الخليق بتقاليد دولة ــ المدينة الهلينية ، العليا ، وان يتحدثوا ليس عن « رعية » ولكن عن « حلفاء » وعن «المساعدات الاختيارية» ، بدلا عن «الجزية» وأن يقووا صالحهم المادى بمنح سخية وخاصة لمعابد المدن وان يحجبوا على وجه عام ، تحت قناع من الحرية المعترف بها ، حقيقة الخضوع القاسية• وكانت المدن فى دورها على استعداد بأن تتزلف الى الطغاة بأنواع التكريم الالهى،

---

(١) أسست رودس عام ٤٠٨ وكانت تقوم بمــا يقوم به الوســيط ، بين اسكندرية وسوريا والأكسين والموانىء الأوربية •

وهـذا علامة على تدهور فى مزاج دولة المدينة فى القـرن الخامس [١] . وفى جميع الأحوال ، كان السلوكيون يحبون الهلينية حبا صادقا ، وكانوا يعلمون تمام العلم أن بسط الصبغة الهلينية كان يمكن انجازه فقط عن طريق متعضى المدينة . ولكن عندما يضع المرء موضع الاعتبار الكلى استقلال المدن الفردى وتضاعف البلدان الجدد ، فى المملكة السلوكية وسياسة التسامح التى جرى عليها حكامها للقديم منها والجديد على السواء فان الحقيقة تظل قائمة بأن سيادة دولة ـ المدينة الاغريقية ومعها أصل نبع روح الحرية السياسية قد ذهبت عن الوجود . وعلى ذلك يمكننا أن نقدر المقاومة فى حماس شديد التى قامت بها أثينا ضد فيليب بزعامة ديموثينس ورفض الولايات الاغريقية من أن تعميها روعة انتصارات الاسكندر التى تأخذ بالأبصار ، عن التضحية الحقيقية التى كانت تترتب على تلك الانتصارات . ولقد شعروا ـ بالغريزة ـ أن ضربة قد وقعت على الجذور التى افرخت منها الهلينية . وفى الواقع كان الأمر كذلك . وفى بطء ولكن فى توكيد فقدت السلالة الاغريقية نشاطها القديم فى غضون العصرين الاغريقى - المقدونى والاغريقى ـ الرومانى .

وكان الاغريق « أشبه بمالك أسرة قديمة لا مكوس عليها الا للملك ، رهن وفقد ميراثه ولكن لا يزال يسمح له بأن يعيش فى بيته القديم . ولقد ذهب عنهم سحر الملكية الجوهرى ، ومعه كل بهجة الحياة الاجتماعية وفيضها ، ولو أن هذه الكارثة كانت لتعمل على توسيع أفقهم العقلى وتوجد لهم مصالح جددا وعملا آخر يضطلعون به ـ فان ينبوع جهدهم العقلى ما كان ليجرى مرة أخرى بمثل ذلك الصفاء والقوة كما فى أيام الحرية الكاملة لدولة المدينة » [٢] الفردية . ودون ريب ، تفتحت فى نفس الوقت امكانيات جدد أمام الهلينية وقد أتت مع تبدل الأحوال الاقتصادية ، نتائج اجتماعية وسياسية بعيدة المدى ، فانه بوجود معظم التجارة الشرقية فى يد اليونان ، تقدمت مؤسسات الأعمال فى قياس جديد على نطاق واسع . وحلت محل مناهج المصارف القديمة مناهج أخرى ، واتسعت مسافة الخلف بين صاحب رأس المال والعامل الصناعى مع النتائج التى لا معدى عنها فى أن أمان المدن التجارية الهامة أصبح يهدده الخوف من ثورة وارتفعت الأسعار فى كل مكان بحيث خرجت عن كل تناسب مع زيادة الأجور وقد فقدت الدراخمة بين القرنين الرابع والثالث نصف قيمتها وكانت الجماهير فى خطر دائم من حدوث مجاعة ولم يكن يوجد طبقة وسطى عظيمة لتكون جسرا للهوة التى كانت تفصل ذوى

---

(١) لقد منحت ديموقراطية مليطوس المعادة الرتب الالهية على انطيوخس الثانى الفاسد (Theos) . وعن تاليه الأمراء ، راجع مرى « خمس مراحل » الصفحات ١٣٣ وما بعدها .

(٢) ورد فولر Warde Fowler ـ دولة المدينة الصفحات ٣٠١ ـ ٢ .

اليسار العظيم عن الفقراء فقرا مدقعا ٠ ولهذا قامت الصيحات لمجموعة الأدوية التى تشفى جميع الأدواء الثورية كالغـاء الديون وتقسـيم الأرض تقسيما متعادلا ومصادرة الملكية الشخصية وتحرير العبيد ــ تلك التي وجدت عضدا نظريا من أفكار الرواقيين التى كانت تنتشر الآن بين الطبقات المثقفة [١] ٠ وعلاوة على هذا ــ فان غزوات الاسـكندر جلبت عالما أوسـع الى داخل مجال نظر الانسـان ، أكثر مما كان يتوائق مع الاحتفاظ بوطنية تتصـل بالمدينـة وحسب ٠ وقد مهد استبداد مقدونيا وروما وهو يحطم الحواجـز التى كانت تفصـل الاغريق عن الهمج والغـربى عن الشرقى ، الطـريق للمثل الأعـلى للمذهب الكونى الذى كانت تعبر عن فلسفة الرواقيين ، وفى القضاء الرومانى وأخـيرا فى الديانة المسيحية ٠ لقـد كان يوجد شيء فيما خلقتـه العبقرية الاغريقية وفى روحهـا يتعـالى على قصـور السـلالة التى انتهجتها ٠ كانت الهلينية نورا ليس فقط للهلينيين ، ولكن للبشرية ورأت الساعة التى غابت فيها فى سماء موطنها ، فجر طلوعها بين الشعوب غير الهلينية ٠

« ٢ ــ الثقـافة الهلينستية »

٨ ــ كان البلى الذى أصاب الهلينية جد تدرجى لأن الثقافة الاغريقيـة احتفظت بنضارتها وتميزها خلال الفترة المستطيلة من التدهور ، لقـد غاضت الينابيع ، لكن الجدول كان لا يزال يفيض ولو أن جرمه أصبح أقل وفى ركود أعظم ٠ وكانت الأمواه ، أمواه اليونان ٠

وغرضـنا هنا أن نضـع شـكلا مجملا لخصيصة تلك الثقـافة العامة لها يطلق عليه العصر الهلينستى الذى يقع بين حكم الاسكندر وحكم روما (٣٣٠ ــ ٣٠ ق٠م) [٢] ٠ وفى فصل قادم ، سنتحدث عن الهلينية فى عهد الامبراطورية الرومانية ، ويجب أن نأتى على ذكر حقيقتين حاسمتين ، فى مستهل القول :

أولا : كان يعنى فقدان استقلال المدينة (الاسـتقلال المدنى) أن مهمـة الحكم الخطيرة لم تعد بعد من شأن المواطن الفرد ، ومنذ ذلك الحين ، يسـير الأدب والفكر فى جو من المصـالح الشخصية وجو الحيـاة الاجتماعية ، وهى بمعزل عن الحياة العامة ٠

---

(١) راجع تارن Tarn ، «العهد الهلينستى» الصفحات ١٠٨ ــ ٤٠ عن « المسـألة الاجتماعية » بتوضيح مفصـل ، من الحركات الثورية فى اسبارطة فى القرنين الرابع والثالث (Agis, Cleomenes and Nabis)

(٢) ان التعبير « هلينستى » Hellenistic غير واف ولكنه شـائع الاستخدام ٠ وأفضل منه التعبير الاغريقى المقدونى Gracco-Macedonian أما « الاسكندرى » الذى يستخدم كثيرا ، فانه مغرر جدا ٠ ومغزى التعبـير "Hellenistic" أضيق كثيرا من مغزى "Hellenism" ٠

ثانيا : ان اليونان تعى وعيا يطرد ازديادا ماضيها الذىأنجز ، وهى حتى ذلك الحين كانت خالقة الحاضر والمستقبل تصبح الآن تاريخية تنزع الى التأمل. انه عندما يسير الواعز للخلق الى بلى ويبدأ النشاط فى الوهن تتحول السلالة صوب جلائل أعمالها الماضية لتحلل وتسجل • ان بومة منروا Minerva لا تشرع فى طيرانها الى أن تبدأ ظلال المساء تخيم [١] .

٩ ــ ان الأدب الهلينى والفن الهلينى هما نتاج أحوال الحياة والفكر التى تغيرت • ان الأدب ــ بصفة عامة ــ يتميز بالثقة والعلم وبالنقد والتأمل وبمحاكاة النماذج القديمة ، وصب الخمر الجديدة فى الفوارير العتيقة أو مرة أخرى ، بالرغبة فى تقديم التسلية الاجتماعية لجمهور مثقف وهو يعتمد اعتمادا وثيقا على رعاية العظماء • وفى هذا المجال ، كما فى مجال العمل ، كان العصر عصر رجال ماهرين من الدرجة الثانية ، وكان رجل العلم النابه حقا ، أرطوسثينس Eratosthenes يلقب (ببيتا Beta) (أى من الدرجة الثانية) • ولو أن هذا فيما يرجح ، كان التعبير عن الغيرة التى كان يشعر بها اخصائيون نحو زميل له نظرة عقلية أكثر اتساعا من نظرتهم • وانا اذا استثنينا رودس ، وأثينا ، فان مراكز النشاط الأدبى والعلمى الهامة ، كانت قصور الطغاة ، وكان الشعر بالطبع ، أكثر نضارة أينما كانت الحياة فى أعظم حرية ، كما فى صقلية فيما يوالى مدى الامبراطورية المقدونية أو فى أثينا ، موطن التقاليد العظيمة ، حيث كان مظهر الاستقلال السياسى على الأقل ، يحافظ عليه فى حماس •

وكانت أناشيد الرعاة (idylls) لثيوكريتس Theocritus السيراكوزى (حوالى ٢٧٠) آخر الأعمال الجليلة التى قامت بها عبقرية الشعر الاغريقية الجديرة بالذكر ، ولها مرتبة هومر وواضعى الفاجعة الأتيكية [٢] .

لقد خلق ثيوكريتس صورة جديدة من الأدب • وكان مصدر الالهام لشعر المراعى لجميع الأزمنة اللاحقة بما فيها قصيد المراعى ، القصار Eclogues لفرجل ولوسيداس Lycidas لملتون وأدونس Adonis لشلى • وقد ازدهرت فى أثينا « الملهاة الجديدة » ، فى الأخلاق (٣٣٠ ــ ٢٥٠) التى كانت تصور أنواع الخصائص والمواقف فى الحياة الاجتماعية الاغريقية ، بدلا من الشخوص الأحياء الذين كان أرسطوفانس ، يهجوهم فى تهكم ، ولقد جلب مناندر Menander وزملاؤه من واضعى الفاجعة ، الى المسرح ، الوالد المشاغب والابن المسرف والطفيلى ومستودع الأسرار من الاناث ، والمحظية والبخيل ،

---

(١) هجل Hegal ــ مقدمة « فلسفة الحق Philosophy of Right » •

(٢) ولو أن ثيوكريتس عاش فى الاسكندرية فى عهد بطليموس الثانى ، فان روح شعره صقلية •

والمغامر الثرثار ، من أشباه الهرفجونيين Harpagons [١] والدجالد دلجتيين Dugald Dalgettys [٢] في ذلك العصر ، وفي المسلاة والأمثال والملحمة كان أمر الحب بين الرجل والمرأة ، الذي كان يخلو منه بصفة ظاهرة ، الشعر الاغريقي ، الأسبق قد صـار موضوعا سائدا [٣] . وعلى سبيل المثال كتب أفولونيس ، الشاعر الرودسي ، وهو يقلد صورة الملحمة ، في عهد أسبق ، في أبيات من ستة مقاطع قصة الأرغنوط Argonauts وحب ميديا ليسون Jason ولقد عبر عن روح الرومانسية (الابداعية) أجمل تعبير في شعر المرائي الذي كان موطنه الاسكندرية .

وكانت المدنية نفسها ، تحت رعاية البطالمة ، مركز العلم الهليني وكانت تقوم مكتبتان ، تضم أحدهما ٧٠٠ر٠٠٠ مخطوط ، وهما يدلان على الحماس الذي كان فيه يجمع الأمراء والعلماء ، عيون مصنفات الماضي ، وكانت مدارس من النقاد والشراح تكدح في مهام التحرير والتفسير . والى جانب العالم كان يوجد الطفيلي والمتفقه . وكان العصر يجمع بين الثقافة العامة وبحث المتخصص . وبفضل البردى أصبح يوجد جمهور مثقف يعكف على القراءة وقد ازدهر النقد اللغوى والنقد الجمالي في الاسكندرية ، وسـارت فروع العلم قدما الى الأمام بمعاونة الوسائل والمعطيات الجدد . ومن بين العلماء الذين كان موطنهم المتحف كان رجل الهندسة أقليد Euclid وأرشميدس الذي كشف مبدأ الرافعة والجغرافي ارطوسثينس Eratosthenes القورينوى أول من قاس درجة عرض على سطح الأرض والعالم الهومرى أرسطرخس (Aristarchus) السمثراقيوى (Samothrace) .

ولقد كان تقدير أرطوسثنيس لمحيط الأرض بثمانية وعشرين ألفا من الأميال قريبا من الحقيقة قرابة تدعو الى الدهش حقا ، وكان أرطوسثينس أيضا هو الذي أدمج في مصورته الجغرافية ثمرات الرحلة ذائعة الصيت التي

(١) شخصية في مسلاة موليير « البخيل L'avare » مأخوذة عن Euelis' لفلاوطس Plautus كان يمتلك خيولا لا يطعمها جيدا وخدما لا يكسوهم ، أما تجويعه الفيران فليس محققا . (المترجم) .

(٢) دلجتيين .. « كابتن دجالد Capt. Dugald » شخصية في رواية « سكوت Sir. W. Scott » ، "Legend of Montrose" كان طالب لاهوت وأصبح من الجنود المرتزقة وهو شجاع ويمكن وضع الثقة فيه اذا دفع له مرتب حسن . (المترجم)

(٣) كان يوريبيدس أول واضعي الفاجعة الاغريق ، في اتخاذ حب الجنسين موضوعا أساسيا . ومع هذا ، فان الحب في معناه الحديث المثالي نادر في الأدب الاغريقي . (راجع انطماخس القلوفوني Antimachus of Colophon ومركز المرأة في الشعر الاغريقي تاليف (ى . ف . بنيكي E.F.M. Benecke

قام بها فوثياس (Pytheas) المرسيلي (أواخر القرن الرابع) في محاذاة ساحل أوربا الأطلانطى حتى بريطانيا وسواحل بحر الشمال الى مصب الألب . وفي الواقع يمكن أن يعد اغريق القرنين الرابع والثالث خالقي علم الجغرافيا . وفي منتصف القرن الثالث وضع الرياضي والفلكى العظيم أرسطرخس الساموسى (حوالى ٣١٠ – ٢٣٠) نظرية مركزية الشمس ، وهو يقتفي آثار العلم الفيثاغورى والأفلاطوني[1] . وفي الاسكندرية أيضا أصبح علم التشريح لأول مرة أساس علم الطب (هاروفلس Herophilus حوالى ٣٠٠ ق.م) . وفي المستعمرة العبرية في الاسكندرية التي كانت تتمتع بميزات خاصة ، أتى اتصال الثقافة الشرقية والثقافة الغربية بالثمار في اصدار الترجمة السبعينية Septugint ، النسخة الاغريقية لأسفار العهد القديم[2] .

ان هذه الحقبة تسترعى النظر أيضا بمصنفاتها التاريخية وأشهرها مؤلف بلوبيوس (القرن الثانى) وهو رجل سياسة جمهورى اغريقى حمل كرهينة الى روما في زمن فتح مقدونيا واستمتع بصحبة الرهط الاسقيفيونى ، ذائع الصيت .

ولقد سجل في لغته الأصلية توسع الدولة الرومانية وقد ألهم بذلك – وهو اعتراف نادر من مؤلف اغريقي – الاعتقاد في صلاحية السلالة الرومانية لحكم العالم . ومن الأمور ذات المغزى عن نجاح سياسة بسط الهلينية كان تاريخ مصر الذى وضعه الكاهن الوطنى مانيثون وتاريخ بابل كذلك الذى وضعه الكاهن الوطنى بروسس (Berosus) وكان عالما بابليا ، يحمل الاسم الاغريقى سليوكس هو الذى ناصر النظرية الجديدة لمركزية الشمس في السموات ، في القرن الثانى . ولقد أوجد الجو السياسى الذى كانت تتوفر فيه حرية أعظم في أثينا ورودس دافعا لقيام مدارس الفصاحة ذائعة الصيت . وسنتحدث في قسم قادم عن فلسفة العصر . وكان العهد أيضا عهد تنظيم

---

(١) راجع بورنت E.Gk. Ph. صفحة ٢٢٩ و Heath ، أرسطرخس الساموسى Aristarchus of Samos . ويذكر « بورنت » أن كبرنيكس صرح في خطاب للبابا بول الثالث أن دراساته للعلم الفيثاغورى هي التى أوجدت لديه الدافع لاعادة الكشف عن نظرية مركزية الشمس . وقد عاش اقليد في عهد بطلميوس الأول وينتمى أرشميدس وأرطوسثينس الى القرن الثالث وأرسطرخس السمثراقيوى للنصف الأول من القرن الثانى .

(٢) أصدرت الترجمة السبعينية (LXX) وقد أطلقت عليها هذه التسمية لأنه كان يظن أن سبعين مترجما قاموا بوضعها ، في القرنين الثالث والثانى . وقد عرفت الكنيسة المسيحية الباكرة « العهد القديم » عن طريق هذه النسخة على الأخص .

المعرفة فى المدارس والمكتبات . ولقد قامت مراكز للجامعات ، على أنموذج أثينا ، فى العالم الهلينى ، كما فى رودس ، وفرغامس وطرسوس فى كيليكية وفى ختام تاريخها ، فنيت الثقافة الاغريقية اعياء من فرط التعب فى أكاديميات العلم ، ولكن كان فى أكاديميات العلم أنها نهضت مرة أخرى وسرت فيها الحياة ، فى ايطاليا فى عصر النهضة . ومظهر آخر من مظاهر الأدب الهلينستى جدير بالملاحظة . لم يعد المؤلفون بعد يكتبون كما كان يكتب واضعو الفاجعة الأثينيون ، لأجل مواطنيهم ولكن وفقا للنظرة العالمية الجديدة لجمهور كان عالميا ، وفى الوقت ذاته تدرب على ثقافة الماضى .

١٠ ـ وكان الفن فى ذلك العهد كذلك ، منذ بداية القرن الرابع فصاعدا يعبر عن النظرة الى الحياة التى تبدلت ، واذا كان فن العمارة وفن النحت فى عصر فيليب والاسكندر يعوزهما استقرار وعظمة الطراز السابق فانه يوجد كسب يعوض عن الخسارة ، فى اتقان الصنعة اتقانا متزايدا وتصوير العواطف الانسانية فى حرية أعظم وقدرة عجيبة على ابراز الخصائص الفردية .

وكلما تقدم الزمن أصبحت آيات التدهور ظاهرة للعيان فى حب للأناقة التى تفيض زخرفا ، وما يبذل من جهد واع لمحاكاة المذاهب العتيقة .

ومن بين أروع آثار القرن الرابع التذكارية ، يمكن دراسة عملين منحوتين، فى المتحف البريطانى « الضريح Mausoleum » وهو القبر الذى أقيم فى هلقرناسس Halicarnassus لماوسلس Mausolus ملك كاريا Caria (حوالى ٣٥٠) وهو عمل ، حمل سقوفس Scopas الفارسى عبء القيام بجزء منه و « محراب نريد Nereid » من اكسنثس فى لوقيا ، والاثنان يقومان شاهدين على ما ظفرت به الثقافة الاغريقية من طول باع بين السلالات غير الهلينية فى آسيا الصغرى . وفى ألومبيا لا يزال يمكن رؤية هرمس لافراكسيطيلس Praxiteles وهو نحات من المدرسة الأثينية خلقت تماثيله للالهة أفروديت طرازا جديدا من الجمال النسوى فى الفن . وربما كان أعظم تقدم فنى اختص به ذلك الزمن قيام التصوير . ولقد جلس الاسكندر مرارا الى النحات لوسبوس Lysippus والى المصور الاغريقى العظيم أفلس Apelles القلوفونى . ولا توجد صور بين أيدينا ترجع الى ذلك العصر ولكن قسمات زعماء الحكام محفوظة على عدد عظيم من الجواهر والعملة . وفى فن العمارة ، عاين القرن الرابع استخدام تاج الأعمدة الكورنثى ذى الزهور (على سبيل المثال أثر خرجى للوسقراطس - Lysicrates فى أثينا ، حوالى ٣٥٥) وفى اليونان الأصلية ، حلول الطراز الدورى الصارم محل الطراز الأيونى الزاخر ، وعندما نصل الى القرن الثالث نجد أحسن فن كأحسن شعر ، يزدهر حيث تكون الحياة على أعظم جانب من الحرية . وفى اسكندرية كان يوجد اليسير مما هو جدير بالتسجيل فيما عدا احياء مصطنع للفن

المصرى الوطنى تحت رعاية البطالمة ، ولقد ازدهر بطبيعة الحال تخطيط المدن.

ولما كان تخطيط المدن موضع اهتمام الاغريق منذ أن استخدم بركليس هبوداموس Hippodamus المليتوسى لرسم موقع ثورى Thurii فيمربعات ، ومنذ أن أعاد ديونوسيوس الأول وضع سيراكوز ، فقد ازدهر، بطبيعة الحال، في عهد حكام مقدونيا وأقيمت الاسكندرية وانطاكيا فى تخطيط محكم يسير فى مذهب منسق . وأعظم كل المدن جمالا ، فى الموقع والبناء ، كانت فرغامس وهى من خلق أمراء بيت أطلس Attalus وكان كل منفرغامس ورودس مركزا للفن الحى فيالقرنين الثالث والثانى . وقد نمت الأولى حول حصن ربوة الىأن أصبحت حاضرة الأمراء المثقفين الذى على غرار أسرة مديشى (Medici) فىعصر النهضة ، كانوا يجمعون حولهم الفلاسفة والفنانين . ولقد كانت رسوم فرغامس المنحوتة التى تخلد ذكرى انتصارات أطلس الأول (٢٤١ ـ ١٩٧) وأمنيس الثانى (Eumenes II) (١٩٧ ـ ١٥٩) على الغال أجمل ما وصل اليه ذلك العصر [١] . وفى تاريخ معين سابق ، توجت رودس مقاومة البطولة التى قابلت بها قوات الطغيان ، باقامة التمثال الهائل (Colossus) وهو تمثال لاله الشمس ، يبلغ ارتفاعه ١٠٠ قدم ونيف ومن صنع أحد تلاميذ لوسبوس ، ولقد شكلت مجموعة لاوقون Leocoon على نهج المدرسة الرودسية وكان فروطغنس (Protogenes) الرودسى أحد عظماء المصورين فى زمنه . ويمثل ما جاء بعد ذلك من تطورات فى فن النحت ، أعمال معروفة جيدا مثل أبولو بلودير Appollo Belvedere وفينوس (أفروديت) ميلوس . وتصوير المناظر المألوفة أو الريفية ، وصور مناظر داخل المنزل ، كأمثال صور عظام الفنانين الهولنديين فى القرن السابع عشر كان له ذيوع ويقدم تمثيلا لمشاهد الحياة الاجتماعية « فى المسلاة الجديدة » . وفى عهد السليوكيين ذاع الفن الاغريقى صوب الشرق ، فى القارة الآسيوية . ويؤكد لنا الباحثون المعاصرون أنه كان عن الاغريق الذين حكموا لمدة قصيرة فى البنجاب أن الهنود تعلموا نحت الحجر واقامة الأبنية به . ويجب أن نتذكر أيضا أيضا أن أدب وفن العصر الهلينستى وضعا طابعهما على أدب وفن روما وعلى هذا ، فعن طريق روما ، أثرا على المدنية الخالفة تأثيرا أكثر عمقا من تأثير الأعمال المثالية العظيمة فى عصر بركليس .

---

(١) مثل «رجل الغال فى النزع» المحفوظ فىمتحف كابتلون Capitoline وكثيرا ما يطلق عليه خطأ (المجالد فى النزع Dying Gladiator) لقد كان فن فرغامس يتميز بواقعيته الفاجعية وتفوق الصنعة وكانت تشيع فيه الحياة الحقة أكثر من أى فن آخر فى ذلك العصر .

« ٣ ـ عصر أرستطاليس »

عندما فقد العبريون استقلالهم القومي سعوا الى اللياذ بالدين • ولقد ترك تدهور دولة ـ المدينة الهلينية الاغريق ، دون ذلك المصدر للتعزية • ولقد رأينا أن معتقدات الاغريق الشعبية كفت عن أن تؤثر فى أولئك الذين كانوا أعظم السلالة تفكرا وجدا وقد تحول هؤلاء ـ وهم أرستقراطية الثقافة ـ الى الفلسفة لتهديهم السبيل وتقدم العون • انها فلسفة هذا العصر هى التى أثرت أعمق تأثير فى أجيال البشرية اللاحقة •

ولقد كان أعظم تلاميذ أفلاطون ، أرستطاليس ـ معلم الاسكندر خلال ثلاثة أعوام ـ وربما كانت هذه أروع آصرة تقوم بين أشخاص فى تاريخ البشرية • ان أرستطاليس ، على غرار الاسكندر ، يقف عند مفترق الطرق وتتأصل فلسفته فى فلسفة أفلاطون ولا تكاد توجد فكرة من أمهات أفكاره لا توجد جرثومتها فى الديالوجات الأفلاطونية [1] • ولقد فاق أفلاطون الذى كان موقفه من حياة عصره موقف الاستنكار دون ترفق ، فى أنه يمثل الحياة الاغريقية كما كانت تشتمل عليها دولة ـ المدينة • ويبدو أن أرستطاليس لم يكن عليما بأن ناقوس نعى المدينة الحرة قد دق فى خايرونيا ، ان ادراكه القوى بالواقعى فى الطبيعة والحياة الانسانية واهتمامه بظواهر العالم الهلينى الاجتماعية والطبيعية ، هما اللذان جعلا من فلسفته شرحا موضحا للثقافة الاغريقية •

وكان لأفلاطون نظرة أكثر عمقا ، فى نوازع أعمال البشر ، ولكن أرستطاليس كان أكثر قربا من الهلينى الذى يمثل النوع •

وكان مثله الأعلى السياسى ، دولة ـ المدينة الهلينية التى جاء عليها الاصلاح لا الثورة ومثله الأعلى للفرد ، حياة العقل التى تهيىء الصورة كمبدأ للتناسب والقياس ، لمجال واجب المواطن الزاخر المتنوع الذى تقدمه حياة الدولة الاغريقية •

انه هذا الاحساس بقيمة الواقع الذى أدرك ، وضرورة تحقيق الصورة المثالية بين مواد الأحوال الفعلية ، هو الذى يميز أرستطاليس عن أفلاطون •

---

(١) كان أرستطاليس فى الواقع أول أفلاطونى • وتفسير فلسفته على أنها التطور الأصلى لفلسفة أفلاطون أدق الى حد بعيد من التنويه بالتناقض بينهما ، كما جرت عليه الحال مرارا كثيرة فى الأزمن اللاحقة • وبالطبع كان أرستطاليس تحدوه الرغبة فى أن يوضح لجيله المواضع التى انحرف فيها عن المذهب السائد • وكان هذا مدعاة لاساءة التفسير •

وعلى مثال أفلاطون كان يعتقد أن حياة التأمل هى أسمى حياة ، وعلى مثال أفلاطون كان يعتقد أن أعظم مايكون حقيقيا هو أعظم ما يكون قابلا للمعرفة ، وقد التمس هذه الواقعية فى الحقائق الأبدية التى تكون موضوعات الفكر ، لا الحس . ولكن هذه الصور الأبدية لم تكن فى اعتباره كائنات عالم ينأى عن عالم التجربة الفعلية ، وانما كانت المبادىء التى تسيطر على العالم الذى كان يعيش فيه [١] .

١٢ - وبيان مجال وقيمة فلسفة أرسطاليس فى نطاق موجز ، هو مهمة غير عملية وخاصة لأنه لا يوجد توليف واحد يرجع اليه ، يهيىء ، « كجمهورية » أفلاطون ، أساسا شاملا للدراسة .

لقد كانت أعماله عجالات تخصص كان يحتفظ بها فى الغالب ، فى صورة تذكرات محاضرة ، هو أو تلاميذه . موجهة الى عقول على الماام بالموضوعات العديدة ويفترض فيها سلفا معرفة بأجزاء المذهب الأخرى والعلم كما لاحظنا ، كان قد أخذ طريقه للتفرع الى أقسام متنوعة . وتزخر كتابات أرسطاليس بالصيغ والتعابير الصنعية التى تفصلها هوة واسعة عن لغة التخاطب العادية . وليس الأمر فى الواقع أن أرسطاليس يصعب فهمه أكثر من أفلاطون ، ان أفلاطون يصعد بأجنحة قوية نحو الشمس . وقليل هم الذين يمكنهم أن يتتبعوه فى طيرانه ، « ان حاملى عصا باخوس thyrsus كثيرون ، ولكن الملهمين قليل » [٢] . ومع هذا فان عبقريته تجتذب القارىء دون مقاومة الى طبقة الهواء العليا ولو أن البهاء غير المعتاد يبهره ويربكه . وليس لأرسطاليس مثل هذه الجاذبية السحرية . وفى دراسة فلسفته يتطلب الأمر من البداية ، جهدا صابرا وكامل قوة تلك « الرغبة فى المعرفة » التى يقول لنا عنها انها طبيعة فى الانسان [٣] . ولم يكن لمدى معرفته ما يعادله فى ذلك العصر أو فى أى عصر آخر . والعجالات الموجودة لدينا ، تشمل مصنفات فى المنطق والمنهج العلمى وفى الفلسفة الأولى

---

(١) فى الرسم التمهيدى Cartoon لرفائيل عن « مدرسة أثينا » ، صور أفلاطون وهو يشير الى أعلى ، الى السماء ، وأرسطاليس وهو يشير الى أسفل ، الى الأرض . ويتضح من « أرسطاليس » لجيقر Jaeger تطور أفكاره بعيدا عن « العالم الأفضل » لأفلاطون ، واتجاهها نحو تركز فى العلم الايجابى .

(٢) Phaed. ، ٦٩ .

(٣) Met. : ١ ، ١ ، الكلمات الافتتاحية .

أو الميتافزيقا (ما وراء الطبيعة) [١] وفى الطبيعة المادية وفى علم الأخلاق وفى علم النفس ، وفى الفصاحة وفى الشعر ، يضاف اليها عدد وافر من الكتابات جليلة الشأن فى علم الحياة . ويمكن أن يعد أرسطاليس واضع علم الحيوان وتلميذه ثيوفراسطس واضع علم النبات . لقد كان هذان العلمان هما اللذان كان يعنيهما شارلس دارون عندما كتب « لقد كان لنايوس Linnaeus وكوفيه Cuvier الهينلى ولو فى طريقين جد مختلفين ولكنهما كانا مجرد صبيى مدرسة بالنسبة الى ارسطاليس العتيد » [٢] . وفى مجال واحد فقط خبا ضوءه أمام غيره فى عصره ، فى علم الرياضة حيث قام الدليل منذ زمن بعيد على أن نقائصه ، نظرا لما كان له من سلطة على الأزمن التالية ، كانت عقبة فى سبيل تقدم تلك العلوم ـ كالفلك ـ التى تعتمد على أسس رياضية . وبالنظر الى استحالة احصاء هذه المجموعة العظيمة من البحوث النظرية فاننا سنختار مسألتين من شأنهما أن يوضحا المبادىء الأصلية فى فلسفة أرسطاليس وكذا اختلافها عن فلسفة أفلاطون ، ونقدم القارىء الى تصورات أثرت تأثيرا عميقا على مدرجة الفكر الهلينى والفكر فى العصور الوسطى ، فيما جاء بعد ذلك من الزمان . وهذا هو مبدؤه عن الموجود ومثله الأعلى عن الخير الأعظم للانسان [٣] .

١٣ ـ نظرية الموجود : كانت واقعة التغير الظاهرة على السواء فى الحركة المادية وفى نمو المتعضيات الحية Living organisms وفى تقدم الانسان العقلى والخلقى هى التى أوجدت لأرسطاليس مسألة العلم التفكيرى ، الأساسية . ان التغير يتضمن ذاك الذى يتغير أى أن موضوعات التغير الدائمة ـ الأشياء الجامدة والأشخاص ـ التى تكون فى آن حارة ، وفى آن باردة وفى آن صالحة وفى آن طالحة وتتخذ صور الحرارة والبرد والفضيلة والرذيلة . ان البرد لا يصير حرا ولا تكون الفضيلة رذيلة ـ انها ليست الصورة التى تتغير ولكن الفرد الذى يستقبل الصور . وهذه الأفراد الجامدة ،

---

(١) أطلق تسمية « متافزيقيا Metaphysics » (أى ماوراء الطبيعة) على هذه العجالة كتاب جاءوا بعد ذلك ، فى الأزمنة القديمة ، لسبب عرضى محض وهو أنها جاءت تالية لفزيقيا Physics فى ترتيب أعمال أرسطاليس التى نشرت . وعلى هذا استخدم التعبير متافزيقيا Metaphysics بصفة عامة ليدل على علم الموجود ، وهو مادة هذه العجالة . وقد أطلق أرسطاليس نفسه على هذا العلم « الفلسفة الأولى » أو علم اللاهوت .

(٢) دارون ، حياته ورسائله ، ٣ ، ٢٥٢ .

(٣) عن الأقسام التالية ، على القارىء أن يرجع الى المصنفات التى وضعت عن أرسطاليس ، التى جاء ذكرها فى فهرست قائمة الكتب فى المجلد الثانى .

هذا الحجر أو هذه الشجرة أو سقراط مركبات من المادة (hylé) والصورة (eidos) ولا يمكن ارجاعها الى مجرد صورة لأنه كما قلنا ، لا يمكن للصورة أن تتغير ولا يمكن ارجاعها الى مادة ، لأنه لا يوجد شيء الا اذا كان ثمة شيء معين ، وهب خصيصة أو صورة كحجر أو شجرة أو رجل • ومجرد مادة ، غير محددة على الاطلاق وخالية من الصورة ، ليست موجودة وجودا فعليا ولكن تصور محدد ، لازم لشرح الصيرورة والتغير • كيف يمكن فى الحق لأى شيء ، أن يصير الى وجود ، من ذاك الذى لم يكن من قبل شيئا محددا ؟ والصورة ، مرة أخرى ، لا وجود لها كما كان يظن أفلاطون ، فى سماء ، تسمو على الحس بمعزل تام الانقطاع عن عالم تجاربنا الواقعى لأنه ماذا كان يمكن لمثل تلك الصور المعزلة أن تضيف الى وجود عالمنا عالم التغير ، أو الى معرفتنا به ؟ وعلى هذا فقد كان أرستطاليس يذهب الى أن الفرد الجماد وليس مجرد الفرد العام ، هو الذى له وجود جوهرى • وعندما سئل ماهو الجوهر (ousia) ؟ — أجاب : « هذا الحجر ، هذه الشجرة ، أنت ، وأنا »[1] • وجميع حالات الموجود الأخرى هى صفات وميول أو علاقات هذه الحالة الأساسية ويمكن أن توجد فقط وهى تعتمد على الموجود الجوهرى • ان « أسود » أو «تعادل» ، يمكن فقط أن يكون لهما وجود اذا كان يوجد شيء أسود أو شيئان متعادلان، وشأن الفلسفة هو الكشف عن علل هذه الجواهر الفردية وبهذا تشرح التغيرات التى تطرأ عليها ، ويوضح أرستطاليس كيف يتطلب مثل هذا الشرح تعاون أربع صنوف من العلة ، حتى يمكن لأى شيء أن يكون له وجود وافرض تمثالا ، فيكون المطلوب :

(أ) المادة (hylé) التى ينشأ منها مثل كتلة الرخام •

(ب) مبدأ للحركة خارجى يستهل عملية التغير النسقية أى العقل واليد والمنحات •

(جـ) الصورة (eidos) التى تتحقق فى العملية النسقية وعن طريقها مثل صورة زيوس لفيدياس أو صورة هرمس لافراكسيطيلس •

(د) هدف وغاية العملية أى التمثال المنجز كهدف لعمل النحات •

وعلى هذا يجب أن نفترض علة مادية وملائمة وصورية ونهائية • ومن الواضح أن العلل الثلاث الأخيرة من شأنها أن تتآلف • انها صورة (جـ) التمثال التى هى غاية النحات و (د) فكرة هذه الغاية فى عقله هى الدافع المحرك (ب) التى تكون بادئة وهادية نسق عمله • وتصور الصورة على أنها غاية أو غرض التقدم ، بالمقابلة مع المادة غير المهيأة هو الفكرة الأساسية فى

---

(١) فى الواقع ، أدلى أرستطاليس باجابات متعارضة عن هذا السؤال : ولكن النص يذكر الاتجاه الأساسى فى حله للمسألة •

كل فلسفة أرسطاليس • وكذلك فى علم الأحياء وفى علم النفس وفى علم الأخلاق وفى نظرية الفن ، فان شرحه ، كشرح أفلاطون ، ينتمى الى مبحث العلة الغائية ، وعملية الكون النسقية فى جميع تفصيلاتها تفسر على أنها جعل القدرة على تقبل الصورة واقعية ، فى تدرج وفى كل حالة تصل العملية النسقية الى غايتها فى تحقيق الصورة المناسبة وعلى ذلك فان الشىء الذى لم تكتمل تهيئته ، يجب أن يفسر فى ضوء الشىء المهيأ وليس العكس • ان الرجل يسبق الطفل وشجرة البلوط تسبق ثمرة البلوط — والبدء من البداية هو ببساطة البدء من الطرف الخطأ[1] • وبهذا يعبر أرسطاليس عن الفرق بين المادة والصورة بما فيه أعظم جدوى فى حدود ديناميكية كحد القدرة (dynamis) والواقعية (energeia) فالطفل هو قدرة الرجل وثمرة البلوط هى قدرة شجرة البلوط وعندما تجعل صورتا الرجل وشجرة البلوط واقعيتين فى كلا الفردين على السواء ، فان العملية النسقية تكمل وتحقق الغاية • ولكن يجب أن يلاحظ ، اذا كانت العملية النسقية لتبدأ اطلاقا ، أن الصورة والواقعية يسبق افتراضهما ولو أن هذا فى فرد آخر من النوع • ويمكن أن يصير الطفل الى وجود ، فقط عن طريق وساطة والد بشرى موجود فعلا • وبهذا النهج فى التفكير يصل ارسطاليس الى وجود الله الأبدى كصورة خالصة • وبما أنه فقط فى قوة واقعية (صورة) موجودة فعلا — يمكن لقدرة الفرد أن تتحرك صوب الواقعية ، بما أن الانسان فقط يستطيع أن ينجب انسانا ، ويتطلب انتاج التمثال وجود سابق للصورة فى فكر النحات • فهكذا الحال أيضا مع واقعة التغير الأولى ، حركة الكون • واذا كنا لنتخلص

(١) هذا يبين كم كان تفسير أرسطاليس للطبيعة العضوية — على الرغم من اصراره على فكرة التقدم وعبقريته كعالم أحيائى — يختلف عن تفسير العلم الحديث الذى يقول بالتطور • ولم يطبق فكرة التقدم على الأنواع ، التى كان يعتبرها منعزلة وثابتة • وقد أدى به مبحث العلة الغائية الى أن يرفض فى احتقار الآراء عن عملية نسقية تطورية بالانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح التى أفضى بها أنبادقليس • « يمكننا أن نفرض أن جميع الأشياء حدثت عرضا كما كان ليحدث لو أنها أنتجت لثمة غاية • لقد بقيت أشياء معينة لأنها كانت فى الوقت نفسه قد حصلت على تكوين مناسب بينما تلك التى لم يتهيأ لها ذلك فنيت وانها تسير الى فناء كما يقول أنبادقليس عن الثيران التى لها رءوس بشرية » • وهذا ، فى رأى أرسطاليس ، من شأنه أن يفسر الطبيعة على أنها وليدة الصدفة بينما الطبيعة لا تعمل عبثا وتحقق الهدف بطريقة عادية «فى الكثير الغالب» • راجع « الطبيعة » ٢ : ٨ وبورنت E. Gk. Ph. صفحة ٢٤٣ (عن أنبادقليس) الذى أوردت هنا ترجمته للنص. قابل كذلك (عن انكسيمندر) E. Gr. Ph. صفحة ٧١ •

من الرجوع بالأسباب رجوعا لا نهاية له ، فيجب أن يوجد محرك أول أبدى لايجاد سبب حركة السموات الأولى ، الأبدية ، وبما أن السبب هو دائما شيء آخر غير النتيجة والمحرك غير المحرك فان المحرك الأول لا يمكن ، كما كان يعتقد أفلاطون أن يكون متحركا بذاته ، ولكن يجب أن يكون هو غير متحرك [١] . والمحرك الأول الذى لا يتحرك هو صورة خالصة واقعى أبدا والهى . وفى مذهب الالوهية لأرستطاليس ، لا يوجد مكان لخالق ، لأنه ليس للكون بداية فى الزمن وفعل الخلق يتضمن حركة وتغير وقدرة فى الله، كذلك يرى أرستطاليس الا مكان لعناية ربانية لأن الله يقع خارج الطبيعة ومنعزل عنها ، وحياته ليست حياة نشاط عملى ولكنها حياة تامل بسيط (theoria) وهو لا يعرف حتى الكون ولكنه ادراك له وعى ذاتى خالص وهو فى نفس الوقت ذات ، وموضوع فكره الذاتى البالغ شأو الكمال . وهو الأحد فى هذا التعالى المطلق ، يجتذب العالم نحوه كهدف رغبته « ان العلة النهائية تنتج حركة كما يفعل موضوع حب » ، وعن طريق ذلك الذى يحركه (الطبقة الخارجية للنجوم الثوابت) تتحرك جميع الأشياء الأخرى، وعلى مثل هذا المبدأ ، اذن تعتمد ، السموات وعالم الطبيعة ، وحياته تكون كأحسن ما نستمتع به ، ونستمتع به أمدا قصيرا ، لأنه أبدا فى هذه الحالة (التى لا نستطيع أن نكونها) بما أن واقعها هو أيضا متعة .. فاذا كان الله على الدوام فى تلك الحالة الخيرة ، التى نكون فيها أحيانا ـ فان هذا يدعو جبرا الى عجبنا واذا كان فى حالة أفضل ـ فان هذا يدعو جبرا الى المزيد منه . والله بالتوكيد فى حالة أفضل والحياة أيضا ملك الله . لأن واقعية الفكر هى الحياة والله هو تلك الواقعية وواقعية الله الذاتية هى الحياة على أعظم خير ، وأبدية . وعلى ذلك نقول ان الله موجود حى أبدى ، وهو الخير فى منتهاه ، وان الحياة والبقاء مستمرين وأبديين يملكهما الله . لأن هذا هو الله » [٢]

١٤ ـ الخير الأعظم للانسان . ودليل أرستطاليس على وجود الله من واقعة الحركة ، يهيىء الأساس الفلسفى لعلم اللاهوت فى القرون الوسطى. وكان له المكانة الرئيسية بين البراهين التى صاغها أكويناس Aquinas ويمكن تعرفه على أنه المصدر الذى استمد منه دانتى تصوره للمحبة التى

(١) ان تأثير دليل أرستطاليس على أن الله عمل خالص وأنه المحرك غير المتحرك ، للكون ، على فلسفة المسيحية فى القرون الوسطى ، كان عميقا كما يعرف كل قارىء لدانتى .

(٢) « ميتافزيقا » ١٢ ، ٧ (ترجمة روس Ross) .

تحرك الشمس والنجوم الأخرى»[١] . والعبارة المقتبسة آنفا من«الميتافزيقا» توحي بجواب أرسطاليس عن المسألة الثانية من مسائلنا ، وهي Summum Bonum أو الخير الأعظم للانسان . وبينما كان أفلاطون يلح دون هوادة على أن معرفة الخير المطلق كان أمرا جوهريا للفضيلة الحقة والنعيم وأن هدف طبيعة الانسان كان يمكن فقط تحقيقه في حياة الاخلاص للفلسفة ، فان أرسطاليس يتحول عن البحث عن المطلق الى البحث عن صورة خير الانسان المعينة ، وهي الغاية التي يمكن أن يصل اليها المواطن الخير في دولة – المدينة الهلينية في مدار حياته الأرضية ، انها توجد هنا أو توجد في أي مكان آخر ، لأن الروح الفردية ، كصورة للجسم العضوي ، تعيش في اتحاد مع الجسد ، مادتها ، ولا يمكن أن يكون لها دعوى في الخلود . وتحديد صورة الحياة الخيرة التي فيها يكون النعيم الانساني (eudaimonia) هو موضوع العلم السياسي الذي يعالج تقدم قدرات الانسان الطبيعية نحو تحقيق هذه الغاية ولقد تناوله أرسطاليس فيعجالتين (Nicomachean) ، علم الأخلاق والسياسة[٢] . وعند أفلاطون كان علم السياسة لا ينفصل عن الميتافزيقا (ما وراء الطبيعة) اذ يجب أن يكون الفيلسوف ملكا والملك فيلسوفا ، ومن الوجهة الأخرى يفرق أرسطاليس تفرقة قاطعة بين المعرفة والعمل وبين العلم النظري والعملي . ولقد عنى أرسطاليس بمسائل الأخلاق بروح تجريبية واستقرائية ، وكان الغرض من العملين أن يكونا كتابين يدويين للشارع في مهمته العملية في تعليم المواطن استيعاب الصورة الكاملة للفضيلة الاجتماعية[٣] . وقد عرف النعيم (eudaimonia) ، الخير الأعظم للانسان بانه « نشاط الروح المطابق للفضيلة (areté) والفضيلة بأنها « مزاج الارادة المستقر وهو ، في معدله، النسبي ، يحدده المبدأ العقلي وكما يمكن أن يحدده انسان ذو حكمة

---

(١) أكويناس Summa Thed. ، ١ ، ٩ ، ٢ – Art. ٣ و Summa contra Gentiles١ فصل ١٣ – ودانتي « الفردوس » ٣٣ ، ١٤٥ .

(٢) ينصح الى القارىء ، اذا كان غير ملم بأعمال أرسطاليس ، أن يبدأ دراستها مع « علم الأخلاق » وعن الترجمة الانجليزية ، يراجع فهرست قائمة الكتب في المجلد الثاني .

(٣) وهنا أهمية علم الأخلاق كمعبر عن المثل العليا الاغريقية الشائعة وأنواع السلوك . ويكتب أيكن Eucken « ان مذهب أرسطاليس متأصل تأصلا كليا في العالم الكلاسيكي وتعمل آراؤه الأساسية وقيمها ، دون انقطاع ، فيه. ان مذهب أرسطاليس يبرز جوهر العالم الاغريقي الكلاسيكي في تعبير علمي مكتمل رائع وعلى هذا يسلمه الى البشرية القادمة » (مسألة الحياة الانسانية) .

عملية » (١) • ويجب أن يفهم « المعدل النسبى » على أنه ليس مقياسا للشئ الوسط ، أو التصالح مع الشر ولكن مراعاة التناسب العدل الذى يقابل الافراط ونقصان الوجدان والفرض فى كل من المواقف المتنوعة التى تستدعى العمل • وقوة التعريف تكمن فى نزعته الى مبدأ عقلى (logos) ويعنى به ليس صبغة معنوية للسلوك ولكن حكما صائبا فى جميع الأمور يوجد فى نفس المواطن التفوق السامى فى الحكمة العملية phronêsis •

ان أرسطاليس يبحث طائفة من المسائل التى تنجم عن هذا التصور للخير الانسانى كوضع مبدأ خلقى بالتعود على السلوك القويم وطبيعة العمل الاختيارى والمسئولية عما يرتكب من خطأ وصور الفضيلة المعينة وما يقابلها من رذائل ومقياس العدالة فيما يتعلق بتطبيق القانون لها ، والعلاقة بين النعيم والمتعة والمثال الأعلى للصداقة الانسانية (٢) • وهو يوجه التفاتا خاصا بالنظر الى تعرف سقراط وأفلاطون هوية واحدة للفضيلة والمعرفة الى المطالب العقلية للخير والحياة الخيرة • ولو أنه لا يشك فى الحاجة الى التفوق العقلى كأمر جوهرى للعلاج الخلقى فان واقعة الرجل ذى الارادة الضعيفة الذى يعرف ما هو صواب ، ومع هذا يفعل ما هو خطأ يبعد تعرفهم هذه الهوية الواحدة لهما • وعلاوة على هذا فان الحكمة التى تكون مطلوبة ، ليست حكمة (Sophia) الفيلسوف النظرية ولكن حكمة السياسى العملية (٣) (Phronêsis) • انه من الصعب الغلو فى بيان أثر بحث أرسطاليس لهذه المسائل على الفكر فى الأزمنة اللاحقة • ان المبادىء الأخلاقية عند الرواقيين وأصحاب مذهب الأفلاطونية الحديثة وحتى الأبيقوريين هى الى حد عظيم تطورات لمبادىء أرسطاليس وقد أثرت معالجته للمسئولية عن الجريمة على القضاء الرومانى ، والأقسام الخلقية فى "Summae" لأكويناس وبناء وفحوى منظومة دانتى « الكوميديا الالهية » تبين أثر «علم الأخلاق» فى كل حيدة (٤) • واذا كان التفكير المسيحى فى قصارى نعيم الانسان يقتفى ، بطبيعة الحال طريق « العالم الأفضل » لأفلاطون فقد استمد الكثير

---

(١) علم الأخلاق : ١ ، ٧ و٢ ، ٦ •

(٢) التعود - « علم الأخلاق » ٢ - المسئولية « علم الأخلاق » ٣ و١ صور الفضيلة والرذيلة ، المعينة « علم الأخلاق » ٣ و٦ وما يليها و٤ و «علم الأخلاق » ٥ المتعة - « علم الأخلاق » ٧ ، ٦ وما يليها ، ١٠ ، ١ - ٥ الصداقة « علم الأخلاق » : ٨ و٩ •

(٣) عن ضعف الارادة « علم الأخلاق » : ٧ ، ١ - ٥ • عن التفوق العقلى (وخاصة Phronêsis, Sophia) - « علم الأخلاق » : ٦ •

(٤) انظر المجلد الثانى فصل ١١ §§ ١٠ و١١ و١٤ •

من تعليم أرستطاليس الخلقى فى تطبيق ذلك المثل الأعلى على حياة الانسان الأرض .

وأرستطاليس نفسه على الرغم من توكيده للمواضع التى اختلف فيها عن أستاذه يضرب ، فى ختام « علم الأخلاق » ، على نغمة أفلاطونية قوية وبما أن النعيم يكون فى ممارسة أعلى نشاط للروح وبما أنه فى الروح الانسانى يكون للعقل بالطبيعة المكانة العليا وعلى ذلك يتحتم أن تصل صورة وغاية تطور الانسان الى أكمل تعبير لها فى حياة التأمل الفلسفى وفى تلك الحياة يمكنه أن يستمتع ، ولو فى فترات متقطعة ، بنصيب من الرضى الذى يستمتع به الله ، كعقل خالص بصفة أبدية . وعندما يتحدث أرستطاليس عن واجب الانسان بأن يوجه حياته على هدى ذلك الذى فيه ، الذى يغلب أن يكون شبيها بالله والنعيم العجيب الذى يجلبه مثل ذلك الاخلاص ، من مجامع القلب ، ويتعرف هوية هذه الخدمة الحرة فى حياة الدراسة الفلسفية فانه لن نفشل فى أن نتعرف فى لغته الانعكاس المباشر لتجربة شخصية « ان الانسان يجب ألا يفكر ، كما يظن أولئك الذين يقولون بذلك ، الأفكار البشرية لأنه انسان أو الأفكار الآدمية لأنه آدمى — ولكن بقدر ما يستقر فيه يجب أن يرتدى الخلود ويفعل كل شىء لكى يعيش وفقا لأسمى ما فيه لأنه وان كان صغيرا فى الجرم ، فانه يسمو على كل ما عداه فى القوة والقيمة »[1] .

١٥ — ولم يكن أرستطاليس مجرد تلميذ أفلاطون ولكنه رسول عهد جديد فى تاريخ الفكر ولقد زيدت المواد الموجودة فى متناول المعرفة زيادة تربو على القياس ، عن طريق حملات الاسكندر وأصبح تحت تصرف أرستطاليس مجموعات هائلة جمعها العلماء الذين رافقوا تلك الحملات . ولقد كانت له الحرية فى استخدامها لأبحاثه التى تتصل بعلم الحياة، وكذلك للمعاونة على اعادة بناء فلسفة يجب أن تربط مختلف العلوم فى مذهب شامل . ان عملين جليلين يرجعان اليه خاصة ، لقد حدد منهج البحث العلمى ووضع مصوره بأقاليم المعرفة الانسانية . لقد كان أرستطاليس المؤسس الحقيقى للمنطق ليس فى معنى القول المأثور ذائع الصيت الذى يرجع الى جون لوك John Locke « لم يكن الله مقترا الى هذا الحد على الناس ليجعلهم مجرد حيوان ذى رجلين ، فترك لأرستطاليس أن يجعلهم أولى عقل »[2] . ولكنه فى ذلك وهو يقيم البناء دائما على أسس أفلاطون ، نراه يحلل طرق التدليل

(١) « علم الأخلاق » : ١٠ ، ٧ .

(٢) لوك « عجالة عن التفكير الانسانى » : ٤ و١٧ .

العقلى النسقية ويصوغ المنهج الذى يمكن الوصول به الى الحق المرشد ، الذى يتميز عن الحق المرجح وحسب .

ولقد أثارت الصورية والاصطناع فى المنطق الأرسطوى الكاذب لدى رجال المدارس المتأخرة رد فعل طبيعى بين كبار رواد العلم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وهو لايزال يربك عقول الكثير الذين يجهلون تاريخ الفكر .

وفى الواقع كان أرستطاليس ، الذى لم يكن قط عبدا للصيغ ، ليتعرف فى غاليلو وفى ديكارت التحقيق الصادق لمبادئه الخاصة فى المنهج العلمى . ولقد كان يستهل كل عصر جديد فى تقدم العلم التفكيرى باصلاح فى المنطق . وكانت الحال كذلك ، ليس فقط فيما يتصل بالأرغانون Organon أو « أداة » أرستطاليس المنطقية ، ولكن أيضا مباحث المنهج "Discours de la Méthode" لديكارت والأداة الجديدة Novum Organum لبيكون والمنهج النقدى Critical Method لكانت والمنهج الجدلى Dialectic Method لهجل . ان الفلسفة والعلم يختلفان عن التفكير الشعبى ليس لأنهما يعنيان بمواضيع مختلفة ، أكثر من أنهما يعالجان نفس المواضيع بطريقة مغايرة . ان النبات والحيوان وهما يكونان مادة الموضوع لعلم النبات وعلم الحيوان كانا قد وضعا فى مجموعات وميزا وفهما فهما غامضا قبل قيام هذان العلمان . وكانت مهمة العلم تصحيح هذه التصنيفات الشعبية ووضع مذاهب لها ، وأن تحدد فى احكام الخصائص الذاتية للأشياء وقوانين نموها . ولقد أدرك أرستطاليس فى جيله ، أن مسألة المنهج كان لها أهمية حاسمة ووطن نفسه على تحليل منطق العلم فى بصر « منقطع النظير » ، بطبيعة العملية النسقية للفكر البشرى . وثانيا ـ لقد حدد مختلف أقسام العلوم كأجزاء فى كل واحد . ولا يوجد فليسوف وازن ، بمثل هذه العدالة ، التناسب بين الكل والجزء فى المعرفة ، أو استمسك بمثل هذه القبضة الثابتة على ما يوجد بين الأشياء من فروق مميزة حقيقية بينما أدركها جميعا فى مذهب موحد . لقد كانت عبقريته فى وضع مذاهب تتألف بالمدى الشامل لبحوثه ، وتقديره لتنوع المبادىء الأساسية فى عالم تجاريبنا ونظره الذى لا يخطىء فى تبين وجوه الاختلاف والقرابة فى النوع فى الكون بأجمعه ودقته المحكمة فى صوغ المنهج الفلسفى ، هى التى تجىء مصداقا لقول دانتى فى نعت أرستطاليس بأنه « سيد من يعلمون » [١] . وهى تبين السبب فى أن فلسفة العالم الغربى سارت مدى الفى سنة فى معظمها على الخطوط التى رسمها . وكانت الثقة التى وضعت فيه فى جميع مسائل المعرفة الدنيوية لها أسمى

(١) « الجحيم Inferno » : ٤ و ١٣١ .

مكانة فى خلال العصور الوسطى المتأخرة [1] . وحتى عندما أعلنت روح التعليم الجديد الغاء الثقة ، بالبحث الحر وأنكرت أرسطاليس المدارس فانها اقتفت دون انتباه خطواته . وكمنظم عظيم للمعرفة فان له فى مسائل العقل مكانة تماثل مكانة الامبراطورية الرومانية فى مجال الحكومة والقانون .

٤ - الرواقيون والأبيقوريون

١٦ - كانت الفلسفة فى اعتبار أفلاطون وأرسطاليس « موجة حياة » يستطيع الانسان بها وحدها أن يصل الى معرفة الخير الأعظم الذى يجد فيه الخلاص .

ولكن استهواءها كان لدى القلة الذين كانوا يشعرون بالدعوة الى التأمل العقلى ، وحتى لهؤلاء ، كان من شأن الفلسفة أن تتدهور الى عدم مبالاة ارتيابى أو الى مذهب صورى ، خواء . ان الرجل العادى المثقف كان يحتاج الى شىء أقل عسرا ، وأكثر أن يكون عمليا بطريقة مباشرة ، مما كان يقدم اليه فى الأكاديمية ، وملعب الرياضة والدرس Lyceum . والمعلم القديم ، دولة - المدينة ، بعباداتها الدينية وفروضها الخلقية كان يتوارى سراعا عن النظر ، ولما تقطعت الأسباب بينه وبين مرساه ، فانه التمس عقيدة تنقذ روحه من التحطم وتقوده الى مرفأ يلجأ اليه من شرور الحياة [2] .

ولارضاء هذا المطلب ، ظهر فى الجيل الذى جاء بعد جيل أرسطاليس والاسكندر ، مذهبا الرواقيين والأبيقوريين . وكانا كلاهما يسودهما النهج الخلقى ، فى الهدف والمبدأ ونظرية المعرفة (المنطق) ونظرية الطبيعة (الفيزيقيا Physics) كانا يقومان كصقالة وليس كقسم لا يتجزأ من بنائهما الفلسفى ، بينما الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) النواة للتفكير الأفلاطونى والأرسطاليسى تراجعت بكيانها الى خلفية الصورة ، وفى مجال علم الأخلاق مرة أخرى ، أقام كل منهما الدعوى لتقديم الهداية لروح الفرد ليبين له كيف يعيش بحكمة ، ويصل الى سكينة بمعزل عن العالم المضطرب فى الخارج وعواصف العواطف فى الداخل . وكلاهما صور خليقة الرجل الحكيم كأنموذج

---

(١) راجع موضوع الثقة فى أرسطاليس دانتى "Convivio" : ٤ و ٦ ولم يكن هذا النفوذ دون عوائق أمام التقدم وخاصة فى مجال علم الطبيعة فعلى سبيل المثال ، كان تميز أرسطاليس بين السموات العليا والعالم الأرضى أشبه بحمل على علماء الفلك والطبيعة حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

(٢) وبطبيعة الحال، ظلت التصورات الدينية التقليدية، والعبادة باقيتين بين الجماهير ولكن لم يعد بعد أن يكون لهما تأثير فعال لهداية أرواح الناس ، كما كان توراة العبرانيين .

للمحاكاة ، وكانا يعلمان كيف يمكن الوصول الى هذا المثل الأعلى ولكن هنا ينقطع التشابه وعندما نسأل عن طبيعة الحياة الفلسفية ، تقدم المدرستان أجوبة مختلفة اختلافا عظيما فيذهب الرواقى الى أنها تكون باتباع الفضيلة، تلبية لقانون للطبيعة له السلطان أو العقل الحكيم ، باخضاع العواطف وبالانفصال عن عالم الظروف الذى لا يستقر على حال ، فيقوم روحه لتصل الى الاكتفاء الذاتى والاستقلال الداخلى ، ويذهب الأبيقورى الى أن الحياة الخيرة هى حياة الاستمتاع فى تعقل ، بكل ما يقدمه العالم مما فيه الرضى ، والحكيم يتحكم فى الظروف باستخدامها كوسيلة لدعته ـ والخير هو المتعة أى لا يكون بارضاء مطالب الحواس ارضاء عابرا • ولكنه ثمار « حب الذات الرصين » • وفوق كل شيء مباهج الدراسة العقلية والتواصل الاجتماعى • وفى أحسن حالتيهما ، كانت الرواقية أكثر سموا أما الأبيقورية فكانت أكثر سماحة وروحا انسانيا ، من بين المثالين الأعليين • وكان الرواقى أرستقراطيا خلقيا ، فيه بعض النزوع الى الزهو بقوة تجلده على الزهد واحتقار اخوانه الأكثر ضعفا ، بينما كانت العقيدة الأبيقورية وخاصة فى اعترافها بتساوى الجنسين واصرارها على متع الصداقة أقل من أن تكون قاصرة على طائفة بعينها، وأكثر ديموقراطية • وفى مستوى أوطى تدهورت الرواقية الى رسميات ممحضين وتصالح افتئاء ، مع العالم مما لم يكن يتوافق مع دعاواها الرفيعة ، كما انحدرت الأبيقورية الى رضوخ راض لسد رغبات الحياة الأكثر غلظة • ولكن كان كلاهما على السواء لا يبالى بنهج المجتمع والحكومة • لقد كان ذلك بين أيدى الطاغية وجيشه وموظفيه المدنيين • أما شأن الفرد فكان له وجهة أخرى فى تنظيم مدينة روحه الخاصة تنظيما صائبا •

١٧ ـ وكان لكلا المدرستين تاريخ طويل امتد الى شوط بعيد فى العهد المسيحى وكان للمذهب الرواقى من بين المدرستين ، التأثير الأبعد مدى فى العهود القديمة ، وفى العالم الحديث ، على السواء • ولقد استهوت مبادؤه بطبيعة الحال رجال الأعمال وتبناها وأحيانا تمرس بها ، الحكام ، ورجال السياسة فى العصر الاغريقى المقدونى • ولقد أصبح مألوفا ، كما سنرى فيما بعد • لدى الأشراف الجمهوريين فى روما • وكان يوجد شيء فى مزاج الرومانى العملى نحته المذاهب الفلسفية الأخرى ، ولكن كان يتجاوب فى يسر مع العقيدة الرواقية • ولقد ترك طابعه على القضاء الرومانى وعلى الأفلاطونية الحديثة الهلينية على السواء ، حيث يمتزج التعليم الرواقى بالتعليم المستمد من أفلاطون وأرسطاليس • وقد اجتذب المفكرين المسيحيين بسموه الخلقى ومثاليته التى لا تقبل انتقاصا • وفى الأزمنة الحديثة آثار

اعجاب فلاسفة مختلفين من أمثال ديكارت وبيشوب بتلر ومانويل كانت [١] .
اذن ، ما السر في السيطرة التى ظفر بها المذهب الرواقى وحافظ عليها هذا الأمد الطويل ، على قلوب الناس ؟ ان الجواب يكمن فيما كان له من وقع على قوة ارادة الانسان وفي توكيده الوثيق للحرية البشرية وللعناية الالهية كليهما • لقد كان الرواقى يعلم أنه ولو أن الانسان عديم الحول ، كما يظهر فى مواجهة الظروف المعـادية ، من رق وتعـذيب ومرض وموت ، فانه فى الواقع كان سيد ارادته المطلق وانه فى هذه السيادة على الارادة وحدهـا كانت تتوقف كل قيمة الحياة وخيرها • « لا شيء خير دون تحديد غير الارادة الخيرة » وهذا القول المـأثور الذى نطق به بعـد ذلك بعشرين قرنا ونيف فيلسوف كنجزبرج"Königsberg" كان يمكنأن يتعرفه الرواقى وكأنه قوله [٢] لأنه فى اعتبار الرواقى ، كما فى اعتبار كانت ، تكون الارادة الخيرة ، خيرة دون تقيد بشرط • ولا توجد درجات من الخير • فاذا كنت على صواب فأنت على صواب بصفة مطلقة • واذا كنت على خطأ فانك مخطىء بصفة مطلقة • وسـواء أكنت على صـواب أم كنت على خطأ ، فان هذا يتوقف على الخصيصة الداخلية لارادتك دون سواها • وبالاضافة ، فان الارادة خـيرة عندما تريد الخير ، والخير هو ـ ما هو كائن • ونظام الكون وصدق كل أحداثه والطبيعة (Physis) التى هى طاقته الخالقة هو كامل وهو قانون وعقل والله [٣].
وعلى هذا فان الرجل الحكيم ، القديس الرواقى ، يتعرف عن طيب خاطر فى أية محنة تصيبه ، كائنة ما كانت ، اتمام غرض العناية الالهية ويوكد حريته غير المقيـدة بشرط فى مواجهتها ، بأن يرضى أن تكون ـ ما هى كائنـة ـ ويسير عقله قدما وهو جذلان ليقابل عقل العالم الذى تجمعه آصرة قرابة ـ وعلى هذا فانه بقوة الحتمية الذاتية الداخلية تكون له الغلبة على العاطفـة ويظفر بسكينة الروح "e la sua voluntate è nostra pace" [٤].

---

(١) عندما سـألت الأميرة اليصابات ، عام ١٦٤٥ ديكارت ، الذى لم يضع أى تأليف فى علم الأخلاق ، عن آرائه فى الموضوع ، أجـاب موصـيا بعجالة سنيكا ، الرواقية الامتناع الممتع devita beata عـلى أنهـا تفى بالغـرض • راجـع (أعمـال Oeuvres لـديكارت) طبعــة آدم وتانرى Adam and Tannery المجلد الرابع الصفحات٢٥١ وما يليها و٢٦٣ومايليها•

(٢) كانت "Grundlegung zur Metaphysik der Sitten" القسم الأول (ترجمة أبوت Abbott صفحة ٩) •

(٣) يوازن الاسـتاذ جلبرت مرى ، فى محاضرته عن المـذهب الرواقى physis عند الرواقيين و élan vital عند برجسون Bergson ومن بين المذاهب الفلسفية الاغريقية كانت الرواقية فقط تقرب من مذهب وحدة الوجود Pantheism (أى من يرون الله والعالم واحدا ـ المترجم) •

(٤) « وارادته سلامنا » دانتى ، الفردوس .Par : ٣ و٨٥ •

ولذا فان النصائح الرواقية - « اتبع الطبيعة، اتبع العقل، اتبع الفضيلة» هي مجرد طرق متنوعة للتعبير عن الشيء بعينه .. وكان الرواقي يقول أيضا « اتبع الله » : لأنه على الرغم من مادية نظرياته الطبيعية الغليظة الى حد ما ، كان يعتقد أن القانون الذى يتحكم فى نهج الطبيعة لم يكن ميكانيكية عشواء، ولكنه انجاز غرض الهى متواصل ، ينتهج العقل ، وهو خير فى ذاته ، وفى مبحثه القويم عن العلة الغائية ، سار المذهب الرواقي فى توائق مع تقاليد أفلاطون وأرستطاليس [١] ، وكون هذا المذهب مبتكر كعقيدة خلقية ، يرجع بعضه الى إستهوائية للارادة والبعض الآخر الى استقلاله الكلى عن تقاليد دولة - المدينة التاريخية ورسالته من البداية الى النهاية توجه الى الفرد وهى تأمره أن يقف متحررا عن جميع الروابط العرفية التى رسمها الانسان ، وجها لوجه ، بما له من قوة ، ضد جميع الرياح التى تهب . وفى وقعه الشخصى هذا ، وكذلك أيضا فى العقيدة الحاسمة التى وجه فيها ، نتعرف روح أول مؤسس للمدرسة . لقد كان زينون Zeno ساميا من كتيوم Citium فى قبرص ، استبقر وهو لا يزال فى صدر شبابه فى أثينا (حوالى عام ٣٢٠) وكان يقوم بالتعليم هناك مدى نصف قرن ونيف فى الرواق المدهون (Stoa Poikilé) . وكان كثير من أبعد أتباعه شهرة من أهل الجزر وأراضى المشرق الساحلية . ويمكن تبين طابع العقل السامى على المذهب ، أسفل الوضع الهليتى [٢] . ولقد كان المذهب الرواقي فى الحق ، أول الثمار العقلية لسياسة الاسكندر فى المزج . ولم يكن يوجد شيء ضئيل فى زينون يورد للذاكرة ، النبى العبرى ، وعبارة هذا ، « هكذا يقول يهوه » يظهر أن صداها يتردد فى الصورة « وهكذا قال العقل » [٣] . وكان يجب أن يكون الصوت

(١) كل شيء حتمى فى المذهب الرواقي ، ولكنه أصبح حتما نتيجة عمل متواصل لغرض ينتهج العقل . وقد هيأ مبدأ المطابقات فى الطبيعة الذى كان يتلاءم مع هذا التصور ، أساسا للتوافق بين الفلسفة الرواقية والاعتقاد بالرجم بالغيب ومظاهر أخرى فى الدين الشعبى . ويوضح فلوطرخوس Plutarch (راجع السفر الثانى فصل ٩ § ٧) هذا الميل . وقد استخدم الرواقيون القصة الرمزية والأسطورة استخداما طليقا . وقد أخذت عنهم المسيحية منهجهم فى التفسير بالقصة الرمزية ، لقد كان الرواقيون فى الواقع مهرة فى ايجاد أسباب التلازم .

(٢) كان خروسبس Chrysippus مؤسس الرواقية الثانى (٢٠٦) من اهل صولى فى كيليكية . وقد وضع لمبادىء المدرسة ، الصورة المنظمة التى ظلت قرونا . وقد جاء اقلينثس (القرن الثالث) من أسوس Assos فى طرواد Troad وكان فنيطيوس Panaetius (القرن الثانى) من اهل رودس وفوسدنيوس Posidonius (بواكير القرن الأول) من سوريا ، وكانت طرسوس ، أهم مدينة فى كيليكية وبها جامعة ، مركزا مزدهرا للتعليم الرواقى

(٣) راجع بيفان Stoics and Sceptics

صوت العقل لأن زينون كان يبشر بانجيله للاغريق ، شبعب التاريخ الوحيد الذى كان من العبث توقع استماعه الا اذا وجهت قولك الى فطنتــه ولــكن بمجرد أن يخطو هذه الخطوة ، كان من شأن الوقع أن يضم أكثر من الحكم الخاص للمستمع الفرد ، والعقل كما بين أنلاطــون ، هو مجــال مشترك ، والتعليم الذى يكون وفقا له ، لا يمكن أن يكون انجيلا لمجرد الخلاص الشخصى الخالص • ولهذا كان الرواقى ، فى نفس الوقت ، يعلن مثلا أعلى ، عالميا • والمدينة التى كانت تطالب بولاء الرجل العاقل ، كانت مدينة الطبيعــة ، مدينة العقل ، مدينة الله • وكان هذا التصور لمجتمع يشــمل كل البشرية يتوافق مع نظرة العهد الأكثر اتساعا وقيام دول العالم ، واقعيا ، أولا تحت الحكم المقدونى وبعد ذلك تحت حكم روما •

وقد ساعد على صوغ مبدأ قانون للطبيعة (jus naturae) تقوم عليــه التشريعات الايجابية للجماعات المعينة ، التى تمثلها شارعو الرومان ، وعن طريقهم كان لها تأثير بعيد المدى على الأخلاق والقضاء فى العصور الوسطى والحديثة • وقد استخدم القديس بولس وهو من أهل طرسوس أحــد مراكز الرواقية المختارة ، لغة تلك المدرسة للتعبير عن المجتمع الروحى الذى ينتظم فبه كل المسيحيين أعضاء • وتتردد باستمرار فى رسائله فكرة رعوية سماوية • وفى عظته فى أثينا ، اقتبس من أنشودة اقلينثس Cleanthes الرواقى لزيوس وأعلن فى ألفاظ تردد صدى العقائد الأساســية فى المذهب الرواقى أن الله « لا يسكن هياكل مصنوعة بالأيدى » ، وأنه « صنع من دم واحــد جميع أمم الناس ليسكنوا كل وجه الأرض » (١) •

١٨ — ولقد قيــل ان المذهب الرواقى ، انتهى بحماس خلقى وافلاس منطقى (٢) ، ولقد كانت مبادىء الأبيقوريين منذ البداية أقل أهمية من وجهة التفكير ، وكان تأثيرهم عــلى العــالم أقل ذيوعا من تأثير الرواقيين ، لقــد كان أبيقور Epīcurus هلينيا خالصــا ، وربما كان من أهل ســاموس قدم الى أثينا بعد زينون بزمن يسير وأسس هناك مجتمعا صغيرا من التــلاميذ الشخصيين • ويتميز تاريخ أنصــار المذهب فى مداه بالســير فى الخلاص ،

---

(١) الاقتباس من اقلينثس Cleanthes (الأعمــال ١٧ ، ٢٨) هو « لأننــا أيضـــا ذريتـــه » ، وازن مع الأفكار الرواقيـــة فلـ : ٣ ، ٢٠ وأفـ : ٢ ، ١٩ الخ • والتماثل بين الحكيم المسيحى والحكيم الرواقى كور • الأولى : ٤ ، ٨ وكور • الثانية : ٦ ، ١٠ وفلـ : ٤ ، ١٢ ، ١٣ •

(٢) برت Brett تاريخ علم النفس •

وفق ذكرى وتعليم مؤسسه [١] . ولم تكن نظرية أبيقور عن الطبيعة مبتكرة ولذا كان له انجيل خلقي يبشر به ، فقد اتخذ كأساس تفكيري ، فلسفة دموقريطس الذرية ، أعظم مذهب مادى كامل ومنطقى فى الوجود . وكان دموقريطس يعلم أن الكون وكل ما يوجد فيه ، يمكن ارجاعه الى حدود ذرات متجانسة فى حركة دائمة ، فى الفضاء الفراغ [٢] . والضرورة الميكانيكية تحدد على السواء ، نهج الطبيعة ونهج النشاط الانسانى ، وينحى تنحية صارمة كل أثر للحرية والغاية . وقد أمكن تكييف مثل هذه المبادىء تكييفا يدعو الى الاعجاب لتكون أساسا للرسالة الخلقية التى تكون دعوى أبيقور الصادقة فى الابتكار .

وكان هدفه الذى تابعه فى حماس اخلاص عنيف ، أن يحطم آخر حصن ، كان لا يزال الدين التقليدى يحتفظ به فى العقل الشعبى ، ان أنواع الرعب فى حياة مستقبلة فى أرض الأرواح المخيفة الأخروية حيث يوقع من يدعون آلهة ارادتهم غير الانسانية ، على أطياف لا حول لها ، كانت فى نظره مصدر كل قلق وألم يقعان على الناس فى الحياة . « انه هو الخوف الذى كان أول صانع للآلهة » .

ومن الوجهة الأخرى ، اذا كان حقا أن روح الانسان هى مجرد تجمع للذرات وشيك الزوال ، ينحل عند الموت ليكون جزءا من تجمعات جدد ، مع انقطاع الحياة الشخصية والوعى انقطاعا كليا ، فان الخوف يتبدد ويمكن للانسان أن يستحوذ على روحه فى سلام [٣] . والمتعة عند أبيقور يمكن

---

(١) راجع قصيدة لقرطيس de rerum natura السطور الافتتاحية من الكتب ٣ و ٥ و ٦ عن مديح أبيقور .

(٢) راجع عاليه فصل ٤ § ١٥ . ولو أن المذهب الأبيقورى لم يكن له الا القليل من التأثير على الأزمن اللاحقة الا أنه يمكن ملاحظة أنه فى القرن السابع عشر نشر الأب جسندى Father Gassendi وكان صديقا لديكارت مذهبا فى الفلسفة يشتمل على نظرية ذرية طبيعية ومذهب لذة خلقى يماثل مبادىء أبيقور .

(مذهب اللذة Hédonism — مذهب أخلاقى . ويقوم على أن اللذة الخير الأسمى — المترجم) .

(٣) راجع النص العظيم لقرطيس : ٣ ، ٨٣٠ — النهاية . لقد كانت الفكرة الشائعة عن الله والخلود أمرا راعبا للأبيقورية ولكن الأبيقوريين لم يكونوا كفارا . لقد كانوا يعتقدون ، لما قام من التجاريب النفسية خارقة العادة ، بأن الآلهة كانوا يوجدون فى منطقة من الكون — قاصية — لا يعيرون بنى الانسان التفاتا ويستمتعون بحياة مباركة واكتفاء ذاتى يصل الى الكمال . راجع أيضا الأمثال التى ترجمت فى « مذهب الأبيقورية » لولاس Wallace ، صفحة ١١٠ .

تفسيرها حقا بأنها التحرر من العاطفة والقلق (ataraxis) وهذا الوضع السلبى للتعبير يجعل مثله الأعلى ، على الرغم من مواضع اختلاف عديدة ، يسير على نهج تعبير الرواقيين [١] . وانه لمن التضليل التام أن نعتبر القول « دعنا نأكل ونشرب ، لأن غدا نموت » ، لا يعدو أن يكون محاكاة ساخرة للمبدأ الأبيقورى . لقد كان أبيقور وتلاميذه يعيشون عيش بساطة رائعة يتميز بحب متبادل قوى ، وقد احتذى أتباعهم فى الأجيال اللاحقة ، مثالهم وحاز مبدأهم وعاداتهم اطراء حارا من الكاتب التهكمى لوقيان Lucian فى القرن الثانى بعد الميلاد . ولا يوجد مجال للسؤال بأن المذهب الأبيقورى جلب السكينة فى الكثير من النفوس المضطربة فى الأوقات العاصفة التى جاءت عقب تقسيم امبراطورية الاسكندر . ان قدرته وكذلك قدرة المذهب الرواقى على بعث الالهام والسمو تبينهما القصيدة الرائعة التى أدمج فيها الشريف الرومانى لقرطيس (Lucretius) [٢] معتقدات المؤسس ، الطبيعة وانجيله الدينى .

الخاتمة

١٩ — سنعود الى الفلسفة الرواقية عندما يحين الوقت للتحدث عن الصراع بين الهلينية كما يعبر عنها تعليم المدارس وروح المسيحية الجديدة . وهنا يجمل بنا فقط أن نذكر بأن كلا المثلين الأعليين للحياة ، الرواقية والمسيحية كان مولدهما فى العالم الجديد الذى فتحه الاسكندر على مصراعيه ، هو وخلفاؤه وهذا فى ذاته يكفى لتكذيب الرأى القائل ان قوة الهلينية خبا أوارها بانهيار استقلال دولة — المدينة ولكن الحال كذلك فى أن الهلينية كانت فى ذلك الوقت قد قاربت على انجاز عملها فى التربة الهلينية البحتة وأنه كان يكيف طاقتها منذ ذلك الحين ، الامتزاج بمدنية البلدان الأخرى وقبيل ختام القرن الرابع ، كان بنى المدنية الهلينية عضويا وكاملا . ولقد حاولنا أن ننقل ثمة فكرة عن خصيصتها وتاريخها فى هذا الفصل وفى الفصلين السابقين . ان أهميتها للتقدم الانسانى فى جوهرها وفى نتائجها واضحة ولا يمكن تقديرها . والعصر الذى شاهد خلقها ، من القرن الثامن الى القرن الثالث قبل الميلاد يعد من أعظم العصور باقية الذكر فى تاريخ البشر ، اذ فى غضونه يقع ليس فقط خلق الهلينية ولكن تحول دين العبريين البدائى الى عقيدة لها قدر عالمى . وكان أول الأنبياء العظام ، عاموس وهوشع معاصرين

---

(١) راجع لقرطيس : ٢ ، ٢٢ وما بعدها و ٣ ، ٥٩ وما بعدها و ٩٩٥ وما بعدها و ٤ ، ١٠٣٧ وما بعدها و ٥ ، ١١٥٢ وما يليها . وعن المثل الأعلى للرجل الحكيم : ٣ ، ٣٢٢ وما يليها .

(٢) توفى لقرطيس عام ٥٥ ق.م.

لرواد الاستعمار الاغريقى ، فى البحر المتوسط ـ ويتفق السبى البابلى وكتابات اشعياء الثانى فى الزمان مع ميلاد الفلسفة فى ايونيا ونطور الدولة الأثينية فى عهد صولون وبسسطراطس [١] . وكان واضعو المزامير يكتبون فى أورشليم أثناء الحرب الفارسية وعصر بركليس . ولم يكن الأمر قاصرا على هلاس والعبرانيين فى وضع أسس المدنية للزمن القادم على هذا النحو . ولقد تقدمنا بقصتنا أكثر من مرة فى هذه الفصول الى المرحلة التى جمعت فيها ثقافة البحر المتوسط فى دولة وحدة تحت الحكم الرومانى . ولم « تشيد روما فى يوم واحد » . وبعد أن تقدم الاسكندر ليغنم الشرق لليونان ويستهل السياسة التى كان من ثمارها الرواقية والمسيحية على السواء بزمن طويل كان رجال سياسة وجنود لم تصل الينا اسماؤهم يصيغون أسلحة للحرب والحكومة ويبنيان المنظمات والقانون ، مما عاون مدينة ايطالية صغيرة على الاستحواذ على السيادة فى البحر المتوسط وتوطيد أساس امبراطورية روما العالمية .

(١) مرى ـ « خمس مراحل » صفحة ٥٧ ـ يوجد اقتباس عن بيمان بأنه حدث فى اليونان وآسيا الدانية (أى فلسطين) والصين والهند فى القرنين السادس والخامس ، قيام عهد جديد .

الفصل السابع

الجمهورية الرومانية

ـ أسس الدولة الرومانية :

على سلسلة من التلال التى تقوم على شاطىء نهر التيبر وعلى بعد أربعة عشر ميلا من مصبه ، كانت تقوم فى القرون الأولى من الألف سنة الأولى قبل الميلاد ، مجموعات من الأكواخ الخشنة يحيط بها سياج حيث كان الرعاة يأوون بقطعانهم عندما كان يهبط عليهم الغزاة السابنيين Sabine من التلال السابينية . وبمضى الزمن اتحد عدد من هذه القرى الصغار داخل سور دائرى واحد ونشأت مدينة [1] . وكانت تحتل موقعا موفقا كسوق طبيعى لسهل لاتيم حيث كان النهر لا يزال صالحا للملاحة وبعيدا عن متناول القرصان الأتروريين Etruscan الذين كانوا يغيرون على الساحل [2] . وفى فجر تاريخها كانت هذه المستعمرة أحد اعضاء حلف أيدته مراسم دينية ، عقدت رياسته لألبا وفيه اتحد سكان السهل ، لتبادل التجارة والدفاع ضد قبائل المرتفعات وكان الحلف يدعى الحلف اللاتينى وكانت المدينة الواقعة على ضفاف التيبر ، روما .

---

(١) توجد آثار واضحة لامتزاج باكر بين مستعمرتين احداهما للاتين على التل الفلاتينى Palatine والأخرى للسابنيين على القويرينال Quirinal ويظهر أن السابنيين دانت لهم السيادة وأنهم كانوا أجداد أسرات الأشراف . وكان يطلق على مواطنى روما فى العهد الملكى قويريطيين Quirites وهو اسم ربما يرجع الى أصل سابينى .

(٢) كان موقع روما ملائما للغاية . وفى عبارة لوى Livy كان الموقع « قد وصفت معالمه بصفة فريدة ليسمح بتوسع المدينة »
(ad incrementum urbis natum unice locum)
: ٥ ، ٥٤ ، ٤ . كانت روما تحتل موقعا متوسطا فى ايطاليا ، شبه الجزيرة الوسطى فى البحر المتوسط ويتعادل بعدها من قادس والاسكندرية ، وتواجه افريقيا وفى نفس الوقت ترتبط بأوربا الوسطى والغربية والجنوبية ومحمية عنها وكانت ميناء برنديزى تصل ايطاليا بالشرق .

ويمكننا أن نقتفي في خطوط عريضة بواكير نمو روما • وأول معلم واضح في قصتها هو طرد الملوك وتأسيس جمهورية أرستقراطية في ختام القرن السادس (٥٠٩ قبل الميلاد) وكانت قد ارتقت قبل ذلك التاريخ الى المكان الرئيسي في التحالف اللاتيني واستحوذت على شاطىء التيبر حتى ميناء أوسطيا (Ostia) عند مصبه وأقامت منظمات سياسية وجيشا وطنيا منظما • ويظهر أنه في زمن ما في القرن السادس غدت روما حاضرة أمراء من أصل أجنبي دان لهم الحكم على أتروريا الجنوبية وكل سهم لاتيم [1] • وكان معنى طرد الملوك الاطاحة بهذا الحكم الأجنبي • ومع هذا فان الاحتلال الاتروري قد غير بصفة دائمة مركز روما فيما يتعلق بجيرانهم اللاتين • ولم تهبط قط الى مكانتها الأولى كواحدة من المدن اللاتينية الكثيرة المتحالفة • ولكن احتفظت بسيادة فعالة ولولا السيطرة الاترورية لكان دستورها قد اتخذ صورة مغايرة ولكان لاتينيا ، واحدا من القناصل • وفي الواقع عوضا عن الخضوع لهذا المطلب من جانب اللاتين فقد تاح لروما أن نمحو الحلف في النهاية ، وكان الأسياد الاتروريون قد وضعوا أسس مجد روما المستقبل • ولقد بقيت الى اليوم قطع من فنهم المعماري ، كالحائط الحجري الذي ينسب الى سرويس طليوس Servius Tullius يقوم شاهدا على مهارتهم وفي عبارة مونتسكيو « كانوا قد بدأوا بناء المدينة الخالدة » [2] •

٢ — ان الوسيلة التي نهضت بها روما من هذه المصادر الوضيعة خلال قرون من النمو ، الى سيادة عالم البحر المتوسط ، هي احدى القصص التي تبقى ذكراها الى أبعد مدى في تاريخ الانسان • ولم تكن امبراطوريتها خلقا لامعا أتت به عبقرية فردية ، ولكن النتاج البطيء المتزن لنشاط قومي قوي شعب من أصل خليط ، ولكن يتحد في الغرض • وكان لهذا السبب ، أن تاح لها البقاء • ان أسسها كانت تتأصل في احكام في خلية الشعب الروماني ولقد كتب فرجل "Tantae molis erat Romanam condere gentem" أي « كان عملا ذا صعوبة بمكان تاسيس السلالة الرومانية » (فرجل اينادة ١ ، ٣٣) • وكان يعلم جيدا أن « العمل العظيم » لم يكن اخضاع الامبراطورية

---

(١) الطرقون Tarquins ، من المحتمل أنهم مستعمرو اتروريا الاغريق الذين غنموا ثراء وسلطانا في صناعة الفخار والتجارة • انهم مماثلون للطغاة الهلينيين في نفس العصر • راجع « أصل الطغيان » للاستاذ ف • ن • يور ، فصل ٨ •

(٢) عظمة وتدهور الرومان :
"Grandeur et décadence des Romains"
الفصل الأول •

الرومانية ولكن « بناء السلالة الرومانية »[١] . ان سجل تاريخهم الباكر أسطورى فى معظمه لأن ما كان قد تدون من حوليات جافة ، دمر عندما حرق الغال المدينة عام ٣٩٠ ، ولكن الخليقة القومية تنعكس فى جلاء فى الأساطير التى حازت الايمان بها .

لقد كانوا سلالة من المحاربين أصلاب القلوب ، ولقد كان الشعب الرومانى وليس رميولس Romulus وريموس Remus الأسطوريين ، رضيع الذئبة الخارج من فرع مارس .

وقد قصت الأساطير أيضا كيف أن الرومانيين الأوائل عاشوا عيش النهب والسلب وكيف أن الدولة والأسرة على السواء ، كان أصلهما القوة[٢] ولقد أوجد أول ملوكهم اتحادهم السياسى وأسس الثانى ، نوما Numa العبادات الدينية التى كانت خلال التاريخ الرومانى تقوم كعوامل فى السياسة العامة ، ويمكن أن تقتبس أسطورة لها مغزى خاص وهى تسرد كيف أن ثلاثة هوراطيين Horatii ناصروا روما فى عراك مع ثلاثة قورياطيين Curiatii من ألبا Alba وقد ذبح اثنان من الأولين وصمد هراطيوس Horatius الذى لم يصب بجرح فى الميدان ضد خصومه الثلاثة . وبادعاء الهرب ، أودى بهم الواحد بعد الآخر اذ أن الجراح كانت قد أقعدتهم . وعندما رجع الى روما يحمل الأسلاب انفجرت أخته ، التى كانت مخطوبة الى واحد من القورياطيين الذبحاء فى العويل ، وذبحها أخوها فى الحال . وأدين بجرم القتل ولكن برئت ساحته بصوت الشعب وذلك لأنه نفذ العدالة فى واحدة ناحت على عدو روما .

وبهذا كما اعتقدت العصور اللاحقة ، قام الحق الذى كرمه الزمن ، فى أن يستأنف المواطن الرومانى الحكم بالاعدام للجمعية العمومية (provocatio) لنتدبر مغزى القصة .

ان حظ الشعب الرومانى كما لحظ مونتسكيو ، طوال تاريخهم ، ألب أعداءهم عليهم واحدا بعد واحد[٣] . ان حروبهم تستهل على الدوام تقريبا ، بالوبال ولكن تختتم فى جميع الأحوال بالنصر .

---

(١) فرجل، انيد : ١ و٣٧ «ان تكوين الشعب الرومانى كان عملا جبارا» .

(٢) مثال ذلك ، أسطورة اغتصاب النسوة السابينيات . راجع هجل « فلسفة التاريخ » الجزء ٣ ، قسم ١ فصل : ١ ويذكر بلوبيوس ١ ، ٣٧ كيف كان الرومان يستخدمون القوة فى جميع مهامهم .

(٣) Gr. et déc. فصل ٤ .

وفوق كل شيء ، لم يشك الرومانى قط فى أن مطالب النفع الشخصى يجب أن تكون خاضعة لمطالب الولاء المدنى · وكانت غريزة الخضوع وعادة احترام السلطة العامة تتأصلان تأصلا عميقا فى طبيعته ·

وكان فضيلة ، وذيوع صيت ، أن يفكر وان يفعل كمواطن وكجندى رومانى مثالى ، « أن يفعل في روما كما تفعل روما »[١] · ولقد كان أعلى مطمح له ، أن يعيش وأن يموت لأجل روما · ان روح التضحية هذه فى سبيل نفع المصالح المشتركة هى التى تشيع النبل فى التاريخ الجمهورى الرومانى · وكان الفرد من أوساط الرومان يفهم معنى المسئولية العامة والواجب المدنى · ان العصور اللواحق استمسكت بهذه الخصلة فى الخليقة الرومانية وعظمتها · وفى زمن متأخر فى قصتها ، عندما كانت توشك على الذهاب بددا على أيدى الغزاة الهمج رأى أوغسطين Augustine فيها ما يبرر قيام امبراطورية عالمية تخضع لروما ·

وكان الاخلاص الرومانى لدولة دنيوية مثلا لمواطنى المدينة السماوية · وهويها من مكانها الرائع كان القصاص العدل ، للرجوع عن فضيلتها القديمة ·

ولقد ردد صدى مديح أوغسطين ، دانتى بعد ذلك بتسعة قرون ، وفى « الملكية » "de Monarchia" يقيم الدعوى بأن « الشعب الرومانى هيأته الطبيعة للامبراطورية » وذلك أنهم ، باحتقارهم الجشع وتعشقهم السلام مع الحرية فانهم تجاوزوا عن نفعهم الخاص لضمان الأمن العام للبشرية · ويشير الى تضحية المواطن الرومانى الفرد ، الذى كان يحتمل « الكدح والفقر والنفى وموت القريب ، وفقدان أعضاء الجسم والحياة وهو يجهد فى تنمية الصالح العام »[٢] ·

ورأى القديس والشاعر كلاهما الحقائق يضفى عليها المثل الأعلى من خلال ضباب الزمن الفاصل ، ولم تنفذ بصيرتهما الى ما يجاوز حدود تاريخ البحر المتوسط ولكن عندما تستبعد كل أنواع الحذف فان حكمهما يستند الى أساس من الحق · وكما كان يعلم فرجل ، ان فى حب أرض الآباء والتعطش الى الشهرة الذى لا يحده قياس ، يكمن سر سيادة روما بين الشعوب[٣] ·

---

(١) Virtus = بسالة ، رجولة من vir = رجل ·

(٢) أوغسطين de Civitate Dei الكتاب الخامس (راجع Figgis ، « المظاهر السياسية لمدينة الله » للقديس أوغسطين : صفحة ١١) ، دانتى : de Mon. : ٢ و ٥ ·

(٣) "Vincet amor patrioe laudumque immensa cupido" انيد : ٦ و ٨٢٣

٣ — ان مثل هذا الشعب كان مقدرا له أن يتفوق فى مهام القانون والحكومة ، وكان قد وضع فى العهد الملكى أسس الدولة الرومانية وضعا محكما صادقا. وبفضل الروح المحافظ الفطرى فى خليقة الرومان فقد حافظت خلال جميع التطورات على المبادىء التى ابتدعت فى صمت فى أزمنة ما قبل التاريخ كعادات للسلالة ، غير المكتوبة . ونفس الصور والمناهج للاجراءات التى كانت تنظم حياة المجتمع المدنى فى القرن السابع قبل الميلاد ، ظلت باقية — ولو أن القضاء الاغريقى وعلم الأخلاق المسيحى عدلاها وجعلاها مطابقة للعقل — فى مجموعة القوانين المختارة التى صنفها بعد ذلك بألف ومائتى عام جوستنيان . وبذلك أصبح فى قدرتنا أن نعيد بناء ، ليس أفعال الأفراد أو حوادث التاريخ السياسى المفصلة ولكن المظاهر العامة للمجتمع الرومانى فى عهد الملكية . وكانت الدولة الرومانية ، الأسرة المكبرة ، وكان الرومانيون يفهمون معنى وقدر الحياة المنزلية وعبروا عن ذلك فى أدبهم وقد أوجدت عبادة آلهة الأسرة (لارس وبناتس) Lares and Penates مذهبا دينيا . وقد اقترح أفلاطون فى جمهوريته الغاء البيت الخاص ، لهذا السبب ضمن غيره من الأسباب وهو أنه كان يجزىء اخلاص المواطنين للدولة [١] . ولكن الأسرة الرومانية كانت فى وقت واحد المرآة وميدان التدريب لنزعة حب الوطن المدنية وبنفس الكلمة (ورع) pietas كانت تدل على الاخلاص الذى يرجع للضمير ، الذى يكنه الابن نحو أبيه والمواطن للحاكم والانسان للآلهة . وشخصية الرومانى المدنية كانت تتألف من ثلاثة عوامل جوهرية : الحرية وصفته كمواطن وعضوية أسرة . والطراز الرومانى فى الأسرة فريد فى نوعه عندما يوازن ليس فقط بالأسرة الحديثة ولكن بالأسرة فى المجتمعات الأخرى القديمة وفى توكيده البالغ أقصى حد ، للسلطة الأبوية [٢] . وكانت تتحقق أفكاره الأساسية عن الوحدة والقوة فى شخص رئيسها بصفة قاصرة عليه وكان للأب (pater familias) طوال حياته السلطان المطلق (patria potestas) على الزوجة والأبناء والبنات غير المتزوجات والوكلاء والعبيد شخوصهم وممتلكاتهم ، وفى داخل الأسرة كان المالك الأوحد للمتاع والكاهن الأوحد والحارس لمقدسات sacra الأسرة والقاضى الأوحد . وكان من حقه اعدام زوجته أو طفله . وفى يده فقط كانت تنشئة أو اهمال شأن نسله حديث المولد . وكانت أواصر الأسرة يعترف بها عن

---

(١) الجمهورية ، الكتاب الخامس .

(٢) كان للرومان وعى تام بهذا . ونقرأ فى وصايا جوستنيان : ١ ، ٩ «ان حق السلطة التى نتولاها على أطفالنا هو الميزة الخاصة للمواطنين الرومان» .

طريق فرع الذكور ولم يكن القانون يعتبر الابن نسيبا لأقارب الأم وقرابته حتى لأمه كانت عن طريق الأب [١].

ولم يكن القانون الروماني يعترف بالأبوة عن طريق السفاح كشيء يفترق عن الأبوة الشرعية ، والابن المتبنى شرعيا كان يعد ابنا تاما . والابن الذى ولد عن غير رابطة الزواج الشرعية ليس ابنا على الاطلاق . وعند موت أبى الأسرة يصبح الأبناء على التو ، أرباب أسرات بينما تخضع الزوجة والبنات غير المتزوجات « لعدم ثبات مزاج المرأة » على حد قول جايوس Giaus لوصاية الأبناء . وعلى هذا فان المرأة الرومانية ، المواطنة الحرة بالمولد ، كانت اما تحت سلطان أبيها potestas أو (بعد الزواج) تحت سلطان زوجها ، أو « فى حالة الترمل » تحت وصاية قريب من الذكور . وفى عبارة مجموعة القوانين المختارة (Digest) « المرأة هى بداية ونهاية أسرتها » لان القانون لم يكن يعترف بأمومتها ، ولم يكن لديها أية سلطة على أبنائها [٢] . والوالد وحده ،

---

(١) كانت سلطة الوالد بالطبع مقصورة على المواطنين . وكان الابن عند موت أبيه ، يصبح « والد الأسرة » حتى لو كان غير متزوج ويكتسب «سلطة الوالد » فقط عند الزواج . والزوجة اذا كان زواجها مطابقا بدقة الصورة القانونية ، تصبح فى « يد » (manus) زوجها وتكون خاضعة لسلطته potestas فى مرتبة الابنة (loco filiae) . وكانت الابنة تحت سلطة أبيها (أو اذا كان ميتا ، فتحت سلطة قريب من الذكور) حتى تتزوج وعند ذاك تصبح فى عداد أسرة زوجها . وخاصية ظاهرة فى الأسرة الرومانية كانت حصر القريب المعترف به شرعا فى agnati أى أولئك الذين كان يمكن أن ينضووا تحت سلطة سلف من الذكور ، واحد لو أنه بقى حيا . فعلى سبيل المثال ، ابن « أ » كان "agnati" لأخ « أ » أو ابن أخ وليس لأب الأم أو أخيها . وقد اعترفت القوانين اللاحقة فى ازدياد مطرد بقرابة cognati أى قرابة الدم سواء أكانت عن طريق الذكور أم الاناث . وعن الموضوع بأجمعه ، راجع مين Maine « القانون القديم » فصل ٥ . وأهم الذنوب من جانب الزوجة التى تستحق الاعدام كانت الزنى والسكر ونسمع عن أم رومانية نفذ فيها الاعدام لأنها سرقت مفتاح قبو الخمر .

(٢) المرجع الى جايوس هو ١ ، ١٤٤ والى مجموعة القوانين المختارة Digest هو ١ ، ١٦ ، ١٩٥ ، ٥ "mulier familiae suae et caput et finis est" كانت أسرة المرأة تبدأ بها لأنه عند موت أبيها تصبح sui juris « مستقلة بحقها » وكانت تنتهى بها لأنه بمجرد أن تحاول مواصلتها بالزواج ، فانها تتحول الى « حق jus » زوجها وأسرته . وكانت تستطيع بالطبع أن تكون sui juris « مستقلة بحقها » ومع هذا تكون تحت الوصاية أى وصاية ابن أو أخ .

هو الذى كان يمثل الأسرة وكانت علاقته بالأفراد الآخرين من جانب واحد، فان كل الحقوق كانت الى جانبه ، وكل الواجبات الى جانبهم ، وفى نظر القانون ، كانت سلطة الوالد patria potestas مطلقة فى الأسرة كما كانت سلطة imperium الموظف فى الدولة[١] . ولكننا نسىء تصور نظام المجتمع الرومانى كل الاساءة اذا توهمنا أن سيره كان يحدده فقط ، أو حتى فى معظمه اعتبارات الحق النظرى ففى حالة الوالد ، كما فى حالة الموظف ، كانت النظرية القانونية عند التمرس بها عمليا تأتى بالتعديل فيها ، فى كل مرحلة تقريبا عادات السلف . وأعظم ما كان يوجد من قيود على سلطة الوالد، كان التقليد المعتاد انه فى حالات عمل تأديبى خطير داخل الأسرة ، كان على الوالد أن يستدعى الأعضاء الذكور البالغين ، للمشورة . وعندما كان يقع الاتهام على الزوجة كان يستدعى أيضا ذوو قرباها من الذكور . وفى بواكير عصر الجمهورية نجد الرقيب يحط من مكانة شيخ (سيناتور) لانه طلق زوجته دون أن يطلب نصيحة مجلس الأسرة[٢] . وكان مراس السلطة فى التخلى عن طفل محدودا فى شدة صارمة . ومراس السلطة فى بيع زوجة ممنوعا منعا باتا وفقا لما جرت عليه العادة الدينية . وكان يسمح للأبناء وحتى الرقيق وفقا للعادة بأن يكدسوا تحت اسم peculium ما أصبح بمرور الزمن، افتراضا ، ولو لم يكن فى نظر القانون ، يعادل الملك الخاص . وكان الواقع فعلا أن يقوم الوالد فى المعتاد على ادارة ثروة الأسرة بروح القيم ، وليس بروح المالك الخاص . وكذلك — مرة أخرى — كانت الفروض الأدبية التى تقع على الوالد نحو زوجته وولده ، معترفا بها اعترافا تاما من الوجهة العملية . ولقد كان كاتو Cato الرقيب ، وهو النصير الذى لا تلين قناته للتقاليد المحافظة ، يشعر بأن الواجب عليه كل صباح أن يرى طفله وقد اغتسل على الوجه المناسب . وكانت الأم الرومانية تستمتع بمكانة تكريم ، أنكرت على الأمهات فى أثينا وفى معظم البلدان الأخرى ، وكانت مكانة زادها ثباتا أنها كانت تستند الى عادة ، لا يمكن انتهاكها ، وبمرور الزمن ، تضافر تقدم الرأى العام ، والتخلى تدرجا عن صور الزواج القديمة التى كانت تضع الزوجة تحت يد Manus زوجها وادخال مناهج جديدة للتملص من قانون الوصاية —

---

(١) كان الابن ، ولو تحت سلطان أبيه ، يستطيع القيام بصفة المواطن كما لو كان والد أسرة ، أى كان يمكنه القيام بمهمة وظيفة وفى تلك الصفة تكون له السلطة العامة على أبيه . ان سلطة الأب لم تمتد الى jus publicum السلطة العامة .

(٢) لم يكن يفرض على الأب شرعا بأن يتبع نصيحة مجلس الأسرة أكثر من أن يكون مفروضا على الموظف شرعا اتباع نصيحة مجلس الشيوخ . ولكن السلطة (auctoritas) فى كلتا الحالتين ، كان لها شأن عظيم .

فى ضمان حرية واستقلال للمرأة الرومانية - يكاد لا يوجد لهما مثيل فى المجتمع القديم أو الحديث [١] . ومن وجهة واحدة فى الواقع ، ظلت سلطة الوالد Patria potestas لا تتغير ، وسواء أكانت دون قيد ، كما كانت الحال من الوجهة النظرية ، أو محدودة كما كان الأمر عمليا ، فانهما كانت تظل باقية طوال حياة المالك لزمامها . ولكن حتى فى الأزمنة الباكرة ، ولو أنها كانت صارمة فقد كانت فى النادر استبدادية . وكانت القسوة البالغة هى الاستثناء وليست القاعدة . وعلاوة على هذا ، فيجب ألا يغيب عن البال أن معايير الطهارة المنزلية ، والاخلاص لواجبات الأسرة التى كانت تلقن بمثل هذه الشدة ، ظلت المحافظة عليهما أمدا طويلا فى البيت الرومانى وقام الدليل على أنهما أديا خدمة لا تقدر للثبات الخلقى فى الدولة الرومانية [٢] .

٤ - لقد كانت روما دولة - مدينة ، وكانت منظماتها الباكرة ، الملك والمجلس الاستشارى ومجلس الشعب هى تلك المألوفة فى غيرها من فروع الأسرة الهندية - الأوربية وقبيل فجر تاريخهم المدون ، كان الرومان قد تدرجوا ببذور التنظيم الاجتماعى ، هذه ، الى مجموعة من عناصر ومبادىء حكومة مدنية ، محددة تحديدا واضحا - وكان الملك (rex) كموظف أعلى يملك كحق له ، سلطة تنفيذية مطلقة imperium وعلى مدى التاريخ الرومانى ، تظل سلطة الموظف التنفيذى كمحور للتقدم الدستورى .

ولما كانت هذه السلطة قد منحت بتصويت رسمى من المجتمع على واحد من أعضائه عينه الملك فى حضورهم (أو اذا لم يكن يوجد ملك ، فنائب الملك المعين من قبل مجلس الشيوخ) وصدق عليها بموافقة مجلس الشيوخ فان السلطة imperium كانت مطلقة شرعا فى السلم ، وفى الحرب جميعا وكانت

---

(١) كان الاعتراف بصور الزواج التى فيها لا تصبح الزوجة ، كما فى الصور القديمة ، فى يد manus زوجها ، أول انهيار خطير لسلطة الوالد . ويرجع تاريخه الى ما قبل القرن الثالث ق.م .

(٢) لقد عبر عن هذا فى بيتى فرجل (Aen : ٩ و ٤٤٨ - ٩)

Dum domus Aeneae Capitoli immobile saxum
Accolet, imperiumque pater Romanus habebit

بينما يظل منزل انياس قائما الى جوار صخرة الكابيتول
التى لا تتزحزح ، ويظل الأب الرومانى يحمل سيادته .

(ترجمة مكيل Mackail)

المصدر الذى منه تستمد كل سلطة تنفيذية أخرى بطريق الندب [١] ، وكان الملك - فى نفس الوقت - القائد فى الحرب والقاضى الأعلى ورئيس دين الدولة • وكان القضاء الجنائى يتركز فى يديه • والتشابه الوثيق مع مركز الوالد فى الأسرة يتجلى واضحا فى نظره ، ولكن فى الدولة ، كما فى الأسرة ، كانت العادة تهيىء حدا لمرأس السلطة المطلقة ، ولقد كانت قاعدة أساسية عند الرومان أن القابض على زمام السلطة يجب أن يقوى نفسه بالتضحية • ان مجلس الشيوخ من رؤساء الأمر ، وهو نظريا جماعة استشارية يعقدون اجتماعهم فقط بدعوة من الموظف ليبحثوا ما كان الموظف يريد أن يعرضه عليهم ، أصبح عمليا ، مجلسا ذا مهابة فى الدولة • ويمكن تجاهل رأيه فقط بعمل من أعمال ثورة ، افتراضا ، وكانت توازى سلطة الملك (imperium) سلطة مجلس الشيوخ الأدبية [٢] Auctoritas وأخيرا عندما كان يطرأ فى حياة المجتمع حدث يستلزم خروجا على السوابق المقررة مثل اعلان الحرب

---

(١) كانت السلطة (imperium) ، فى العهد الملكى ، تمنح بالاجراء الآتى الذى يوضح توضيحا رائعا ، النهج الرسمى للاجراء الدستورى الرومانى • عند موت الملك (rex) كان مجلس الشيوخ (آباء العشائر الموكول اليهم مهمة فرائض المجتمع الدينية) يعين رافدا interrex وهذا فى دوره يعين رافدا آخر لأن السلطة كان يمكن فقط نقلها الى الملك الجديد ، بتنصيب شخص كان قد تملكها (وأحيانا كان يعين رافد ثالث أو رابع لوضع قناع على انقطاع الاستمرار ، بخرافة محسوسة) • وكان آخر رافد فى السلسلة ينتخب ملكا بالتشاور مع مجلس الشيوخ ، وعندئذ يعلن الرافد اسم المرشح للملك للمجلس لقبوله واذا قبل ، كان مجلس الشيوخ يصدق على تعيينه بصفة نهائية • وعلى هذا كان التعيين الشخصى وتعاون مجلس الشيوخ والانتخاب الشعبى تتألف كلها فى العملية النسقية • وكان هذا الاجراء عينه يتبع فى عهد الجمهورية فى حالة الموظفين المخولة لهم السلطة أى القنصلية والبريتورية فقط • (أ) لم تكن الحاجة الى رافد موجودة فى المعتاد ، حيث أصبح يوجد موظفون لهم السلطة لتعيين المرشح الجديد • و (ب) بعد عام ٣٣٦ ، كان يجب الحصول على موافقة مجلس الشيوخ قبل الانتخاب الشعبى ، وعلى هذا فقد أصبحت صورية خالصة ، كالموافقة الملكية على مرسوم تشريعى فى بريطانيا فى الزمن الحاضر ، وكانت الحال كأن الموافقة الملكية تصدر عن كل مشروع قانون يعرض على البرلمان قبل قبوله أو رفضه من المجلسين •

(٢) ان معنى auctoritas هو « النفوذ الأدبى » والكلمة الانجليزية authority بمعنى السلطة التنفيذية كان يعبر عنها فى اللاتينية بلفظ imperium أو potestas •

وتبنى أسرة جديدة آخر فرد من الذكور بقى على قيد الحياة من أسرة قديمة ، أو انتخاب خليفة للعرش كان من الأمور الجبرية الحصول على موافقة الشعب ذى السيادة (١) .

وكانوا يجتمعون لهذا الغرض فى جماعات Curies للتصويت على ما كان يعرضه عليهم الموظف الذى يتولى الرياسة ، دون تعديل أو مناقشة وعلى هذا كانت الحكومة الذاتية الاستثناء لا القاعدة ، فى روما الباكرة ، وكانت العناصر الملكية والارستقراطية فى الدستور تربو الى حد بعيد على العناصر الشعبية . ولكن على الرغم من كل الظواهر المتناقضة فانه كان يوجد اعتقاد واحد يتأصل فى تقاليد المجتمع الأصلية ولم تعد بتاتا عوادى النسيان عليها، بكليتها أن لفيف المواطنين كان المصدر النهائى . الذى له السيادة ، لكل سلطة قانونية .

١١ ـ قيام الجمهورية

٥ ـ رأت فاتحة القرن الخامس قبل الميلاد روما جمهورية وكان آخر الملوك الأترورين Etruscan قد تجاوزوا الحدود التى رسمتها العادة لمراس السلطة Imperium وكان أن طردهم رعاياهم اللاتين (حوالى ٥٠٩ ق.م) ولم يترتب على هذه الثورة ، اذا كنا لنطلق عليها هذه التسمية ، أى تغيير فى مبادىء الدستور الأساسية ، ومنحت السلطة ، التى كانت الى الآن مخولة للملك وحده مدى الحياة ، لموظفين أعليين متعادلين ينتخبهما سنويا الشعب بتصديق مجلس الشيوخ(٢) . وكان الحكم الثنائى من شأنه أن يضع حدا فعالا للسلطة ، ذلك بأنه ولو أن كل قنصل كان يستحوذ عليها فى كامل نطاقها ، الا أن هذه الواقعة بعينها كانت تعاون الواحد على نقض عمل الآخر ، وفى روما كما يكون بين موظفين متعادلين ، كانت الغلبة دائما للصوت

---

(١) كان التبنى أمرا شائع الحدوث فى روما ، لأن هم الرومانى ـ الأول ـ كان أن يترك خلفا من الذكور ، يعقبونه وعلى هذا يحتفظ بقيام أسرته ، فاذا لم يكن له ابن من صلبه ، فقد كان يستطيع أن يتبنى ابنا ، ليصبح من كافة الوجوه مساويا لذاك الذى ينجب عن طريق زواج شرعى ؟ ولكن اذا كان الابن المتبنى أبا لأسرة فان انتقاله الى أسرة أبيه الجديد ، كان يترتب عليه انقطاع أسرة ومقدساتها sacra وهو مسألة دينية جد خطيرة تتطلب تصديقا خاصا من المجتمع .

(٢) كان يطلق على الموظفين فى الأصل لفظ "praetors" ثم بعد ذلك "consuls" وأصبحت البريتورية وظيفة منفصلة .

السلبى . وزيادة على ذلك فان من المحتمل أن القنصل لم يكن لينغلب على ارادة مجلس الشيوخ الذى صدق على انتخابه . والذى كان مآله أن يرجع الى صفوفه عند انقضاء عام ولايته ، لبقية حياته . وعلى هـذا كانت فترة التحول الى الجمهورية تعنى أن حكومة روما آلت الى أيدى حكومة قلة من أسر الأشراف . ولقد توارى لقب ملك ، الممقوت ولو أنه نص على اعادة الحكم الملكى مؤقتا فى وقت الأزمة ، فى شخص دكتاتور . وفى خـلال القرنين التاليين (٥٠٩ – ٢٨٧) كانت الجمهورية الصغيرة يتألب عليها الأعداء من الخارج وتمزقها المشاحنات السياسية . وكان من أهم هـذه المشاحنات ، النضال الطويل بين المواطنين من الدهماء ، للمساواة فى الحقوق الاجتماعية والسياسية والدينية مع الأشراف ، الذى انتهى قبيل نهاية القرن الرابع بانتصار الأولين على طول الخـط . وقـد يكون منشأ التمييز بين الطبقتين ، على الراجح ، الاختلافات السـلالية كتلك التى كانت بين الأشراف النورمنديين والسامة السكسون فى التاريخ الانجليزى [١] . وكانت المعالم الباكرة فى الصراع : (أ) القانون الذى ينص على أنه ليس لأى موظف أن ينفذ حكما بالاعدام على أى مواطن دون التصديق عليه من المجلس (ب) اقامة عشرة من الضـباط (تربيونيين Tribunes) الشعبيين ، نتيجـة لاضراب عام قـام به لفيف الدهماء ضد الدولة (٤٩٤) ، للحماية من الموظفين الأشراف وكذلك مجلس من العامة (ج) نشر الاثنى عشر لوحا فى منتصف القرن الخامس (٤٥٢ – ٤٥٠) وهى أقدم مدونة للقانون المدنى الرومانى . ولقد كان لنظام التربيونية نتائج بعيدة الأثر على التـاريخ الدستورى اللاحـق ولم يكن التربيونيون موظفين ولكنهم كانوا ضباطا من العامة وكانت أشخاصهم معصومة (محظورة، محصنة دينيا) ولهم السلطة فى ادخال النقض intercessio على أى عمل من أعمال الظلم يرتكبه الموظفون داخل حدود المدينة [٢] . وبترادف الزمن ، اتسع سلطانهم فأصبحوا أولا ، القادة السياسيين الشعبيين ، المعترف بهم وبعد ذلك السادة ، افتراضا ، لما لهم من حق نقض كل أداة الدولة . ولقـد

---

(١) لا يمكننا أن نناقش هنا المسألة المرتبكة عن أصل هـذا التمييز . لقد كان الأشراف والعامة كلاهما اعضـاء لفيف المواطنين . ولكن لما كان الأولون السادة الأوحدين فى الدين فان الآخرين كانوا فى واقع الأمر ، يقصون عن الامتيازات التى تتصل بشعائر الدين مثـل الزواج ، فى مركز متعادل وعضوية مجلس الشيوخ وولاية الوظائف التى كانت تلازمها السلطة imperium

(٢) لم يكن نقض التربيون أو حق الاستئناف الى الشعب عن تهمة اعدام مجديا تجـاه مراس السلطة imperium عسكريا . وعنـدما كان يعـين دكتاتور ، كانت كل القيود تتوارى وكان التعيين يعادل اعلان الأحكام العرفية .

ترتب على توسيع نطاق الوظائف التدرجى ، بزيادة تعدد واجبات الادارة وتعقدها ، تقسيم جرت عليه العادة ، لدوائر السلطة provincia ونتيجة لهذا ، مراجعة متبادلة يقوم بها الزملاء ، الواحد للآخر . ولقد أزاح القانون القانونى Canulesian (٤٤٥) الفوارق الاجتماعية بين الطبقات بأن أباح شرعا ، التزاوج بين العامة والخاصة .

ورأى القرن التالى (٣٦٧) خاتمة المناظرة الطويلة لتولى عليا الوظائف ، بصدور القانون الذى ينص على أن يكون قنصل ، منذ ذلك الحين ، من العامة . وقد فتح الطريق للوظائف الأخرى فى تتابع سريع ، ووصل انتصار العامة الى ذروته عندما استولوا على الجمعيات الدينية (٣٠٠) وفى عام ٣٣٦ تمكن دكتاتور من العامة من خفض رقابة مجلس الشيوخ على الانتخابات الشعبية حتى صارت من الرسميات الخاوية (قانون فبليليا (lex publilia) وفعل دكتاتور آخر فى عام ٢٨٧ (قانون هرطنسيا (lex Hortensia) مثل هذا الصنيع فيما يتصل بالقوانين التى أصدرها المجلس الشعبى والتى أصبحت منذ ذلك الحين مفروضة (٢٣٦) ipso facto على المجتمع كله [1] وبهذا جرد التمييز بين العامة والأشراف من أى مغزى عملى . وزيادة على ذلك ، فقد كان يترتب على هذه الاصلاحات عينها ، على ما كان يظهر جليا للعيان ، أن الدولة الرومانية ، مرت من صورة حكم القلة الى صورة الحكم الديموقراطى . ولقد ثبت أن ما وقع كان بخلاف هذا ، ويرجع ذلك الى أسباب كان مصدرها يتأصل فى الحياة الخارجية للمجتمع وسننظر فيها فى قسم آت . ولكن الصراع السياسى الذى أجملناه آنفا كان أبعد من أن يكون الدافع الوحيد لهيجان داخلى فى العصر الجمهورى الباكر . وانا لنقرأ أيضا عن المطلب الدائم من جانب فقراء العامة فى أنصبة فى أراضى الأعداء المغلوبين وفى الخلاص من ضغط الدين الماثل على الدوام . ولقد كان الرومانى فى الأزمنة الباكرة مواطنا وجنديا وزارعا فى نفس الوقت ، وكان مركزه الاجتماعى ومركزه السياسى، كلاهما يعتمدان على التزام تملك الأرض .

لقد كانت قوة الدولة العسكرية والسياسية تتأصل فى التربة ،

---

(١) لقد اهملنا عن عمد التفاصيل عن مختلف المجالس فى الدولة الرومانية . ويكفى القول ان أقدم مجلس "Curies" زالت أهميته بعد العهد الملكى ، وان مجلس "centuries" (فى الأصل مجلس عسكرى كان فيه للطبقات أصحاب الأملاك النفوذ الراجح) ، كان ينتخب القناصل والموظفين ذوى السلطة imperium بينما أصبح مجلس القبائل المنظم بطريقة ديموقراطية ، فى العصر الذى نتحدث عنه ، أهم جماعة تشريعية .

ولموضوع الزراعة الأهمية الأولى خلال التاريخ الرومانى كله . لقد كانت نزعة المواطنين الأكثر ثراء – الأشراف والعامة على السواء – التى تطرد ازديادا ، للاستحواذ على مساحات عظيمة من الأراضى التى تم فتحها – بما كان فيه الضرر على السياسة الحكيمة فى تخصيص مثل هذه الأرض ، كممتلكات حرة للفقراء من الآهلين – هى التى أثارت الاضطرابات المتكررة التى قام بها العامة . ولم ينجم عن قانون لقينيو سكسطيان Lioinio — Sextian الصادر عام ٣٦٧ الذى حدد مساحة أمثال هذه الأراضى « المحتلة » لتكون ملكا لأسرة واحدة ، أكثر من ايجاد خلاص جزئى مؤقت من مساوىء سنجدها تتكرر فى صورة حادة حدة بالغة ، فى مرحلة متأخرة من التاريخ الجمهورى . أما عن مسألة الدين ، فقد كان القانون الرومانى شديدا شدة راعبة ، اذ كان يترتب عليه أسر شخص المدين فى حجرات سجن الدائن ، وهنا ايضا أتى تشريع عام ٣٦٧ ببعض الانصاف ، فعلى مر الزمن تعدلت صرامة القانون ليفى بالحاجة الى معاملة أكثر نزوعا للروح الانسانى ، بينما جعل رخاء الدولة التجارى ، المتزايد ، المواطن أقل عرضة للافلاس .

٦ – ومن بين هذه الوسائل ، تبرز وسيلة مفعمة بمغزى خاص للمدنية الرومانية . لقد كانت مدونة الاثنى عشر لوحا التى وضعتها لجنة العشرة موظفين ، التشريعية decemvīrs فى عام ٤٥١ و٤٥٠ ، أول قانون مكتوب فى روما ، وبهذه الصفة كانت تعتبر خلال تاريخ الجمهورية والامبراطورية الأساس للقانون المدنى jus civile أى القانون الذى ينظم علاقات المواطنين الرومان (Cives)[1] . عندما كان شيشيرون صبيا ، كان صبية المدارس ما زالوا يتعلمون عن ظهر القلب جملها الايقاعية بما يقرب كثيرا مما كان يجرى عليه الصبية الانجليز فى تعلم

---

(١) لما كان jus civile هو القانون المحلى لدولة – المدينة (jus proprium civitatis, Gaius) ، فانه لم يكن ينطبق على أحد سوى المواطنين . وكان يلازم صفة المواطن الكاملة ، الحقوق العامة (publica jura) كالخدمة فى الجيش ، والتصويت فى المجلس والأهلية للوظائف العامة وكذلك الحقوق الخاصة (privata jura) كالتزاوج والتجارة مع المواطنين الرومان . وفى عهد الجمهورية ، أصبحت توجد درجات من صفة المواطن يترتب عليها بعض هذه الحقوق بمعزل عن البعض الآخر (راجع مايلى §§ ١٠ و١٧) ومرة أخرى ، كانت الحقوق « اللاتينية » تعاون مالكها على المساهمة فى القانون المدنى . ويصدق هذا عندما منح حق كالتجارة مع المواطنين الرومان لأعضاء مجتمع آخر ، بمعاهدة خاصة . وعن jus gentium راجع § ٢٠ فيما يلى .

« أصول الايمان » ولو أنه بعد ذلك بجيل ، كانت قد بدأت تخلى المكان للصيغ البريتورية · ولا توجد ناحية استبانت فيها ، في أعظم جلاء ، قدرة الرومان الطبيعية على الحكم الصائب في المسائل العملية ، أكثر من مجال القانون وهو أعظم ما قدموا من اضافة باقية على الزمن ، لمدنية العالم · وفي غيره من المناحي (١) ، كانت وظائفهم ، تلك التي تكون للشرطي والوسيط ، أن يحافظوا على النظام في منطقة البحر المتوسط وأن يسلموا ثقافة الشعوب الأخرى للزمن القادم · ان فلسفتهم كما كانت عليه حالها وشعرهم ، ولو أنه كانت تشيع فيهما روح الأخلاق الرومانية والتاريخ القومي ، كان الحافز والملهم لهما النماذج الهلينية ولكن قانونهم كان في معظمه من خلقهم الخاص· لقد أكمل اطار القانون الاغريقي بالصيغ البريتورية ، وقانون القضايا الروماني · وعلى ذلك ، فمنذ عهد باكر وضعت أسس البناء الرائع الذي قام حجرا على حجر في استمرار لا انقطاع له خلال ألف سنة من الصنعة الى أن استوفى كماله في مجموعة القوانين Corpus juris في عهد الامبراطور جوستنيان في القرن السادس بعد الميلاد · لقد كان يوجد تطور زاخر لقانون العادة الأسبق الذي تكتل في صورة محددة في عهد الملوك · وكان الرومان يعتبرون العادة دائما مصدر القانون الموثوق به · وتمثل الألواح الاثنى عشر نفسها منتخبات من العادة المعترف بها وتجعل تركزها في المواضع التي كانت عرضة لاساءة استخدامها اجتماعيا أو كانت مثار جدل ، ولو أن لوى Livy كان ما زال يمكنه اعتبار الألواح الاثنى عشر الينبوع لكل قانون عام او خاص ، فان القانون الروماني كقانوننا ، لم يكن نتاج قوانين تشريع وضعية أكثر من أن يكون العادة التي لم يوضع لها سنن ، فسرتها وصاغتها تقاليد ثابتة لطبقة علماء من محامين محترفين prudentia وكذلك المراسيم البريتورية · ولو أن النفوذ الاغريقي موجود من البداية ولا يني يتزايد في غضون عهد الجمهورية ، فان المنهج القانوني prudentia هو نتاج العبقرية الرومانية (٢) الذي تتميز به · ففي كثير من التفصيلات ، على سبيل المثال ، كان يفضل قانون العادة عند العامة على نظيره عند الأشراف وكان الهدف علاج تنازع الطبقات في المجتمع المدني · وعلى هذا ، كانت قوانين المدونة تفرض سلفا قانون دولة منظم على أن له وجودا · ولقد توارى منذ زمن طويل في روما الكثير من العادات البدائية المألوفة لدى القانون

---

(١) تسجل التقاليد أن الاعضاء العشرة درسوا نماذج اغريقية · وقد يكون الأمر كذلك ولو أن أثره لا يتجلى في الألواح الاثنى عشر · وسنرى حالا كيف وضعت الهلينية طابعها على القضاء الروماني ، فيما بعد ·

(٢) راجع de Zulucta في « تراث روما » الصفحات ١٨٦ وما يليها وشيشرون De Oratore : ١و٤٤و١٩٧ الذي اقتبس فيه (صفحة ١٨٧)·

الباكر الهليني والألماني والسكندناوى ، ويكاد لا يبقى أثر لانتقام الدم لو شراء الزوجة أو الصراع بين قضاء العشيرة وقضاء الدولة ، وعلاوة على هذا فان الرومان كانوا منذ زمن باكر قد وضعوا فاصلا بين fas وهوالقانون الدينى الذى ينظم أواصر الناس بالآلهة و Jus القانون الدنيوى للمجتمع الانسانى • ومع الصلة الوثيقة التى كانت تقوم بين اتحاد الأداة السياسية والأداة الدينية فى المدينة ، فان الخروج على القانون الدينى fas كان يندر أن تعاقب عليه ، السلطة الدنيوية • وفى احكام متعادل فرقوا بين (١) القانون العام الذى يحدد دستور الدولة وتنظيم السلطة العامة ، والقانون الخاص الذى يحدد العلاقات المتبادلة بين الأفراد من المواطنين ، ونتيجة لهذا (٢) فانه فى الذنوب ، فرقوا بين الأضرار التى تقع على الصالح العام بما فيها جريمة القتل حيث تكون الدعوى من مهام الموظف التنفيذى ، والأضرار التى تقع على الأفراد العاديين حيث يتدخل القانون فقط بناء على شكوى الطرف المتظلم • ففى الحالة الأولى ، لم تكن الدولة فى حاجة الى استخدام الاجراء القانونى ، ولكن تنتصف فى الحال عما وقع عليها من مظالم • فعلى سبيل المثال ، كان يمكن لموظف المالية القسطور Questor أن يصادر السلع التى تكون من حق الحكومة ، دون اذن قضائى ، وعلى هذا فان الاقتصاص العام ، كان ينفذ من تلقاء نفسه ، ولم يكن للفرد حقوق قبل المجتمع ولا يمكنه اقامة دعوى قانونية •

ويبين القانون الذى يتعلق بالذنوب الخاصة كما تفصح عنه الألواح الاثنى عشر ، التقدم التدرجى من :

(أ) عادة الانتقام الشخصى البدائية خلال مراحل (ب)التعويض الاختيارى بالدفع النقدى ، متوقفا على ارادة كلا الطرفين و (ج) التعويض الجبرى الذى يقرره القانون الى (د) منع الانتصاف الشخصى على الاطلاق وادماج جميع الأضرار الشخصية فى درجة الأضرار العامة باعترافقانون الدولة وفىالالواح الاثنى عشر ، يجىء القتل وحده تحت الباب الأخير • وفى غير هذا منالمواضع يسمح بالانتصاف الشخصى حيث لا يوجد ما يمنعه صراحة ويسمح بالتعويض الاختيارى عن السرقة الجسيمة والأضرار البالغة التى تقع على الشخص • اما عن الذنوب الصغرى فان الغرامة يحددها القانون ، وبعض الجرائم مثل سوء معاملة الأبناء للآباء ونقل أحجار التخوم واتلاف الحنطة التى تسترى على سوقها ، كان القانون الدينى كفيلا بها ، ولكن فيما عدا حالات خاصة

قليلة ، لم تكن توجد محاكم نظامية للقضاء الجنائى • وكان يجب أن يساق مرتكب الذنب شخصيا أمام الموظف الذى كان يحيل القضية الى مواطن عادى ، القاضى judex لوضع قرار عن نتيجة الواقعة (١)• وهنا ، مرة أخرى نجد مثلا للاحساس الرومانى بالتفاريق البينة ، فقد وكلوا حكم القانون للموظف بصفته القائم على المحافظة على قانون الدولة ، وسماع الوقائع ، للقاضى judex (٢) • وكان هذا الاجراء ينطبق كذلك على القضايا المدنية ، التى كان للاثنى عشر لوحا الشأن الأول فيها •

وكان القانون المدنى ينظم مجموعة العلاقات بأكملها بين المواطنين ، الزواج والأسرة والوصاية وتحرير الابن أو العبد والتركة بوصية والملكية والعقود ، فى أوضاع ضيقة فى الواقع ولكن فى دقة وبعد عن الغموض ، وهو ماكان خصيصة لروما من بين جميع المجتمعات الباكرة المعروفة للتاريخ• ولو أن كل ملكية كانت تعتبر أنها مستمدة عن طريق الانتقال المفهوم ضمنا ، من المجتمع ، وعلى ذلك يمكن أن يستحوز عليها المواطنون فقط فان الملك الخاص ، كان منذ أمد طويل واقعة مقررة • وكان المواطن بمجرد أن يستوثق من حقه ، يترك فيما يقرب أن يكون حرية كاملة للقيام عليه والتصرف فيه كيفما شاء •

وكان قانون الوراثة الرومانى قد قطع شوطا بعيدا فى التقدم على غيره من مدونات القوانين الهندية ـ أوربية الباكرة فى أن النص على عدم وجود وصية كان خاضعا للاعتراف بالميراث الذى ترك بوصية اذ كان للرومانى

---

(١) لم يكن حتى قيام دكتاتورية صولا (٨٠ ق•م) أن أنشئت محاكم جنائية دائمة (quaestiones perpetuae) بطريقة منتظمة • وفى حالة الجرائم العامة حيث تكون فيها عقوبة الاعدام أو غرامة تتجاوز مبلغا معينا ، كان حق الاستئناف الى الشعب (provocatio) مسموحا به • وكانت معظم الجرائم تعتبر مظالم خاصة ولا تتدخل الدولة الا عند التماس الفرد الذى وقع عليه الجرم وتقدل فى اجراءاتها مناهج الانتصاف الشخصى •

(٢) كان لا يستطيع الموظف النطق بحكم (sententia) فى قضية متنازع فيها • كان يمكنه فقط أن يحيل القضية الى قاض judex وفى احالتها يقرر طبيعة الدعوى • وكان يترتب على هذا سماعها قانونا in jure ثم يلى هذا سماع الوقائع بالسير فى القضية in judicio أمام القاضى judex الذى كان يصدر حكمه • وفقط عندما يعترف المدعى عليه أو يوافق على دعوى المدعى أن الاحالة الى القاضى يستغنى عنها ويصدر الموظف قرارا فى القضية على التو وتنتهى الاجراءات القضائية (in jure cessio)

الحرية فى اختيار وريثه وتحديد ما يورثه واقامة أوصياء على أبنائه الباقين على قيد الحياة(١) • وفى حدود مرسومة ، فى عناية ، كانت حياة المواطن وملكه حماية القانون الذى كان يعنى باقامة معلم tutor للطفل وقيم Curator على المعتوه ، كما كان لا يتسامح فى تنفيذ دعوى الدائن الكاملة ضد شخص المدين المفلس (٢) • وكانت الألواح الاثنى عشر تنص على عقاب الربا وتحدد نسبة قانونية للربح ، ثابتة • وقد أقروا أيضا وسائل الاجراءات القضائية فى روح قوية ونهج عملى صارم •

ولقد سار احترام الأوضاع القضائية جنبا الى جنب مع التخلص من التأخير الذى لا تدعو الحاجة اليه والرسميات المربكة • وكان تعذيب المواطنين شرعا ، غير معروف فى ذلك الحين وفى خلال تاريخ القانون الرومانى • وكانت تفصيلات الاجراءات ، حتى ذلك الحين ، فى أيدى لجان الكهنة وكان الجمهور يستطيع قراءة مدونة القوانين ولكن كان يحال بينه وبين معرفة تفسيرها •

---

(١) قبل عام ٤٥٠ كانت الوراثة دون وصية ، القاعدة وكانت الوصية تتطلب موافقة الشعب بقانون خاص وكانت خاضعة لرقابة جمعية الكهنة (pontifices) • وبعد عام ٤٥٠ ، أصبحت هذه الرقابة مجرد شكل صورى • ومرة ، كانت الملكية الجماعية دون شك سائدة فى روما ، وكانت الملكية الخاصة قاصرة على رقعة صغيرة من الأرض يقوم عليها بيت المواطن ، ولكن الملكية الجماعية توارت قبل وضع الألواح الاثنى عشر بزمن طويل • وكانت القيود الوحيدة على حرية المواطن فى استخدام ممتلكاته والتصرف فيها ، ثمة ضمانات صغار لحفظ حقوق الجيران وصالح المجتمع • ويذكر جبون (فصل ٤٥) أنه عند الرومان « كان الحق المجحف لتأريث أول مولود ، غير معروف » •

(٢) كان يسمح للنساء باقتناء الأملاك بمقتضى الألواح الاثنى عشر • وكان قانون الدين صارما الى أبعد حد • وكانت الصورة القانونية الوحدة للتعاقد فى روما الباكرة هى nexum أو القرض (معناه الحرفى ، الرباط القاسر) • فاذا قصر المدين عن الدفع خلال ثلاثين يوما من الموعد المذكور فى العقد ، كان فى مكنة الدائن استخدام القوة للحصول على مطلبه دون اجراءات قانونية أخرى بالقبض على المدين وسوقه الى سجنه الخاص • وكانت الألواح الاثنى عشر تنص على وجوب حجزه هناك زمنا آخر يبلغ مداه ستين يوما ، ثم اذا لم يتوصل الى اتفاق فانه كان يحضر أمام الموظف ثلاث مرات وكان يستطيع الدائن (اذا لم يتقدم طرف ثالث كنصير ، تحت مسئوليته) أن يقتله أو يبيعه كرقيق • وفى أية لحظة سابقة كان سداد الدين يعنى اطلاق سراح المدين • وقد خففت صرامة هذا القانون فى بواكير عهد الجمهورية •

ومن المعقول أن هذه المجموعة الأولى من القانون المنشور كانت تتسم بالتصلب والضيق اللذين يعبران عن تقاليد مجتمع صغير بسيط • ولقد رأت القرون التى تعاقبت تعديلها التدرجي وتوسعها حتى لم يحتفظ بند ، قبيل ختام عصر الجمهورية بمغزاه الأصلى • ولكن الاثنى عشر لوحا لم تلغ قط •

وبينما استمسك الشعب الرومانى بتقاليده كما يستمسك بصخرة ، فان ذكاءه العملى ابتكر وسائل عديدة للتوفيق بين القانون القديم والحاجات المتشعبة لمجتمع يتزايد بسرعة ولايجاد انسجام بين التغيرات الأساسية فى التفصيل بنهج محافظ وثيق ، فيما يتعلق بميراث الماضى القانونى (١)

٧ ــ اننا نعرف القليل أو لا نعرف شيئا عن الرجال الذين وضعوا أنظمة وقانون روما على هذا النمط • لقد صاغ العمل ، ليس أفراد أولو عبقرية استثنائية ولكن الشعب • والأسماء التى تجىء فى صفحات التاريخ الرومانى الباكر هى أسماء رومانيين أوساط ، أسماء جنود مواطنين لا تتميز حياة الواحد منهم عن حياة الآخر وتكون سلسلة رتيبة ، فيما عدا حالة يظهر فيها ثم أبيوس قلوديس Applus Claudius أحد الموظفين العشرة Decemvir أو رقيب Censor على المسرح •

ان التاريخ الرومانى الباكر هو سجل للقوانين والسياسة المدنية واقامة المستعمرات وانشاء الطرق العسكرية • ولا يعنينا قانليوس Canulcius أو لقينيوس Licinius ، ولكن الخطط التى تحمل أسماءهم • وعلاوة على هذا فان خصيصة هذه الوسائل ، لم يحددها تفكير سابق مدبر يقدر ما كان يحددها الواقع الموجود • ولم يضع الرومان قط خطة لدستورهم الذى كان ينمو على شاكلة قانونهم كلما تطلبت الفرصة • ونتيجة لهذا ، فانه بعرض

---

(١) كان استخدام الأساليب القانونية الصورية استخداما طليقا وسيلة شائعة للتوفيق فى القانون الرومانى والقانون الانجليزى ، وكان التبنى مثالا مبكرا وظاهرا ، وكذلك كان القبول الضمنى ، الذى يلاحظ بصدد ذلك ، للتعديلات التى أدخلتها على القانون اجابات علماء القانون التى كان يدعى طوال الوقت أنها تفسيرات دقيقة لمدونة القوانين التقليدية • راجع مين « القانون القديم فصل ٢ » • ان الأسلوب القانونى الصورى ، هو ابتكار طبيعى للجمع بين النهج المحافظ وتواصل التطور القانونى وبين التكييف الذى تتطلبه التجارب الجديدة •

صـــورة (١) لا تسير على مذهب ، فريدة فى ذاتها · ويتضح عدم وجود خطة منطقية من الوضع الذى كان الحجر الأساسى فى البناء اذ أننـا نجد فى صميم نواة الحكومة الجمهورية ، السلطة imperium المطلقة التى لا تقبل قسمة فى حيازة قنصلين ، كموظفين تنفيذيين ، أعليين متعادلين · ولصاحب النظريات السياسية ، تكون مثل هذه الثنائيـة فى السلطة العليـا ، نذيرا أكيدا بوقوع الخطب · ولكن هذه الوسيلة التى لا يمكن تصورها كما تظهـر فى أطواء الأوراق ، سارت سيرا يدعو الى الاعجاب فى التمرس بها ، لأنهـا كانت وليدة التجربة ومؤسسة على الصخرة التى يقوم عليها الواقع ·

لقد تعاظم طغيان عبء سلطة الموظف فى مجموعة المصالح الرومانية حتى اصبحت الحاجة لفرض الحدود على اساءة استخدامها ، أكثر الحاحا من وضع شروط لاستخدامها دون قيد · وكانت الرقابة الثنائية الملاذ الذى يمكن اللجوء اليه لتحاشى الحكم الاستبدادى ، وقد كانت نشأتها فى عهد الجمهورية وظلت قائمة طوال خمسة قرون ، وعندما قام الدليل فى النهاية على أن لا حول لهـا فى مواجهة الحكام الاستبداديين العسكريين ، أعيدت فى صورة معدلة كنظرية للامبراطورية الباكرة (٢) وفى هـذا ، وفى كثـير غيره فى خصيصـة الدولة الرومانية ترد الى ذاكرتنـا مزاج ومراس شـعبنا نحـن · ان تاريخ روما الدستورى وتاريخ انجلترة الدستورى يعرضـان نفس المظاهـر العريضـة للتقدم التدرجى على أساس التقاليد السـلالية ، والاحترام الذى لا حد له للشكل والسابقة ، ومرونة التطبيق العملى وتقييد العرف والعـادة للسـلطة النظرية · وظل كلاهما قائما مدى قرون فى استمرار لا انقطاع فيه ، بفضل قدرتهما على التكيف وفق الظروف المتغـيرة · وكلاهما يكون مجموعـة من ابتكارات غير منطقية ، وخرافات غريبة وبقايا متهالكة ، وهى الثمن السهل الذى يكون غرما عن نظم ليست من عمل شـارع فرد ولكن التعبـير الرضى للتجارب القومية · وينسحب التشبيه كذلك على مسلكهما فى الحرب ، كانت الحرب فى الغالب تجد الرومانيين غير متأهبين وهو آية أكيدة على أن سياستهم لم تكن تنزع للحرب بل للسلم · وكانوا فى جميع الحالات تقريبا ، يلاقون صدمات جساما فى مراحل القتال الأولى ولكن يخرجون دائمـا مظفرين فى

---

(١) يذكر بلوبيوس (٦ ، ١١) كيف صاغ الرومان دستورهم « ليس وفقا لنظرية ، ولكن عن طريق الكثير من المشاحنات والأزمات العملية » وكانوا يختارون أقوم سبيل فى كل موقف فور حدوثه · وفى (٦ ، ٤٣) يقـابل عظمة روما بعظمة أثينا فى أن الأولى كانت ترجع أصـلا الى طراز دسـتورها أما الأخرى فالى عبقرية الأفراد ·

(٢) راجع المجلد الأول فصـل ٨ § ٧ فى الرقـابة الثنائيـة للزعماء princips ومجلس الشيوخ فى مشروع أوغسطس لاعادة التنظيم ·

الحنام • وكانوا يتلقنون درسهم خلال الصراع وما كانوا قط ليرضخوا للهزيمة وسنأتى فيما بعد على ذكر التشابه بين المناهج التى كانت روما وبريطانيا يكيفان بها مبادئهما فى الحكومة حتى نحقق المطالب المتغيرة لامبراطورية فسيحة • وكانت مهمة كل منهما حراسة العالم داخل نطاق نفوذها وكان الهادى لها فى منح الحقوق وفى المحافظة على السلام على السواء ، دوافع المنفعة وليس الخيال • لكن بالرغم من أوجه التشابه هذه ، الظاهرة ، فانه يوجد اختلاف واحد عظيم فى حياة الشعبين ، الدستورية • فبينما فى انجلترا ينحصر مركز الثقل السياسى فى البرلمان فان مثيله فى روما كان يوجد ، ليس فى التشريع • ولكن فى السلطة التنفيذية • ولقد قال ادموند بيرك Edmund Burke « ان المباريات العظيمة لأجل الحرية فى هذا البلد ، كانت منذ أقدم العهود ، على الأخص عن مسألة فرض الضرائب وأغلب المباريات فى مجموعة مصالح الأمم القديمة كانت تدور — أصلا — على حق انتخاب الحكام أو عن توازن طبقات الدولة ، العديدة • ولم يكن موضوع المال لديهم يمثل هذا الالحاح »[١] •

والتاريخ الانجليزى السياسى يزخر بموضوعات مثل حق التاج فى فرض ضريبة على المراكب وحق البرلمان فى فرض ضريبة على أمريكا أو حق مجلس اللوردات فى رفض الميزانية • وفى روما الباكرة لم يكن لموضوع فرض الضرائب وجود • وهناك كان الصراع كله من أجل الحرية يهدف الى تحديد سلطة imperium الموظف الأول •

٣ — توسع روما

٨ — ان العملية النسقية فى توسع روما تقع فى ثلاثة عصور (أ) فتح شبه الجزيرة الايطالية (ب) الصراع مع قرطاجنة للسيادة على البحر المتوسط الغربى و (ج) الاستحواذ على سيادة مماثلة على الشرق الهلينى •

---

(١) خطاب عن الصلح مع أمريكا • فى روما ، لم تكن توجد ضريبة مباشرة وكانت توجد ضريبة غير مباشرة ، يسيرة •• وبعد ذلك كانت الأقاليم تدفع جزية ثابتة (stipendium) للخزينة الرومانية • وكانت الأنصبة تدفع الى موظفى المالية quaestors جباة الضرائب فى الأقاليم أو (كما فى صقلية والشرق) تجبى بنظام يجلب الكسب الوفير للرأسماليين الرومان •

أ - توسع روما فى ايطاليا : (١)

ان الفترة (٤٥٠ - ٢٧٠) التى طالعت نهوض روما لتكون سيدة ايطاليا كانت تتفق فى الزمن مع المشاحنات السياسية التى انتهت بصدور القانون الهرتنسوى Hortensia (٢٨٧) ولمدة قرن ونصف قرن بعد ابعاد الملوك ، شنت روما حروبا لا تنقطع على جيرانها الأقربين . وفى الخمسين سنة الأولى من الصراع ، كان وجودها ذاته كدولة مدنية مستقلة ، مهددا بالزوال كل سنة ، على التقريب وبدأت روما بعد عام ٤٥٠ تسير قدما الى الأمام وقبيل عام ٣٥٠ دانت لها السيادة على اتروريا الجنوبية وسهل لاثيوم وحتى هجوم الغاليين المظفر وتدميرهم المدينة عام (٣٩٠) أوقف فقط ، لعدد قليل من السنين سير تقدمها المنتظم . وعندما استقر أمرها فى لاثيوم زال الحلف اللاتينى القديم عن الوجود الا فى الرسميات المدنية فقد عاون روما فى هاتيك الأيام الباكرة عدم وجود أى شعور قوى بالوحدة بين أعدائها الايطاليين . واننا نجد أثرا يسيرا لوعى ايطالى مشترك يمكن مقابلته بذلك الذى نجم عنه فى الاغريق الباكرة أحلاف مدن والألعاب الالومبية . لقد قام دون ريب فى تاريخ لاحق ولكنه فقط بعد أن أدمجت ايطاليا سياسيا فى الدولة الرومانية ، وقد ترتب على غزو لاثيوم أن أصبح لروما أواصر مباشرة بالمدن الاغريقية على الساحل القمبانيوى وبذلك دخلت فى صراع مع القبائل الجبلية القوية فى ايطاليا الوسطى . وبرزت روما كنصير للنظام والتجارة والثقافة الهلينية ضد عصابات السلب والنهب التى وجدت ميدان صيد هانئا بين الاغريق أولى الثراء الذين لاينزعون الى الحرب ، وأعقب ذلك الكفاح الطويل الشاق مع السامنيين (٣٤٣ - ٢٩٠) الذى ترك روما الدولة الوحدة التى تمتد صوب الشمال حتى سفح الابنين وصوب الشرق حتى شواطىء الادرياتيك وأخيرا فى بواكير القرن الثالث أحضر فورهس Pyrrhus ملك ابيروس Epirus أول قائد فى عصره ، محاربيه من سكان الهضاب وفيلته عبر البحر بحجة حماية اغريق طرنطم Tarentum من تقدم روما صوب الجنوب . ولما كان جنديا بالمهنة من مدرسة الاسكندر فقد كانت تراوده أحلام جامحة فى أن يحقق فى الغرب انتصارات شبيهة بانتصارات الاسكندر فى الشرق ، ولكن كان ينقصه أرب الاسكندر السياسى ، وبرهنت روما وهى دولة حرة موحدة على أنها خصم من نوع يختلف اختلافا بعيدا عن فارس .

---

(١) كانت ايطاليا ، عند رومان الجمهورية ، تحد شمالا ليس بجبال الألب ولكن بالأبنين وكان يطلق على المنطقة الواقعة بين الأبنين والألب Cisalpine Gaul أى الغال على هذا الجانب من الألب . وكان يسكنها كلتيون ينتمون بالقرابة الى القبائل التى كانت تستوطن Transalpine Gaul أى الغال على الجانب الأبعد من الألب فرنسا وبلجيكا الحاليتين .

وعندما فشل فورهس ، وقع اغريق الجنوب فريسة سهلة للكتائب الرومانية واصبحت روما تحكم دون منازع من سهل لومبارديا الى مضايق مسينا ٠

٩ – والقول ان « روما لم تبن في يوم » ، يصدق ليس فقط على خصيصة وانظمة المدينة ذات السيادة ولكن على امبراطوريتها العالمية أيضا واستغرقت هذه الجهود الأولى للسيادة في ايطاليا مدة تبلغ في مداها ضعف المدة التى تمكنت فيها من الاستيلاء على منطقة البحر المتوسط بأجمعها ٠ ويمكن أن نقتفى فيها المناهج التى تمكنت بها بعد ذلك من السيطرة على العالم وحكمه٠ انا نلحظ أولا ، كفاءة تنظيمها العسكرى ٠ ولقد أبدى احد الكتاب اللاتين الراى بأن الكتائب كانت الهاما من اله[1] ٠ وكانت تجمع بين ثقل صفوف المشاة المتراصة المتقاربة Phalanx المقدونية والتفوق في الحركة كما قام عليه الدليل في الحرب ضد فورهس ٠ وفي التسلح ومناهج القتال كان الرومان أبدا على استعداد لأن يتعلموا من أعدائهم وكانت الهزيمة اشارة بالقيام بالاصلاح الذى كان يعاونهم على الخروج من الحرب وقد عقد لهم لواء النصر ٠ وعلى هذا فقد استعاروا الرمح الثقيل من السامنيين كما تعلموا بعد ذلك تشييد السفن الحربية العظيمة من القرطاجنيين وفي نهاية الحرب الفونية الثانية ، أوقعوا الهزيمة بهنيبال بالخيالة التى كانت الأداة التى استخدمها في انتصاراته الأولى ٠ وعلى غرار الانجليز فانهم كانوا يقومون بحروبهم وقد اخذ منهم التخبط "Muddled through" وهي عبارة عامية تشير الى انتصار المثابرة السلالية والقدرة على استخدام الهزيمة كوسيلة الى النصر وكان ايضا يحدوهم التواضع فيما يتصل بسبب انتصاراتهم وكانوا ينسبونها الى « حظ الشعب الرومانى » ٠ وما له أعظم وقع في النفس هو الوثوق من الذات الذى لا يعتريه وهن ٠ لم تعقد روما قط صلحا بينما كان يوجد على التربة الرومانية فرد من الأعداء ٠ انها غلطة عظيمة أن نظن بأن الرومان كانوا شعبا يجنح الى العدوان ، يحدوهم الميل الى اخضاع ايطاليا أولا ثم بعد ذلك العالم ٠ ان أعظم من هذا صدقا القول ان حروبهم جاءتهم بما لا معدى عنه في ترتيب الأمور ٠ وفي كل مرحلة في تاريخهم كانوا يواجهون بالاحتمالين ، السير الى الأمام او النكوص الى الخلف ٠ ولم تنكص روما الى الخلف بتاتا ولما كان يتألب عليها جيران يسودهم الشغب فقد أوقعتها مهمة حراسة تخومها ، في حرب دائمة وكان معنى الحرب على مدى الزمن ، توسيع الامبراطورية

(١) واغيطيس Vegetius ، كما اقتبس عنه منتسكيو فصل ٢ ٠ وفي واقع الأمر ، شكلت ولكن بتحسينات ، طبقا لتنظيم الاغريق العسكرى ٠ وعن تنظيم الكتيبة وتفوقها على المشاة المتراصة ثقيلة التسلح ، phalanx راجع بلوبيوس : ١٨ ، ١١ – ١٥ ٠

وكانت مجبرة على التدخل لكى تهدىء النيران وكان يترتب على التدخل الاحتلال فى النهاية ٠

وكانت توجد فلسفة كلبية فى سياسة روما وكان الهادى لسياستها دائما مبدأ المصلحةالذاتية ولكنها لم تتعطش قط الىالفتح ،وقصة امبراطوريتها هى أن تجد هوية المصلحة الذاتية فى دعوى القانون والنظام والمدنية ٠

١٠ – ويوضح تاريخ توسع روما فى ايطاليا بطريقة أكثر استدعاء للنظر عبقريتها فى الادارة المتأصلة ، وفى كل مرحلة كانت تلاحم فتوحاتها بمتاريس من حديد من الطرق العسكرية والمستعمرات ٠ والقول « ان كل الطرق تؤدى الى روما » صدق ، ليس فقط فى مجال استعارة الطرق العامة للمدنية ولكن حرفيا بالنسبة لطرق المرور العظيمة التى كانت تشع من روما أولا عبر لاتيوم واتروريا الجنوبية ثم فى ايطاليا وأخيرا فى أقطار منطقة البحر المتوسط (١) ٠ ولم تكن المستعمرة الرومانية على غرار المستعمرة الاغريقية دولة – مدينة مستقلة ولكن مستعمرة عسكرية للجنود الزراع فى وسط أعداء مغلوبين ٠ وطالما ظلت هذه المستعمرات باقية على اخلاصها فقد يحتمل أن تقع الهزيمة بالكتائب الرومانية فى الميدان ولكن الدولة الرومانية تظل ثابتة الدعائم ٠ وفى معاملتها للمهزومين كان المبدأ الرومانى فرق واحكم (divide et impera)، ولم يكن يتسامح فى قيام أية رابطة من التكاتف – فى الأزمن الأولى حتى فى حقوق التجارة والتزاوج – بينالمجتمعات الخاضعة٠ وقد حلت الاتحادات القديمة فى كل مكان ٠ ولقد حافظت روما على هذا

---

(١) كانت أقدم هذه الطرق فى ايطاليا ، طريق أبيا Via Appia وقد بدأها أبيوس قلوديس Appius Claudius الرقيب ، عام ٣١٢ ٠ وكانت تسير عبر لاتيوم فى خط مستقيم الى الساحل ٠ ثم أكملت بعد ذلك مجتازة سمنيوم Samnium بجوار بنيونطم Beneventum الى ونوسيا Venusia (فى أفوليا Apulia) وبرنديزيم Brundisium (برنديزى الحالية) ٠ وكانت طريق لاطينا Via Latina تسير أبعد الى الداخل ، من روما الى قفوا Capua وطريق افلامنيا Via Flaminia صوب الشمال عبر الأبنين الى أريمنيم Ariminum (رمينى) على الأدرياتيك ومدت عام ١٨٧ الى افلاقنطيا Placentia (فيا قنزا) على البحر باسم طريق أميليا Via Aemilia ٠ وفى القرن الثانى أنشئت طريق دمطيا Domitia بمحاذاة خليج ليون Golfe du Lion لربط روما بأسبانيا وطريق اغناطيا Via Egnatia عبر شبه جزيرة البلقان من دوراخيوم Dyrrachium (دورازو) الى تسالونيقا Thessalonica (سالونيكا) والسبنطس ٠

المبدا الأصلي دون ان تشوبه شائبة ، خلال تاريخهـا • ونفس التوجس من الجمعيات الخاضـعة الذى أدى بها الى الغـاء الحلف اللاتينى ، كان فى عهـد الامبراطـورية الدافـع لهـا على الغـــاء فرقـة مطافىء محليـة فى نقومدية Nicomedia [١] • وعلى اضطهادها الكنيسة المسيحية كطائفة غـير مصرح بها ومن الجهة الأخرى . كانت كل المجتمعات الايطالية على السواء تربطها مع روما أواصر تختلف قوتها • ومنذ ذلك الحين كانت ايطاليا تكون دولة واحدة تحت السيادة الرومانية • وكان الحرب والسلام والعلاقات الخارجية والعملة من شأن المدينة الحاكمة ، القاصر عليها • وأما ما خلا ذلك فكانت توجد تفرقة بين الأراضى التى تديرها روما مبـاشرة وتلك التى يستوطنها « أصدقاؤهـا وحلفاؤها الايطاليون » على شبه تلك الموجودة فى الهند اليوم بين الولايات الوطنية والأقاليم التى يحكمها الموظفون المدنيون البريطانيون ، وكانت تشمل الأولى ثلث ايطاليا تقريبا ، بما فيها روما والمستعمرات التى تضم المواطنين الرومان ذوى الحقوق الكاملة وبلدانا أخرى لها حقـوق المواطنين الـكاملة أو الجزئية (municipia) وهذه المستعمرات والبلدان municipia كانت تستمتع بقسط وافر من الحكم الذاتى ولو أن روما احتفظت بحق التدخل وكان يرسل الرؤساء perfects سنويا من العاصمة للقيام على القضاء •

ومن بين « الحلفاء » الايطاليين من الجهة الأخرى ، كانت تحتل المستعمرات « اللاتينية » مكانة ممتازة ولهـا كامل الحقــوق فى التجـارة والتزاوج مع المواطنين الرومان • وحتى منتصف القرن الثالث ، احتفظ سكان المستعمرات بحق استعادة صفة المواطنين الرومان فى حـالة عودتهم الى العاصمة ولـكن جمهرة « الحلفاء » كان يحدد مركزهم معاهدة خاصة ففى حالة المدن الهلينية كانت الشروط على وجه عام سمحة ، بينما هوت المجتمعات الأخرى فى المناطق الأقل تمدينا ، الى عبودية مفترضة وكان الكل عرضـة للخـدمة مع الجيش الرومانى فى الميدان [٢] • ولا يمكن أن يقول مثال أوضح بيانا عن مرونة المذهب

---

(١) راجع خطابات بلنى الى الامبراطور طريان (بواكير القرن الثـانى الميلادى) الكتاب ١٠ الرســالتين ٣٣ و٣٤ (فرقة الحـرائق) و٩٦ و٩٧ (المسيحيين) •

(٢) ان التقسيم الى مواطنين (صفة تامة وصفة جزئية) وحلفاء يرجع تاريخه الى القرن الرابع • وصفة المواطن الجزئية كان معناها اسـتحواذه على الحقوق الخاصة دون العامة • وكانت الحقوق الخاصــة المنوه عنهـا ، حقوق التجارة والتزاوج أما العامة فكانت حق التصويت والأهلية للوظائف • وقد منحت الحقوق اللاتينية الى المجتمعات خارج لاتيوم فى ايطاليا (وبعد ذلك) فى الأقاليم وكان للحلفاء حكم ذاتى فيما يتصل بالحـكومة المحليـة وكانوا خارج دائرة التشريع الرومانى والحكومة التنفيذية •

الادارى الرومانى وقدرته على التكيف مع الأحوال المحلية المتغيرة من الصورة التى يستعرضها حكمهم فى ايطاليا فى الفترة التى تقع بين الغزو الغالى (٣٩٠) ونشوب أول حرب فونية (٢٦٤) .

ب - الحروب مع قرطاجنة :

١١ - تدور القصة كيف أن فورهس هتف عند تركه المدن الاغريقية فى ايطاليا الجنوبية الى مصيرها « يا له من ميدان قتال ذاك الذى نخلفه للرومان والقرطاجنيين » . ولعدة قرون كان الاغريق الصقليون يكافحون ضد قرطاجنة من أجل جزيرتهم والآن أصبح لا يفصل صقلية عن روما سوى المضايق الضيقة . وكانت سيادة القرطاجنيين فى البحار الغربية حتى ذلك الحين ، لايوجد من يتحداها ولو أن روما كانت قد بدأت فى حراسة ساحل ايطاليا بأسطولها ومنذ القرن السادس كانت تمارس التجارة مع صقلية وسردينيا وقرطاجنة وأصبح لها المام تام بالعادات الهلينية والفنيقية . وكان الصراع بين الدولتين الغربيتين العظيمتين ، أعظم صراع مروع فى التاريخ القديم وقد بدأ فى عام ٢٦٤ واستمر ، مع انقطاع عشرين عاما لكى يتمكن المحاربون من استرداد قوتهم (٢٤١ - ٢١٩) ، حتى الانتصار النهائى الذى حازه اسقفيون على هنيبال فى زاما ، عام ٢٠٢ . ويقع خارج مجالنا الاستطالة فى الحديث عن تاريخه . وقد أكسبت الحرب الفونية (الفنيقية) الأولى (٢٦٤ - ٢٤١) روما أول اقاليمها ، صقلية وسردينيا وقرسيقا والسيطرة البحرية على البحر المتوسط الغربى . وفى الفترة التالية ، أخضعت الغالبين بين الابنين الشمالية والألب . واختتمت الحرب الثانية (٢١٩ - ٢٠١) ، التى جعلها غزو هنيبال العظيم لايطاليا باقية الذكر على الدوام ، بفتح اسبانيا والنزول بقرطاجنة الى منزلة ولاية مقطعة . ولم يحدث فى تاريخها الطويل أن تجلت للعيان البطولة فى حب الوطن التى نهض بها الرومان أكثر مما كان فى الساعات الحوالك ، عندما كانت شراذم الكتائب المحطمة تلم شعثها فى استبسال حول المغير . وعندما اقترب القنصل وارو Varro من المدينة بعد نكبة كاناى Cannae (٢١٦) المروعة - فان أعضاء مجلس الشيوخ - أعداءه السياسيين تقدموا لمقابلته حاملين له الشكر لانه لم ييأس من الجمهورية . وبعد ذلك بأعوام قليلة عندما اقترب هنيبال من أبواب روما ، بيعت الأرض التى كان معسكره مقاما عليها فى المدينة بثمنها الكامل فى السوق ، فى زمن السلم . والمغزى الأدبى لنتيجة هذا الصراع التاريخى واضح كالشمس فى رائعة النهار . ان حكومة قلة تجارية - كالبندقية فى زمن متأخر ، تتملكها الغيرة من عظماء مواطنيها وتعتمد على الجنود المرتزقة - لا يمكن أن تتغلب بالسلاح على

جمهورية حرة [١] . ولم تكن عبقرية أعظم القادة العسكريين مجدية فى تقويض بنيان المستعمرات الرومانية المتين . ولما تقررت النتيجة تصيدت روما عدوها وأردته موارد الهلاك فى قسوة لا رحمة فيها فانتزعت أولا المنفى [٢] ثم قتل هنيبال ، الفرد الوحيد الذى عن لها اطلاقا ، أن ترهب جانبه ، واخيرا عندما نهضت قرطاجنة بعد نصف قرن من حشرجة موتها ، فى جهد بالغ لاستعادة حريتها فانها بعد مقاومة باسلة ، سويت بالأرض (١٤٧) .

(ج) فتح الشرق

١٢ — خرجت روما من هذا الصراع الهائل وهى سيدة الغرب ، دون منازع . ومنذ ذلك الحين كان المشكل الذى واجهها فى هذه الناحية مشكل التوطيد والحكم . وسنعود فى الفصل التالى الى الوسيلة التى أنجزت بها رسالتها كعامل فى بسط المدنية على اسبانيا وأفريقيا والغال الجنوبية ، ولكن قبل أن تضع يدها على هذه المهمة الجديدة ، وجدت نفسها وقد اشتبكت قهرا بسياسة الشرق الهلينى . ولم يكن مزاج الخطيئة hubris هو الذى دعاها الى التدخل ، ولكن منطق الوقائع الصارم . ولم تكن ، وقد أنهكتها حروب هنيبال وأصبحت تنوء تحت عبء الأقاليم الغربية ، فى حالة تسمح لها بالشروع فى مغامرات جدد ، لم يكن بالمستطاع التنبؤ بنتائجها . وكانت المطامع العسكرية التى تحدو ملوك مقدونيا وآسيا ، الاغريق تجبرها على العمل . والدولة التى لها السلطان فى ايطاليا ما كانت بمستطيعة فى ذلك الحين ، أكثر من استطاعتها الآن ، أن تعاين سير الحوادث فى شبه جزيرة البلقان دون مبالاة ، وكدولة تجارية عظيمة ، كان على روما أن تحافظ على السلام فى البحار المحيطة ، ولقد حاربت جنود مقدونيون فى جانب هنيبال، وكان أنطيوخس الثالث (العظيم) من أسرة سليوكس يهدد استقلاله حلفاء روما ، أثينا ورودس وفرغامس ، وكانت النتيجة سريعة ومجتاحة . ولقد سحقت مقدونيا فى عام ١٩٧ وأنطيوخس فى آسيا ، عام ١٩٠ . أما امبراطورية سليوكس ، وقد قطعت روما أوصالها فى الغرب ، ودولة بارثيا الناهضة فى الشرق ، فقد هوت بعد معركة مغنسيا (١٩٢) لتكون ولاية سوريا الصغيرة التابعة . وعلى ذلك ، ففى عشية أو ضحاها أصبحت سيادة أقاليم البحر المتوسط الشرقية فى قبضة روما . ولقد أبدى مونتسكيو

---

(١) يقر فلوبيس (٥٢،٦) أن تفوق الرومانيين العسكرى على القرطاجنيين كان تفوق الجنود — المواطنين الذين تحفزهم الروح الوطنية على المرتزقة وهو يذكر أيضا (٣ ، ١١٨) أن الرومان أنقذتهم بعد كاناى «خصيصة تنظيمهم السياسى التى تتميز عن غيرها وتفوقهم فى تدبير الرأى » وينسب توسع امبراطوريتهم السريع الى نفس السببين .

(٢) بلوبيوس — راجع صفحة ٢٧٤ تذكرة (١) — المترجم

ملاحظة مفادها أنه بعد سقوط القرطاجنيين ، حاربت روما حروبا صغيرة فقط ، وكسبت انتصارات عظيمة ، بينما قبل ذلك ، كسبت انتصارات صغيرة وحاربت حروبا عظيمة (١) ، واننا نلحظ في قصة توسعها الشرقى ، الرائعة ، ثلاث حقائق بارزة أولا تظهر روما في كل مرحلة كنصير للنظام والشرطى الوحيد العامل في خضم العالم الهلينى المضطرب اضطرابا مؤلما ٠ وعلى ذلك فقد تحالفت باستمرار مع الدول التجارية المسالمة مثل مصر ورودس وفرغامس ٠ ثانيا كان يلهم سياستها حماس صادق للهلينية ، وسنتحدث فيما بعد عن تأثير الثقافة الاغريقية التى تنزع الى التغلغل ، في هذا العصر في حياة ومزاج القادة من المواطنين الرومانيين ولقد تجلى مثلهم الأعلى في المشهد الفاجعي الذى أعقب الانتصار على مقدونيا عندما أعلن فلامنيوس Flaminius على الاغريق المجتمعين عند برزخ كورنث أنهم منذ ذلك الحين أحرار ، وربما كان ليتنبأ مقدما نصير للهلينية أقل تحمسا بالنتيجة ٠ لقد التهب سعير الفوضى ، في شبه الجزيرة كلها طوال نصف قرن الى أن اضطرت روما الى ضمها ٠ وثالثا يظهر في أعظم جلاء اعراض الحكومة الرومانية عن توسيع حدود امبراطوريتها خلال هذا العصر ٠ ان سياستهم في مقدونيا تقدم المثال لذلك ٠ لقد أيدوا بعد انتصارهم الأول (١٩٧) الملك المهزوم كأمير غير مستقل تحت السيادة الرومانية ٠ وعندما أثار خلفه بعد ذلك بعشرين سنة حربا ثانية خلع وقسمت أملاكه بين أربع سلطات محلية ٠ وفقط ـ عندما فشلت هذه التجربة ـ جعل القطر اقليما رومانيا (١٤٦) ٠ وفى آسيا ، لم تأخذ روما شيئا لنفسها ، وقد وكلت الأقاليم التى انتزعت من أنطيوخس الى امراء وكلاء والى خلفائهم الهلينيين ٠ ويمكننا أن نوازن الأساليب المشابهة التي تذرعت بها الحكومة البريطانية في الهند في تأجيل ضم البنجاب من وقت الى آخر ٠

١٣ ـ ولو كانت غايتنا وضع تاريخ لروما لكان من اللازم أن نتتبع مرحلة بعد مرحلة حوادث هذه المناوشات بالتفصيل وأن نتبين في كل

---

(١) Gr. et déc. فصل ٥ : لقد أثرت السرعة التى استحوذت بها روما على سيادة العالم تأثيرا عميقا في معاصريها ٠ ومنهم ، مثلا ، المؤرخ الاغريقى فلوبيس الذى كان الهدف من مؤلفه هو أن يوضح « بأية خطوات وبأى دستور انضوى العالم بأجمعه تحت حكم روما الوحد في غضون ثلاث وخمسين سنة » (١ ، ١) ـ أى بين نشوب الحرب الفونية الثانية (٢١٩) وتقسيم مقدونيا (١٦٧) ٠ وهو يذكر أيضا (١ و ٣) كيف أنه في نصف القرن ذاك ، تقابلت تيارات الحوادث في الشرق والغرب ، المنعزلة ، لتكون مجرى وحدا في الامبراطورية الرومانية واصبح لتاريخ منطقة البحر المتوسط ، لأول مرة ، وحدة عضوية ٠

مرحلة متعاقبة ، تأثيرها المستمر على تكوين حكومتها الداخلية · فعلى سبيل المثال ، كان ضغط الحرب على أبوابها هو الذى أتى بالنفع على العامة الذين كانوا السلسلة الفقارية للجيش فى كفاحهم مع الأرستقراطية الأشراف ، وكذلك كان لادماج الشعوب الايطالية وشعوب البحر المتوسط داخل دائرة السيادة الرومانية كما سنرى فيما بعد ، نتائج بعيدة الشأو على مذهبها الادارى والقانونى · ولكن اهتمامنا الحالى بقصة تكوين الامبراطورية الرومانية لا ينصب على العملية النسقية أكثر مما ينصب على النتائج (١)·
وهذه يمكن تلخيصها فى عبارة : قبيل منتصف القرن الثانى ، توطد حكم روما فى أعم خصائصه الجوهرية ، على عالم البحر المتوسط ، وفى الغرب كانت تحكم حكما مباشرا أقاليم صقلية وسردينيا وكورسيكا والغال جنوب الألب واسبانيا الدانية والقاصية وأفريقيا · وفى عام ١٢١ أدمجت الأراضى الساحلية الواقعة بين الألب والبرانيس فى اقليم الغال النربونزية ، الذى عرفت باسم « بورفانس » فى زمن لاحق · وفى الشرق كان يوجد فقط اقليمان : مقدونيا مع اخايا « اليونان » ، وآسيا — أى المنطقة الغربية من آسيا الصغرى — التى ارثها للدولة الرومانية عام ١٣٣ آخر أمير اغريقى لفرغامس · والى ما يوالى حدود هذه الأقاليم ، كانت توجد سلسلة من الدويلات مثل نوميدياNumidia فى أفريقيا ومصر وسوريا (بقية المملكة السلوقية) وولايات صغرى عديدة تحكمها داخليا حكوماتها الخاصة ولكن تسيطر عليها روما فى جميع ما يتصل بعلاقاتها الخارجية · وكانت اقامة هذه الولايات العميلة ، تحت السيادة الرومانية مظهرا أصليا للسياسة الرومانية فى عهد الجمهورية المتأخرة والامبراطورية الباكرة · وكانت تقوم كولايات حاجزة بين روما ودول من أمثال بارثيا ، ووفرت أثقال الاحتلال العسكرى والحكومة ونمت انتشار المدنية خارج تخوم الأقاليم · وطالع القرن التالى تهذيب المذهب الامبراطورى بتكوين أقاليم جديدة وولايات تابعة واصلاح الادارة الداخلية واقرار التخوم الدائمة للامبراطورية · وفى الزمن الذى وصلنا اليه ، كانت وظيفة روما فى تاريخ العالم قد تحددت معالمها · وكانت تلك الوظيفة مزدوجة وفقا لاختلاف الأحوال التى تواجهها فى الغرب والشرق · ففى الغرب ، كانت رسالتها أن توطد دعائم القانون والمدنية بين الشعوب الهمجية والشبيهة بالهمجية · اما فى الشرق ، من الجهة الأخرى ،

---

(١) ليست شخصية اسقفيون أفريقانس أو أعماله الباهرة هى التى يعتد بها فى التاريخ ، ولكن النفع الذى حققته روما من فتحه اسبانيا · لقد أطاح هنيبال بفلامنيوس وكتائبه بالقرب من بحيرة اطراسمين ، ولكن اسم ضحيته لا يزال باقيا كمنشىء للطريق العام الذى عبرت به الجيوش الرومانية الأبنين الى وادى البو وسفوح الألب ·

فقد وجدت مدنية قائمة تتفوق الى شوط بعيد على مدنيتها ، وهناك كانت مهمتها ليس الخلق وانما المحافظة ، أن تنقذ من الفوضى والدمار بنيان الثقافة الهلينية وأن تسير فى النهوض بعمل الاسكندر وخلفائه ببث تلك الثقافة فى شعوب الشرق الأوسط والأدنى ٠

روما فى القرن الثانى

ا ـ روما والهلينية :

١٤ ـ ان قدرة روما على النهوض الى قمة مسئوليتها كانت تعتمد أصلا على خليقة لفيف مواطنيها ٠ وقد تألف فيض الثروة بذيوع الثقافة الهلينية خلال حقبة الحروب العظيمة لايجاد ثورة عميقة فى حياة المجتمع الرومانى الخلقية والاقتصادية ٠ والى زمن الحروب الفونية ، كانت روما فقيرة نسبيا ، وكان يسود المواطنين مقدار من المساواة الحقيقية ٠ والآن ، وجدت نفسها على حين غرة تقريبا غنية ومركزا لتجارة البحر المتوسط وأسواق الشرق والغرب تحت أقدام تجارها ومموليها ٠

وكانت النتيجة جلية فى قيام طبقة من الأثرياء الذين جعل لهم ثراؤهم نفوذا فى روما وفى الأقاليم ، وفى ازدياد الترف بين أرستقراطية مجلس الشيوخ ، ذلك الترف الذى حاول عبثا الموظفون المحافظون من أمثال كاتو Cato الرقيب ، أن يضعوا حدا له ، وفى عادة المضاربات المالية ، وفى ظهور ضياع الأرض العظيمة وتدهور الزراع من صغار الملاك واستيراد العمال العبيد على نطاق واسع من الشرق ، ولم يمكن للزراعة فى ايطاليا أن تنافس الحنطة المستوردة من بلدان ما وراء البحار ٠ وكانت النتائج السياسية والنتائج الخلقية متعادلتين فى خطورتهما ، وفى الأزمنة الأولى من التوسع فى البحر المتوسط أثار الاداريون والتجار الرومانيون الدهش ، بسبب بساطتهم وحياة الأمانة الصارمة ، فى عالم تعود على الفساد الفونى (الفنيقى) والهلينى ٠ ولكن فى النصف الأول من القرن الثانى كان يمكن لكاتو أن يجار بالشكوى من أن ذاك الذى يسرق من مواطن حر يقضى أيامه مكبلا بالقيود ٠ ولكن من يسرق من المجتمع يقضيها وهو يرفل فى الذهب والأرجوان [١] ٠ وقد خضعت مدونة قوانين الأخلاق القديمة بسرعة الى

---

(١) راجع ممسن الكتاب ٣ ، فصل ٢ ٠ تزعم كاتو (قنصل ١٩٥ ورقيب ١٨٤) ، وهو من قدامى الجنود فى الحرب الهنيبالية ، وادارى قدير لاسبانيا ، المعارضة المحافظة للتأثيرات الجدد ٠ ويعقد فلوبيس (٦ و ٥٦) وكان بالذات وطنيا اغريقيا ، موازنة بين أمانة الموظف الرومانى فى النصف الأول من القرن الثانى وبين فساد الاغريقى : « ان أولئك الذين فى أيديهم

الأحوال التى تغيرت وفشا الخمول والعجز بين الطبقة الحاكمة ، بينما كان الأشراف يعيشون فى أبهة على أسلاب المقاطعات واستخدم جباة الضرائب من الزراع والمتعهدون ثراءهم فى انشاء قوة جديدة منافسة فى السياسة ، وتدهورت الجماهير التى ألمت بها الفاقة والتى اكتظت بها الحاضرة ، الى طبقة عمال من الكسالى والمؤثرين للمتعة .

وكانت تحمل هذه التغيرات فى الحياة الاجتماعية والأخلاق التى نجمت عن نهوض روما السريع الى دولة ذات سيادة ، نتائج تنذر بالشر ، ليس فقط على سياستها الامبراطورية ، ولكن على الاستقرار الداخلى للدولة . وكان أكثر نفاذا وله أثر بعيد المدى ، نتائج تمثيلها الهلينية .

١٥ - لقد كان فى قمبانيا Campania فى القرن الرابع أن روما اتصلت لأول مرة اتصالا دائما بالمدنية الاغريقية وما وقع من أنها استهلت تاريخها كدولة - مدينة بأنظمة شبيهة بأنظمة دول - المدينة فى اليونان ، كان حلقة اتصال سرعان ما تبينها الرومان والاغريق على السواء . وعندما ظهر الرومان فى عام ٢٢٩ للمرة الأولى على شواطىء الادرياتيك الشرقية ، سمح لهم فى الحال بالعضوية فى الألعاب الهلينية ولم ينظر لهم الاغريق قط على أنهم « همج » . وردا على هذا فان الحكومة الرومانية والأفراد من الرومانيين ، مثل فلامنيوس Flaminius اتخذا فى شغف وجهة موالية للهلينية فى السياسة الخارجية . وقد شوهدت ثمار هذه القرابة ، الأكثر توثقا ، فى غضون القرن الثالث فى الوازع الذى أثارته اليونان فى الأدب اللاتينى . لقد كان شعر روما الوطنى والترانيم والقصيد الغنائى والملهاة الريفية ، خشنة فى الصورة والمادة . وكان للشعراء القليل من الاعتبار ، ولا يوجد أساس سليم لما ذهب اليه ماكولى Macaulay من أن المشاحنات السياسية البواكر ألهمت بأدب يزخر بالقصيد الغنائى .

لقد كانت بدايات الشعر الرومانى فى الترجمات ومحاكاة عيون المؤلفات الاغريقية واستخدموا صيغ أوزان شعرية ترجع الى أصل اغريقى وخاصة الملحمة ذات الست مقاطع [١] . ولكن يكون من الخطأ الظن بأن الشعراء

تصريف الأموال العامة من الهلينيين ، حتى لو كان المبلغ مجرد « وزنة » يستخدمون عشرة محاسبين وعشرة أختام وضعف هذا العدد من الشهود ، ومع هذا لايمكنهم أن يكونوا أمناء على ما عهد اليهم . بينما بين الرومان ، يراعى الرجال الذين يتداولون بمبالغ جسيمة كالموظفين والسفراء التزاماتهم ، بضمان قسم بسيط » .

(١) كان أقدم شعر رومانى فى وزن يطلق عليه Saturnian يمثله البيت الانجليزى الآتى :

"The Queen was in her parlour eating bread and honey."

الرومان ، فى اتباع النماذج الاغريقية ، كانوا محاكين لأساتذتهم محاكاة عبيد فلقد نفثوا فى أعمالهم ، روح روما · ولقد عبر انيوس Ennius الذى كان معاصرا للحرب الفونية الثانية ، واتخذ ذلك الصراع التاريخى موضوعا لملحمته ، عن صفات الجد ونشاط الرجولة والكبرياء القيصرى والذكاء السياسى مما كانت تتميز به الخليقة الرومانية · ويصدق هذا القول على مسلاة الأخلاق اللاتينية فى القرن الثانى · وقد أمكن تكييف النماذج الاغريقية للتعبير عن مصالح روما وحياتها الاجتماعية ·

وكان هناك أسلوب خاص من الشعر يعتبر خصيصة ملازمة للأدب الرومانى وهو «التهكم» أو الخليط "Satura" وكان أول واضعه لوكليوس Lucilius فى منتصف القرن الثانى ، وكان يصور فى أبيات من ستة مقاطع ، مشاهد من الحياة الاجتماعية يتناثر فيها النقد الأدبى والسياسى والسيرة التى يضعها الانسان عن نفسه والمغامرة الشخصية وتواصل الأصدقاء · وقد أظهر الكتاب الرومان اشراقا خاصا وروعة فى هذا اللون من الشعر وفى عبارة ناقد حديث · لم يكن هوريس Horace وحده أو كل أصحاب الشعر التهكمى بعده ينتمون الى مدرسة لوكليوس ، ولكن مونتانى Montaigne وببس Pepys أيضا [١] · وكان مولد أدب النثر اللاتينى فى هذه الحقبة ذاتها · ان مصالح الرومان العملية هدتهم منذ زمن مبكر الى أن يشقوا الطريق فى ميدانى الخطابة القانونية والتاريخ · وهنا أيضا نشعر باحساسهم ، الحاضر أبدا ، بعظمة روما وعبقريتها فى القانون والنظام ومصيرها الامبراطورى ، ولكن لا تزال توجد خصيصة أخرى تميز الأدب اللاتينى عن أدب الاغريق · ان أعاظم الشعراء الرومان يستبين منهم فهم صادق للطبيعة وحب لها · لقد وضع الاغريق عن الطبيعة شعرا لا يعتريه فناء ، ولكن مع كل احاسيسهم بجمالها وجلالها ، ظلت بالنسبة لهم قوة غريبة عنهم ، قادرة فى الواقع على اثارة اعجابهم ولكنها شىء لم يكونوا فى الواقع قط يرتاحون اليه كل الارتياح · ان الطبيعة عند اليونانى كانت دائما شيئا خارجا عن ذاته ، شيئا يجب أن يعرف عنه أو يقهر ، وليس شيئا يحب [٢] ·

وكان الشعراء الرومان يحبون الطبيعة كأن لها قرابة بهم · وكان اليونانى يعيش فى المدينة ولأجلها ، واذا عن له السفر الى الخارج ، كان

---

(١) مكيل — « الأدب اللاتينى » — يشتمل Satura ، كما يدل عليه النص ، أكثر مما يشتمل عليه التعبير الانجليزى "Satura" · ويذكر كونتليان (.Inst. Orat) ١٠ فصل ١ § ٩٣) انه رومانى خالص Satura quidem toto nostra est

(٢) ومع هذا يجب استثناء هزيود والقمايون

الدافع أن يرى مدائن الناس ، وكانت ضياعه مصدر ايراد وليس موضع اعتكاف مختار . كان الرومانى يهرب من المدينة جذلان ، للريف . وكان أول من يقدر بيتا ريفيا ويخلق مأوى لوقت الفراغ بين الجبال أو بجوار البحر ، وعلى هذا فان كاتولوس Catullus غادر روما الى منفاه على بحيرة جاردا ، وهوريس الى مزرعة السابنية ، وفرجيل Virgil الى خليج نابلى . وكانت الحال كذلك مع رجل الأعمال والمحامى عندما كان كما جاء فى تشبيه هوريس ، ذائع الصيت ، يطرح عنه حمل الأعمال العامة ، ويأوى الى حقول فينافرم Venafrum أو طرنطم لاكديمونيا [1] . وكان الرومان يحملون فى مناجاتهم مع الطبيعة شيئا من حرارة الود الذى كانت تتميز به أواصرهم الشخصية . وهذا من شأنه أن يجتذب قارىء أدبهم الى العطف على حياة الشاعر اليومية . ولقد كانوا أول السلالات جميعا [2] ، احساسا بالابتهاج بجمال الطبيعة ويعبرون عنه فى أشعارهم ، يقرب من احساس شوسر أو شكسبير .

١٦٤ ـ وبانتشار الهلينية المعاصرة من الطرازين الهلينى . والاسكندرى أصبح المجتمع الرومانى أكثر ترفا وأكثر تهذيبا ، فى وقت واحد .

وكانت الثقافة الاغريقية لا تعنى ، فى الكثير الغالب ، سوى قشرة رقيقة لا تكاد تحجب الخشونة الطبيعية والوحشية فى الأخلاق الرومانية . ولم يحس نفوذها على الدهماء من الشعب اطلاقا الا أن يكون ذلك ، فى التأثير التدرجي على الدين الشعبى ، فى تعرف الشعراء هوية واحدة للآلهة الرومان ، ولآلهة الاغريق ، ولقد غدا الآلهة المعنويون فى روما الباكرة ، الى حد ما ، أولى طابع شخصى وذات محددة . ومن الوجهة الأخرى تعلم الرومانيون الأرستقراطيون ، من الاغريق ، أن يقدروا الأدب والفنون [3] .

---

(١) هوريس « القصيد الغنائى » ٣ ، ٥ و ٢ ، ٥٥ ـ ٦ .

(٢) لقد سبقهم قدماء المصريين فى هذا المضمار فان الشعر الغنائى المصرى القديم يزخر بالاحساس بجمال الطبيعة والبهجة برؤية الأشجار والزهور والطيور (المترجم)

(٣) كانت الجماعة الممتازة التى التفت حول اسقفيون اميليانوس (هازم قرطاجنة فى الحرب الفونية الثالثة) تضم بخلاف أشراف الرومان مؤلف الفاجعة الهزلية طرنس وشاعر الهجاء والتهكم لوكليوس والسياسى الاغريقى المنفى بلوبيوس ، وأعيد بلوبيوس (ولد عام ٢٠٦ وتوفى عام ١٢٤، على التقريب) الى اليونان من المنفى عام ١٥٠ ورافق اسقفيون فى حملاته فى أفريقيا وغيرها من الأماكن وقام بوظيفة مبعوث روما فى اليونان من عام ١٤٥ . وكان تاريخه يضم ٤٠ كتابا ، الخمسة الأولى منها ، فقط ، هى الموجودة لدينا بأكملها . وقد بقيت من الأخرى مقتبسات ، فيما دونه

ولقد حملت الى روما روائع أمثلة النحت الاغريقى ، لتزخرف بيوت قواد الجيش المظفرين • ويوجد قول لجورج مريدث مفاده ان الفكرة المعنوية الوحيدة التى يستطيع العقل العسكرى أن يفقه لهـا معنى ، هى فكرة الغنيمة ، ودون ريب كان لتعطش الدهماء للسلب شـأن كبير فى نهب كنوز الهلينية [١] • هذا ، ولكن بمجرد أن استعرضت أعمال الفن فى روما ، أتت على ذوق الجمهور بتأثير خفى • وأصبح الرومان يهتمون ليس بمجرد الاحتفاظ بآثار الماضى التذكارية ، ولكن بتشجيع مثل هذه الابتكارات الجدد فى الفن والأدب ، كما كانت العبقرية اليونانيـة لا تزال قادرة على انتاجها • والفن الخالق يشير الى وجود جمهور • والآن صارت روما تهيىء الجمهور ، ولم يصبح الرومان قط فنانين • والواقع أن رعايتهم قد أوقعت الضربة القاضية على الفن الاغريقى • والفلسفة الاغريقية بدات أيضا تتسرب الى روما خلال القرن الثانى ، ولو أن الرومان كان لهم القليل من القـدرة على التفكير المجرد عن المنفعة وقاوموا التغلغل زمنا طويلا ، وكانت مبادىء الرواقيين والأبيقوريين التى تتركز حول مشكلات الحياة العملية أول مبادىء تأصلت فى المجتمع الرومانى • ولقد عاونت على تعـديل ، وفى النهاية على تقويض القيم الرومانية العتيقة للتورع والفضيلة •

ولقد وجدت علامات الفكر الارتيـابى فى أشـعار انيـوس Ennius وكان الشيوخ من رجال السياسة فى القـرن الثانى مثل كاتو ، يرتابون من النفوذ الاغريقى • وفى منتصف ذلك القـرن وافق مجلس الشيوخ على مرسوم بأن يغادر المدينة جميع الفلاسـفة • ولكن مقاومة الأفكار كانت غير عملية كمقاومة الثروة والترف ، وفى ارواد ولكن فى يقين ، للخير أو للشر ، فان روح اليونان كما جاء فى عبارة هوريس : « أخـذت أسيرا ، قاهرهـا الجافى » [٢] •

مؤلفون بيزنطيون • وهى تستغرق المدة التى تقع بين عامى ٢١٩ و١٤٥ • ومصنف بلوبيوس يتميز بعـدم التحيز فى الحكم والصدق فى سرد الوقائع التى يمكن تحققها • والمؤلف ولو أنه موال ولاء متصلا لليونان وطنـه ، فان احساسا بقوة دولة روما التى لا غالب لها ، ونبل وعظمة الخليقة والأنظمة الرومانية كان يلهمه باستمرار • ان الصدفة تتحكم الى حد عظيم ، فىشئون البشر (١ ، ٤) • ولكنلم يكن يوجد مصادفة فى نظر بلوبيوس فى استحواذ روما على امبراطورية عالمية (١ ، ٦٣) • والتأملات الفلسفية التى تنهال على القارىء وهى عسيرة الفهم، هى — على وجه عام — على شىء من الابتذالواللغو•

(١) ينعى بلوبيوس (٩ و ١٠) على الرومان ما درجوا عليه من سلب المدن المهزومة ، خزائنها الفنية • ويقابل هذا بما كانوا عليه سابقا من ضبط النفس وبساطة العيش •

(٢) هوريس .Epp : ٢ و ١ و ١٥٦ •

(ب) الدولة الرومانية في القرن الثاني :

١٧ — ان خلق امبراطورية شيء ، ولكن حكمها شيء آخر أكثر عسرا ، والمشكل الذى واجه روما لم يكن مجرد مشكل ايجاد وسائل جدد لادارة أقاليمها ، ولكن أيضا اعادة تنظيم حكومة الوطن المركزية . ان المناهج التى كانت تكفى لبلدة ايطالية كان مآلها أن تقيم الدليل على عدم كفايتها لحاضرة عالم البحر المتوسط ، وكانت خصيصة الدولة الرومانية فى عهد الحروب مع قرطاجنة قد أتى عليها تحول أصلى ، ليس بخطة مدبرة ولكن تحت ضغط الوقائع . وقد تركزت السلطة ، ليس كما كان يتوقع ، طبقا للقانون الهرتنسى الذى صدر عام ٢٨٧ ، فى أيدى الديمقراطيين الوطنيين ولكن فى أيدى عصبة من أسرات الأشراف ، قائمة بذاتها وكان لسان حالها (١) مجلس الشيوخ . ولما كان أعضاء مجلس الشيوخ يعينون من الموظفين السابقين ، ويضمون جنودا مجربين ورجال سياسة ، فى وقت كان فيه القناصل والمواطنون يؤدون الخدمة فى الميدان فان مجلس الشيوخ كان الهيئة الدستورية الوحيدة التى لها الأهلية على ادارة شئون الدولة . وقد ترتب على زيادة عدد الموظفين التنفيذيين لتوسع المسئوليات العامة ، حتى لم يكن يوجد أقل من عشرين من الموظفين كل سنة فى يدهم السلطة على عقد مجلس الشعب وما وقع من أنه يوجد ثلاثة مجالس شعبية للتصديق على قرارات ملزمة ، ان استدعت الحال بصفة ناجزة لرقابة تنظيمية يقوم بها مجلس دائم (٢) . وزيادة على هذا ففى الأيام التى كانت فيها الأمة

---

(١) يصف بلوبيوس الدستور الرومانى فى هذا العصر ، وهو يكتب عنه ، (٦ ، ١٠) بأنه خليط من الملكية (الموظفين ذوى السيادة (imperium والأرستقراطية (الأسرات التى تحتكر الوظائف) والديمقراطية ((comitia أو المجلس الشعبى) راجع كذلك ممسن الكتاب الأول فصل ٢ .

(٢) كان الموظفون الذين يملكون السلطة imperium فى بداية القرن الثانى هم (١) القنصلان ، (٢) الستة بريتوريون ، منهم اثنان كانا يؤديان خدمة القضاء فى روما وأربعة يحكمون الأقاليم ، (٣) بروقناصل وبروبريتوريون يطرد عددهم فى الزيادة ، أى قناصل وبريتوريون سابقون مدت سلطتهم لمهام عسكرية بعد انقضاء العام فى القيام بوظائفهم . ومن الوجهة النظرية ، لم تكن السلطة imperium تعرف حدودا . ولكن عمليا ، وضعت فواصل بين السلطة « العظمى » والسلطة « الصغرى » للقناصل والبريتوريين على الولاء وبين مراس السلطة فى منطقة روما المدنية (domi) وفى المنطقة العسكرية (militiae) . وكانت سلطة الموظف السابق تنحصر فى المجال الأخير . وباستثناء حالة الدكتاتور ، الذى كانت سلطته sine fine (دون حد) فان السلطة كانت تنحصر فى نطاق provincia معين (راجع تذكرة ٢ صفحة ٢٥٩) وعلى هذا أصبح للكلب الحارس مقودا .

تكافح من أجل حياتها أقام مجلس الشيوخ الدليل على أنه جدير بحمل السلطة، وكان كما قال مبعوث فورهس لسيده « مجلس ملوك » وعلى هـذا حدث أن سلطة imperium الموظفين وسيادة الشعب التشريعية انحنتا أمام سلطة مجلس الشيوخ الأدبية . وفى ختام القرن الثالث كان مجلس الشيوخ ، بالاضافة الى سلطته التاريخية فى تقديم النصح الى الموظفين يمتلك زمام رقابة تكاد تكون شاملة ، على الشئون الخارجية والتنظيم الاقليمى والمالية والدين وجميع الأمور الحيوية فى السياسة العامة . وبعد ذلك بزمن وجيز طالب بحقوق غريبة على التقاليد الدستورية وتنازعها معارضة الشعب ، بوقف الموظفين عن القيام بوظائفهم ومنح القناصل سلطات دكتاتورية افتراضيا ، بموجب المرسوم ، « بأن الموظفين يجب أن يراعوا أن الدولة لا يقع عليها ضرر » (١) . وفى الواقع نجد فى روما موقفا يماثل ذاك الذى كان سائدا فى انجلترة فى القرن الثامن عشر ، عندما كانت أشكال الحكومة البرلمانية يدير دفتها ، فى عهد توسع تجارى وامبراطورى ، لفيف من بيوت حزب الأحرار ، العظيمة . وفى روما أيضا أصبح مجلس الشيوخ والوظائف العليا احتكارا للأسر الشريفة التى تقوم بأعباء الوظائف (٢) ، وهذا الاحتكار المتزايد وهو يتألف بانتشار الثراء والرفاهية بين الأرستقراطية الحاكمة كانت نتيجته التى لا معدى عنها تفشى المرض المزمن فى دولة ـ المدينة القديمة وهو التشنيع الحزبى ، ومنذ عام ١٣٤ وما بعدها شب الصراع المدنى بين مجلس الشيوخ والديمقراطية فى عنف لم يعرف حتى ذلك الحين فى التاريخ الرومانى . وتأزم مماثل كان ينعكس فى معاملات الحكومة الرومانية مع شعوب ايطاليا وقد أصبح الخط الفاصل بين المواطنين الرومان والآهلين غير المواطنين أشد تصلبا . لقد أنزلت تلك الجماعات الايطالية التى كانت قد انضمت الى هنيبال الى حالة رق فعلية . وحتى المدن الموالية ، أى تلك التى لها حقوق لاتينية وجدت أنها تركت وقد ناءت تحت أثقال بدلا عن امتيازات . وعندما نعتبر أن الايطاليين كانوا ينتمون بقرابة الأصل للرومان ، وأنه فى النشاط والخليقة كانوا على الأقل يقفون معهم على قدم المساواة ، وأنهم كانوا يجبرون على حمل وطأة الخدمة العسكرية فى جهات

---

(١) فى القرن الأول قبل الميلاد ، بدأت قرارات مجلس الشيوخ (senatus consulta) تكتسب قوة قانونية عن طريق اغتصاب فرضى للسلطة ، غريب على روح الدستور .

(٢) كانت لا توجد علاقة اطلاقا بين هؤلاء الأشراف الجدد والتمييز القديم بين الخاصة والعامة ، الذى لم يعد له مغزى عملى . وأصبحت المرتبة تقاس الآن بعدد الآباء السابقين الذين اضطلعوا بعليا الوظائف وأصبح أمرا عسيرا ، عسرا يطرد ازديادا ، دخول « رجل جديد » دائرة الأسرات الشريفة .

من الامبراطورية ، نائية ، يمكننا أن نقدر النتائج المدمرة التى كان ما لها أن تنجم عن هذه السياسة ، قصيرة النظر ، المستبدة . وفى الواقع كانت كل الدلائل التى تنبىء بعصر من الانقسام الداخلى موجودة فى نطاق واسع فى روما وايطاليا قبل ختام القرن الثانى .

١٨ — وطالعت نفس الحقبة قيام روما بوضع أساس مذهبها فى الحكومة الاقليمية [١] . وكان تنظيم اقليم جديد يحدده قانون ، يستند الى تقرير من لجنة من مجلس الشيوخ ، ينص على مبادىء الادارة والمالية . وفيما يتعلق بفرض الضرائب فقد جرت العادة على الاحتفاظ — على قدر الامكان — بالمذهب الموجود سابقا [٢] .

ولقد أدخل قانون روما فيما عدا المدن التى لها امتياز « المتحالفة » و « الحرة » التى كان لها الحق ، اذا أرادت ، فى الاحتفاظ بقانونها الخاص ، وكانت معفاة من تدخل الحاكم . وحتى فيما يتجاوز هذه الحدود ، كان القانون والعادة المحليان يجدان تسامحا بعيدا . ومرة أخرى ، كانت المستعمرات الرومانية والبلدان Municipia تكون مجتمعات تتمتع بالحكم الذاتى داخل الاقليم . وكانت المدن الهلينية وخاصة فى صقليا والشرق تستمتع بقسط عظيم من الحكم الذاتى ، وأدرك الرومان بنظرهم الثاقب فى تكييف المناهج وفق المطالب المحلية ، منذ البداية أن الاغريق المتمدينين كانوا فى حاجة الى معاملة جد مختلفة عن قبائل أفريقيا الهمجية أو اسبانيا ، ومع هذا ، فحتى فى هذه الأقاليم الغربية أنشئت مجتمعات حضرية لها امتيازات كمراكز لنشر الثقافة الرومانية . وفى الأقاليم ، كما فى ايطاليا ، حلت فى كل مكان ، الاتحادات المحلية القديمة ، وفيما يوالى حدود المدن ذات الامتيازات ، كانت سلطة الحاكم مطلقة الا فيما يتصل بنصوص الدستور الأصلى فقط . وكان كل اقليم يوكل أمره لبريتور praetor ، وقد زيد عدد

---

(١) كان معنى لفظ provincia فى الأصل ، مهمة الموظف الخاصة وعندما استولى عام ٢٤١ على أول أملاك خارج ايطاليا وهى صقلية فانها وكلت الى موظف ، كنطاقه الخاص . وقد اتبعوا هذا النهج فيما جاء بعد ذلك من توسع اقليمى . وعلى هذا ، أصبحت الكلمة تعنى منطقة اقليمية تحت حكم موظف ذى سلطة imperium

(٢) وعلى هذا ، استبقى نظام العشور القديم فى صقلية وفى آسيا . ولقد أدى هذا الى العادة غير الاقتصادية ، الظالمة فى وكول تحصيل العشور صنفا الى محصلى ضرائب كانوا يبيعون المحصول ويدفعون مبلغا ثابتا للدولة محتفظين بأرباح الصفقات .

هؤلاء الموظفين الى ستة بعد الحرب الفونية الثانية أو ، بعد ذلك ، الى قنصل سابق أو بريتور سابق ، تبقى له السلطة لهذا الغرض خلال سنة ثانيــة · وكان يعاونه موظف من وزارة المالية « قسطور » Quaestor كادارى مالى وادارة من الموظفين العسكريين والمدنيين · ولما كان الحاكم يبقى فى دسـت الوظيفة مدة سـنة واحدة فقط ، وكان يأتى بموظفيه معـه من روما ، فان صعوبة ضمان الاستمرار فى الادارة الاقليمية كانت جد عظيمة · وكانت تواجه الى حد بالدستور الدائم للاقليم ، والى حد آخر الى ما كان يقع من أن كل حاكم يؤول اليه الحكم كالبريتوريين فى روما أن يذيع مرسوما بمجرد ولايته للوظيفة يشمل فى العادة فحوى مراسيم سـالفيه · وطالما كان فى الوظيفة فانه كان القائد الأوحد للقوات والرئيس الأوحد للسلطة التنفيذية والقاضى الأعلى · وفى الأقاليم التى فيها لم تكن الحاجة تدعو الى عمليات حربيــة ، كانت الدوائر القضائية ، أهم واجب لديه [١] · ولما كان لا يمكن محاسـبة أى موظف رومانى فى يده زمام السلطة ، وهو فى دست وظيفته بينما كانت التهـم التى توجه بعـد ذلك تسـمع فى روما وأمام محكمة متحيزة ، فان غوايات الجشع كان لا يمكن مقاومتها تقريبا · وفى الأزمنة الأولى كان الحكام يضعون أمانتهم موضـع الافتخار ، ولكن كمـا يلاحظ ممسن Mommsen « لا يمكن من الوجهة العملية ، ولأى مدة من الزمان ، أن يكون المرء فى آن واحد جمهوريا وملكا » [٢] · وقـد كان من جراء انتشــار الرفاهيــة بين الارستقراطية الرومانية أن تعاظمت مساوىء الحكم المطلق الاقليمى ، وحتى حاكم عدل كان يجد صعوبة تطرد ازديادا فى التحـكم فى جيش من جبـاة ضرائب الزراع والوكلاء الماليين الذين كانت تغمـر جموعهم الأقاليم الأكثر ثراء · وبمرور الزمن أصبح الحكام العـدول قلة وتباعدت المسـافة بينهم ، وكان المذهب مقضيا عليه بأوخم عاقبة ، فى النهـاية ، لعـدم وجود رقابة فعالة على الحاكم الاقليمى المستبد · وكانت الحكومة المركزية على مســافة قاصية ولم يكن يوجد موظفون اداريون ذوى دربة لضـمان رقابة دائمة فى

---

(١) كان الحاكم يباشر القضايا فى المعتاد ، طبقا للقـانون الأهلى الذى عنى الرومان بالتصـديق عليـه · وفى القضــايا الجنائيــة كان مجلس consilium من الرومان اختيروا من بين سكان الاقليم ومن ادارة موظفى الحاكم ، يستدعى للمشـاورة · وكان الواجبان اللذان لا يمكن لأى حاكم أن يهملهما ، الحرب والدورات القضائية · وفى غيرهما من المسائل ، كان يمكن لقائم على الادارة ، متراخ أن يترك اقليما مسالما وشأنه ليحكم نفسه · وكثيرا ما كان هـذا يأتى بأوخم العـواقب · وعنـدما كان شيشرون نائب قنصل proconsul فى كليكية ، استعلم عن مناهج الموظفين المحليين ووجـد أنهم كانوا ينهبون الخزينة المحلية منذ أعوام ·

(٢) ممسون ، الكتاب الثالث فصل ٢ ·

مقر أعمالهم . وكانت آيات الانفصال القادم التى لاحظناها فى روما وايطاليا ظاهرة ايضا وفى صورة معظمة فى جميع أرجاء الامبراطورية الاقليمية .

١٩ — وقد ترتب على تحول مجتمع زراعى بسيط الى مركز ثراء يعج بالسكان لتجارة عالمية وحكم عالمي ، تغيرات مماثلة فى سير القانون ونهجه . وكانت الفترة الواقعة بين وضع تشريع الألواح الاثنى عشر وختام القرن الثانى فترة انشائية عظيمة فى تاريخ القانون ، وفيها تحطمت صلابة مدونة القانون الباكرة وابتكرت وسائل جدد، وأوجدت مجموعة منسقة من الشرائع عن طريق التفسير والمراجعة والتوسع . والمصدران المعترف بهما (١)العادات التاريخية التى كانت على الدوام خالقة لقوانين جديدة (٢) القوانين الوضعية الايجابية التى زخر بها هذا العصر ، أضيف اليهما فى القرن الرابع (٣) المرسوم البريتورى [١] .

وكان كبار الموظفين على الدوام يملكون حق اصدار أوامر للجمهور (edicta) شفوية أو كتابية . وعندما نقلت فى عام ٣٦٧ وظائف القناصل القضائية الى موظف خاص ، وهو بريتور المدينة (praetor urbanus) فقد أصبح من المعتاد أن يضع فى المحكمة ، ليحيط المتقاضين علما ، ألواحا تشمل صيغ اجراءاته والقواعد التى يسير وفقها فيما ينتويه فى تطبيق القانون . والمرسوم ويطلق عليه المرسوم الدائم (edictum perpetuum) لتمييزه عن الأوامر العرضية التى تتصل بمناسبات خاصة ، كان من الوجهة النظرية صالحا فقط ، فى خلال السنة التى يكون فيها البريتور (Praetor) قائما بمهام الوظيفة ولكن جرت العادة بأن كل (بريتور) تال يدمج فى مرسومه المواد الأساسية التى وضعها سلفه ومعها التعديلات والاضافات التى يرى لزومها. وعلى ذلك فان طائفة من قوانين من صنع القاضي سرعان ما أصبح لها المرتبة التى كانت لقوانين روما الوضعية ، وقوانين العادة .

---

(١) كان المرسوم البريتورى مصدر القانون الرومانى اللاحق ، فى معظمه. وهو لا يمثل عمل المحامين المعترف بهم ولكن عمل أجيال من اداريين عمليين قاموا بتنسيق القانون المدنى وفق مطالب ايطاليا والأقاليم . ويطلق عليه فى « مجموعة القوانين المختارة » Diqest « صوت القانون المدنى ، الحى» وأساس تقدم العدالة البريتورية يرجع الى ماجرت عليه عادةالبريتوريين فى منح « صيغة » (أى مرسوم بتعيين قاض وارشاده عن مرجع القضية القانونى) كلما رأوا أن دعوى ، حتى ولم يكن ينطبق عليها القانون المدنى الضيق ، كانت معقولة وعادلة وكان المرسوم يبين نوع القضايا التى كان البريتور على استعداد لأن يمنح « صيغة » فيها (أى السماح بالدعوى) وطبيعة الارشادات التى يصدرها للقاضى .

ويلاحظ أن البريتور لم تكن له سلطة التشريع أو الحكم في قضية ، وكان في استطاعته فقط أن يمنح أو يرفض دعوى قانونية عن طريق «صيغة» مكتوبة موجهة للقاضي ، المواطن العادي الذي عينه ليضع قرارا عن وقائع القضية ، ولكن هذه المهمة المحددة اتسع اختصاصها بقانون ايبوتيا Aebutea حوالى ١٥٠ ، الذي خول البريتور عند انفاذ التعليمات الى القاضي بان يعدل أو يلغي افتراضا ، المواد الحرفية في القانون المدني في ضوء العدالة والعقل .[١] ومثال واحد يوضح طبيعة هذا التطور بموجب نصوص القانون المشددة فان تعهدا ارتبط به ، بالصورة القانونية كان ملزما ، حتى ولو أن أحد الطرفين وصل اليه بطريق الغش . والبريتور ولو أنه ملزم بالموافقة على السير في الدعوى ، فانه يعلن أنه في منحها سينهي الى القاضي بأن يوقع العقاب على المدعى عليه فقط اذا وجد أن المدعي لم يرتكب أي غش . وهذا الاجراء كان يمكن التوسع فيه الى حد لا نهاية له تقريبا ، وكان يهيىء وسيلة فعالة لضمان انتصار روح القانون على حرفيته . وعلاوة على هذا ، فان نفس هذه الفترة طالعت مولد القضاء العلمي . وحتى نهاية القرن الرابع ، ظلت مبادىء التفسير القانوني سرا مختوما في أيدي لجنة الكهنة . وفي عام ٣٠٤ نشر رجل أعنفه ابيوس قلوديس Appius Claudius الرقيب بعضا من القواعد الجبرية . وبعد نصف قرن استهل أول حبر أعظم pontifex maximus شعبي مراس تقديم النصح القانوني للمواطنين علنا . ومنذ ذلك الحين كانت المعرفة بالقانون مباحة لكل روما . وكنتيجة طبيعية ، ظهر الى حيز الوجود أدب قانوني ، وقد تبع الكتب القانونية العملية ، شروح ذات منهج لمبادىء القانون المدني . وفي القرن الأخير للجمهورية ، وضعت الأسس لمذهب العلم القانوني الذي عنى عظام الشارعين في عصر الامبراطورية الباكر بصياغته[٢] .

---

(١) كان القانون الابوطي Aebutian يضع «الصيغة» البريتورية في مستوى الدعاوى التي ترفع بمقتضى القانون المدني . ولما كانت الاجراءات بمقتضى « الصيغة » أبسط وأكثر مرونة فان المناهج القديمة ، ولو أنها لم تلغ قط ، بطل السير عليها الى حد كبير . وزيادة على هذا ، فان التعليمات المعينة ، عن المواضع القانونية التي كانت تتضمنها الصيغ ، جعلت القاضي الذي كانت القضية تعرض عليه أكثر اعتمادا عما جرت عليه الحال في السابق ، على القرار البريتوري ، ومنذ ذلك الحين تسيطر العدالة البريتورية على تاريخ القانون الروماني .

(٢) ان الاجابات عن الأسئلة القانونية التي كان يضعها المشاهير من علماء القانون (the responsa prudentium) ، كانت ترجع قوتها الى شهرة الشخص الذي يضعها . ولما كان يعترف بها كشروح للألواح الاثنى عشر ، فانها كانت تتضمن في الواقع تعديلات وتوسع واعادة تكوين =

٢٠ - وأعظم تطور قانوني في هذه الحقبة ، الى شأو بعيد ، هو وضع قانون الأمم (jus gentium) [١] . لقد كان القانون المدنى قاصرا على المواطنين الرومان - أو على أعضاء مجتمع غير روماني ، ضمنت لهم صفة قانونية بمعاهدة خاصة . وعندما أصبحت روما دولة تجارية عظيمة فقد قامت حاجة واضحة لقانون يكون تطبيقه واجبا على الأجانب فى معاملاتهم مع المواطنين ، وأيضا فى معاملاتهم فيما بينهم . ولقد كان لسد هذه الحاجة ، أن عين بريتور ثان عام ٢٤٢ وله مهمة خاصة في ولاية القضاء فى الدعاوى التى ينضوى فيها غير المواطنين . ومرسومه السنوى الذى كان يشتمل على التنسيقات اللازمة للقانون المدنى ليطبق على الشعوب الأجنبية . كان أساس قانون الأمم . [٢] ويمكن وصفه على أنه ذلك الجزء من القانون المدنى jus civile الذى كان يتوافق مع القانون المحلى لدى الشعوب الاخرى . عدل بحيث يتناسب مع الأحوال المتغيرة ووسع بتمثيل عناصر هلينية وعناصر أجنبية غيرها ، ليكون مجموعة من المبادىء العادلة التى تصلح للتطبيق فى جميع أرجاء العالم الروماني .

ولم يكن هذا خلقا مفاجئا . لقد نما فى تدرج بطىء على مر القرون وكان يمثل ما تراكم من تجارب تمرست بها سلالة ، كان لها قدرة فريدة

وقد انشئت مبادىء لم يكن يحلم بها قط أولئك الذين صاغوا مدونة القانون الباكرة . ويذكر مين Maine (القانون القديم فصل ٢) بأن هذا النوع من القانون لم يكن من عمل مجلس قضاة (لأنه لم يكن يوجد فى روما شىء يماثل مجلس القضاة فى انجلترا الحديثة) ولكن من عمل المحامين ووكلاء الدعاوى ولو لم يكن علماء القانون يترافعون فى المحكمة . ولم يكن يشيرون عالم قانون prudens . وعلى ذلك فان الفرصة التى أتيحت بهذا للمحامى ، للنظر فى القضايا الفرضية وكذلك المسائل الواقعية كان من شأنها أن تسهل التعميم وصوغ المبادىء المتسعة . ويجب ألا يغيب عن البال بأن كل روماني تقريبا كان يطمح فى وظيفة عامة ، فى أزمن الجمهورية ، كان يتلقى تعليما فى القانون . ولقد كانت المهنة الوحدة الخطيرة بخلاف مهنة الجندية وكان معظم الطبقة الحاكمة يتمرسون بكليهما .

(١) عن قانون الأمم jus gentium راجع زليوتا فى « تراث روما » .

(٢) كان يطلق على البريتور الثانى بريتور الأجانب praetor peregrinus لأنه كان يمارس القضاء بين غير المواطنين (peregrini) . وترجع أصول قانون الأمم jus qentium الى زمن سابق لانشاء هذه الوظيفة . ويجب أن يكون مفهوما بأن قانون الأمم لا يعنى « القانون الدولى » ولكن القانون الذى يسرى على أفراد ينتمون الى شعوب غير رومانية . وكان فى غالبيته يعنى بالعقود وكان يقوم على العادات السائدة بين مجتمعات البحر المتوسط راجع مين (القانون القديم فصل ٣) .

فى نوعها على تكييف الوسائل القانونية لتتوافق مع غايات مجتمع سياسى. وقد كان له فى دوره رد فعل على القانون المدنى ـ وخاصة عن طريق قانون العدالة الأدبية (jus honorarium) لبريتور المدينة [1] . وفى النهاية ، وبفضل ما كان يلازمه من موافقة للنهج العقلى ـ فانه حل محل مواد القانون المدنى الضيقة ليكون قانونا للمواطنين الرومان . وعلى ذلك ما عتم أن اعتبر مدونة القانون العامة ، يصلح للبشرية جمعاء ويقوم على احساس بالعدالة طبعى فى الانسان كانسان، ومن بلاط بريتور الأجانب praetor peregrinus ذاع فى الأقاليم حيث أضيف على القانون المحلى السائد ، قانون الأمم ومراسيم الحكام . وقد حمل الحكام معهم الى روما ما خبروه من القانون الأجنبى وساعدوا فى أن يقيموا على أسس واسعة بنيان القضاء الرومانى . وعلى هذا ، عند اكتمال الزمن ، فان القانون المحلى لدولة مدينة ايطالية وحده ، وقد نما باضافات من مصادر أجنبية وحورته عبقرية الشعب الرومانى التى لها قدرة على التكليف ، صيغ فى مذهب قانونى يضم عالم البحر المتوسط بأجمعه [2].

« ٥ ـ الخاتمة »

٢١ ـ قبل أن يتمكن العالم من جنى ثمار القضاء الرومانى ، قدر للجمهورية أن تعانى آلام الثورة . وقد حدث فى القرن الثانى أن أصبحت روما تقف وجها لوجه أمام المشكل . هل تستطيع دولة ـ مدينة لها أنظمة جمهورية أن تحكم امبراطورية ؟هل كان من المحتمل تصديقه .. أنه حيث فشلت أثينا فى عصر بركليس يقدر لروما النجاح ولم تكن لها الا تجارب ضئيلة فى الحكومة الذاتية ؟

---

(١) لقد اتخذ قانون المراسيم البريتورية هذه التسمية لأنه صادر عن سلطة imperium الموظف (honos = مهمة الموظف) .

(٢) يمكن دراسة تطور القانون الرومانى فى الفترة الواقعة بين الألواح الاثنى عشر وسقوط الجمهورية على خير وجه ، مرتبطا بتاريخ العقود . راجع مين (القانون القديم فصل ٩) . « ان الواجب الايجابى الذى ينتج عن اعتماد رجل على كلمة رجل آخر ، يعد من أبطأ غزوات المدنية التى تسير قدما » . فى المجتمعات الأولى ، حيث لا يخلق الفرد عن طواعية الحقوق والواجبات ولكن تكون أما (أ) ملازمة للموطن الذى يولد فيه واما (ب) أوامر صادرة عن رئيس الأسرة أو القبيلة فانه لا يوجد مجال للعقد . ان العالم المتمدين يدين بالعقود والوصايا ، كليهما ، لعبقرية روما القديمة ، القانونية .

وعلى الرغم من قدرتها على الفتح والحراسة ، فانها لم تبرهن قط أنها كفء للقيام بمهمة خلق حياة عامة مشعبة الفروع . ولقد ظل تصورها للسلطة حتى النهاية ، سطحيا وتأديبيا . لقد كانت دولة روما تقوم على القوة ، والسلاح كما هو ديدنه ، كان يرتد على من يستخدمه . وسيكون من الواضح ادراك العمق الذى تأصل فيه المرض الذى كان يقوض الكيان الاجتماعى اذا استذكرنا العوارض التى لحظناها فى الصفحات السابقة . لقد انتزع عصير الحياة من الاستقرار الاقتصادى بسبب الثراء الذى غمر العاصمة من جميع نواحى البحر المتوسط ، ولقيام أرستقراطية المال والفقر المدقع فى آن واحد ، ولانحطاط الزراعة واستبدال زراع الأرض الأحرار بالعمال العبيد . وسياسيا كان من شأن السلطة أن تتركز فى أيدى حكومة أقلية قصار النظر ، لا تواتيهم سعة خيال ، ازدادوا غنى بنهب الأقاليم . كانوا يتاجرون بأعمال أجدادهم الجليلة ولم يكن لهم علم بواجبات عامة الا ما يكون فيها بقاؤهم فى الوظيفة . وكذلك كان يعنى بالمصالح الذاتية مركزا المعارضة لمجلس الشيوخ ، طبقة الفرسان (equites) التى تشمل ذوى الثراء من أصحاب المصارف والتجار ، والخاملون من طبقة العمال فى المدينة ، الذين كانوا يحتشدون فى المجلس ليساوموا فى الحصول على تصويت للشعب ذى السيادة لهم مقابل أنصبة من الحنطة أو بمبالغ تدفع نقدا .

وكانت الطبقة الوسطى الزراعية التى انقذت روما من هنيبال اما توارت واما تعيش على مسافة نائية عن العاصمة ، ليكون لها دور فعال فى الحياة العامة .

ولقد ازدادت هوة الانفصام بين الرومانى والايطالى اتساعا وأنكرت حرية التصويت . وعومل « حلفاء » روما الذين كان يقع عليهم عبء الخدمة العسكرية كمحكومين غرباء . ومن الوجهة الخلقية ، أصاب البلى المعايير القديمة للورع والفضيلة المدنية . أما الاستقامة وحافز الضمير اللذان كانا فى وقت ما ، المجد الذى يتميز به الرومانى فقد أصبح الرومانى صفر اليدين منهما .

كان الرومانى قد تعلم كيف يحكم بتعلمه كيف يطيع ، والآن ، حتى فى الكتائب أصبح عصيان الجنود المواطنين أمرا يغلب وقوعه . وقد أثرت فيه روح اليونان ، فان عادة التكتل والولاء للجمهورية ، غدت تخضع لمطالب المطمح الشخصى .

هل كان من المستطاع أن مجتمعا ، يمزقه التشيع الداخلى ، والذى كان قد أبعد ذوى قرباه الايطاليين يظل محتفظا بالسيطرة على امبراطورية اقليمية فسيحة ؟.

لقد تكدست الجيوش على الحدود تحت امرة نواب قناصل وأقسمت الجيوش لهم وليس للجمهورية يمين الولاء [١] . هنا كان موضع الخطر أمام الزمن المقبل . الى أى مدى كان يمكن لقائد مظفر ، له سلطة غير محدودة على جنده وموارد اقليمية أن يقنع باظهار ضبط النفس والولاء المدنى ، اللذين كانا طبيعة ثانية فى الرومانى فى الازمن الأولى ؟

لقد كان ترابط هذه الأحوال – عدم قدرة المدينة الملازمة على حكم العالم ، والتدهور الخلقى فى مجلس الشيوخ والشعب الرومانى ، وسلطة الحاكم الاقليمى حديثة النشأة – هو الذى أدى فى خلال القرن التالى الى سقوط الجمهورية وخلق الامبراطورية الرومانية .

---

(١) – (ربما) كان sacramentum أو يمين الولاء العسكرى فى الأزمن القديمة ، اليمين الذى يقسم به – ويترتب على الحنث فيه عقوبة توقعها الآلهة – طرفان فى تعامل خاص وكل منهما يعلن وهو جاد أن توكيده لدعواه كان صادقا ، راجع ممسن الكتاب الأول فصل ٢ ودائرة المعارف البريطانية فى موضوع « القانون الرومانى » (الطبعة الحادية عشرة) مجلد ٢٣ الصفحات ٥٤٨ وما بعدها . واستخدام هذا اللفظ للدلالة على الفرايض المقدسة ، المسيحية و « الأسرار » الشرائية والاغريقية يوجد فى طار طليان Tertullian راجع دائرة معارف هيستنجس فى الدين والأخلاق ، عن موضوع sacraments (المسيحية ، الغربية) .

الفصل الثامن

الإمبراطورية الرومانية

١ ـ أنظمة الامبراطورية

١ ـ سقوط الجمهورية

١ ـ ان لقصة سقوط الجمهورية أهمية خارقة العادة ، من حيث الحوادث والأشخاص كليهما ولأن لدينا علما وافيا بتلك الحقبة · وهي تستهل بتربيونية طبريوس جراكس Tiberius Gracchus عام ١٣٣ ، وتختتم بقيام أوغسطس عام ١٧ ق·م بتأسيس الامبراطورية نهائيا ·

ولقد رأينا فى الفصل الاخير كيف أن بذور الثورة كانت تنبت فى الدولة الرومانية منذ اللحظة التى أصبحت فيها سيدة عالم البحر المتوسط · والمشكل الذى كان يواجهها هو ذلك الذى كان يناوىء المدنية القديمة خلال تاريخها وهو الجمع بين الحرية المدنية وتوسع الامبراطورية · وكان يمكن للرومان بقدرتهم على تكييف مبادىء الحكومة طبقا لما يطرأ على المواقف من تغير ، الكشف عن حل لو أنهم استطاعوا ادراك معنى الحكومة الذاتية داخل حدود مجتمعهم المدنى الخاص · وكان سبب فشلهم يرجع الى تدهور الحياة العامة · ولقد كانت الجمهورية الرومانية منقسمة على ذاتها وعلى ذلك ، لم تستطع الصمود ·

ومن بين فروع الدولة الثلاثة ، الموظفون ومجلس الشيوخ والمجلس الشعبى، كان الأخيران قد أظهرا دلائل الذبول وظلت سلطة الموظف فقط تحتفظ بقوتها وعندما أزيحت جميع العوائق ، وطدت نفسها فى صورة جديدة وفى قوة طاغية · ولما رأى المظفرون من القواد أن الدولة أصبحت تحت رحمتهم ، استولوا على السيادة التى وضعت هكذا فى قبضتهم ·

وفى زحمة كل التغيرات وتصاريف مصيرها ، ظلت الفكرة الأساسية فى رابطة المصالح المشتركة الرومانية فى استمرار لا ينقطع · وكان نداء روما اتياس Aeneas والامبراطورية التاريخية على السواء « السلاح والرجل » ·

وكانت السلطة Imperium ، صخرة الأساس لحكم العالم حكما استبداديا ذلك الحكم الذى قام على أنقاض الجمهورية · ولقد برزت عارية دون خجل كالمصدر الأول للسلطان والقانون · وفى ظل العرش ، حيث كان يقوم مرة مجلس الشيوخ (السناتو) والمجلس ، ظهر طيف الجندى والموظف ، الفاتم المنذر بالشؤم ·

٢ — وسنأتى بموجز قصير عن مراحل الأزمة ، المتعاقبة :

(١) بدىء بالهجوم على الأرستقراطية الحاكمة عام ١٣٣ ، عندما وضع طبريوس جراكس كزعيم للمعارضة الديمقراطية قانونا لتخصيص مزارع فى ايطاليا لزراع أحرار على حساب الأغنياء من محتلى أراضى الدولة · وما له موضع الاعتبار ، هو أنه أثار القوى الكامنة فى التربيونية كسلاح ضد الموظفين ومجلس الشيوخ معا وأنه وجد نفسه مجبرا على استخدام تلك القوى بطريقة غير دستورية · ·

وعندما حاول ان يحتفظ بالوظيفة عاما ثانيا ، قتل فى عصيان أوعز به أعداؤه السياسيون · وبعد ذلك بعشر سنوات (١٢٣ — ١٢٢) نهض بالأمر أخوه كايوس Caius بصفته موظفا أعلى (تربيون) أيضا ، على مجال واسع وبعد أن استحوذ على معاونة طبقة موظفى المالية (equites) بمنحهم امتيازات كمحصلى ضرائب من الزراع وكقضاة فى المحاكم ومعاونة جمهرة الشعب بانصبة من الحنطة والوعد بمستعمرات عبر البحار ، فانه ناهض رقابة مجلس الشيوخ على الادارة الاقليمية والمالية · وكان رد مجلس الشيوخ القيام بأعمال عنف علنية وأوشك النزاع الحزبى أن يكون حربا أهلية ·

(٢) والى الآن كان الصراع محصورا فى الميدان السياسى ، ولو أن أسلحة غير دستورية استخدمها كلا الطرفين المتنازعين · وقد تجلت التربيونية وحاة على أنها أعظم قوات الدولة منعة · ولقد نهض مجلس الشيوخ من الصراع ظافرا ولكنه كان مزعزعا · ومنذ ذلك الحين كان المصلحون لا يفترون ينطلعون الى العون العسكرى · ولقد واتتهم الفرصة عندما حدث فى سنى القرن الثانى الختامية أن روما هبت من جراء تهديد من الخارج كان من شأنه أن يجلب الثبور على وجودها ذاته · كانت قبائل جرمانية قد غزت الغال وسحقت الجيوش الرومانية فى الاقليم الجنوبى واجتاحت أسبانيا وكانت على وشك التوغل فى ايطاليا · ولقد نهض جندى قدير ، كايوس ماريوس Caius Marius — وكان يدعى عاما بعد عام لتولى القنصلية تلبية لنداء الشعب — باعادة تشكيل الجيش ، وفى انتصارين فاصلين (١٠٢ و١٠١) أنقذ الدولة · وقد عملت اصلاحاته العسكرية بالغاء فروق الرتب والثراء فى الجيش ، واحلال الخدمة الاختيارية محل تجنيد

المواطنين بايجاد جيش محترف ، على فصم الآصرة التى كانت تربط الجندى بالمجتمع المدنى ، ومنذ ذلك الحين غدا القائد الناجح ، الحكم فى السياسة الداخلية • وفى بكور القرن الأول واجهت الحكومة أزمة ثانية كانت أكثر حدة ، اذ عندما عرض كايوس جراكس بروح الأب السياسى الصادق ، انصاف مظالم الايطاليين بمنحهم حرية التصويت ، هجره ديموقراطيو المدينة[١] • وفى عامى ٩٠ و٨٩ ظفر الايطاليون بقوة السلاح بحرية التصويت • وأخذ هذا الصراع مسيره ، دون توقف الى حرب أهلية (٨٩ و٨٨) بين قائدين متنافسين هما ماريوس Marius نصير الحزب الشعبى ، ولوكيس كورنليس سلا Lucius Cornelius Sulla ، نصير مجلس الشيوخ • ان انتصار سلا جعله سيد الدولة ، وكدكتاتور استخدم مضاء السيف لاعادة مجلس الشيوخ الى سيادة لا يكاد يوجد لها ضابط (٨١) • وكانت اعادة سلا فى ذاتها ، ثورة ، فى أنها تحققت بالسلاح • وبعد أن أفنى خصومه السياسيين دون رحمة ، تولى الحكم كحاكم مطلق التصرف • ولو أنه كان يعمل لصالح النظام القديم وتخلى عن حكمه الاستبدادى عندما أنجز عمله ، فقد كان مما لا معدى عنه ، أن آخرين يترسمون خطاه حيث أراهم السبيل ويستخدمون القوة العسكرية لغايات قد لا تكون غير ذاتية بأجمعها[٢] •

٣ — (٣) وقد كشفت السنوات العشرون التى جاءت بعد اعادة سلا عن عدم قدرة مجلس الشيوخ على الاحتفاظ بالمكانة التى ظفر بها له • ولقد

---

(١) كان الايطاليون يمثلون أحسن أرومة فى الدولة الرومانية ، ولما كان عليهم أن يضطلعوا بأثقل الأعباء العسكرية ، دون مزايا مقابلة ، فان هذا أعظم الأدلة خطورة على عدم أهلية الحكومة لمعالجة مسائل الدولة • وقد بذلت محاولات عديدة من عام ١٢٥ وما بعده لانصاف مظالمهم ، ولكن دون جدوى •

(٢) ان المجمل الباهر الذى وضعه ممسن عن عمل سلا وشخصيته (الكتاب ٤ فصل ١٠) يجب قراءته ولكن فى حذر شديد • لقد أوتى سلا ، دون نزاع ، قدرة عظيمة كجندى ودبلوماسى وسياسى • وقد أظهر أيضا ذوقا أدبيا عظيما وقدم أعمال أرسططاليس فى روما وكتب مذكراته الخاصة الخ ، وكانت له موهبة فى المجانة الساخرة • ولما كان أرستقراطيا عريقا ، فان ترفعه جعله لا يعتد بالنفوذ الشخصى • وكان لا يقيم وزنا للأخلاق على الاطلاق ، وحقق القليل مما كان انشائيا • وأعظم عمل دائم قام به هو تنظيم القانون الجنائى • وأى شخص يريد أن يقيم الدليل على أن الضرورة السياسية هى مرشد عديم الجدوى ، عندما تعزل عن الأغراض المثالية ، سيجد فى الانهيار السريع لاعادة سلا لمجلس الشيوخ تأبيدا لدعواه ، يسترعى البال •

جلبت الحرب الخارجية وكانت هذه المرة قد شنت فى الشرق ضد مثرادطس Mithradates ملك بنطس فى آسيا الصغرى (٨٨ — ٦٤) الى الجبهة قائدا جديدا فى شخص بومباى Pompey (قنايس بومبيس Conaeus Pompeius) وفى عامى ٦٧ و٦٦ وكلت اليه سلطات غير عادية ، تنبىء مقدما ، فى وضوح ، عن حكم الأباطرة الاستبدادى ، الذى جاء فيما بعد وبمقتضى القوانين الجابينية Gabinian والمنيلية Manilian أصبحت له السلطة Imperium مع الأسبقية على جميع الحكام الاقليميين فى الشرق لمدة ثلاث سنين ، وادارة من المبعوثين legati يبلغ تعدادهم خمسة وعشرين ، وموارد لا حصر لها من الرجال والسفن والنقود . وبعد أن قام باعادة تنظيم الشرق ، عاد الى الحاضرة فى سنة ٦١ وهو الشخصية التى لها الأمر فى الدولة الرومانية (١) .

(٤) ويتركز تاريخ الاثنى عشر عاما التالية (٦١ — ٤٨) حول ثلاثة نفر كان من بينهم اثنان يدينان بمركزهما الى معاونة الكتائب . فمن جهة انساق بومباى ، وكان متعطشا للسلطة ولكن أجبن من أن يقتنص الجائزة التى كانت فى متناوله ، ليقوم فى النهاية بدور حامى مجلس الشيوخ والجمهورية. ومن الجهة الأخرى فان الزعيم الديمقراطى جايوس يوليوس قيصر Caius Julius Caesar — ابن عم ماريوس — الذى فى صباه نجا من الموت على يدى سلا بشق النفس — استحوذ بتحالف مؤقف مع بومباى

---

(١) كان مترادطس أعظم خصم عنيد ،وقد أعقب موته بعد الهزيمة عام ٢٦٣، اعادة تشكيل بومباى لآسيا الغربية ، الذى أشير اليه فى النص . وقد استغرق هذا الشطر الأعظم من عامين وكان له أهمية دائمة . واضيف الى اقليمى آسيا وكليكية القديمين ثلاثة أقاليم جدد ، بثونيا وسوريا وكريت . وفى فلسطين ، وضع بومباى القيود على سلطة الكاهن الأعظم اليهودى الزمنية ، وأبعد عن اختصاصه القضائى المدن الهلينية التى ازداد عددها فى عهد السلوكيين . ولقد أظهر بومباى حكمة عظيمة فى الاعتراف بالأمراء المقطعين والمدن الحرة والأقسام القبلية كوسائل للحكومة ، تحت سلطة روما . وقد ترك آسيا الغربية فى مركز يشبه مركز الهند البريطانية فى هذا العصر ولكن كان يقوم على ادارة بعضها ادارة مباشرة ، موظفون رومانيون وكان البعض الآخر فى صورة حكومات محمية . راجع دكورث Duckworth فى « الأعمال » (المقدمة : مجلد ١ ، الصفحات ١٧٧ وما يليها) لجاكسون وليك ، الذى يقابل ملك كبدوكية بنظام حيدر اباد ومملكة أرمينيا خارج النفوذ الرومانى بمملكة أفغانستان. وكانت روما معنية أشد العناية بالتسامح فى كل مختلف العقائد الدينية والعادات المحلية . وتزول الامارات المقطعة داخل الامبراطورية فى القرن الأول الميلادى .

ورجل المال الغني كراسس Crassus على قيادة عسكرية في الغال مماثلة لتلك التي سبق منحها لبومباى في الشرق[١] . وفي خلال السنوات التسع التي قام فيها بأعباء القيادة (٥٨ ـ ٤٩) فانه لم يصنع فقط السلاح الذى أوقع به الضربة القاضية على الجمهورية ولكن بفتحه الغال ومد الحدود الرومانية الى الراين ، صد لمدى قرون قوادم تيار الغزو الهمجي .

وفي هذه الحادثة ، وفي حوادث كثيرة في حياته العملية ، أظهر قيصر ، لدرجة خارقة العادة ، القدرة التي يتميز بها كثير من عظماء الناس في التاريخ بمزجه المطمح الشخصي بالمصالح القومية الحيوية . وبين هذين المتنافسين ، الذى ينظر الواحد الى الآخر في ريبة متبادلة ، ويسنان سيفيهما للمعركة ، كان يقف شخص الخطيب العظيم ماركس تليوس شيشيرون Marcus Tullius Cicero وهو محافظ حر جاهد في شدة لينقذ الدستور الجمهوري من الوقوع فريسة للطغيان العسكرى . وعلى غرار دمستينس في أثينا في القرن الرابع ، قام بدور آخر نصير لدولة - مدينة حرة . وكانت سياسته سياسة اصلاح مزدوج : أن يوحد مجلس الشيوخ والمرفق المالى (equites) لدعم القانون والنظام ، ضد الفوضى ، وتوسيع أساس الدولة باشراك الطبقات الوسطى في البلدان الايطالية ، مع حكومة الدولة الرومانية.[٢] ولكن التصلب الضيق في نبلاء مجلس الشيوخ الذين لما كانوا لم يتعلموا شيئا ولم ينسوا شيئا في أثناء اضطراب دام خمسين عاما ونيف فقد ظلوا متمسكين في استيئاس بآخر بقية من احتكارهم للسلطة وكذلك المطمح الشخصي الذى كان يساور القائدين العسكريين العظيمين ، جعلا كل جهود شيشرون ليؤلف بين الشيوخ والمرفق المالى ، والرومان والايطاليين ، دفاعا عن مبادىء الدستور التاريخية ، تذهب هباء . وحتى هو ولو أنه كان من الأحرار بمولده ، فقد أجبر في النهاية على أن ينادى باقامة « منظم للجمهورية » واحد ، يمكنه - وكان يرجو عبثا - أن يحكم في تعاون

---

(١) كان قيصر (الذى يرجح أن مولده كان عام ١٠٢) متأخرا في الصعود الى المرتبة الأمامية في السياسة الرومانية . والى أن تولى القنصلية عام ٥٩ ، لم تكن قدراته معروفة ولو أنه كان قد أظهر استقلالا في معارضة سلا ، في شبابه وقدرة ظاهرة كجندى وادارى عندما كان يقوم بوظيفة بريتور في اسبانيا عام ٦١ . وعن الغال الرومانية ، راجع مايلى § ٥١ . ومن غير المستطاع الحكم الى أى مدى ، وضع قيصر خطة حكمه الاستبدادى في السنوات السابقة لعام ٤٩ .

(٢) لخصت هذه السياسة المزدوجة في كلمتى التنبيه Concordia ordinum (« تناسق المراتب ») و Consensus Italiae (« رأى ايطاليا المجمع ») .

ولاء مجلس الشيوخ بالقانون وليس بالسيف · ولو كانت الجمهورية جديرة بالانقاذ لقام شيشرون بانقاذها ويصدق كذلك أنه لو أن شيشرون كان قادرا على انقاذها ، لكان قد أدرك أن المهمة مستحيلة · وتفضيل شيشرون الموت في النهاية على أن ينكر المثل الأعلى الجمهورى ، يفسر الى حد بعيد ما استحوذ عليه من احترام الأزمن اللاحقة · وأما ما خلا ذلك ، فان الغرور وعدم الشجاعة أعمياه عن حقائق الموقف الذى جهد فى التحكم فيه [١] ·

(٥) وبهذا نجيء الى الفصل الأخير من الفاجعة ، عندما عبر قيصر فى ربيع عام ٤٩ على رأس جيشه « الروبيكون » Rubicon ، الجدول الصغير الذى كان الحد الفاصل بين قيادته العسكرية وايطاليا · ولقد دهش الجميع . الذين كانوا يتطلعون وفرائصهم ترتعد لما سيقع على يده من اقتصاص لمذبحة سلا للديمقراطيين حين رأوا تقدمه المظفر يتميز بالاعتدال والرحمة اللذين كسب بهما المؤازرة العامة فى روما وايطاليا ، وطالعت السنة التالية (٤٨) بومباى وقد سحق فى فارساليا Pharsalia · لقد كان فوز العبقرية على القدرة · ولقد صمد الجمهوريون فى الغرب طوال أعوام ثلاثة ولكن فى عام ٤٦ ، سقط كاتو رجل الحزب المثالى الذى لا يقبل مساومة فى صلح ، على سيفه فى أوطيقا فى أفريقيا · وفى سنة ٤٥ ، تركت خاتمة الانتصارات فى موندا Munda باسبانيا قيصر سيدا للعالم الرومانى دون منازع [٢] .

---

(١) خطابات شيشرون (مختارات ترجمها ترجمة رائعة جينس Jeans — وقام بنشرها ماكميلان) تقدم شرحا ذا قيمة عظيمة عن هذه الفترة · راجع أيضا المقدمات التاريخية فى طبعة تيرل Tyrrell لرسائل شيشرون · وعن شيشرون كرجل أدب راجع ما يلى § ١٩ ·

(٢) كان كاتو محافظا صارما ، صاغ سياسته وفقا لسياسة سالفه رقيب بواكير القرن الثانى · وقامت دعوته التى لا تقبل تصالحا ، لتضييق سياسة مجلس الشيوخ تظاهرها أمانته الشخصية عقبة خطيرة أمام سياسة شيشرون المتحررة · وطبع كاتو الخلقى السامق ، ومثاليته الجمهورية ، وما وقع من ازهاق روحه بنفسه عندما تحقق أنه لا أمل فى مزيد من الكفاح ، كل ذلك جعله موضع تجلة الحقب اللاحقة · ولهذا كتب لوكان Lucan فى عهد الامبراطورية الباكرة هذا البيت ذائع الصيت ·

"Victrix Causa diis placuit, sed victa Catoni" (i, 185)

(ان الدعوة الظافرة كسبت رضى الآلهة

ولكن المهزومة كسبت رضى كاتو)

واختيار دانتى لكاتو ، كانموذج لفضيلة الوثنية العتيقة ، ليكون حارس الشاطىء الذى يقع أسفل جبل المطهر Purg, Canto i كان مرجعه صورة فرجيل لكاتو وهو يقضى بالعدل للصالحين من الموتى (Aen., VIII, 670, "his dantem jura Catonem")

ب - يوليوس قيصر

٤ - لقد عزز قيصر سيادته بمظهر له صفة قانونية ، وذلك أنه ركز فى شخصه طائفة من الوظائف الجمهورية مثل القنصلية والتربيونية . ولقد تقررت نهائيا عام ٤٥ بمنحه الدكتاتورية مدى الحياة . ان احياء وظيفة بطل العمل بهـا منذ زمن طويل ، فيما عدا حالة سـلا ، وكذلك اتخـاذه لقب امبراطور Imperator بين مرة أخرى كيف كانت السلطة Imperium كما فى أيام الملكية السالفة ، المنبع الأوحد للسلطان فى الدولة . وكما أن الملكية تحولت الى جمهورية بالتحديد الثنائى للاشتراك فى الحكم (شريكان قنصليان بدلا من ملك واحد) وبتحديد الزمن (الانتخاب لمدة سنة) فقد نجم الآن عن الغاء هذه القيود التحول من جمهورية الى ملكية . لقد تحققت ثورة ، على الطراز الرومانى الحق ، دون الغاء الأوضاع الدسـتورية الغاء تاما . وبفضل هذه السلطات وغيرها ، عين قيصر موظفين وحكاما اقليميين ووسع عدد الوظائف التنفيذية وسيطر فى تحكم شامل على مسائل الحرب والسلم والشئون الخارجية وادارة الامبراطورية حتى أصبح الانتخاب الشعبى مجرد صورة للتصديق على من يعينهم الدكتاتور . وقد زيد عدد أعضـاء مجلس الشـيوخ الى ٩٠٠ وكان كثير منهـم من الأقاليم لأن قيصر أنشـأ السياسة الامبراطورية لرفع مستوى سكان الأقاليم ليكونوا متسـاوين مع الرومان . ولقـد فتح مجال الوظائف العاليـة فى مجتمعات ما وراء البحار للمعتقين . وفى الواقع ، أصبح مجلس الشيوخ أداة لتسـجيل مراسيمه . وفى التشريع ، وضع مجموعة هائلة من الخطط وكان لكثير منها مجال واسع المدى وتشمل اصلاحات اقتصادية وزراعية وتنظيم دساتير البلدان تنظيمـا منسجما وتوسيع حق الانتخاب . وعلى سبيل المثال ، كانت قادس فى اسبانيا أول المدن الاقليمية التى نالت هذا الامتياز ، واعادة تنظيم النظام المالى [1].

---

(١) لا يـزال باقيـا قسـم عظـيم من قانـون يوليـوس للبـلدان Lex Julia municipalis الذى يتعلق بالبلدان الايطاليـة وأجزاء من قانون ربريوس lex Rubria الذى يتعلق بالتنظيم الحضرى فى الغـال على الجـانب الرومانى من الألب Cisalpine Gaul وهذه القوانين تفرق بين ولاية قضاء البريتور الرومانى وقضاء الموظفين المحليين وتنظم شكل حكومة البـلدان ، الذى يقوم به الموظفون ومجلس الشيوخ والمجالس ، والذى نما فى الأزمن السابقة . وقد منح قيصر الحقوق المدنية الكاملة للغال على الجانب الرومانى من الألب وأدمجها فى ايطاليا ، أوغسطس (عندما كان اكتاويا) عام ٤٢ وقد ألغى قيصر نظام ضرائب العشور الردىء ، فى صقلية وآسيا وعالج بقـدرة عظيمة الموقف الاقتصادى الذى نجم عن الحروب الأهلية . وفى روما وضـع قيودا على أنصبة الحنطة والغى المنتديات الشعبية الفاسدة . وقد كان يعتزم وضع مدونة للقانون ولكن لم يواته التنفيذ .

ولقد وضعت خطط القيام بالأعمال العامة العظيمة ونفذت في ايطاليا والأقاليم وأسست المستعمرات عبر البحار مثل كورنث وموقع قرطاجنة ، ولا يزال التقويم الذى أصلحه قيصر مقبولا ، مع اليسير من التعديلات ، لدى العالم المتمدين • وكانت السرعة والنشاط اللذان وضع فيهما تصميم اعادة بناء تاريخي ، وتنفيذه يدعوان الى الدهشة كما كانت تدعو اليه حركاته فى الميدان • وقد كشف هجل Hegel بحق فى قيصر « المثال لتكييف الوسائط بالغايات عند الرومان »[١] • وفى الأعوام الخمسة الأخيرة من حياته ، لم ينفق لا ثمانية عشر شهرا فى روما وتمثل جلائل أعماله مجرد المراحل الأساسية ، فى مشروع شامل لحكومة امبراطورية •

ومع هذا ، فقد حددت الخطوط التى سار عليها حكم العالم الرومانى مدى قرون ــ الحكم الشخصى للملك ، عن طريق ادارة من الموظفين المعينين شخصيا والسيطرة الفعالة على الكتائب والادارة الاقليمية وتوسيع حقوق المواطن فى أرجاء الامبراطورية ، والمحافظة على السلام الداخلى وتعادل القانون ، وتحديد التخوم والدفاع عنها ضد المغيرين غير المتمدينين • وفى جميع هذه الوجوه ، كان أوغسطس خليفته يقيم البناء على الأسس التى وضعها يوليوس قيصر فى مثل تلك السرعة ولكن فى بصيرة صادقة •

(٥) وآخر مسألة جاء ذكرها ، مسألة حماية الحدود كانت قد أهملت اضطرارا فى خلال حقبة الثورة الأهلية • ولقد تحدثنا عن الخطر الذى كان يهدد ايطاليا فى خاتمة القرن الثانى عن طريق تحرك العصابات الهمجية صوب الغرب من مواطنهم فى الشمال والشرق عبر الراين والدانوب • وفي ذلك الحين أنقذ ماريوس روما بجيشه الذى أدخل عليه الاصلاح • وبعد ذلك بنصف قرن أمن فتح قيصر للغال تخمها الشمالى بصفة دائمة [٢].

---

(١) فلسفة التاريخ الجزء الثالث ، القسم الثانى •

(٢) كان قيصر فقط فى الوقت المناسب • وفى أول حملة له فى الغال (٥٨) ، كان عليه أن يواجه غزوتين ، غزوة هالوطى Helvetii بمحاذاة الرون ، وغزوة الألمان بقيادة أريوسطس Ariovistus عبر خانق بورغاندى بين الفوج والجورا • وكان أريوسطس على وشك اقامة دولة تيتونية قوية فى الغال • ولو أن النصر لم يحالف قيصر ، لاجتاحت القبائل التيتونية الامبراطورية ومعها بناء المدنية الاغريقية الرومانية بأجمعه • ولقد أرجأ فتح قيصر ، الكارثة الى أن تأصلت جذور المدنية ومعها العقيدة المسيحية بين الشعوب المغيرة • وقد ألحقت المنطقة الجديدة أولا باقليم الغال النربونى القديم وقد أنشأ أوغسطس ثلاثة أقاليم غالية جدا •

وفي أفريقيا أضيفت قورينا (٧٤) ونوميديا (٤٦) الى قائمة الأقاليم . ولقد أتى الخطر الداهم المباشر من الشرق . وكان بومباى (٦٧ ـ ٦٢) قد أعاد وضع نظام آسيا الغربية السياسي عند ختام الحرب المترادطية [١] . ولقد دالت الأسرة السليوكية وآلت ممتلكاتها الغربية الى روما بينما سار اقليم سوريا الجديد مع الامبراطورية البرثية في وادى الفرات . وفى عام ٥٤ ، شتت البرثيون شمل جيش رومانى فى « قرها » Carrhae ودعت دواعى الشرف والأمان على السواء ، للقيام بالعمل العسكرى الذى كان قد أخر أمدا استطال أكثر مما يجب . وهنا كما فى الغال ، كانت المسألة حقيقية وتتطلب السرعة . ان قيصر لم يصطنع الحروب ، للحروب فى ذاتها ، ففى الشرق ، كما فى الغرب ، كان وجود الدولة الرومانية محفوفا بالخطر . ولم يضع قيصر وقتا فى مجابهة الأمر . وفى ربيع عام ٤٤ كانت القوات العسكرية الشرقية تنتظر قائدها ، ولكن فى ١٥ مارث (Ides مارث) ، عشية رحيله من روما هاجمه متآمرون فى مقر مجلس الشيوخ وهلك عند أسفل تمثال بومباى .

٦ ـ لقد وصف مقتل قيصر بحق على أنه أعظم غلطة فى التاريخ لأنه لم يأت بشىء سوى ازاحة أعظم رومانى عن المسرح ، وبعد ثلاثة عشر عاما من الحرب الأهلية ـ حشرجة موت الجمهورية ـ أعاد وريثه الذى تبنـاه تكوين الامبراطورية . ولم تكن ظروف المسألة تسمح باجراء مغاير . وفى نظر العصور اللاحقة التى تغذت على تقاليد الامبراطورية الرومانية والتى كانت تعتبر تلك الامبراطورية مقدسة ـ ليس فقط كمنبع القانون والمدنية ـ ولكن كأداة دبرتها العناية الالهية لنشر العقيدة المسيحية ، كان يظهر قتل قيصر كأحلك جريمة . وفى أعمق قرار فى جحيم دانتى ، وضع أكبر مذنبى التاريخ الثلاثة ، يهوذا الاسخريوطى الخائن لمؤسس الكنيسة العامة وبروطوس وكاسيوس ، خائنا الامبراطورية العامة . ولم يكن جريمة ولكن كان خطأ شنيعا ، لأنه ـ كمقاومة دمستينس العنيفة لفيليب المقدونى ـ كان نتاج مثالية فطنة . ولقد لاحظنا مرارا وتكرارا فى هذه الصفحات كم كان بعيد الغور نفع دولة ـ المدينة للمدنية الاغريقية والرومانية بما كان يسودها من جو المناقشة الحرة والعدالة المدنية . وليس من العجب أن كان خلف الرجال الذين صاغوا ، تحت حمى دولة ـ المدينة ، الامبراطورية الرومانية ببناها الرائع من القانون والحكومة ، يغارون على الأنظمة التى بعثت العظمة فى روما والرومان .

---

(١) راجع عاليه § ٣ . علاوة على الأقاليم التى ذكرت ، ألحق أوغسطس كريت باقليم أفريقيا ، أما قبرص (وقد أدمجت عام ٥٨) فقد ألحقت بكليكية ولكن أوغسطس جعلها اقليما منفصلا .

اى روابط العرفان بالجميل الشخصى أو ما عجم من ترفق قيصر أو اعجاب بعبقريته ، ماكان ذلك كله بقادر على حطم ذلك الاخلاص الشديد للجمهورية التى أوقع عليها الضربة القاضية [١] . ولا يمكننا ان نتوقع أن آخر جمهوريين فى روما قد أدركوا ما عجز شيشرون عن ادراكه بأن مصير دولة ـ المدينة أصبح قضاء مقضيا . ولقد انتقموا من الضربة بوسائل كانت مدونة القانون الخلقى عند اليونان وروما ، على السواء ، تبررها على أنها شريفة عندما تستخدم ضد طاغية وذبحوا قيصر ليس لدوافع انتقام شخصى أو مطمح ولكن من أجل الحرية المدنية وباسم روما .

جـ ـ أوغسطس

٧ ـ فى عام ٣١ ، أصبح الشاب أوكتاويان Octavian حفيد أخت قيصر ووريثه بالتبنى ، بانتصاره فى اقطيوم على أنطونى ، « سيد العالم الأوحد » [٢] كما جاء فى عبارة شكسبير . لقد كان أوكتاويان الذى يعرفه التاريخ جيدا بلقب أوغسطس هو الذى وصل بالنظام الامبراطورى بتفصيلاته ، الى درجة الكمال ، ذلك النظام الذى حكم بموجبه العالم قرابة ثلاثمائة عام . والمرسوم الذى أعلن دافع وخصيصة هذا العمل الجليل ، لا يزال موجودا

---

(١) لقد كان تسامح قيصر نحو مواطنيه مشهورا . لقد امتنع عن ممارسة عقوبة النبذ من المجتمع والمصادرة وفى توزيع أراض على قدامى جنوده ، احترم فى عناية ، حقوق المالكين الموجودين . ان اجابته على ما افصح به شيشرون من عرفان بالجميل لتسامحه نحو خصومه السياسيين الذين وقعوا تحت رحمته عند استسلام قرفنيم Corfinium أثرت فى ماكولى تأثيرا عميقا حتى نعتها بأنها « ألطف جملة كتبت على الاطلاق » وهى كما يأتى « أحس بالظفر والبهجة بأن ما قمت به نال استحسانكم وانى لا انزعج عندما يطرق سمعى القول ان أولئك الذين صرفتهم أحياء وأحرارا سيعودون الى حمل السلاح ضدى ، لأنه لا يوجد شىء أصبو اليه أكثر من أكون لنفسى وهم كأنفسهم » (راجع ترفليان « حياة وخطابات ماكولى » فصل ١٦) ولكن قيصر لم يكن شخصية محبوبة ، وعلى ما وصل اليه علمنا ، لم يكن له اصدقاء حقيقيون . ويشهد شيشرون الذى كان يكرهه ولا يثق به على قوة شخصيته . وفى هاتين الناحيتين يرد الى ذاكرتنا مارلبوره ونابليون لا الاسكندر .

(٢) « أنطونى وكليوباترة » فصل ٥ منظر ٢ كان أبو اكتاويان ، جايوس اكتاويان ايطاليا من الطبقة الوسطى وأصبح حاكم مقدونيا وتزوج من ابنة أخت قيصر . وولد ابنه عام ٦٣ وهو العام الذى تولى فيه شيشرون القنصلية فكان عمره تسعة عشر عاما فى الوقت الذى قتل فيه قيصر وواحدا وثلاثين عاما عندما انتصر فى موقعة اكتيوم .

وهو منقوش على حجر [١] وهو يستهل بجملة تقع فى آذاننا وقعا غريبا عندما نمعن التفكير فى طبيعة عمله الحقيقية : « لقد نقلت الجمهورية من سلطتى الشخصية الى رقابة مجلسى الشيوخ والشعب الرومانى » .

ماذا كان مرمى هذه الكلمات ؟ كان معناها اذا كنا لنقتبس من كاتب محدث أن أوغسطس قد تعلم درسه عند قاعدة تمثال بومباى . وما كانت روح يوليوس المتعالية ـ ويمكننا أن نستذكر الصورة التى وضعها دانتى له بين عظماء العصور القديمة « قيصر بعينى نسر » ـ ليراودها التفكير فى التصالح مع النزعة الجمهورية باتخاذ مظهر المساواة بين المواطنين . وأوغسطس وهو أستاذ صنعة السياسة الذى لا سبيل للعاطفة اليه ، حجب حكما استبداديا مطلقا بقناع من المنهج الدستورى . ولما كان وليد روما القويم فى احترامه للصور السطحية والسوابق المقررة ، فقد عقد النية على الاحتفاظ بوجود أنظمة الماضى العزيزة عليهم . ولقد لقب يوليوس بدكتاتور وهو تعبير كان يسىء الى الشعور الجمهورى لتداعى معناه بمعنى القيادة العسكرية وبامبراطور وهو اللقب الذى كان يحيى به الجنود قائدهم المظفر ، ويرضى أوغسطس بأن يكون مجرد زعيم princeps أى الرجل الأول بين زملائه الشيوخ [٢] . وفى مسلكه نحو أشراف الرومان أسياد العالم الذين لا يملكون من الأمر شيئا ، كان قيامه بدوره رائعا . لقد كانت حياته بسيطة وصارمة ، مجردة من أى أثر لآداب السلوك ورسميات البلاط . وقد راعى أن سلطاته تمنح على الطريقة الجمهورية القديمة بتصويت مجلس الشيوخ (السناتو) أو المجلس الشعبى . وقد كان مرجع حكمه الاستبدادى الى أنه جمع فى شخصه الوظيفتين الجمهوريتين : التريبيونية وهى أعلاهما رتبة وكانت أساس سلطانه فى روما ، والسلطة Imperium القنصلية مع تقدمه على جميع حامليها وهو ما ضمن له السيطرة على الجيش والأقاليم . وكانت هاتان السلطتان ، على التحقيق ، هما اللتان جلب التوسع فيهما انحلال الجمهورية فى العصر السابق . ومنذ ذلك الحين كان الجيش يقسم يمين الولاء للزعيم princeps وحده وكحبر أعظم ، كان سيد أداة دين الدولة الذى كان لا يزال عاملا هاما فى القانون والسياسة . وكانت هذه الروح المحافظة عينها ، تلك التى كان يظهرها أوغسطس لتحديد مركزه الشخصى ، جلية للعيان فى

---

(١) أثر أنقرة التذكارى من أنقرة فى آسيا الصغرى . وقد اقيمت نسخ منه فى مراكز مختلفة فى العالم الرومانى . ولقد حدد أوغسطس مكانته كرئيس للدولة عام ٢٧ ومرة أخرى عام ٢٣ . وقد عولج فى هذا القسم مجموعتا الخطط معا .

(٢) حتى زمن ديوقلطيان يكون لقب زعيم princeps خاصا بالامبراطور والزعامة principate بالامبراطورية .

اعادته أوضاع نظام الحكومة . وكانت طبقة عمال المدينة ، فى الواقع ، قد جردت عن سلطاتها التشريعية وتدهورت مجالس الشعب سراعا الى مهزلة [١] . ومن الجهة الأخرى ، كان يعامل مجلس الشيوخ بمراعاة مدروسة . وقد كان المجلس يمنح السلطة imperium الحاكم الذى يكون قد ظفر بالتصويت من بين قائمة أسماء المرشحين للوظيفة ويوافق على المراسيم التى كانت لها قوة القانون . وكان للزعماء princeps ومجلس الشيوخ مرتبة متعادلة كتربيونيين أعليين . وكان كل منهما يشرف على خزينة منفصلة . وكانت حكومة الامبراطورية مجزأة بين السلطتين . ولكن مما كان له مغزى ان الأقاليم التى وكلت الى مجلس الشيوخ ، كانت الأقسام المسالمة التى تقع فى الداخل . اما تلك التى تقع على الحدود حيث كانت تتركز الكتائب ، فكان الامبراطور يحتفظ بها بين يديه . وكانت مصر ، على الأخص ، بالنسبة الى اهميتها من حيث الخطط العسكرية وكونها مخزن الغلال الرئيسى لروما ، يتولى ادارتها عن طريق رئيس perfect له رتبة الفرسان equestrian وأقل مركزا من حكام أقاليم الامبراطورية العادية . وكان يطلق على هؤلاء لقب Legates أو معاونين عسكريين ، بينما احتفظ حكام مجلس الشيوخ باللقب الجمهورى بروقنصل (نائب قنصل) proconsuls [٢]

ومن الواضح أن هذا الظل من الرقابة المزدوجة ، كان تجربة مصطنعة دبر أمرها لارضاء الأرستقراطية الرومانية القديمة . وبصفة موقوتة ، ادت الغرض منها ، ولكن فى عهد خليفة أوغسطس اظهر خنوع مجلس الشيوخ أنه على الرغم من الشكول السطحية ، كانت السلطة الحقيقية تنحصر فى الامبراطور ، وتنحصر فيه وحده [٣] .

---

(١) يوجد مثالان مدونان ، فقط ، للتشريع الشعبى بعد طبريوس .

(٢) كان المعاونون العسكريون يتولون الوظيفة مدة ثلاثة أعوام وغالبا ما تكون اطول من ذلك . أما نواب القناصل الذين لم تكن لهم قيادة عسكرية ، فلسنة واحدة . وعلاوة على هذا ، كان الامبراطور يؤثر تعيين نواب القناصل عن طريق رقابته على الانتخابات القنصلية ودخول مجلس الشيوخ .

(٣) لقد رأى أوغسطس هذا فى جلاء كما يتضح من آخر أقواله المدونة : « ماذا تظنون فى المسلاة يا أصدقائى ؟ هل اديت دورى فيها خير تادية ؟ » . وفى خلال حكم دام أربعين عاما ونيف ، لم ينفد صبره الذى لا نهاية له وتحفظه العميق وبصره النافذ بالرجال والأمور . وكانت كل افعاله نتاج تفكير سابق ، واع . وتتداول القصة بانه لم يتناقش قط فى شئون الدولة ، حتى مع الامبراطور لويا Livia ، دون ان يضع تذكرات ، مقدما . حقا قد يكون أوغسطس أعظم سياسى فى التاريخ .

٨ ـ كان هذا مبدئيا ، العهد الذى وطد دعائمه أوغسطس فى روما . وإذا أفسحنا مجال النظر نجد ثلاثة مظاهر للعمل الذى اضطلع به فى خلال حكمه الطويل (٣١ ق.م ـ ١٤ ب.م) ، جديرة بملاحظة خاصة . أولا فيما يختص بادارة ايطاليا والأقاليم ، جهد أوغسطس فى حماسة لتحقيق الأمل الذى كان يصبو اليه شيشرون ، على غير طائل ، لادماج الايطاليين ليكونوا جميعا على قدم المساواة فى تكوين الدولة الرومانية . ولقد شجعوا على أن يعتبروا ماضى روما العظيم ماضيهم وأن ينضووا فى كبرياء من حب الوطن ، فى مهمة اعادة بناء الامبراطورية . ومن بين أهل الحضر وأهل ريف ايطاليا ، لم يجد أوغسطس فقط الدم الجديد الذى يجب أن يعيد نشاط الخدمة العامة ، ولكن وجد رجالا أوتوا عبقرية أدبية أمثال فرجل وهوريس ولوى وأوفيد ، الذين أمكنهم أن يشيدوا بمجد روما وقيصر فى آثار تذكارية خالدة ، شعرا ونثرا . وقد نمى أوغسطس تقدم البلدان والزراعة والأعمال العامة فى أرجاء شبه الجزيرة . واتخذت الخطوات الأولى فى عملية حطم الحواجز التى كانت تفصل روما عن ايطاليا وايطاليا عن الأقاليم . وقد وضع أحصاء شامل امبراطورى « احصاء الأراضى وقيمتها وأصحابها Domesday Inquest عن كل الجمهورية ، وكانت تعتمد السجلات التى اختزنت فى محفوظات البلدة كأساس نظام عادل للضرائب . « وفى تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة » [١] . وكانت الأقاليم ، لأول مرة ، تدار شئونها كمصالح فى دولة واحدة . وقد وضعت الرقابة على سلطة الحكام ووضع حد لظلم أهل الأقاليم بسحب الامتياز الخطير فى طلب امدادات كلما شاءت الارادة وبتعيين آدارى مالى مستقل مسئول شخصيا أمام الزعيم princeps وبايجاد أداة فعالة لتقديم الالتماس والاستئناف لروما . ولو أن عبء الضريبة كان قد خفف فان الدخل ازداد . وقد ألغيت قيود التجارة داخل الامبراطورية فى كل مكان ووسعت الحكومة المحلية وأعيد تنظيمها على أساس منتظم وأنشئت المجالس الاقليمية وخولت سلطات واسعة . وعندما قام شعب افسوس بهياج بمناسبة زيارة القديس بولس ، أمرهم كاتم سر المدينة بأن يتذكروا أنه كان يوجد « حكام لآسيا » Asiarches . أى مستشارون اقليميون لآسيا يمكنهم أن يتقدموا اليهم

---

(١) لوقا ٢ ، ١ (النسخة المعدلة) كان يوليوس قد وضع الخطوط للتعداد والاحصاء الاقليمى . واستغرق انجاز المهمة كلها خمسين عاما ولخصت نتائجها فى « أحصائية الامبراطورية » ، وهى سجل يبين موارد الدولة وميزانيتها وورثة أوغسطس لطبريوس (راجع طاقيطس .An., i, II) ولقد واصل أباطرة القرن الثانى وديوقلطيان العمل تباعا ليطابق آخر تاريخ .

بشكاياتهم (١) . واذا كان أوغسطوس أقل سماحا من يوليوس فى منح صفة المواطن ، فقد كانت الرغبة فى بعث حب الوطن المدنى فى روما وايطاليا هى التى جعلته ضنينا بتوسيع حرية التصويت لتشمل سكان الأقاليم . (٢) وزيادة على هذا فقد وضع إسس الخدمة المدنية الامبراطورية الدائمة فكان الموظفون يعينون فى مبدأ الأمر منطبقة الفرسان (equites) ، ومن الايطاليين، وبعد ذلك فى درجة تضطرد ازديادا من صفوف الرجال المحررين (العبيد المعتقين) . وقد تحولت ادارة الامبراطورية على التدرج من أيدى الأرستقراطية الرومانية ، لا الى أيدى الايطاليين وحسب ، ولكن الى سكان الأقاليم من ذوى الذكاء والمعرفة وخاصة الرجال الذين يرجعون الى أصل اغريقى أو اغريقى شرقى . وعلى هذا كان المجال مفتوحا لحياة عملية مزدهرة بالآمال ، امام الجميع وضمن خلق بيروقراطية ماهرة الاستمرار لحكومة اقليمية . ثانيا ، جهد أوغسطس بالقدرة الشخصية والتشريع العام فى أن يضع حدا لفيض الانحلال فى الدين والأخلاق عند الرومان . ولقد شجع الشعراء على مناصرة القيم القديمة ، فى البساطة الصارمة وعلى الاشادة بأولئك الكرام الذين كان ورعهم وفضيلتهم المدنية ، مجد الجمهورية الباكرة . ولقد أقيمت المعابد وأعيدت الفرائض التاريخية . وكانت توقع العقوبات الشديدة عن الذنوب الخلقية ووضعت القوانين التى تقاوم العزوبة . وذهبت جهود الامبراطور عبثا لأن الأخلاق لا يمكن اصلاحها بقانون وأبعد تدهور الطبقات الأكثر ثراء وذيوع الهلينية ، العودة الى القيم البسيطة التى سادت فى عصر ولى . (٣) والاستثناء الوحيد فى موجة الفشل الذى منيت به هذه السياسة ، كان عبادة الامبراطور نفسه . ولم تساور أوغسطس أية خدعة فى هذه المسألة . وبينما كان يصرح بتأدية أنواع التكريم الالهى ليوليوس ، فقد منع عبادته الخاصة ، فى ايطاليا ولكنها ذاعت كأنها النيران الجامحة ، فى الأقاليم وتطورت قبل مضى زمن طويل حتى غدت الدين الرسمى للدولة العالمية . ولم يكن يوجد شىء فى مراسه ينجم عنه انتهاك للشعور الرومانى لأن الدين فى روما كان على الدوام فى معظمه ، سياسيا وكان يمكن أن يوضع رجل السياسة فى قائمة القديسين دون اخلال عنيف بالاحترام الذاتى . أما فيما يتعلق بامبراطور على قيد الحياة ، فان العبادة كانت توجه الى الهه الحارس ،

(١) الأعمال ١٩ : ١٨ .

(٢) فى عام ٧٠ ق٠م كان عدد المواطنين الرومان ٤٥٠ر٠٠٠ وفى عام ٢٨ ق٠م (أول تعداد لأوغسطس) بلغ ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ وفى عام ١٣ م . (التعداد الثانى) وصل الى ٥ر٠٠٠ر٠٠٠ .

(٣) عن تشريع أوغسطس الاجتماعى والدينى راجع بلهم Pelham « مقالات فى التاريخ الرومانى Essays in Roman History _ سياسة أوغسطس الداخلية » .

والقيام بالعبادة بعد الموت ، لم يكن غير التعبير الطبيعى عن Genius · عرفان بالجميل ، وورع · وكانت المجالس الاقليمية التى اشير اليها آنفا ترتبط ارتباطا وثيقا بهذه الخدمة الدينية « للاله الحارس لروما وأوغسطس» ، وهى التى أصبحت فى خلال القرن الأول الميلادى ، الرمز الخارجى لوحدة الامبراطورية السياسية [(١)] · وأخيرا أتم أوغسطس العمل الذى استهله يوليوس بتحديد تخوم الامبراطورية · ولقد كانت الطبيعة هى التى أقامتها ففى الشرق ، الفرات وفى الغرب ، الأطلنطى وفى الجنوب ، صحارى أفريقيا وبلاد العرب وفى الشمال ، الراين والدانوب من القناة الى البحر الأسود · ولقد تألفت الحرب بالسياسة للمحافظة على سوريا من الفارثيين وعادت البنود التى فقدت فى قرها Carrhae الى روما ظافرة · وكان أعظم تهديد يرابط على الحدود الشمالية ، وهنا كانت القبائل التيوتينية تترامى أفواجها دون انقطاع على المواقع المحصنة حديثا ، على الدانوب والراين · وفى حملة بعد حملة جهد قواد أوغسطس فى كبح الألمان الذين كانوا يسكنون بين الراين والألب · ولقد جعلت هزيمة وارس Varus - فى سنة ٩ م · الامبراطور يعقد النية بصفة نهائية على الاقلاع عن سياسة التقدم ، وتكدست على محاذاة الحدود الطبيعية الكتائب ، ثمانية على الراين وثمانية على الدانوب وثمانية فى سوريا ، بينما كان يقوم الأسطول الرومانى بالحراسة على مياه البحر المتوسط [(٢)] وبهذا حفظ السلام الرومانى Pax Romana ولقد ظل مقيما طوال أربعة قرون يقطعه فقط ، بين حين وآخر ، ما كان يحدث عند موت امبراطور ، من سير قواد جيوش الحدود صوب روما وتقاتلهم من أجل العرش الامبراطورى ·

٢ - الامبراطورية فى القرون الثلاثة الأوائل [(٣)]

كان العالم الرومانى يحكم طبقا لمبادىء أوغسطس الى أن اعتلى العرش ديوقلطيان عام ٢٨٤ ولأول مرة وللمرة الفريدة فى التاريخ ، اندمج النوع الانسانى المتمدين فى دولة واحدة وكانت دولة استبدادية عسكرية ·

---

(١) لم يكن يترتب على عبادة الامبراطور أية عقيدة لاهوتية · ولقد تقبل فرجل وهوريس Horace فى يسر تأليه يوليوس · ولم يخامر الأباطرة أنفسهم تصورات كاذبة · وعندما كان واسفاسيان Vespasian ينازع الموت سأله أصدقاؤه عن حاله فأجاب « أخشى أنى أتحول الى اله » (Vae, puto deus fio)

(٢) هذا يمثل التوزيع فى عهد طبريوس · وبلغ مجموع القوة زهاء ٣٢٠٠٠٠ يضم خمسا وعشرين كتيبة ·

(٣) من هذا الموضع فصاعدا ، تشير جميع التواريخ الى العهد الميلادى الا حيث يذكر خلاف ذلك ·

وليس من شأننا ان نتقصى اثر توارى الأقنعة على التدرج ، تلك الأقنعة التى كان مؤسسها يخفى بها حقيقة حكمه الاستبدادى الثابتة وكيف أن المجلس الشعبى ثم الموظفين المدنيين وأخيرا مجلس الشيوخ بطل عملهم أو حيث قدر لهم بقاء ، احتفظوا بقيمة محلية شرفية وحسب [1] . فعلى سبيل المثال ، كانت الدولة لا تزال تعرف رسميا « بالجمهورية » حتى خاتمة القرن الثالث . ولقد سبق أن تحدثنا عن أساس سلطة الامبراطور وكان أهم عامل مزعج فى النظام ، مسألة ولاية العرش . وما كان يجرى عليه الأمر فعلا ، هو أن الأمير الذى يتولى الحكم ، كان فى الكثير الغالب يعين ابنا أو قريبا من الذكور خلفا له بأن يعمل على منحه السلطة imperium وولاية «التربيونية» والعرف الرومانى فى التبنى كان يعمل به فى كثير من الأحيان وخاصة فى القرن الثانى ، ولم تكن هذه الاحتياطات مجدية فى منع ما كان يحدث بين حين وآخر ، من مشاحنات كما وقع عند موت نيرون عام ٦٦ وكما حدث مرارا عديدة فى القرن الثالث عندما كان يطالب قائد واتاه النجاح ، يظاهره احد جيوش الحدود أو حرس « التربيونية » ، بالعرش الخاوى . ان الامبراطورية ، كالملكية القديمة ، لم تكن وراثية ولكن انتخابية . والنظرية القائلة ان أى مواطن رومانى كان أهلا للولاية ، ظلت قائمة طوال تاريخها . وهذا يفسر السبب ، كما سيتضح فى فصل قادم ، فى أنه عند اعادتها فى الغرب فى القرن التاسع ، كان يمكن أن يعتبر أحد زعماء الفرنجة ، الخليفة الشرعى لأوغسطس . ولسنا فى حاجة الى اطالة الحديث فى سير أفراد الأباطرة ، مع كل ما فيها من تشويق شخصى [2] . وعند الكثير من القراء ، تعد قصة الامبراطورية ، قصة حكامها بينما النظام الذى كانوا

---

(١) بقى مجلس الشيوخ مدة أطول وله كيان ذو أثر فعال . ومن سلطاته ، ظلت سلطة ولاية القضاء الاستئنافى ، حتى القرن الثالث .

(٢) يمكننا أن نميز مجموعات الأباطرة الآتية فى تسلسل تأريخى :

(آ) أباطرة الفرع اليولى - القلودى : أوغسطس (حتى عام ١٤) ، طبريوس (حتى ٣٧) ، كاليجولا Caligula (حتى ٤١) ، قلوديس (حتى ٥٤) ، نيرون (حتى ٦٨) .

(ب) أباطرة الفرع الافلاوى Flavian : واسفاسيان Vespasian (حتى ٧٩) ، طيطس (حتى ٨١) ، دمطيان (حتى ٩٦) .

(جـ) أباطرة بالتبنى : ناروا Nerva (حتى ٩٨) ، طريان (حتى ١١٧) ، هدريان (حتى ١٣٨) ، انطونيس فايوس (حتى ١٦١) ، ماركس أورليوس (حتى ١٨٠) .

(د) أباطرة الثكنات (الذين عين اسماءهم الجيش) : من ١٩٢ الى ٢٨٤ . وكان أقدر هؤلاء سفطميوس ساورس Septimius Severus (١٩٣ - ٢١١) ، اورليان (٢٧٠ - ٢٧٥) ، وفروبس (٢٧٥ - ٢٨٢) .

يسيطرون عليه والذى يؤثر فى مصير الملايين يظل غير معروف فرضا [١] .
وحتى فى حالة أولئـك الأمراء الذين تظهـر قدرتهم فى أعظم جلاء ، تعنى السـجلات الأدبية فى معظمها بالسخيف من تفصيلات أقاويل البلاط . اننا فقط بجمع القصة التى تسردها النقوش المتناثرة فى أرجاء الأقاليم ، نعرف كيف نسبر غور النظام الامبراطورى فى نسبه الحقة ، وعند ذلك يتجلى لنـا أن شطحات كاليجولا أو نيرون الجامحة ، التى تتراءى بمثل هـذا العظم فى صـفحات طاقيطس وسـوطنيس Suetonius ، كان من شـأنها فقط أن تثير هياجا عابرا فى الحاضرة . وكانت الآلة الهائلة تؤدى دوراتهـا المعينة ، دون أن تلقى بالا الى نزعات صاحبها ، وعندما عرض القديس بولس أمره على المحكمة الامبراطورية فانه كان يتوقع من قيصر ، وليس من نيرون ، العدالة وقد لقيها فعلا . ويمكن ، من الجهة الأخـرى ، أن يظهـر عظم التأثير الذى يستطيع حاكم قدير ذو همة أن يحققه فى ميادين الدفاع العسـكرى والادارة الداخلية والقانون ، من مثال وحد .

١٠ ـ لو أن الحكم الفردى الاسـتبدادى يستحق المديح اطلاقا ، فان الامبراطور هدريان (١١٧ ـ ١٣٨) يمكنه أن يقيـم دعواه فى أن يعـد حاكما استبداديا أرسلته السماء . ولماكان قد ولد فى روما عام ٧٦ ـ وأبوه ، من أهل اسـبانيا ولكن ينحدر من سـلالة ايطالية ، وكان ابن عم طريان Trajan فقد تدرب فى زمن باكر على الوظيفة . وفى سن الخامسة عشرة كان يخدم فى الجيش ، وفى السابعة عشرة كان يقوم بوظيفة قاض فى القضايا الخاصة . ولقد تولى ، على التعاقب ، فى بريطانيا وموسيا Moesia وعلى الراين وسار فى ركاب قريبه العظيم خلال حملاته المظفرة فى داقيا وفى الشرق . وعلى هذا فانه عند موت طريان وارتقائه العرش فى سـن الحادية والأربعـين ، كانت قدراته الطبيعية فى أصالة الحكم والخيال وتحمسـه للعمـل الذى لا يعتريه كلال ، قد أنضجتها التجربة الواسعة فى السلم وفى الحرب جميعا . لقـد كان هدريان سياسيا أكثر من أن يكون جنديا واعتاد أن يزهو بأنه كسب بعدة السياسة أكثر مما كسب بعدة السلاح . وفى حكمه الذى دام احدى وعشرين سنة وضع طابعه ، أصلا وتفصيلا ، على تكوين الادارة الرومانيـة والقانون ، بأجمعه ولقد نظم مجلس الدولة الامبراطورى ووظائف كتمة السر

---

(١) الآنستان ماريا وجوليا برترام Misses Maria and Julia Bertram فى رواية جين أوستن « منزه منسفيلد Mansfield Park » (فصل ٢) ولهما من العمر ١٣ و١٢ عاما على الولاء كان يمكنهما أن يتلوا « فى الترتيب الزمنى ... مع تواريخ اعتلائهم العـرش ... الأباطرة الرومان نزولا حتى ساورس » .

الامبراطورية ونظام مواصلات البريد [١] الامبراطورى • وقامت الأعمال العامة والأنظمة الخيرية الى حيز الوجود بابتكاره • ولقد شجعت الزراعة ورصدت الاعانات للجامعات ومنحت صفة المواطن والحقوق اللاتينية في سخاء وقد كتب واضع سيرته « لقد كانت لديه معرفة شاملة شمولا تاما بالمسائل المالية العامة كأى رب بيت يحسن القيام على شئونه الخاصة ولم يوجد أمر تفصيلي تجاوزت دقته حدا لا يسترعى انتباهه ، وقد كشف لوح فى جنوبى البرتغال يظهر فيه وهو ينظم حياة قرية تعدين عاكفا على ارساء قواعد لصانع الأحذية المحلى والحلاق ووضع الخطة لتنظيف الغلايات فى الحمام العام ، كل شهر ، ومعافاة (وياله من نص رحيم !) أساتذة المدارس من دفع الضرائب • [٢]
وكانت جهود الامبراطور أكثر ظهورا وأثبت على الزمن فى مجالى القانون والحكومة الاقليمية • ولقد استهل عصر القضاء الرومانى ، الاتباعى ويرجع الى واعز شخصى صادر عنه ، ما جرت عليه الحال من اصدار فتاوى امبراطورية ترتبط بها المحاكم ووضع المرسوم الدائم [٣] والاعتراف بأن يكون لآراء عظام الشارعين قوة القانون • ولقد أصبح الامبراطور الآن القاضى الأعلى لكل دعاوى الاستئناف الجنائية • وقد خفف من قسوة سلطة الوالد ومنح النساء حق وضع الوصايا وألغى الضحايا البشرية وفرض قيودا شديدة على تعذيب العبيد : وكان الشعور الانسانى أهم ظاهرة فى خليقة هدريان وأفعاله • [٤] وكان أحد الرموز المحببة على نقوده ، منظر امرأة تبكى ، يرفعها الامبراطور عن الأرض • ولقد أنفق أكثر من نصف عمره فى تجولات سريعة خلال الأقاليم • ولقد قيل انه قطع ٢٠٫٠٠٠ ميل سيرا على القدم وهو يرتدى عدته العسكرية الكاملة • [٥] وفى المدة التى تقع بين عامى ١٢١ ـ ١٢٦ ، زار كل صقع فى الامبراطورية من اسبانيا الى سوريا ومن بريطانيا الى أفريقيا وهو يأتى بالاصلاح على الادارة العسكرية

---

(١) كان معدل السفر فى خدمة البريد خمسة أميال فى الساعة • وكانت رحلة يوم عادية تبلغ من ثلاثين الى خمسين ميلا ولكن كان يمكن قطع مائة ، اذا استدعت الحال •

(٢) راجع هـ • س • جونس H. S. Jones فى « تراث روما » The Legacy of Rome

(٣) عن المرسوم الدائم ، راجع ما يلى § ١٧ •

(٤) لقد رفض التصديق على تهم الخيانة العظمى (Majestas) أو قبول تأريث الا من أصحابه الشخصيين ، ومن أولئك فقط اذا ماتوا بغير خلف • وبهذا أزال اثنتين من أشنع المساوىء العرضية فى الامبراطورية •

(٥) كان هدريان صيادا عظيما كما كان مشاء عظيما ، وكان له قدرة خارقة العادة على تحمل المشاق البدنية ويعيش فى المعتاد عيشا بسيطا وكان شديد الشكيمة فى المحافظة على النظام •

ويحصن الحدود ويزور الجنود المرضى فى المستشفى ، ويعيش وهو فى المعسكر على ما يقدم لرجال الكتائب من غذاء ، ويقوم بالتفتيش على الصناعات . وفوق هذا كله ينهض بانشاء الأعمال العامة ويعيد بناء المدائن . وبعد أقل من سنة فى روما ، قام برحلة ثانية وأمضى ست سنوات (١٢٨ ــ ١٣٤) فى الشرق الذى كان مزاج عقله يستجيب لدعوته القاسرة بطريقة فريدة . وما يجعل هدريان مشوقا الى حد عظيم ، هو حبه للاستطلاع الذى لا تشفى له غلة والحماسة العقلية التى كانت تلقى بريقا من الابداعية (الرومانسية) على نهوضه ، الذى لا يكل ، بواجبه الرسمى . « قلق فى كل أمر ، طوال حياته » هو حكم واضع سيرته اسفرطيانس Spartianus . ولقد كان الشغف بمشاهدة المناظر متأصلا فيه . وقد صعد جبل قاسيس Casius ليرى مطلع الشمس وأطنا لمشاهدة غروبها ، واعاد دفن عظام أياكس Ajax فى طروادة وزار حظائر الخزافين فى بريطانيا وقبر بومباى فى مصر ، وقبر افيمنداس Epaminondas فى منطنيا وتلقن أسرار اليوسس Eleusis وحفر اسمه على تمثال ممنون . وفى أثينا حيث أعاد اقامة الأبنية على نطاق مسرف ، تولى الرياسة كأحد الموظفين التسعة فى عيد ديونوسيوس العظيم وقد كان محبا للهلينية من صميم القلب ولقب وهو صبى بغرايقولس Graeculus (الاغريقى الصغير) ، ووجه عنايته الى مصاحبة رجال الأدب . وكان يزهو كثيرا بمعرفته بالموسيقى وفنون النحت وفى جهوده الخاصة فى النثر والشعر (١) . وكان ذوقه كذوق أتباع هلاس فى تدهوره ، بعيدا عن أن يكون نقيا . لقد كان يتعشق ما كان غريبا ، بالغ الاسراف ويفضل انطيماخس على هومر وانيوس على فرجل . وكان يضع تصميم المعابد وواحد منها ، أقيم تكريما لفينوس وروما ، كان على موقع الجلجثه Golgotha ــ الذى فيه ، كما ذكر النقاد الهازلون لم تكن الآلهات يستطعن الوقوف منتصبات . وقد وضع المقرب اليه ، انطينوس Antinous ، وهو اغريقى آسيوى ، الطراز لمثالى عصره لجمال الذكور الاباحى . وكان القرن الثانى عهد انتعاشات دينية ، وكلما أمعنت العبادة فى أن تكون غريبة وأجنبية ، كان استغواؤها للعالم الرومانى أقوى . وكان هدريان يكلف أيضا بالرجوع الى الأحلام واستيحاء مهبط الوحى ويضع الخطة لحياته كل سنة على التعاقب ، وأله انطينوس وسمى نجما باسمه تكريما له ، بعد موته . ولو أن القصص المدونة فى التلمود عن أحاديثه مع شراح الشريعة العبرية ، خرافية ، فانها تدل على التأثير الذى تركه فى العقل العبرى . ولقد دفعت محاولته الغاء فريضة الختان واقامة مستعمرة اغريقية رومانية

---

(١) لقد كان على وفاق مع العبد الرواقى افقطيطس Epictetus والمؤرخ الاغريقى فاورينوس Favorinus ، من أهل مرسليا .

(Aelia Capitalina) على موقع المدينة المقدسة المهدم ، اليهود الى القيام بآخر ثورة لهم وأشدها رعبا (١٣٤ ـ ٦) . ولقد أظهر الامبراطور للمسيحيين تسامحا يتسم بالاحتقار . وفى هذا كله كان طراز ثقافة القرن الثانى من حيث شيوعها وقدمها ، ومغالاتها فى التأنق وانحلالها . ويكتب رينان « كان الشرق على الأخص يجتذبه ، ولقد كان يشاهد فيه المداجاة والتهريج ، وكان يتسلى بهما » . ولكن هدريان لم يكن مجرد غاو للفن الجميل ، فقد ظل فى قلبه ابنا لروما الوثنية . ويقول اسفرطيانس « لقد كان يعنى أشد العناية بمراعاة العبادات الرومانية ويحقر عبادات البلدان الأخرى » . ولم تكن لديه أوهام ولم تعق نزواته اطلاقا سير حكمه المتزن وفى شخصه ، كان الموظف المدنى المثالى يرتدى الأرجوان الامبراطورى ولتوضيح هذا بأمثلة حديثة ، كان هدريان أكثر قرابة بلورد ملنر Milner أو سر روبرت مورانت Sir Robert Morant منه الى أوسكار وايلد Oscar Wilde . والشهرة ، كما جاءنا النبأ ، كان يسعى اليها فى حماسة ولكن بمسالك أخرى غير هذه . وكان يعلم جيدا أنها كانت الطرق العسكرية البريطانية والألمانية [1] والمدائن التى ابتناها والقوانين التى وضعها ، هى التى جعلت منه واحدا من صفوة عظام الاداريين الذين ظهروا فى الوجود . وآخر أعماله المدونة وهو طريح الفراش ، ينازع الموت فى روما ، تعبر عن شخصية متعددة النواحى : تهكماته من أطباء البلاط « ان أطباء أكثر مما يجب هم الموت لأمير » ، والسطور التى وجهها لروحه الراحلة التى تعكس باللاتينية صورة الجمال الذى يستأنى فى آخر عهد للهلينية [2] . وما كان يشغله عن كل شىء آخر وهو تعيين خلف ذى جدارة ، فى شخص انطونينس

---

(١) عن الطرق العسكرية ، راجع ما يلى § ١٣ ، تذكرة ٢ .

(٢)

Anĭmula, vagula, blandula,
Hospes comesque corporis;
Quae nunc abibis in loca ?
Pallidula, rigida, nudula,
Nec ut soles dabis iocos.

وقد ترجمها « الى الانجليزية » مارقس س. دمسديل Marcus S. Dimsale (*الأدب اللاتينى صفحة ٥٢٦)

« ياروحى الغامضة ، حسنة السمت والخلق
ضيفة هذا الجسد وصديقته
اذكرى ، الى أين المسير الآن ؟
وأنت شاحبة ، ومتصلبة وعارية
وأيتها الروح الصغيرة .
كل دعاباتك قد أتت الى نهاية » .

فايوس Antoninus Pius يؤول اليه العرش الامبراطورى .

١١ ـ واذا تحولنا من الامبراطور الى الامبراطورية ، نجد أن حكومة العالم فى القرن الثانى تقع فى أيدى بيروقراطية عظيمة . وكان رؤساء المصالح فى روما فى الأصل ، أعضاء فى حاشية الامبراطور وكانوا لا يزالون يعتبرون معاونين شخصيين يشبهون فى ذلك كاتمى السر ومديرى الضياع لدى شريف من الأفراد . وكان اهم هؤلاء الأربعة مراقبين procurators وهم مراقب المالية والمستشار القضائى ومستلم الشكاوى وكاتم السر الامبراطورى [١] . وطبقا للمبدأ التاريخى بأنه يجب على الموظف بان يشد أزره بالنصيحة ، فان الأعمال الهامة كانت فى المعتاد تناقش فى مجلس الدولة الامبراطورى . وكانت ادارة روما وايطاليا موكلة الى اربعة رؤساء ، رئيس المدينة ورئيس الحرس (البريتورى) ورئيس تموين الحنطة ورئيس الحراسة وكانوا كلهم ينهضون أيضا بأعباء وظائف قضائية عالية [٢] . وفى المحاكم الامبراطورية التى امحت بالتدرج محاكم الشيوخ ، كان استئناف الدعاوى يعرض من جميع أنحاء العالم الرومانى . أما محاكم الأقاليم التى ازدادت فى القرن الثانى حتى اربى عددها على الثلاثين ، فقد كانت محاكم الامبراطورية ضعف محاكم الشيوخ [٣] . وكانت الرقابة الحازمة الفعالة

---

(١) كان يطلق عليهم ، على الولاء
a rationibus, a cognitionibus, a libellis ab epistulis.
ومن عهد هدريان فصاعدا ، لم يعد يشغل هذه الوظائف معتقون ولكن مواطنون من مرتبة الفرسان .

(٢) كان يطلق عليهم على الولاء urbi, praetorio, annonae, regilum
وكان الرئيس البريتورى يرأس ، من عهد هدريان ، مجلس الدولة ومحكمة الجنايات العليا .

(٣) عن مادة هذا القسم ، راجع و.ت.أرنولد W. T. Arnold « الادارة الاقليمية الرومانية » ، وخاصة الفصول ٤و٦و٧ وقد أدرجت قائمة بالأقاليم ومعها تذكرات شارحة فى الملحق ١ . وهاهى ذى القائمة فى عهد اوغسطس:

صقلية (لمجلس الشيوخ) ، سردينيا وقورسيقا والغال (٤ : اقليم لمجلس الشيوخ) ، اسبانيا (٣ : اقليم لمجلس الشيوخ) ، أفريقيا (اقليم لمجلس الشيوخ) ، قورينا وكريت (لمجلس الشيوخ) ، سوريا وغلاطية وبثونيا (لمجلس الشيوخ) ، وبنطس (لمجلس الشيوخ) ، وآسيا (لمجلس الشيوخ) ، ومقدونيا (لمجلس الشيوخ) ، واخائيا (لمجلس الشيوخ) ، ومويسيا ونوريقم ورائطيا واللوريقم ومراكز الألب . وكانت مصر يديرها على قواعد خاصة رئيس من مرتبة الفرسان .

تقوم بها الحكومة المركزية · وكان حكام الأقاليم ينتخبون لأمانتهم وقدراتهم وتدفع لهم الدولة مرتباتهم ويعاونهم موظفون ماليون مستقلون وادارة دائمة من موظفين اداريين متمرنين (١) · وفى عهد الأباطرة الافلاويين Flavian والأباطرة الأنطونيين كان أفراد من طبقة الفرسان يحلون فى اطراد يأخذ في التزايد ، محل المعتقين ، فى الخدمة الامبراطورية · ولم يعد الرومان الأحرار بعد غير راضين عن شغل مناصب فى « حاشية قيصر » · وكان يمكن الحصول على عدالة وفيرة ، فى المحاكم الامبراطورية فى كل أنحاء الامبراطورية · وكانت الضرائب ، على فداحتها ، تجبى على اساس عادل منتظم تهيئه سجلات التعداد التى كانت تعدل فى أوقات منتظمة لتطابق آخر تاريخ · وكان اهم مصدر للدخل المباشر ضريبة الأرض تضاف اليها ضريبة عينية للقيام بتكاليف الجيش فى اقاليم معينة ، وضريبة دخل على مهن وحرف خاصة وضريبة ميراث تبلغ خمسة فى المائة كانت تجبى من الطبقات الأكثر ثراء وايراد أملاك الدولة والمناجم وأراضى الامبراطور الخاصة (patrimonium Caesaris) · أما الضرائب غير المباشرة فكان أهمها رسوم الجمارك التى كانت تختلف باختلاف الأقاليم · وسنرى فى فصل قادم كيف أن ثقل الضريبة ازداد خلال القرن الثالث حتى كاد لا يحتمل مما أتى بنتائج وخيمة على رخاء الامبراطورية الاقتصادى · ولكن قبل ذلك التاريخ ، أظهرت

وقد اضيفت الأقاليم الآتية بعد موت اغسطس ، ألمانيا (٢ ، فى عام ١٧ م) · وموريطانيا (٢) وبريطانيا وطراقيا (هذان بين ٤٠و٤٦) ، بلاد العرب وداقيا وأرمينيا وما بين النهرين واشور (هذه بين ١٠٥ و١٤١ فى عهد طريان) ·

ومن وقت الى آخر كانت الأقاليم يعاد توزيعها بين الامبراطور ومجلس الشيوخ · وتتوارى الأقاليم التابعة لمجلس الشيوخ فى ختام القرن الثانى ·

وعلاوة على هذا ، كانت بعض المناطق يقوم بالادارة عليها مراقبون procurators تحت اشراف حاكم اقليمى مجاور · وعندما تقدمت عملية بسط النفوذ الرومانى ، فقد جعلت هذه المناطق فى الغالب أقاليم · وكانت اليهودية تحت حكم مراقب يشرف عليه المعاون العسكرى (Legate) الامبراطورى لسوريا (راجع لوقا ٢ : ١) · وعندما كان وطيليوس Vitellius ، الذى أصبح امبراطورا فيما بعد Legate لسوريا فانه تمكن من خلع المراقب بنطيس بلاطس ·

(١) يحوى الكتاب العاشر من خطابات بلنى الأصغر (ترجم فى المجلد الثانى من طبعة لويب Loeb) الرسائل التى كان يتداولها بلنى والامبراطور طريان أثناء قيام الأول بحكم بثونيا عام ١١١ وقد جعل طريان بثونيا اقليما امبراطوريا · وتقدم هذه الرسائل ايضاحا رائعا لما كانت عليه الادارة الاقليمية فى عهد الامبراطورية الباكر ·

الحكومة كرما منقطع النظير في استخدام الدخل فكانت الاعانات تمنح في يسر في حالات الوباء والمجاعة وغيرهما من الكوارث غير العادية وألغيت القيود على التجارة في كل مكان • وقد نهض بالأعمال العامة مثل المرافيء والطرق والجسور والري واسترداد الأراضي البور في جميع أرجاء الامبراطورية بنشاط • ومما يسترعي النظر بصفة خاصة « السياسة التي أنشأها نارو Nerva وتوسع فيها خلفاؤه في القرن الثاني ، في اقامة منظمات في ايطاليا وغيرها لاعانة الأرامل واليتامى ورصد منح للعلماء وشئون التعليم الأخرى ومصارف للأراضي لتشجيع الزراعة وكانت تخصص أرباحها للقيام بأود الأطفال الفقراء وتعليمهم •

١٢ — وكانت المدينة كما كان العهد بها سابقا ، أهم أداة للمدنية استخدمتها الحكومة الامبراطورية للمحافظة على الثقافة الهلينية في الشرق وغرس الثقافة الرومانية في الشمال والغرب(١) • وفي عهد الامبراطورية الباكرة ، كانت بلاد الاقليم تشمل (١) المدن المتحالفة والحرة التي تدين باستقلالها في حالة ، لمعاهدة رسمية وفي غيرها لمنحة من روما (٢) المستعمرات الرومانية والبلدان Municipia التي كانت تختلف في المكانة الموقرة أكثر من اختلافها في الامتيازات و (٣) كتلة البلاد التي لا تستمتع بامتيازات وتدفع الضريبة ، تلك التي حافظت على منظماتها المحلية القديمة تحت رقابة الحاكم الاقليمي • وهذه ، تحولت غالبيتها على مر الزمان الى بلدان Municipia بمنحها الحقوق المدنية أو الحقوق اللاتينية • ومن القرن الثالث ، قل عدد المدن المتحالفة والمدن الحرة ووضعت قيود على امتيازاتها • ولقد أورد بلني Pliny قائمة بمائة وخمس وسبعين مدينة في اقليم بيطيقا Baetica الأسباني عند ختام القرن الأول : يوجد ثلاث مدن متحالفة وست مدن حرة وتسع مستعمرات وثماني بلدان Municipea وتسع وعشرون مدينة لها حقوق لاتينية ومائة وعشرون مدينة تدفع الضريبة • وكانت حكومة البلدة في كل مكان على التقريب ، أرستقراطية وقد نظمت طبقا لشكل روما التاريخي • وكان يقوم بالرقابة على المستعمرات والبلدان Municipea موظفون ينتخبهم كل عام المجلس الشعبي من مواطنين ذوي أهلية عالية ، بما لديهم من أملاك ومجلس شيوخ يتكون معظمه من موظفين ، وموظفين

---

(١) في مبدأ الأمر ، كانت السياسة الرومانية هي استخدام الأداة الموجودة حتى أقصى مدى ممكن ، فعلى سبيل المثال ، اعترفوا برؤساء القبائل ومجالسها كوسائل للحكومة المحلية • وعندما ظهر عدم كفاية هذا النظام ، فانهم أقاموا مجتمعات المدن ، يعيش أفرادها من ايطاليا ، ويحلون بين السكان الوطنيين • وحيث وجدوا مدنا قائمة ، كما كانت الحال في الشرق ، فانهم استخدموها •

سابقين • وعلى مر الزمن أصبح يوجد ميل ملحوظ فى اتجاه التدخل من قبل الموظفين الامبراطوريين • وقد بطل الانتخاب الشعبى وغدا من العسير بدرجة تطرد ازديادا حث المرشحين على مواجهة التكاليف الباهظة التى تلازم القيام بوظيفة البلدية • وقد شاهدت بواكير قرون بعد الميلاد قيام عدد جم من المدن بقى الكثير منها امدا طويلا بعد سقوط الامبراطورية ولا تزال تزدهر حتى زمننا الحاضر • وقد هيأت مواقع كتائب الحدود ، العسكرية نواة البلدان الجدد ويمكننا أن نتتبع الحصن فى نموه الى قرية والقرية الى بلدة • ويحتفظ اسم ليون Leon فى اسبانيا واسم قايرليون Caerleon على اليوسك Usk فى بريطانيا بسجل مثل هذا الأصل (Legionis كتائب و Castra Legionis, معسكر الكتائب) • وكانت كل بلدة تقوم على ادارة مساحة عظيمة من الريف المجاور ويحدث أحيانا أن مدينة عظيمة تقوم بالسيطرة على عدد من البلاد التابعة لها ، وبذلك تنهض حكومة مقدسة (hierarchy) لبلدة • وهكذا كانت حال الغال فى عهد أوغسطس اذ كانت لغدونم Lugdunum (Lyon — ليون) المركز الادارى لأربعة وستين مجتمعا ، لكل منها بلدته الرئيسية (وكانت أميان Amiens ونانت Nantes اثنتين من هذه البلدان) بينما كان لمارسليا ونيم Nimes السيطرة على البلدان الأخرى القريبة منهما • وكانت البلدان الاقليمية أيضا تنتخب مندوبيها لحضور المجالس الاقليمية التى كانت اجتماعاتها ، وهى ترتبط بعبادة الامبراطور ، تقوم بدور هام فى الادارة المحلية وتقدم أقرب مثال فى الأزمنة القديمة لنظام الحكومة النيابية •

١٣ — وكانت أعظم مسئولية ملحة ، خلال القرون الثلاثة الأولى ، المحافظة على الحدود • ان نصيحة أوغسطس بالبقاء داخل الحدود التى وضعها ، راعاها بأمانة خلفاؤه • وأهم استثناءات كانت ضم بريطانيا فى عهد قلوديس Claudius (٤١ — ٥٤) وداقيا Dacia (= هنغاريا قبل ١٩١٤ — ٨) وأرمنيا وأقاليم الدجلة والفرات فى عهد طريان (٩٨ — ١١٧) • وكانت حملات طريان المظفرة فى الشرق قمة السياسة النشيطة التى جرى عليها أباطرة القرن الأول • ولم تعد فارثيا بعد منيعة ، وظل تخم الفرات لا يسوده اضطراب حتى قيام المملكة الفارسية فى منتصف القرن الثالث • وفى الشمال والغرب ، من الجهة الأخرى ، طغى موج هجرة الهمج طغيانا يطرد ازديادا • أما القبائل التيوتنية — وقد كانت مصدر تهديد لايطاليا منذ زمن ماريوس Marius — التى صدها قيصر للوراء عن الغال ، وثبطت جهد أوغسطس فى بسط السيادة الرومانية حتى الألب ، فانها كانت فى ذلك

الحين تحارب دون انقطاع ضد الحاجز الحصين بمحاذاة الراين والدانوب . (١) وكان قد عمل على تقوية الخط ، بسياج أقامه هدريان فيما يلي كبلنز الى ما يقرب من رجنسبرج على الدانوب ويحصر الغابة السوداء داخل الامبراطورية (٢) . وقد صمد زهاء قرنين ولكن القتال كان لا ينقطع على امتداد الحدود بأكمله ، وسرعان ماكان يلاقي أي تهاون في قبضة روما الجزاء الوفاق. وقد أثارت الانقسامات داخل الامبراطورية وتجاوز القبائل في تجوالها دائرتها ، الأزمات التي تقع بين حين وآخر في شدة منقطعة النظير وتعقبها فترات من الهدوء النسبي . ولهذا فانه بعد الحروب المروعة التي شنها مارقس اورليوس ضد المرقماني Marcomanni والقواضي Quadi على الدانوب الأعلى ، ساد الهدوء طوال جيلين ، الى أن تحول مركز العاصفة الى مجرى النهر الأدنى حيث كان يهدد غوط من الأكسين ، أقاليم البلقان في منتصف القرن الثالث (٢٥٠ — ٧٠) . وقد أمنت الهزيمة التي أوقعها قلوديس بهم خط الدانوب مائة سنة أخرى . وفي نفس الزمن الذى نشبت فيه الحرب الغوطية ، حطم الأليماني والفرنجة (حوالى ٢٥٨) (٣) حاجز الراين ، وبعد جهاد استيئاس استمر في حظوظ متباينة ، من حكم غلينوس Gallienus حتى حكم ديوقلطيان ، أعيد السلام مرة أخرى في الشمال الغربي . وفي خلال هذه المناوشات ، أصبحت العادة التي استهلها قيصر في منح الأراضي للمستعمرين التيتون داخل الامبراطورية جزءا من سياسة الحكومة العامة . ولقد قدم الذين كانوا أعداء في جيل ، مجندين لكتائب دفاع الجيل التالي . وكانت الجيوش الرومانية تجند لمدة خدمة طويلة وكلها

---

(١) كان موطن التيوتون الأصلي في أراضي غربي البلطيق أى جنوب السويد وجتلند وبومرانيا . ومن هناك ، بين عامي ٦٠٠ و ٢٠٠ ق.م ، ساروا صوب الغرب والجنوب الغربي طاردين القبائل الكلتية من الأراضي الواقعة شرق الراين وفي نفس الوقت ، تشبعوا بالكثير من الثقافة الكلتيه المتفوقة التي كانوا على اتصال بها . وفي القرن الثاني قبل الميلاد ، عبر التيوتون الراين لأول مرة وغزوا الغال .

(٢) داخل السياج من القضبان ، كانت تسير الطرق العسكرية . وفي تاريخ لاحق استبدل السياج جزئيا بحائط من الحجر . وقد أقيمت حصون على مسافات تتراوح بين ميلين ونصف ميل ، وتسعة أميال بمحاذاة الطرق العسكرية . وقد امتد هذا الحاجز الحصين بضع مئات من الأميال .

(٣) كان الأليماني ، كما يدل اسمهم (= كل الناس) تحالفا من قبائل كما كان الفرنجة (= رجال أحرار) . واسم الأولين لا يزال باقيا في اللفظ الفرنسي Allemagne واسم الآخرين في France (وكذلك Franconia و Franche-Comite و Frankfurt,) وكان الأليماني على اتصال بروما من ٢١٣ والفرنجة من ٢٥٣ .

تقريبا من سكان الأقاليم • وقد يعسكر جنود من قماغين Commagene بآسيا الصغرى ، في المانيا أو بريطانيا ويستقرون عند رفتهم ، بمنحة وقطعة من الأرض ، في الأقطار التي كانوا يخدمون فيها ، وكانت بلدان شهيرة مثل كولوني (Colonia Agrippinensis) وكلشستر Colchester (Camulodunum) تدين بنشأتها الى مستعمرات الجنود القدامى الذين انقضت مدة خدمتهم ، هذه • وما كانت الصبغة العالمية للجيش الا أحد مظاهر الصبغة العالمية للنظام الامبراطوري • وكان الموظفون المدنيون أيضا يؤخذون من سكان الأقاليم • ولقد اصبحت الخطوط الفاصلة ، القديمة ، بين الروماني والايطالي وبين الايطالي والاقليمي لا وجود لها • وعندما منح الامبراطور قرقلا في عام ٢١٢ بموجب دستور انطونينا Constitutio Antonina صفة المواطن الروماني لكل مواطن حر المولد في الامبراطورية • فربما كان الواعز المباشر لديه أن يزيد الدخل ، ولكن الاجراء كان الاتمام المنطقي لسياسة القرنين السابقين [١] • وبفضل الحكومة الامبراطورية الأبوية ، تأصلت الأفكار والأنظمة التي تمثلها روما في التاريخ ، تأصلا ثابت الدعائم في جميع أرجاء عالم البحر المتوسط •

١٤ ـ ويتجلى مغزى هذه الحقيقة وما كان لها من نتائج في المستقبل ، اذا أوضحنا الوسيلة التي نهضت بها روما بمهمتها في الحكم في أقاليم أوربا الغربية ـ اسبانيا والغال وبريطانيا (١) كانت اسبانيا أحد الأقاليم الرومانية الباكرة • وقد فتحها ونظمها في القرن الثالث ق•م • القرطاجني العظيم « هملقار بارقا » Hamilcar Barca ثم آلت في ختام الحرب الفونية الثانية الى روما • وكانت السيطرة على قبائل الداخل مهمة طويلة شاقة أنهكت الى أقصى حد همم الحكام الرومان المتعاقبين ومن بينهم كان كاتو الرقيب وطبريوس سمبرنيوس جراكس Tiberius Sempronius Gracchus والد المصلح الزراعي ، بارزين لقدرتهما •

وكانت الأحوال الطبيعية تعاون حرب العصابات التي كان فيها الأسبان على الدوام متفوقين واستمرت متاعب الحرب والتنظيم ، دون انقطاع خلال القرن الثاني • وقد نهض كاتو بالمناجم التي كان الفينيقيون يستخدمونها

---

(١) كان الدافع المباشر لمرسوم قرقلا هو توسيع مدى تطبيق ضريبة الخمسة في المائة على مواريث المواطنين • وقد قصر منح صفة المواطن على الأهلين الأحرار الموجودين فعلا في الامبراطورية ، عام ٢١٢ أما المعتقون والأشخاص الذين لهم حقوق لاتينية وأولئك الذين استقروا على أراض داخل الامبراطورية وحازوا مكانتهم في تاريخ لاحق فانهم لم يصبحوا بذلك Ipso facto ، مواطنين • وقد مد يوستنيان صفة المواطن لتشمل هؤلاء •

قبل ذلك بقرون كثيرة وغرس الكرم والزيتون . وبين عامى ٨٠ و٧٢ ق.م. عكف الزعيم الديموقراطى سرطريس Sertorius ـ وقد وجد فى اسبانيا ملجأ من انقلاب سلا ـ على تدريب القبائل الوطنية على فنون الحرب والسلم ، وأسس الكليات العسكرية لتعليم شباب نبلائهم . وقد شجع يوليوس وأوغسطس سياسة صبغهم بالصبغة الرومانية بحماسة ونالت خمسون مدينة اسبانية صفة المواطن الكاملة . وكانت قادس وطراقو (Tarraco) مركزين للتجارة والحكومة ، على الولاء : ولا تزال سرغسا Saragossa وأسطرغا Astorga تحتفظان باسم أوغسطس.[1] وقد مد الطريق العسكرى والتجارى العظيم ، الذى كان يسير من ايطاليا حول خليج ليونس Lions الى الأقاليم التى تقع فيما يوالى البرانيس ، بمحاذاة ساحل اسبانيا الشرقى ومنه اخترقت الداخل حتى الوادى الكبير وميناء قادس . وما حان الزمن الذى مات فيه أوغسطس حتى كانت اللغة والملابس والعادات الرومانية قد عمت شطرا عظيما من شبه الجزيرة . وقد قسمت اسبانيا الى ثلاثة أقاليم ، ومن الثلاث كتائب التى وضعها أوغسطس هناك ، كان يمكن سحب اثنتين قبل ختام القرن الأول . وقد سار نشر السلم ونشر الصبغة الرومانية جنبا الى جنب . وكان كاتم سر يوليوس قيصر وأمين مكتبة أوغسطس مواطنين اسبانيين . وقد قدمت اسبانيا الى الأدب الرومانى ، ويرجع ذلك الى القرن الأول ، عالم الأخلاق سنقا Seneca والشاعر الجمهورى لوكان Lucan وعالم الجغرافيا مالا Mela والكاتب الزراعى قلوملا Columella وأحسن واضع للأراجيز ومأثور القول ، فى روما ، مرطيال Martial وأعظم ناقدى الأدب فيها كونتليان Quintilian[2] . وفى بواكير القرن التالى قدمت الى روما واحدا من أنبل أباطرتها هو تراجان وفى النهاية عندما انهالت غزوات الهمج على الغرب ، وجدوا اسبانيا قد اصطبغت تماما بالصبغة الرومانية ، حتى ان استمرار ثقافتها لم يكن يهدده خطر جدى . وكانت العقيدة المسيحية متأصلة كل التأصل فى قطر ربما يرجح أنه كان مشهدا لجهود القديس بولس الأخيرة الرسالية . ومنذ ذلك الحين ، قامت بدور هام فى حياة الكنيسة الغربية . ولقد مثلت سبع وثلاثون كنيسة منفصلة فى مجمع الويرا Elvira فى القرن الثالث . وكان هسيوس Hosius أسقف قرطبة Cordova المستشار الذى انتخبه قسطنطين فى

---

(١) فى عام ١٨٦١ ، كشفت أجزاء من قوانين ملقا (ملغا) وسلبتسا وفى عام ١٨٧٠ أجزاء من قوانين أسيونا ، تلقى ضوءا عظيما على حكومة البلدان فى اسبانيا فى عهد الامبراطورية الباكر .

(٢) عن سنقا وكونتليان راجع ما يلى § ٢١ و٢٢ . لقد قيل كتوضيح لعمل روما فى بسط المدنية أن جنودا وموظفين من الرومان كانوا يعلمون الأجانب ، مثل سنقا وكونتليان أن يكتبوا اللاتينية الصحيحة .

مجمع نقيا Nicaea · وكان القوط الغربيون ، على خلاف الوندل ، قد تقبلوا بالترحاب الثقافة الرومانية قبل أن يبسطوا سلطانهم فى اسبانيا · وكان أزيدور Isidore السفيلى ، واحدا من العلماء القلائل فى أيام التدهور فى القرن السابع وهو الذى استطاع أن يحول شذرات من العلم القديم والأساطير القانونية الى مفكرى العصر الوسيط الباكر · وحتى غزو المشارقة الذى حدث فى القرن الثامن لم يجد فى محو كل آثار الماضى وقد حفظ الزعماء القوط ضوء التقاليد الرومانية والمسيحية لا تخفت خفقاته فى حصونهم الجبلية · ويمكن تقصى أثر مجرى النفوذ الرومانى دون انقطاع من أيام اسقفيون حتى قيام مملكتى البرتغال واسبانيا الحديثتين (١) ·

١٥ — (٢) « كل الغال تنقسم الى ثلاثة أقسام » هذه ، كما يعلم كل تلميذ مدرسة ، هى الكلمات التى يفتتح بها قيصر « تذكراته » · وقد أعاد أوغسطس ، فى تقسيم القطر الى أقاليم ، تنظيم المناطق الثلاث فأصبحت بلجيكا (شمال شرق) ، لقدنينسس Lugdunensis (شمال غرب ووسط) واكوطانيا Acquitania (غرب وجنوب غرب) وهى أسماء لا تزال باقية فى « بلجيكا » و « ليون » و « اكوطين » · وفى الجنوب بمحاذاة ساحل البحر المتوسط ، كان يوجد اقليم الغال النربونى Narbonese Gaul الذى كان يخترقه الطريق العظيم من روما الى اسبانيا ، وكان مركزه فى أزمن الجمهورية مستعمرة ماسليا (مارسليا) الاغريقية ، القديمة وهى مدينة متحالفة مع روما ، وتحكم بدستور حكومة أقلية أثارت اعجاب شيشرون وبعد سقوطها أمام جيش قيصر فى الحرب الأهلية (٢) انتزعتها منشئات أكثر حداثة مثل فورم (منتدى والأصل سوق) يولى Forum Julii (فريس Fréjus ، محطة الأسطول كطولون فى ايامنا) وأرليط Arelate (أرلس Arles) ، عند مصب الرون ، الميناء العظيم للتجارة الداخلية · وقد صبغ هذا الاقليم الجنوبى ، « البروفانس Provence » كما تعرفه الأزمنة التى جاءت بعد ذلك ، بالصبغة الرومانية بطبيعة الحال ، قبل أقاليم الداخل حديثة العهد بالفتح ، بأمد طويل · وظل الاختلاف قائما فى زمن متأخر ، فى مجال اللغة يمثله الفارق بين لغة الك Langue d' Oc ولغة أوى Langue d'Oil فى بقية فرنسا · ولقد نظمت أقاليم أوغسطس الثلاثة الجدد الى اقسام فرعية cantons ، قبلية يحكمها موظفون كلتيون ، لديهم

---

(١) فى أفريقيا محا المشارقة كل آثار النفوذ الرومانى · وكان أمراء المشارقة فى قرطبة ، من الجهة الأخرى ، حكاما متنورين حافظوا على الكثير من مخلفات الماضى ·

(٢) دانتى « المطهر : ١٨ ، ١٠٢ » — « لاخضاع الردا Ilerda ، طعن قيصر مارسليا ثم أسرع الى اسبانيا » ·

جنود غير نظاميين (مليشيا) · وكانت لقدونم Lugdunum (ليون) المركز الرئيسى للحكومة والتجارة · وهى مستعمرة أسست عام ٤٣ واستوطنها مواطنون رومانيون عند الموقع الذى يتشعب فيه الطريق الصاعد فى وادى الرون ، الى فروع تؤدى الى مختلف المعسكرات على التخم الألمانى · وهناك كان يعقد مجلس الأقاليم الغالية الذى كان يتعاون مع الحكومة الرومانية فى الضرائب وفى جمع شمل القبائل الكلتية حول عبادة روما وأوغسطس (١) .

وقد تقدمت الحياة الحضرية فى الأقسام Cantons بسرعة · ومن بين المدن الأولى التى أصبح لها شأن كانت ريمس وترير Trier فى اقليم بلجيكا وصارت الأخيرة منهما عاصمة الغال والغرب فى مستهل القرن الثالث · وقد كان شرق الغال أسرع اصطباغا بالصبغة الرومانية من الغرب · وكلما نهضت جماعات حضرية ، كانت الحقوق الرومانية تنسحب عليها ، وقد سمح قيصر للغاليين بدخول مجلس الشيوخ ووصلت الينا خطبة قلوديس التى منح فيها حق تقلد الوظائف للغاليين الذين منحوا الحقوق السياسية (٢) .

ولقد كتب قيصر عن هذا الشعب « كل مجتمع ينقسم الى حزبين » وقد استخدمت السلطات الرومانية هذه الانقسامات ، أتم استخدام ، لتوثيق حكمهم ضد الثورة · وقد ألغى الدين الدرويدى Druidic بقانون · ولم يقاوم طويلا وكان قد أوشك على التوارى عندما انتشرت المسيحية فى الأقاليم الشمالية · وكان القطر غنيا بالموارد المادية · ولقد كتب يوسيفوس « فى الغال يوجد موطن موارد الثروة وتغمر الأرض بفيضها » وكانت الزراعة أساس رخائه بينما فى الشمال الشرقى ، هيأت تربية الأغنام قيام صناعة المنسوجات مما جلب ، فى زمن مبكر لمدينتى اراس وطورناى شيئا من شهرتهما فى العصور الوسطى والحديثة · وكان الكلتيون رجال صيد عظام وقدموا فرقا كبيرة من المحاربين لخيالة جيوش روما · وكان لهم ميل نادر للتعلم وكانت أوطن Autun (أغسطو دونم Augustodunum) وبردو (بردغالا Burdigala) مقرى جامعات ومدارس شهيرة ، وقد عادت البديهة الحاضرة ومواهب الكلام لدى الكلتيين ، عليهم بصيت بعيد فى الخطابة والتعليم

---

(١) لم يكن كل سكان الغال من الكلتيين ، ولكن كانوا يضمون قبائل برية وجرمانية · وقد أنزلت الحكومة الرومانية الجرمانيين المهزومين فى أرض غالية ·

(٢) يلخص طاقيطس (فى الحوليات : ١١ ، الفصول ٢٣ — ٢٥) الخطبة · وفى زمن مبكر فى القرن السادس عشر ، وجدت أقسام منها فى ليون · راجع أرنولد الصفحات ١٤٥ وما بعدها ، عن التفاصيل ·

يرجع مبكرا ، الى القرن الأول [١] .

وقد قامت فنون النحت وخاصة ما كان يعالج مناظر من الحياة اليومية ، تلك التى كانت تنبىء مقدما بالنقوش البارزة التى تزخرف الكاتدرائيات الغوطية فى فرنسا فى العصور الوسطى ، حول ترير . وفى القرن الرابع ، كان أوسنيوس Ausonius البردوى ، أحد عظام الشعراء اللاتين المتأخرين المبدعين ، يتغنى بالقصيد ذى المقاطع الستة ، بمحاسن مناظر موزل الرائعة . ولقد قدمت كنائس الغال ، منذ القرن الثانى وما بعده الكثير من قادة العالم المسيحى الغربى . وكان الأساقفة من بريطانيا ، يرحلون الى أرلس لحضور مجالسها . وقصارى القول ، انه قبيل الوقت الذى انهال فيه القوط الغربيون والبرغنديون والفرنجة على سهول ووديان أنهار الغال ، كانت الغال قد تهيأت لمهمة بسط الرومانية والمسيحية على غزاتها وفى زمن لاحق ، فى القرن التاسع ، كانت مدارسها الموطن المختار لعلم العصور الوسطى [٢] .

١٦ — (٣) وكانت بريطانيا تقع فى أرباض العالم الرومانى ، القاصية وكان احتلالها فى عهد قلوديس هو الاستثناء الوحيد الدائم للمبدأ القائل ان الامبراطورية يجب ألا تمتد فيما يلى الحدود التى أقرها أوغسطس . وكانت تحكم كجزء من الامبراطورية قرابة أربعمائة عام . ولقد اتخذت ثلاث كتائب (أكثر من ١٥٫٠٠٠ جندى) جندت غالبيتهم من الوطنيين الذين اصطبغوا بالرومانية ، مراكزها باستمرار فى الجزيرة . وكان نفوذ المدنية الرومانية ينحصر ، فيما عدا فترة وجيزة ، فى المناطق التى تقع فى الجنوب من السور الذى أقامه ساورس من ولسند ، الى الشرق من نيوكاسل ، حتى كرسلى ولا يزال جزء كبير منه باقيا [٣] . وقد ظلت كرنول وحدها ، داخل

---

(١) كانت مدرسة أطون لتعليم شباب نبلاء الغال موجودة فى عهد طبريوس وسابقة له .

(٢) يجب ألا يغيب عن البال أنه بين الأقاليم الغاليه والحدود ، كان يمتد اقليمان (الأعلى والأسفل) يتكونان من شريط ضيق من الأرض تحرسه حاميات عسكرية أمامية ومعسكرات كتائب الراين العظيمة . كانت ألمانيا العليا أعرض الاقليمين اذ كانت تشمل رقعة عظيمة من الأرض البور المتنازع عليها بما فيها الغابة السوداء . وقد عزلها واسفاسيان وجعلها موطن Coloni Caesaris ، وهم زراع مرتبطون بالأرض . ولقد امتدت الثقافة الرومانية هنا ، بين القبائل الجرمانية الى حد أبعد مما كانت عليه الحال فى ألمانيا السفلى نوق كبلنز .

(٣) كان هدريان قد أنشأ طريقا (limes) فى محاذاة هذا الخط . وقد أقيم فى مكان أبعد الى الشمال ، حفرة وجسر من التراب وطريق ، من خليج

هـذه المنطقة ، لم تمسـها روما عـلى الاطلاق . وفى الشـمال كانت توجد مستعمرات عسـكرية فسيحة ، تكدست عـلى الأخص فى محاذاة السـور وفى مدينـة يورك . ولكن فى الجنـوب وخاصـة فى جلوسـتر وشرقى سومرسيت وهمبشر ونورثمبتنشر كان يوجد ، كمـا يدل الكثير من بقـايا المنازل الرومانيـة المنعزلة ، عدد وفير من السـكان المدنيـين المصطبغين بالرومانية وهناك على الأخص وضعت روما طابعها على السكان الكلتيين وكما جرت عليه الحال فى جميع أصقاع الامبراطورية ، كان حكم روما يعنى قيـام مستعمرات وطـرق عسـكرية . ولقـد كانت لولشستر ولنكولن ويورك وجلوستر مستعمرات رومانية وكانت فرو ليم (سـانت البانس) تستمتع بالتكريم باعتبارها بلدة Municipium . وكانت يورك مشـهد تتـويج الامبراطور قسطنطين ومنوى الامبراطور ساورس . ومن الطرق العظيمة كان شارع واطلنج يتجه الى الشمال الغربى ، من لندن الى روكستر ويسير شارع ارمين من كولشستر بجوار هنتنجدون ولنكلن الى يورك وكان الطـريق من لندن بجوار اسـتينس ، يتفرع عند سلشستر الى شـعاب تتجه صـوب سوثمبتن وسالسبورى والجنوب الغربى ، وجلوستر . وكان طـريق فوس يسـير بانحراف من لنكولن بجـوار ليستر الى كيرنستروباث . وقد اخليت أرض الغابات للزراعة وكانت بريطانيا تمد كتـائب الراين بالحنطة . وكان البنـاءون البريطانيون معروفين فى أوربا الغربيـة . وكانت المنسـوجات البريطانية تصدر للخارج . وكان محار كنت يزداد الطلب عليه فى روما ، وأصبحت مرافىء الجنوب الشرقى مراكز تجارة رائجة . ولم يكن نفوذ روما على الدوام خيرا ، ففى الأدوات التى يعم استخدامها كالأوعية ، أفسدت طرز الزخرفة التى اتخذت طابعا ثابتا ، حرية التخطيط القومية الكلتية . وذاعت اللغة الرومانية أولا بين أشراف الكلتيين ثم بين المجموع الأكبر من السـكان الوطنيين فى الجنـوب والشرق . وكان القـانون الرومانى ومناهج الحكومة عوامل للمدنيـة قوية المفعول . ويقص فلوطرخوس حديثـه مع معلم اغريقى عائد من بريطانيا الى وطنه على شـواطىء المشرق . وبتوسع المسيحية دخلت بريطانيـا نطاق الكنيسة . ولقـد كشف عن أسـس كنيسة مسيحية فى سلشستر وامتدت العقيدة الجديدة الى ويلز وفيما يلى تخـوم الامبراطورية الى ايرلنده . وفى بداية القـرن الخامس أدى الضغط عـلى تخم الامبراطورية القارى ، الى تخلى الحكومة الامبراطورية عن بريطانيا [١] . وعند انهيـار الحكم الرومانى اسـتعاد العنصر الكلتى فى الاقليـم مكانتـه . وتتمثل

فورث الى خليج كلايد . ونهض بذلك انطونيس فايوس وأتمـه سـاورس فى ختام القرن الثانى .

(١) عنـدما التمس البريطانيـون الحمـاية من الامبراطور أنوريوس Honorius ، فانه أمر مدنهم أن تحمى نفسها على أحسن ما يستطيعون .

فى شخص أرثر وهو زعيم كلتى كان يحمل اسما رومانيا وشطره تاريخى والشطر الآخر أسطورى ، مقاومة الكلتيين للسكسون ، وباحتلال السكسون ، زال معظم آثار نفوذ روما . ولم يكن القانون الأنجلوسكسونى يدين بشيء من محتوياته لقانون روما . ولقد تراجعت المسيحية أمام الوثنية الا فى ايرلنده والحصون التى لم تغلب ، فى ويلز . وأتى الغزاة على المدن الرومانية بالتخريب . ان ما تبقى من آثار الحياة الاقليمية القديمة فى بريطانيا السكسونية ، كان كلتنا ولم يكن على الأخص رومانيا [١] . وفى لندن وهى أعظم المدن الرومانية ، لا يوجد شارع واحد باق الى الآن يمكن أن يبرهن على انه يسير فى خط رومانى [٢] . ويمكن فى الواقع أن يقتص أثر بقية من السكان الكلتيين تحت حكم أسياد سكسون فى كنت ووسكس وقد حفظت المساحات التى أخليت من الغابات لزراعة الحنطة ، والطرق العظام سجل سياسة روما . ومن بين متنوع الأشكال الزاخرة التى تظهر على أقدم عملة انجليزية ، يمكن الرجوع بالكثير منها الى أصول رومانية . ولا تزال أكثر من ثلاثين مدينة وقرية تحمل أسماء مشتقة من تلك التى كانت متداولة خلال الاحتلال الرومانى [٣] ــ سواء أكانت كلتية أم لاتينية ــ ولكن فيما عدا هذه الاستثناءات القليلة ، لم تترك روما أية علامة باقية على الزمن ، فى تاريخ حياة بريطانيا [٤] .

---

(١) فى كل أنحاء انجلترة ، تسلم الغزاة السكسون أسماء الأنهار التى كانت كلتية فى آخر أمرها ، دون تغيير .

(٢) مثال ذلك ، تقع أسس الأبنية الرومانية وهى تتقاطع مع خط تشيبسايد Cheapside . وتسير كثير من الطرق الرومانية على مسافة قصيرة من المدينة مثل شارع : Clapham High Street ،(شارع استين) و Mile End Road (طريق لندن ــ كلشستر) و Kingsland Road. (شارع ارمين Erminé Street) وشارع أكسفورد Oxford Street (الطريق الى سلشستر وتفرع شارع واتلنج صوب الشمال عند Marble Arch)

(٣) مثال ذلك ، Lichfield (Letocétum) و Manchester (ربما Mammium) و Richborough (Rutupiaec Repata Caestir) و Winchester (Venta) وقرية Mancetter فى Warwickshire

(٤) عن بريطانيا الرومانية ــ راجع طاقيطس « حياة أغريقولا » زوج أمه الذى كان القائد فى انجلتره فى عهد طيطس ودمطيان . وفى هذا القسم كنت مدينا بصفة خاصة الى معاونة زميلى السابق الأستاذ F. N. Stenton ف.ن. استنتون (المؤلف) .

٣ ـ القانون والأدب

١٧ ـ كانت الفترة التى تقع بين أوغسطس وديوقلطيان العصر الذهبي للقضاء الروماني الذى نما ووصل الى الكمال على أيدى نابهى الشراع الذين كانوا يعملون كأعوان للزعامة الملكية • ولقد فصل القانون المدنى القديم عن الزيادات الرسمية والبقايا المتهالكة • وعلى سبيل المثـــال ، فقدت ســلطة الوالد patria potestas الكثير من صلابتها التقليدية • ولقــد مهد توسيع قرقلا لصفة المواطن الرومانى حتى تنسحب على كل سـكان الاقاليم الأحـــــرار ، الطبـــــريق لادماج قانون الأمم (jus gentium) فى قانون روما المدنى jus civile • واهم مظاهر التاريخ القانونى فى القرون الثلاثة التى نستعرضها ، كانت :

١ ـ تكملة القانون البريتورى بالمرسوم الدائم •

٢ ـ نهوض التشريع الامبراطورى •

٣ ـ انشاء قضاء علمى •

(١) بلغ النشاط البريتورى فى مجال وضع القوانين ذراه فى آخر قرن للجمهورية • وقد جرت العادة فى عهد الأباطرة الأوائل بأن يتخذ الموظفون البريتوريون مرسوم سالفيهم دون تعديل الا فى النادر • وقد اعترف هدريان بهـذه العـادة عندما وكل الى محـــام جليـــل وهو ســـالويس يوليانس Salvius Julianus مهمة مراجعة مراسيم بريتـــورى الأجانب والمـدن واصـــــدار النتيجـــة التى وضـــعت فى مدونة قانون ، كمرســوم دائم edictum perpetuum ملزم • ومنذ ذلك الحين ، لم يكن فى الاســـتطاعة ، ادخال اضافات أو تعديلات • وقد أجـرى أيضـا ما يماثل هـذا على مراسيم الموظفين فى الأقاليم • وهكذا أكمل مرسوم يوليانس ، على هـــذا النحــو واختتم مجموعة القوانين البريتورية • وبهذا كان العلامة على توطيد السيادة الامبراطورية على سلطة الموظفين الجمهوريين نهائيا ، فى مجال القانون •

(٢) وكانت ســلطة التشريع فى عهد الجمهـورية هى مجلس (Comitia) الشعب الرومانى • وكان أوغسطس لا يزال يعرض المشـاريع الهامة التى تتصل بالاصلاحات الخلقية وعتق العبيد ومركز المعتقين والاجراءات القضائية ، على المجلس للتصديق عليها رســميا ولـكن منذ حكم طبريوس فصـاعدا ، تحولت مهامه التشريعية الى مجلس الشيوخ وكان من بين أعضاء هذا اللفيف كثير من نابهى المحامين وأدت مراسيمه Senatus Consulta دورا عظيمـا فى تقدم القانون فى القرنين الأولين • وبينما كان الأباطرة يقـومون برقابة

لا تنى تتـزايد ، على مداولات مجلس الشـيوخ ، فانهم كانوا يترددون حتى ذلك الحين فى وضع تشريع بموجب سلطتهم الخالصة • ولكن قبـل القـرن الثالث ، كان قد أصبح « للدساتير » الامبراطورية قوة القانون ، وبعد ذلك التاريخ غـدت الأداة الوحـيدة للتشريع • وكانت تشـمل : (أ) المراسيم أو الأوامر العامة التى تفسر القانون والتى كان الامبراطور بما له من سـلطة imperium يعلنها على لافتـات كمـا كان يفعل البريتوريون فيما مضى من الزمان • (ب) الفتاوى أو الأحكام المكتوبة عن الالتماسـات التى يوجهها اليه الأفراد العاديون والموظفـون (ج) المراسـيم أو القواعد التى توضـع عن الاستئنافات القضائية و (د) الوصـايات أى التعليمات التى تكون لهـا فى الغالب صـفة ادارية والتى ترسـل الى حكام الأقاليـم(١) • ويجب أن نوجز شرح أداة سير القانون الجنائى الذى كان قد نظم لأول مرة ، تنظيمـا فعـالا ، فى آخر عصر للجمهورية عندما وسع سـلا نظام المحاكم الدائمـة (quaestiones perpetuae) التى يرأسها رؤساء بريتوريون وتضم قضاة من طبقة الفرسان equestrian ويتوارى هؤلاء فى ختـام القـرن الثانى • وكذلك ولاية مجلس الشيوخ للقضـاء الجنائى التى منحها أوغسطس لهـذه الجماعة • وهنا ، مرة أخرى ، كان الامبراطور وهو يعمل عن طريق مندوبيه وخاصة الرؤساء البريتوريين ، يجمع كل سلطة قضائية • وعلى هـذا ففى الدعاوى المدنية والجنائية ، أصـبحت منصته القضـائية ، المحكمة العليـا للاستئناف ، للعالم الرومانى •

(٣) لقد صيغ القانون الرومانى ، ليس على مذهب سـبق تصوره ولكن عن طريق الاستقراء على أساس التجربة العملية وكان يشتمل عـلى مجموعة عظيمة من الأحكام والقواعد المرعية التى ترجع الى العادات القديمة أو توضـع لسد مطالب خاصة • وكانت مبادؤه تجىء ضمنا فى تكوينه ، أكثر من أن تكون مصاغة فى وضوح • وكان أول شارع حاول اسـتخلاص هذه المبادىء وتنظيم هذه المجموعة العظيمة من القوانين الخاصة وفقا لطبيعة محتوياتها هو كينتس مكيوس سكاولا Quintus Mucius Scaevola الأصغر ، الذى كان حبـرا أعظم Pontifex Maximus حوالى عام ١٠٠ ق٠م٠ ويمـكن أن يقيـم سكاولا دعواه بحق ، فى اعتباره مؤسس القضـاء الرومانى • ومنذ عهـده

---

(١) من الوجهة النظرية ، كانت المراسيم تفقد صحتها عند موت الزعماء princeps ولو أن خلفاءهم كانوا ، فى الكثير الغالب يجددونهـا • وكانت الفتاوى ، تعليمات ملزمة للقاضى فى المادة الخاصة بالقضية المتنازع عليهـا بينما كانت المراسيم ، قواعد لها أهمية عامة والوصايا ، عندما كانت تعنى بنقاط قانونية ، كان لها قوة الفتاوى وفى حالات كثيرة ، كانت تعالج مواد سياسية مؤقتة • وفى معنى أدق ، لم تكن تعد « دساتير » •

فصاعدا تقدمت دراسة القانون دراسة علمية ، تقدما سريعا ٠ وقد أصـــدر أوغسطس اعترافا رسميا بعمل الشارعين بأن قرر أن يكون لطائفـة منهم ، ينتخبون لتفوقهـم ، حـــق الادلاء با راء يكون لهـــا ســـلطة امبراطورية (jus respondendi ex auctoritate principis) ٠ وكانت اجاباتهــــم المكتوبة عن مسائل القانون التى تعرض عليهم والتى تسلم للمحكمة مختومة ، يلتزم بها منذ ذلك الحين ، الموظفون والمواطنون العـاديون ، الذين غالبـــا ما يكونون غير متفقهين فى القانون ، وكانوا يؤدون وظائف القضاة Judices ومن عهد أوغسطس فصاعدا ، كان لمدارس القضــاء التى نظمت فى جمعيات متحدة ، تأثير على تقدم القضاء ، يطرد ازديادا[١] ٠ وهى لم تصغ القانون فى مذهب وحسب ، ولكن خمرته بآراء نظرية من طراز لم يخطر عـلى بال فى أزمن الجمهورية ٠ وقد تجلت بواكير ثمار هذه الجهود للعيان فى مرسوم يوليانوس ســالف الذكر وفى العجالات المنظمة التى كان يضــعها المحامون فى عصر هدريان والأنطونيــين ، من امثــال كالسس Celsus) وكيكليوس Caecilius وأفريقانس Afrecanus وجايوس Gaius ٠ وقد تبـــع هؤلاء بين عامى ١٧٠ و ٢٣٠ كينتس كروديس ســكاولا وتلميذه بابنيـــان Papinian ، أعظم الشارعين الرومان ٠ وكان كلاهما من سلالة هلينية ٠ وكان من خصائص هذا العصر ذى النهج العالمى أن عقل اليونان وضــع طابعه عـلى القانون الرومانى ٠ وفى عهد ســاورس ألكسندر (٢٢٢ ـ ٣٥) كان يعيش أولبيان Ulpian وبول Paul وقدم أولهما ويرجع أصله الى صــور ، المواد لنصف مجموعة قوانين جوستنيان المختارة [٢] Justinian's Digest وكان خاتمة الشـــارعين العظام فى منتصف القــرن الثـالث تلميذ أولبيـــان Ulpian ، الاغريقى هرنيوس مدسطينوس Herennius Modestinus ولم يمض كبير زمن بعد ذلك ، حتى حلت الفتاوى الامبراطورية محل استفتاءات علماء القانون responsa prudentium وفى التفسير كما فى التشريع ، يظل الامبراطور معين القانون الأوحد ٠

---

(١) فى القرن الأول وبواكير القــرن الثانى ، كانت توجد مدرســـتان عظيمتان فى روما أســسهما ، على الولاء ، لابن Laben وأطيــوس كابتــو Atteius Capito ، من رجال التشريع فى عهــد أوغسطس ٠ وكان يطلق عليهما اسمى أتباع المؤســسين ، المدرسة البروكيولية Proculian والمدرسة السابنية Sabinian راجع سوهم Sohm «أنظمة القانون الرومانى» § ١٥٠

(٢) كان سكاولا Scaevola عضوا فى مجلس دولة مارقس أورليس ٠ وكان بابنيان Papinian الرئيس البريتورى فى عهد ســاورس ، زميــله القــديم فى التلمذة ، وقتــل بأمر قرقلا (٢١٢) ٠ وتولى ألبيـــان Ulpian وبول Paul الرياسة البريتورية فى عهد ساورس ألكسندر وكان امبراطورا من السلالة الهلينية ٠

١٨ ـ ولقد بعث أساتذة القضاء العظام أولئك روحا جديدة فيقانون روما ويتجلى نشاطهم العقلي فيما بذل من جهد لتقصى النية التى ترجع اليها المعاملات بين المتعاملين وصياغتها فى مبدأ منظم لجميع الحالات التى يمكن تصور قيامها • فعلى سبيل المثال ، فى معالجتهم لقانون الالتزامات فانهم قلبوا كثيرا وجوه الرأى فى العقود التى يجب أن تقدر فيها النية غير المفصوح عنها bona fides • ويقول أحد الثقاة المحدثين « ان قانون الالتزامات ، وهو دون سواه ، يتكون منه ، فى أصدق وأدق معنى ، القسم الذى لا يغنى ، من القانون الرومانى • وهو لا يمكن الغاؤه • ان نية الشارى والمؤجر الخ هى بعينها فى جميع العصور وهى هذه النية التى جلاها القانون الرومانى ••• انه هذا التمييز العجيب ، هذا البصر الصافى فى التوفيق بين المبادىء المتعارضة ، تهديه قدرة لا يعتريها فتور أبدا ، على تبين العناصر المشتركة وهذه الموهبة الفريدة فى وضع تعبير ظاهرى عن قانون ملازم لحالات معينة وهو القانون الذى اذا وجد ، فانه يأتى بالقاعدة التى تنسحب ـ مع تغيرات عملية كثيرة بطبيعة الحال ـ على جميع الحالات الأخرى من هذا النوع ، هى المظاهر التى تدين لها كتابات الشارعين الرومان بروعتها التى لا تضارع ، والعمل الذى حققوه بقوته التى لا تفنى» [١] • وفى نفس الوقت ، كان هؤلاء المفكرون يبعثون فى القضاء الرومانى بأفكار مستمدة من الفلسفة الاغريقية ، تلك التى قدر لها ، فى هذا الوسط الجديد ، أن تؤثر على فكر العهود اللاحقة ، الخلقى والتشريعى • وأعظم مثال يسترعى النظر هو تصور قانون الطبيعة (jus naturale or naturae) • ويرجع مصدره الى الرواقية ، المذهب الهلينى الوحيد الذى أثار استجابة واسعة النطاق من العقل الرومانى العملى والذى كان لا يزال فى القرن الثانى مدرسة الاغريق الفلسفية التى لها المنزلة الأولى • وكان البيان المسئول أصلا عن ادماج هذا التصور ، فى تكوين القضاء الرومانى • وكان يشمل القواعد العامة للأخلاق ، التى تفيض من طبيعة الانسان ككائن عاقل ، بغض النظر عن السلالة أو الزمن كتلك التى تأمر بالاعتراف بأواصر القرابة واحترام التعهدات والتقسيم العدل للكسب أو الخسارة واستعلاء النية على الألفاظ التى عبرت عنها تعبيرا غير مكتمل • وعلى هذا ، فان الرقيق له بموجب قانون الطبيعة ، حقوق ينكرها عليه القانون المدنى وقانون الأمم jus gentium وسنرجع الى هذا التصور لقانون الطبيعة jus naturae فى فصل قادم [٢] • لقد كان له تاريخ طويل

---

(١) سوهم § ١٥ الصفحتان ٧٣ ـ ٧٤ •

(٢) راجع فصل ١١ § ١٥ وما يليه • كان من العسير تحديد الخط الفاصل بين قانون الطبيعة (jus naturae) وقانون الأمم (jus gentium) وقد حل البيان المسألة بتعريف أولهما بأنه القانون الذى تشترك فيه جميع الكائنات الحية وثانيهما بأنه ذاك الذى يشترك فيه كل البشر • ولم يأخذ

لا يغيب عن الأذهان وقدم مبدأ سيطر على الفكر الخلقى والسياسى فى أوربا الغربية خلال الف وخمسمائة عام ونيف ٠

ب ـ الأدب

١٩ ـ ان أدب الحقبة يرتبط ارتباطا وثيقا بالحياة العامة دائمة التغير فى الدولة الرومانية ٠

(أ) أنجب آخر جيل فى الجمهورية شاعرين عظيمين ٠ لقرطيس الذى عبر فى شعر من ستة مقاطع عن مبادىء أبيقور الفلسفية ، وكاتولوس الذى تضارع قصائده الغنائية قصائد برنز Burns أو هين Heine بينما يذكرنا فى مداه وشخصيته ببيرون [١] ٠ وبين كتاب النثر ، يبرز اسمان بروزا ظاهرا ٠ لقد كانت عبقرية قيصر فى الأدب تلى فقط عبقريته فى الحرب والسياسة ٠ وكانت خطبه ورسائله ذائعة الصيت ، كنماذج عليا للأسلوب ٠

أحد من شارعى ذلك العصر بهذا الرأى ، ولو أنه يظهر فى مجموعة جوستنيان المختارة Digest وفى كتابات القرون الوسطى ٠ وجايوس ، وهو رومانى خالص ويسبق عهده عظام الشارعين الاغريق والاغريق الشرقيين ، هو دون سواه الذى يتعرف هوية واحدة لقانون الطبيعة وقانون الأمم وقد عرف الأخير بأنه « القانون الذى يخصه العقل الطبيعى بجميع البشر » وقد احتذى جوستنيان مثاله فى هذا ٠ وتبين حالة الرقيق التى أشير اليها فى النص وجه الاختلاف ٠ ان الحرب والرق كليهما يناقضان قانون الطبيعة الذى بمقتضاه يولد جميع الناس أحرارا ، وهما والعقود يصدران عن قانون الأمم ٠ قابل « أنظمة » lib. i و Iit, ٣و٢

Servitus autem est constitutio juris gentium, qua quis domino alieno contra naturam subiicitur

« ان الرق هو من وضع قانون الأمم ، وبمقتضاه يصبح الرجل خاضعا لسيد غريب بمايناقض الطبيعة» ٠ وكان jus gentium يتضمن jusinter gentes وهو أقرب ما وصلت اليه الأزمن القديمة للقانون الدولى راجع دائرة المعارف البريطانية المجلد ١١ فى موضوع القانون الرومانى ، الصفحتين ٥٦١و٥٦٢ ٠

(١) عن « أبيقورية لقرطيس » راجع عاليه فصل ٦ § ١٨ ٠ لم ينل الا اليسير من التقدير فى الأزمن القديمة ، الا من فرجل الذى يكشف فكره وشعره على السواء ، عن نفوذه ٠ ويضعه كونتليان فى مصف شاعر من الطبقة الثالثة فى عهد أوغسطس وينحيه على أنه أنيق فى مجاله ولكنه عسير الفهم (Inst. Orat ١٠ فصل ١ § ٨٧) ولقد ترك للقرن التاسع عشر تعرف عبقريته الشعرية ٠

وكتابه عن الحرب الغالية لا يبارى كسرد تاريخي عظيم ، كما يبعث اختفاء المؤلف لشخصه ، تأثرا فريدا بعمله العظيم الرائع [1] . ولكن أصدق ممثل للعصر كان شيشرون الخطيب والسياسي الجمهوري ، الذى كانت كتاباته النثرية - خطبه ورسائله وعجالاته عن الخطابة والفلسفة - يعترف بها كنماذج للغة اللاتينية بالغة أعلى ذروة فى زمنه وفى كل زمن لاحق . واللاتينى الاتباعى (الكلاسيكى) هو اللاتينى كما كان يكتبه شيشرون . ولقد استخدمه شيشرون ليحوى صنفين عظيمين من الآراء - عظمة روما والمثل الأعلى للثقافة الانسانية . أما عن الأول فيمكننا أن نقتبس ألفاظ نيومن : « لقد أدرك شيشرون فى جلاء مكانة عضو الشيوخ والسياسى الرومانى و «منزلة الفخار» التى كانت لروما فى كل السماحة والعظمة اللتين اتسمت بهما ، ولقد استوعب ما كان يعجب به وصار من خصاله . وكما أن مغامرات اسقفيون أو بومباى هى التعبير عن هذه العظمة فى الأفعال ، كذلك كانت لغة شيشرون فى التعبير عنها بالألفاظ . وكما أن أفعال الحاكم أو الجندى الرومانى تمثل لنا ، بطريقة خاصة بها ، العظمة التى اختص بها سادة العالم فهكذا توردها خطب أو عجالات خطيبها مكتمل الثقافة الى خيالنا بما لا يمكن لكتابة أخرى أن تفعل » .

وما كان لوى أو طاقيطس أو طرنس أو سنقا أو بلنى أو كونتليان بالمتحدث عن المدينة الخالدة ، الكفيل بذلك . انهم يكتبون اللاتينية أما شيشرون فيكتب الرومانية [2] . وقد كانت الخطابة منذ البداية الفن الذى يمارسه الرومان وله عندهم أعظم احترام . ومنذ زمن شيشرون فصاعدا أصبح الموضوع الرئيسى فى الأدب وفى التعليم . وكانت قيمة الشعر والتاريخ ، والفلسفة وحتى العلم تنحصر فى أنها عوامل للفصاحة . وكان مطمح الشاب القدير فى ايطاليا والأقاليم أن يكون خطيبا . وكانت جميع دراساتهم فى المدرسة وفى الجامعة تنظم كترويض لبلوغ هذه الغاية . واستمر تأثير شيشرون ، وهو يعمل عملا مباشرا ، على هذا النحو فى جيله

---

(١) فى تقدير كونتليان ، أنه لو أن قيصر تاح له وقت فراغ ، لتعادلت خطابته مع خطابة شيشرون . وقد كانت تتميز بالقوة وتوخى القصد والحماسة ، الصفات التى كانت تتجلى فى ادارته رحى الحرب (Inst. Orat ١٠ ، ١ ١١٤) .

(٢) « فكرة جامعة » (محاضرة فى الأدب) الصفحتان ٢٨١ و٢٨٢ . ان معنى العبارة الأخيرة ، بطبيعة الحال ، ليس أن أسلوب شيشرون كان أسلوب الرومانى النموذجى ولكنه يعبر تعبيرا بالغا عن فخر وجلالة الدولة الامبراطورية . وقد اتهمه بعض المعاصرين بأنه « متبجح وآسيوى ومتغال بغير حق » (خطابة شيشرون ، طبعة ساندر Sandys ، المقدمة صفحة ٦٠) .

والأجيال المتعاقبة ، دون انقطاع خلال القرون الوسطى حتى الأزمنة الحديثة . وبينما قدر لشيشرون الجمهورى أن يلهم الثورة الفرنسية ، فان شيشرون ، الباحث في طبيعة الانسان أثر تأثيرا عميقا فى ثقافة عصر النهضة . وقد ينعدم فى عادة كتاباته الفلسفية الابتكار وقوة التفكير ، ولكن شهرة شيشرون كأعظم رجالات الأدب الذين عاشوا أبدا ترجع أكثر ما ترجع الى أنه وحد فى شخصه الرجل المفكر ورجل الأعمال وفوق كل شيء الى أنه استوعب وعبر عن الروح الحضرية والمعرفة بالطبيعة الانسانية وهو ما يتميز بهما عصر المدنية الإغريقية الرومانية .

وبفضل المحافظة على رسائله ، فان لدينا معرفة به أفضل من معرفتنا بأية شخصية تاريخية أخرى فى الزمن القديم .

٢٠ — (٢) وكما أن الحرب مع قرطاجنة هيأت موضوعا لانيوس وهيأ غزو الغال موضوعا لقيصر — فهكذا كان لم شمل العالم المتمدين فى عهد أوغسطس ، معين الالهام الأساسى لكتاب عهد أوغسطس . ولما كان قد ربأ ازدهار هذا العهد فى كل مجال تقريبا فى الشعر والنثر على السواء ، فقد كان كما يدل اسمه ، عصرا للرعاية الأدبية المباشرة من جانب الامبراطور ووزراء دولته ، واننا لا نزال نتحدث فى شيء من السطحية عن عهود كأمثال عهدى لويس الرابع عشر أو آن Anne بأنها عهود « أوغسطية » فى الأدب الفرنسى والانجليزى . وكان حدب أوغسطس حرا وسخيا وعمل دون ريب كحافز لرجال الأدب للاشادة بالامبراطورية وحاكمها . ولكن أهم مصدر للالهام كانت الامبراطورية نفسها — العصر الذهبى للقانون والسلام — الذى كان يظهر بأنه يضم البشرية المتمدينة كلها ، وأنه وضع حدا ، الى الأبد لفوضى واضطراب الحروب الأهلية . وقد صنف لوى ، وقد تملكه احساس بهذا العمل الجليل ، تاريخ روما من بداياته الأسطورية الى قمة البنيان الذى وصل اليه أوغسطس ، وحتى هوريس الذى كان جمهوريا فيما سبق ، تحول عن مباهج مزرعته السابنية الوادعة ليمجد عمل الامبراطور وواجب حب الوطن فى طائفة نبيلة من القصيد الغنائى [1] . ولكن القصيدة التى تظل الى الأبد التعبير الرائع عن بهاء وعظمة روما هى الانياد لفرجل . ولقد ألهم بكل

(١) توجد القصائد الغنائية المشار اليها فى الكتاب الثالث Odes ١—٦ و Odes (١) ، ١٢ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٣٧ و(٣)، ١٤ و(٤)، ٢ ، ٤ — ٥ ، ١٤ ، ١٥ و Carmen Seculare تعالج نفس الموضوع . وينصح الى القارىء الذى لا يلم بالآداب القديمة (الكلاسيكية) ألا يحمل نفسه مشقة قراءة لوى حتى ولو كان مترجما وهو كمؤرخ ، أقل مرتبة من الاغريق ومن قيصر وطاقيطس بين الرومان .

سطر تقريبا احساس بالمصير الالهى للمدينة الامبراطورية التى غدت فى ذلك الوقت سيدة العالم nunc maxima rerum • لقد رسم القدر أن يساق انيـــاس Aeneas ليضرب فى الآفاق برا وبحرا بعد سقوط طروادة الى أن أوجدت له عناية السماء مستقرا على التربة اللاتينية كجد لمؤسسى روما. (١) وكان التقى - الولاء البنوى للآلهة - هو الدافع لكل أعماله ، لهجرانه ديدو Dido ، مؤسسة قرطاجنة ، عدوة روما التاريخية ولرحلته فى العالم السفلى حيث شاهد أشكال عظماء الرومان الذين سيتمخض عنهم المستقبل ولتحالفه مع أمير لاتينى وتأسيسه مدينة لاتينية (٢) • ومن البداية الى النهاية يداخلنا الوعى بغرض الشاعر وهو أن يخبر عن مبلغ الجهد الذى بذل لوضع أساس سلالة روما (٣) •

٢١ - ان أدب ما بعد العصر الأوغسطى يختلف جدا فى نغمته • لم يكن الا للحظة أن أمكن لنبع الخيال الخالق ان يجد الرضى فى واقعة قيام الامبراطورية وما كان باستطاعته أن يعقد اتفاقا دائما مع ما كان فى نهاية الأمر حكما استبداديا عسكريا • وانا نرى آيات التغيير بادية فى أوفيد آخر شاعر فى العهد الأوغسطى • ولما كان أوفيد رجل متعة لا يأبه لشىء ولا يقيم وزنا لمسئولية والمحب للمجتمع وعالم العاصمة البهيج • فانه كان يملك مهارة عجيبة فى القريض والصنعة الشعرية ومما له دلالة أعظم ، فى وضع القصص الابداعى (الرومانتيكى) • ولم يكن أوفيد شاعرا من الطراز الأعلى ولكن واحدا من أحسن شعراء الطبقة الثانية فى الأدب (٤) ، وهو جدير بتنويه خاص فى هذا المقام لأن أحسن عمل له ، «التحول» "Metamorphoses"

---

(١) انياد : ١ ، ٣٢ (acti fatis) - قابل ١ ، ٢٠٨ - ١٠ •

(٢) انياد : ١٢ ، ٨٣٨ - ٩ • كانت كبرياء الرومان تتميز تميز تقواهم (انياد : ٦ ، ٧٨١ ، ٨٢٣) • ولقد أدرك فرجل أن المزاج الرومانى كان مسالما وليس محاربا (انياد : ١ ، ٢٨٦ Romanos verum dominos gentemque togatam « ان الرومان ، أسياد العالم ، السلالة التى ترتدى ثوب السلام ») •

(٣) انياد : ١ ، ٣٧ - قابل ١ ، ١ - ٣٠٠ و٦ ، ٧٦٩ - الى النهاية و ٧ ، ١ - ٢٨٥ و ٨ ، ٦٠٨ - الى النهاية و١٢ ، ٧٩١ - ٨٤٢ وهى نصوص تتضمن فكرة روما الامبراطورية • وقد دفع فرجل الى كتابة مؤلفه الأسبق Georgics - « أعمال الزراعة » - أصلا ، حبه لحياة الريف ، ولكن أيضا رغبة أوغسطس الصريحة فى اجتذاب الأرستقراطية الرومانية للعناية بالزراعة •

(٤) لقد كان « شاعرا تعشق الشعر عشقا جارفا » ، اذا كنا لنقتبس تقدير الأستاذ جلبرت مرى أوفيد فى « مقالات وخطابات » •

حيث تنعكس شخوص الأساطير الاغريقية من خلال جو ابداعى غريب ، كان له تأثير عميق على العصور الوسطى وعلى عصر النهضة كليهما ، وكان دانتى يستمد منه معرفته بالأسطورة الاغريقية . وكان المرجع الكلاسيكى المحبوب لمونتينى Montaigne عالم الآداب القديمة . وأوسع من ذلك فى مداه هو دين العصور اللاحقة لسنقا القرطبى وزير نيرون ، الأول وضحيته ، والرجل الذى يجىء فى مقدمة أدباء زمنه .

ولقد وضع سنقا مصنفات هائلة وفى أسلوب زاهى الألوان ومؤلفة فى الطبيعة ، ولو أنه يخلو من قيمة علمية فانه قوبل على أنه من الأسانيد ، فى العصور الوسطى ، ومآسيه وهى تزخر بالثرثرة المضنية كان يضعها بن جنسون Ben Jonson فى مصاف مآسى كتاب الفاجعة الأتيكية (١) . أما العجالات الأخلاقية ، من الناحية الأخرى ، فانها فى الأسلوب والمادة على السواء أكثر استحقاقا ، لما كان لها من صيت عظيم فى الزمن السابق . ولقد عالجت عقائد المذهب الرواقى فى صورة أنيقة وجذابة وكانت تتميز بالاخلاص فى العقيدة . وبالبصيرة النافذة فى طبيعة البشر ، وبادراك صاف للمبادىء الفلسفية . وكانت فى نظر علماء الدراسات القديمة فى القرن السادس عشر وحتى لديكارت فى القرن السابع عشر ، تعتبر القول الفصل فى موضوع الأخلاق ، ان هذا واحدا فقط من أمثلة كثيرة للقيمة التى لا تناسب فيها تلك التى كانت تضفى فى القرون الوسطى وفى عصر النهضة على كتاب ما بعد العصر الأوغسطى الذين نقلوا تراث الزمن القديم الاتباعى النبيل . وفى الواقع ، لم يكن سنقا بالسياسى العظيم أو المفكر العظيم ، وكانت أهميته كرجل يقوم بالوساطة فى الثقافة تربو على مزاياه الحقيقية (٢) . وفى عطفه على ضعف الانسان وترحه ، فانه كان يضرب على

(١) مكيل : « الأدب اللاتينى » فى السطور التى كتبها بن جونسون على أول طبعة من الحجم الكبير لشكسبير ، نقرأ :

ولو أنك حصلت على القليل من اللاتينى ، والأقل من الآغريقى
ولهذا فانى لا أبحث ، لتكريمك عن أسماء
ولكن استدعى اسخولس الراعد
ويوريبيدس وسفوكلس الينا
وباكوفيوس Pacuvius وأتيوس ، وذاك القرطبى ، الموتى ،
الى الحياة مرة أخرى ليسمعوا حذاءك الثقيل يخطو
ويهز مسرحا .

(٢) ان كونتليان الذى كان يقدر مزاياه بينما يشعر بالأسى لتاثيرات أخطائه الضارة على الذوق المعاصر ، يختتم نقده بهذه العبارة : « لقد حقق الهدف الذى نصبه أمامه ومع هذا فان طبعه كان يهيئه لأغراض أسمى » (Inst. Orat : ١٠ ، ١ § ١٣١) .

نغمة غريبة على تقاليد الرواقية الصادقة ، وكان يعلن مقدما عن المشروعات الخيرة التى نهض بها أباطرة القرن الثانى · وكان وجود هذه الروح الجديدة فى كتابات سنقا ، هو الذى سبب قيام الأسطورة المسيحية عن صداقته الشخصية للقديس بولس · كذلك لا ينبغى أن نتجاهل الدور الذى قام به فى العملية النسقية التى تغير بها صوغ اللاتينى الاتباعى الى ذلك الذى كان فى القرون الوسطى [١] · واعتبار آخر مماثل يرتبط باثنين آخرين من معاصريه وكلاهما لاقى المصير الذى لاقاه على يدى نيرون هما لوكان Lucan ابن عم سنقا الذى تغنى بالحروب الأهلية بشعر الملحمة وبعواطف جمهورية ، ونترونيوس أربتر الذى وصلتنا قصته وهى تصف مغامرات معتق اغريقى فى ايطاليا ، وهى لا تعطينا صورة رائعة للأخلاق الاجتماعية فحسب ، بل ان الشذرات الفريدة الباقية منها تعد النموذج الوحيد للكلام الشعبى فى عهد الامبراطورية الباكرة [٢] ·

---

(١) فى روايات سنقا الفاجعية تصلب وزهو ولكن لسنقا أهمية حقيقية فى « ديالوجاته ورسائله » لأنها تعرض اللاتينية فى مرحلة تكون فيها قد اكتسبت مرونة اللغات الحديثة التى انحدرت من اللاتينية الدارجة (الرومانسية) · ويستبين منه حرية مستحدثة فى استخدام المصادر والصفات كأسماء وفى التوسع فى استخدام حروف الجر التى يمكن أن تحمل فى دقة ، معناها فى الفرنسية · وكان مجددا فى اختراع الألفاظ أو على أية حال فى تقديم الكثير منها فى الكتابة المحترمة · وعلى سبيل المثال تلك الأصول اللاتينية للألفاظ

"Inspector", "favourable", "vulnerable", temporary"

ومن العسير تقدير الى أى مدى كان حديث الأشخاص العاديين أو المثقفين يختلف عن أسلوب اللاتينية الذى فرضه على العالم تفوق شيشرون ، ولكن من الجلى أن سنقا أدخل الكثير من الألفاظ النافعة التى كانت حتى ذلك الحين تعتبر عامية ، فى النثر الجيد · ان الكسب الذى جلاه فى مرونة اللغة ملحوظ · ولو أنه يغلو فى الرغبة فى تحديد النقاط ، فانه يكتب فى أحسن مايستطيع فى حرية ونهج طبيعى ، كما فى العصر الحديث تماما · وكما فى العصر الحديث أيضا تمكنه من وضع الجمل القصار وفضحه ضعفاته الصغيرة الخاصة به ومظهره الواثق بأن القارىء يعنى بالصغائر التى تتصل به · ويرجع اهمال كتاباته الى القرن التاسع عشر وهو ليس حقيقا به · لقد تعلم مونتانى أستاذ المقالة الحديثة الكثير منه (عن هذه التذكرة ، أقر بأنى مدين لعطف السيد فرنون رندال Mr. Vernon Rendall) ·

(٢) لقد نشأت الرواية لتبقى · ويرجع أصلها الى الاغريق فى العهد الهلينى ولكن كتابة « التهكم » Satura الرومانية أضافت عنصرا جديدا · وفى منتصف القرن الثانى كان أفولايس Apuleius أهم كاتب روايات =

٢٢ — وتعرف الفترة الواقعة بين واسفاسيان وهدريان بالعصر الفضى فى الأدب اللاتينى • ومن بين طائفة من الكتاب ، يبرز ثلاثة ، لما كان لهم من نفوذ على الازمن اللاحقة وهم استاتيوس Statius وكونتليان اللذان عاشا فى عهددميطان ، وطاقيطس الذىعاش فى عهد ناروا وطريان • اناستاتيوس يلم به جميع قارئى ملحمة دانتى الكوميديا الالهية Divina Commedia على أنه الشاعر الذى صحبت روحه الحجاج فى المطهر وبعد رحيل فرجل ، صعد مع دانتى وبيترس Beatrice الى الفردوس ويرجع بعض ظفره بهذا التكريم الى صفته كشاعر ملحمة ، اقتفى ولو من مسافة بعيدة خطى فرجل• ولكن يرجع معظمه للأسطورة الغريبة التى سجلت تحوله للدين المسيحى • وكانت لكتابات كونتليان قيمة ذاتية عظيمة وأتت بتاثير أوسع نطاقا • وكان على مثال سنقا ، اسبانى المولد ، وقام فى روما بمهنة التعليم والمحاماة • وكان يسهم الى أتم حد فىالتحمس الرومانى للخطابة ونشر فى عام ٩٣ أهم أعماله «شغفالخطابة» Institutio Oratoria •وكانلاعادة الكشف عنه فى القرن السادس عشر ما ميز عصرا فى تاريخ احياء الآداب القديمة وفى الاثنى عشر كتابا التى كان يضمها مع كثير من المواد الأخرى التى تتصل بدراسة الفصاحة • أدمجت مراجعة لكل نطاق الأدب الاغريقى والأدب اللاتينى لا يضارعها شىء فى العصور القديمة فى سعة النظر والحكم التقديرى ، ومبحثان عن تعليم صغار الأطفال وأولئك الذين بلغوا سن النضوج • وكان هذان الأخيران هما اللذان أثارا بصفة خاصة ، عقول علماء القرن السادس عشر الذين وجهوا تفكيرا جديا لمشاريع الاصلاح التعليمى • ولقد حملت العجالات عن التعليم فى جميع الأزمنة ، فى معظمها ، طابع الوسط من الجودة ، ولكن عجالة كونتليان هى استثناء مكرم • وفى أسلوب يتسم بالوقار والصقل ويتجرد من الحشو والادعاء على السواء وضع خطة مجملة للتعليم الذى يناسب رجل الامبراطورية الرومانى فى مبادىء تصلح لكل عصر (١) • وزيادة على

= نثرية ، لاتينى واشهر أعماله قصة Cupid و Psyché فى الكتب ٤ — ٦ من Metamorphoses (أوالحمار الذهبى) • وقد قام ولتر باتر Walter Pater بترجمة القصة فى « ماريوس الابيقورى » وفى ترجمة لويب Loeb لافولايس وفى طبعة أندور لنج Andrew Lang لنسخة أدلنجتون Adlington وروبرت جريفس Robert Graves فى Penguin Classics • راجع مكيل « الأدب اللاتينى » •

(١) لقد ترجم بتلر Butler كونتليان فى سلسلة لويب Loeb • يوجد عرض الأدب الكلاسيكى (الاتباعى) فى الكتاب العاشر فصل ١ ومعالجة موضوع التعليم فى الكتابين ١ و١٢ • كان كونتليان يذهب الى أن مساوىء العصر الخلقية ترجع الى التنشئة الناقصة ومن بين أشياء كثيرة ، كان يلح فى اظهار قيمة الأدب فى التعليم وضرورة دراسة أحسن المؤلفين ، فى سن

هذا فان كونتليان وهو يحتذى بدقة مثال شيشرون ، حدد ، للخير أو للضر ، تصور الفصاحة الذى ظهر بمثل هذا الكبر ، فى التعليم الرومانى المتأخر وتعليم القرون الوسطى ٠ والاسم الثالث الذى يستدعى التنويه ، ليس على الاكثر لعظمته التى لا يرقى اليها تساؤل ، ككاتب ولكن لما كان له من تأثير على حكم الخلف ، هو اسم طاقيطس ، وفى الجو المنسجم الوادع الذى ساد حكم طربان « وهو زمن تاح للناس فيه أن يفكروا فيما يشاءون وينطقوا بما يفكرون » ، كان يتطلع الى الوراء الى تلك الأيام التى كانت ترتعد فيها فرائص المجتمع تحت وقع شكوك طبريوس المشئومة ، ونزعات نيرون الجامحة٠ وعندما عملت جيوش المطالبين بالعرش المتنازعة تخريبا فى العالم الرومانى

الشباب وفيما يسببه حشو الذاكرة من ضرر وكذلك الكتب المدرسية التى يتخفض مستواها وعن الحاجة الى أفضل المدرسين ، للبادئين واضرار العقوبة البدنية وقيمة الحركات الايقاعية الجيدة والتمارين الرياضية ٠ وعن التعليم فى عهد الامبراطورية الباكر راجع هاتش Hatch « محاضرات هبرت Hibbert Lectures » (١٨٨٨) ٠ وعن تأثير الآراء والعادات الاغريقية على الكنيسة المسيحية ، محاضرة : ٢ ٠ ولقد كانت توجد مدارس ثانوية فى البلدان وجامعات فى أهم المدائن فى جميع أرجاء العالم الرومانى ٠ وكانت تدفع الى الأساتذة رواتب عالية من المنح التى تصرفها الدولة وبالاعفاء من أثقال البلدان وهى ميزة كان نفعها يطرد ازديادا ٠ وكان لدى معلمى الجامعات أجازات ويختارهم : اما الامبراطور (وازن أستاذة رجيوس Regius عندنا) واما المجالس المحلية واما لجان خاصة ، من الناخبين ٠ وكان المعلمون والطلاب يرتدون ملابس الاكاديمية ٠ ويرجع تاريخ لفظى "professor" و"faculty" الى هذا العصر ٠ وفى الواقع يكون المذهب الرومانى مرحلة فى تطور «الجامعة» وهى فترة انتقال تقع بين الأكاديمية الأفلاطونية وما أعقبها من أكاديميات اغريقية ، من جهة ، وجامعات العصور الوسطى والحديثة من الجهة الأخرى ٠ وكانت فروع التعليم الأساسية فى عهد الامبراطورية (أ) النحو أى دراسة أساليب الحديث والأدب الأنيق ٠ (ب) الفصاحة اى دراسة وممارسة التعبير الأدبى والجدل ويشمل الانشاء المبتكرة وكذلك المنطق ٠ وهو ماكان متصل بهم الى (جـ) الفلسفة ٠ ويقص ديو خروسسطوم Dio Chrysostum كيف وجد فى مستعمرة اغريقية شمال الاكسين أن كل واحد من السكان على التقريب كان يعرف الاليـاذة عن ظهر القلب ٠ ولقد أصبحت عادة القاء المحاضرات العامة ذات شأن عظيم أضافت (كما فعلت رعاية الدولة) الى تدهور الحياة العقلية بايجاد تعطش فى المحاضرين الى العرض الشعبى وحب استطلاع سطحى فى المستمعين ٠ ووجود رغبة صادقة فى المعرفة ، أيضا ، توضحه قصة أونفيس Eunapius عن طالبين فى كلية ، لم يكن لهما الا رداء واحد فكان على أحدهما أن يلازم فراشه ، بينما كان الثانى يختلف الى المحاضرات ٠

عند موت نيرون ، وفى « الحوليات » و « التواريخ » وسم حكام القرن الأول بسمة لا تمحى من تهكمه ومقته ٠وطاقيطس ، اذا لم يكن أعظم المؤرخين الرومان فانه كان أعظم كاتب رومانى للتاريخ وبقوة أسلوبه ، واتقانه للنوادر والأراجيز وضروب الايعاز واللمز ودهائه فى تحليل الدوافع فانه وضع لمدى خمسة عشر قرنا قرار العالم المتمدين على الامبراطورية الباكرة ٠ انه أحد انتصارات البحث التاريخى الحديث ، انه قلب ذلك الحكم أو على الأقل عدله تعديلا عميقا ٠ولم يعد بعد طاقيطس أو تهكم وسخرية معاصره يونال Juvenal كافيين لهداية تقديرنا لروما الامبراطورية ٠ ولكن ما وجهاه من تهمة مروعة عن انحطاط الحياة والأخلاق الرومانية واحساسهما بالاصطدام بالواقع المرير يبرزان على نقيض فاجعى ، مع الآمال التى حيا بهما فرجل ، قبل ذلك بقرن مؤسس الامبراطورية ، كرسول عصر ذهبى ٠

٢٣ - وبين طاقيطس وأوغسطين لا توجد شخصية من الطراز الأول فى الأدب اللاتينى ٠ ولقد وصلت الينا مجموعة عظيمة من الكتابات من القرون الثلاثة التى تقع بينهما معظمها من وضع مؤلفين مسيحيين ، وتتباين فى أغراضها ويمكن للعالم بفقه اللغة ، على سبيل المثال ، أن يتقصى التغير المنوه عنه آنفا ، من اللاتينى الاتباعى (الكلاسيكى) الى لاتينى القرون الوسطى ٠ والقصيدة الجميلة Pervigilium Veneris فى استخدامها الموشحة والمرجع (المصراع) تعلن مقدما عن شعر البروفانس فى بواكير العصور الوسطى ٠ (١) وفى بداية القرن الخامس ، وضع جيروم Jercme فى غرفة سجنه فى فلسطين الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس (Vulgate) التى كان لها تأثير على مستقبل اللغة يبلغ فى عمقه تقريبا ، ماكان لترجمة لوثر من أثر على اللغة الالمانيـة أو الترجمة المعتمدة فى ١٦١١ ، على اللغة الانجليزية ، وكان أوغسطين معاصر جيروم فى الغرب ، آخر مؤلف لاتينى ذى عبقرية أصيلة ٠ ولما كان يقف على الخط الفاصل بين العصور القديمة والعصور الوسطى فانه يمثل امتزاج الثقافة اليونانية الرومانية التى أصبحت الآن فى حشرجة الانحلال وروح المسيحية المظفر ٠ أما عن عمله كمفكر وعالم لاهوت ونفوذه الذى لا يمكن حصره ، كثقة ، لدى العالم المسيحى الغربى ، فاننا سنتحدث فى فصل قادم ٠ وننوه هنا فقط باحترامه لروما والقانون الرومانى وبالحماس الذى استوعب فيه فكر وأدب الماضى ٠ ولو أنه قرأ حكم السماء فى تدمير الارق Alaric لروما ، لقد برر دعوى الامبراطورية الحقة فى حكم العالم على أنها الجائزة الجديرة بها فضيلة روما ٠ ولقد استمدت أدلة الكتاب الثانى لدانتى de Monarchia من كتاب أوغسطين ، « مدينة الله » (Civitas Dei) ٠

---

(١) راجع مكيل ص ٢٤٣ - ٦ ٠ واضع القصيدة غير معروف وتاريخها غير محقق ولو أنها دون نزاع تنتمى الى هذه الفترة المتوسطة ٠

وقد بقيت رابطة الأدب اللاتيني الوثيقة ، بحيـاة الدولة الامبراطورية محفوظة فى هذه المقالة الأخيرة العظيمة لروما القديمة · وعند بويثيس وزير ثيودرق ملك القوط الغربيين ، فى القـرن السـادس ، وهو كاتب جـدير بالتنويه لتأثيره على علم القرون الوسطى أكثر من وجود ابتكار عقلي لديه ، وصل الأدب اللاتيني الى ختامه (١) ·

٢٤ — وفى الوقت نفسه ، فى الأقاليم الشرقيـة احتفظت اللغـة ، والأدب الاغريقيين على ما لهما من مركز · وقد خلق ذيوع الهلينية فى الغرب للمؤلفات الاغريقيـة جمهـورا أعظم انتشـارا وكان كل رومانى مثقف فى استطاعته أن يقرأها فى مظانها الأصلية ·

وقد وضع مؤلفون اغريق كتبا لا عد لها فى التاريخ والسـير والعـلوم الطبيعية والرياضية والنقد الأدبى والفلسفة في القرن الذى يقع قبل وبعد ميلادالمسيح · ويرجع تاريخ مصنف جالن Galen فى الطب وهو فاتحة عصر ، الى النصف الأخير من القرن الثانى · وسنعالج في الفصـل التالى نهج الفـكر الفلسفي وقيام علم اللاهوت المسـيحى · ويجب هنا ذكر اسم فلوطرخوس من خايرونيا الذى أحيا كمواطن وككاتب ، شيئا من أفضـل روح سـادت أزمنة اليونان العظام · وقد كتب كثيرا وعن موضوعات عديدة من بينها علم الأخلاق والدين (٢) · ولكن يرجع صيته لدى الخلف على الأخص الى سيره التى لا تضارع لمشاهير اغريق ورومان الماضى ، ولم يكن فلوطرخوس مؤرخا عظيما ، ويرجع بعض السبب فى كتابته الى النهوض بالمعرفة والبعض الآخر لتحمس عارم للخليقه النبيلة والعمل النبيل · وربمـا كان تأثير « سـيره » على الأدب والتاريخ ، أوسع نطاقا من تأثير أى مصنف وحد آخر من العصـور القديمة الاتباعية · ولقد هيأت لشكسبير مادة فاجعاته وقطعت شوطا بعيدا فى بعث المثالية الجمهورية فى زعماء الثورة الفرنسية ، وهى لا تزال تكون أفضـل تمهيد للصـغار — والكبار ، للتـاريخ الاغريقي والرومانى ، ولجميع عشـاق الشخصيات التاريخية ، تقدم بهجة قوية اليوم ، كما كانت تفعل منذ ألف وثمانمائة عام خلت ·

---

(١) عن أوغسطين ، راجع ما يلى فصـل ٩ و ٢٢ وعن بويثيس فصـل ١٠ و ٨ وفصل ١١ و ٨ ·

(٢) عن فلسفة الدين عند فلوطرخوس ، راجع ما يلى فصـل ٩ و ٧ ١٠ وفصل ١١ و ٨ ·

« خاتمـــة »

٢٥ ـ كان التغيير من جمهورية الى امبراطورية أحد عوارض التغير الأكثر تدرجا وأبعد غورا ، الذى كان يطرأ على فكر وحياة العالم الاغريقى الرومانى • لقد نهضت المدنية الهلينية وازدهرت وهى ترتبط ارتباطا وثيقـــا بدولة ـ المدينة وسبب الغاؤها بحكم استبدادى عالمى ، ثورة فى نظرة الناس العقلية والروحية •

ومنذ ذلك الحين فصلت المثـل العليـا للحياة ، عن النشـاط السياسى والتمس الناس العزاء والعون ، اما فى التفكير الفلسفى واما فى دين خارق الطبيعة • ولقد رأينا عندما كنا نتحدث عن العـالم الهلينى فى عهد خلفـاء الاسكندر كيف أن المدرســتين الفلسفيتين اللتين كان لكليهما الســيادة ، الرواقية والأبيقورية ادعتا انهما تسدان هذا المطلب لروح الفرد ، بمعزل عن حياة الدولة العامة • وفى الدين ، برهنت جهود أوغسطس المحافظة ، لاعادة العبادات القومية العتيقة على عدم جدواها • ولم تستطع التغلب على المعتقدات الغريبة الجدد التى ذاعت فى هذا العصر من العالم الشرقى الى روما • لقـد وجدت ديانات ازيس وكوبيلا Cybele ومثرا Mithra أتباعا كثيرين ، فى المدينة الامبراطورية وفى أرجاء الأقاليم ، بين أولئك الذين لم تكن لديهـم قدرة أو ميل لمتابعة مسالك الميتافزيقيا (ما وراء الطبيعة) الصارمة • تلك المسالك التى لم تتيسر الا للحكيم وللقوى وهم قلة • وقد تحول آخرون ، وهم فى حاجة مماثلة للرضى الروحى صوب جهات أخرى وعلى الأخص صوب الشرق • وكان الشرق بدوره يتحول صوبهم • وسنتحدث فى الفصل التالى عن طبيعة ونتائج هذا الاتصال ، وقـد دل كحافز خالق وكمثير لرد الفعل ، على السواء • على أنه أعظم ازمة فى تاريخ البشر ، اهمية •

٢٦ ـ وجنبا الى جنب مع هذا المطلب للرضى الروحى من جانب الفرد ، نلحظ وعيا يطرد ازديادا بشعور انســانى عام ينتظم البشر • ولقد رأينـــا الافصاح عنه ، فى تصور الشارعين لقانون الطبيعة وفى انعكاس العالميـــة الرواقية داخل مجال القانون ، وفى أساليب حب البشرية العام التى استنتها عناية الأباطرة العظام الأبوية فى القرن الثانى : طريان وهدريان والاثنــان الانطونيان ، وأكثر من هذا روعة هو وجود هذا الاحســاس بأخوة عامة فى قصيدة الملحمة التى وضـعها فرجل • لقد تحـدثنا عن الانيد كانبل أثر تذكارى يبقى على الزمن لعظمة الامبراطورية الرومانية وهذه هى الفكرة التى عبر عنها تنيسون فى أبياته عن فرجل :

والآن لم تعد ساحتك بعد تعج بالأصوات
وهوت كل قبة أرجوانية لقيصر
ولو أن محيطك يتلاطم بنغم
ايقاعى أبدا لروما الامبراطورية •

ولقد عبر شعراء لاتينيون آخرون ، ولو فى شعر أقل روعة ، عن احساسهم بعظمة روما الامبراطورية . ولكن توجد خصيصة أخرى فى شعر فرجل ليس لها نظير فى الأدب السابق . انه يتطلع الى الحياة فى سعة من العطف واحساس مرهف عام عميق ، وهذا ما يناقض مناقضة عجيبة الكبرياء العقلية والثقافة الشاملة اللتين كان يتميز بهما أدب وفلسفة سابقيه . ان فرجل فى تعميم شعوره هو رسول عهد جديد فى تاريخ البشر الروحى . وقد كانت الأجيال اللاحقة التى نشأت على العقيدة المسيحية تبرزه من بين كتاب ما قبل المسيحية ، على أنه روح بالطبيعة مسيحية anima naturaliter Christiana أى دون عون من وحى . ودون شك ، كانت أرجوزة الرعاة Eclogue الرابعة الشهيرة ، التى تنبأ فيها الشاعر بعودة العصر الذهبى بلغة توحى بطريقة تلفت النظر ، بنبوءات أشياء عن مسيا ، الواعز بهذا التبجيل نحو فرجل ، لروح القرون الوسطى الباكرة غير الناقدة ، (١) ودون شك كذلك كان الشاعر الامبراطورى يسهم فى أعينهم ، فى القداسة الخاصة التى كانت ترتبط بأنظمة الامبراطورية الرومانية . ولكن الشعور كان ينبع من شىء أعمق من هذه الدوافع الأكثر وعيا . ان فرجل وحده من بين شعراء ماقبل المسيحية كانت تؤثر فيه « موسيقى الانسانية ، الحزينة الساكنة » ، فى سعة من الرفق الانسانى تعلن مقدما عن رسالة المسيحية الديمقراطية . وفى الكتاب السادس من الأنيد يطالع أبو روما فى العالم السفلى ، الموتى يحتشدون على الشطوط بالقرب من « برك قوطس Cocytus العميقة وغدير استوجيا Stygia » . « وهنا اكتظ الجميع واندفعوا منهمرين الى الشاطىء أمهات ورجال وأبطال جسورون ، موتى انقطعت أسبابهم بالحياة وغلمان وبنات لم يتزوجن وأطفال وضعوا وهم صغار على النعش أمام أعين والديهم ، جموع حفل كأوراق تهوى متساقطة فى الغابات فى أول بواكير صقيع الخريف أو الطيور تهبط أسرابها صوب الأرض من الخليج العميق عندما يقتلعهم قر السنة من فوق البحار ، ويسوقهم الى أراض تغمرها الضحوة . ولقد وقفوا يتوسلون ليتاح لهم أول عبور ، وبسطوا أيديا منفعلة الى الشاطىء الآخر » (٢) . ويمكننا أن نقتفى رغبة فرجل فى الحياة فيما يلى القبر ، وهى أكثر دنوا من روح الرجاء المسيحى عن أى قول نطق به الفلاسفة الاغريق . انه لم يكن مجرد الخلاص جمالى لشاعر نحو شاعر ، او مجرد صدى تقليد شعبى ذلك الذى حدا بدانتى لأن يلتمس هداية فرجل عبر الجحيم والمطهر ، الى عتبة الفردوس المسيحى .

---

(١) راجع ما سبق صفحة ٦٦ تذكرة ١ . كان الكتاب السادس من الأنيد Aeneid السبب فى أن يعتبر فرجل أيضا ثقة فيما يتعلق بعالم ما وراء القبر .

(١) Aen. ٦ : ٣٠٥ ، ١٤ ـ ٣٠٥ (ترجمة مكيل)

٢٧ – والعصور الوسطي وهي قوية في نزعة الاعتقاد بالحق الموحى به ، جسرت على أن تفسر تاريخ الامبراطورية الرومانية في ضوء الخطة الالهية لحكم ينتظم العالم • ولقد راوا في عمل يوليوس واوعسطس كما في قصة الشعب العبرى المختار praeparatio evangelica •

ومن الجهة الأخرى فان المؤرخين المحدثين قد رضوا بقصر بحثهم وحكمهم على نتائجها الفعلية على سعادة البشرية ومدنينها • واذا ما سألنا بهذه الروح ماذا كان يعني توطيد المذهب الامبراطورى للعالم الرومانى ، فيجب ألا يكون اعتمادنا فيما نصل اليه من نتائج على المؤلفات التاريخية الأدبية التى تعبر عن عداوة أصحاب المثل العليا الجمهورية ، الطبيعية أكثر من اعتمادنا على الأدلة عن نتائج النظام على الملايين الصامتة الذين كان صالحهم الشأن الأول لدى الحكومة الامبراطورية • انه فى تنظيم الضرائب تنظيما عادلا ، وفى تطبيق القانون دون محاباة ، وفى تاسيس المدن والأعمال العامة ، وفى نهوض التجارة دون عائق ، وفى توسيع حقوق المواطنين والحكومة الذاتية المحلية مما أفسح المجال ، لاول مرة لآمال عراض فى الرقى لجميع الأحرار ، وفوق كل شىء فى الدفاع الفعال عن الحدود والاحتفاظ بسلام عالمى ، أن طبيعة المذهب الامبراطورى الحقة تتكشف • ان المؤرخين العظيمين اللذين « عنيا بشرح روما للعالم الحديث » يظهران اتفاقا فى حكمهما ، يسترعى البال • وقد لخص جبون وهو يكتب فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر نظرته الشاملة على دولة العالم الرومانى فى القرن الثانى بعد الميلاد فى هذه الألفاظ التى يلم بها الناس تمام الالمام • « لو أن امرءًا طلب اليه أن يحدد حقبة فى تاريخ العالم ، كان الجنس البشرى فى خلالها فى أعظم حالة من السعادة والرخاء فانه دون تردد كان ليذكر تلك التى وقعت بين موت دميطيان الى اعتلاء كومودس Commodus (١) العرش • وكان يحكم رقعة الامبراطورية الرومانية الفسيحة سلطة مطلقة تسير على هدى الفضيلة والحكمة • وكانت تكبح جماح الجيوش يد رفيقة قوية لأربعة أباطرة متعاقبين ، استرعت خصالهم وسلطتهم احتراما يجىء عفوا • وقد حافظ على شكول الادارة المدنية محافظة دقيقة ، ناروا وطريان وهدريان والأنطونيون الذين كانوا يبتهجون برأى صورة الحرية ويسرون بأن يعتبروا أنفسهم خدام القوانين المسئولين » (٢) •

وقد صنف مؤلف جبون أصلا من سجلات ادبية • ومنذ أن وضع مصنفه ، كشف تقدم البحث التاريخى عن مقدار عظيم متباين من الكتابات (٣)

---

(١) ٩٦ – ١٨٠ ميلادية

(٢) « التدهور والسقوط » • فصل ٣

(٣) وقد استخدم جبون أيضا السجلات التى جمعتها « أكاديمية النقوش الفرنسية "Académie des Inscriptions" •

المعاصرة . وبعد قرن من نشر «التدهور والسقوط Decline and Fall» جمع ثيودور ممسن Theodor Mommsen احصاءا شاملا لهذه المواد الجدد في كتابه عن الأقاليم الرومانية في عهد الامبراطورية . وحكمه ، ولو أنه أكثر حذرا في تعبيره ، يحمل نفس المعنى الذى انطوى عليه حكم جبون .

« وحتى الآن ، توجد اقاليم متنوعة في الشرق ، كما في الغرب ، تبلغ الحقبة الامبراطورية بالنسبة لها الذروة في الحكم الصالح ، وهو متواضع في ذاته ، ولكن مع هذا لم يتح الوصول اليه من قبل أو من بعد . ولو أن ملاكا من لدن الرب ، كان ليقيم الميزان عما اذا كانت الممتلكات التي كان يحكمها ساورس انطونينس Severus Antoninus كانت تحكم في ذكاء أعظم وانسانية أعظم في ذلك الوقت ، أو في زمننا الحاضر وعما اذا كانت المدنية والرخاء القومي على وجه عام قد تقدما منذ ذلك الحين أو تأخرا ، فانه من المشكوك فيه جدا أن يجيء القرار في صالح الحاضر » (١) .

الى أى مدى يصدق هذا الحكم ؟ يجب أن تواجه المسألة اذا كنا لنقيس قدر عمل روما في التاريخ أو القوات الجدد التي اقتحمت سيادتها واستولت على ميراثها . ويجب الا ندع بصرنا يعميه عظم قوتها واستطالة زمنها ، أو ننسى أن حكم التاريخ يصدر دائما على نوع العمل الجليل أكثر مما يكون على كمه ، وانا اذا وجهنا عقولنا الى هذا ، فانه يشق علينا أن نقبل أقوال جبون وممسن دون تحفظ . ان حكمهما صادق ، اذا كنا نعنى بالسعادة الراحة المادية واذا اعتبرنا الصالح الاقتصادى واقامة النظام الاجتماعى معاييرنا للمدنية . انه من السهل أن نفهم كيف أنه بعد قرون من الصراع العام والألم الخاص ، كان مجيء سلام عالمي تحت حمى القياصرة يظهر لشعراء روما في عهد أوغسطس كأنه فجر عصر ذهبي (٢) . ان الدولة الرومانية أدركت المثل الأعلى لحكومة أبوية في درجة لا يقدم التاريخ مثيلا لها الا حكم بريطانيا الهند ومصر (٣) حتى الأزمن الحديثة . واذا كانت الحكومة الأبوية هي منتهى ما تصل اليه المدنية ، فان سقوط تلك الامبراطورية في القرون التي تعاقبت كان أكثر الحادثات مجلبة للحزن في حوليات البشر . لقد كان الشعراء يحلمون بأن روما ستبقى أبد الدهر وحتى حقيقة التدهور والسقوط القاسية ، لم تجد نفعا في تبديد الخدعة . ومع هذا ففي ساعة قيامها كان يوجد داخل الامبراطورية ذلك الذى كان ينبيء بانحلالها . ما كان يمكن

---

(١) أقاليم الامبراطورية الرومانية — تمهيد

(٢) مثل Aen. ١ : ٢٩٥ و ٦ ، ٧٩١ — ٢ .

(٣) هذا رأى المؤلف نورده وان كنا كمصريين لا نقره فيما ذهب اليه من مثالية حكم الانجليز لبلادنا (المترجم) .

لحكومة استبدادية بيروقراطية ، مع كل ما فيها من أمانة واستنارة أن تثير استجابة حية من الشعوب المحكومة التى كانت تحصد منافعها • ان روح الانسان تصبو ليس الى الراحة ولكن الى الحرية وليس للاستقرار الاقتصادى أو الادارة العادلة ولكن الى الحق فى أن تجد السبيل الى خلاصها ملاقية فى ذلك ما لا نهاية له من نصب ورزايا • ورغبتها فى كل العصور ليس فى السعادة ولكن فى الحياة • وفى تكوين الحكومة الرومانية الهائل ، كان الناس يدركون فقط الحمل الساحق وانتظروا فى جمود أخرس ، ساعة انقاذهم ، لقد كانوا دمى فى يد القدر المتعالى الذى لا يتسامح ، الذى كان يجثم على حظوظ العالم (١) • وكانت روما عاجزة مع كل ما لها من جلال قوة ، على أن تعيد الانتعاش للشعوب التى دانت لحكمها • لم تقدم لهم أية « دعوة » ، فى استطاعتها أن تحرك قلوب الناس للقيام بجهد من جانبهم ، فيه أمل صالح لتحقيق مظفر كالذى تقدمه المسيحية (أو الشيوعية) الى العالم الحديث (٢) • ان ينابيع الحياة كانت فى مكان آخر ، فى جحافل التيوتون الجامحة التى كانت الآن تعمل فى الحدود ضربا وفى العقيدة الجديدة التى كان مولدها فى عهد رياسة أوغسطس بين شعب محتقر من الشرق وقدر لها قبل مضى كبير زمن أن تهز بنيان المدنية الاغريقية من أساسها هزا •

تم الجـزء الأول

---

(١) وازن قول نابوليون « ان السياسة هى القدر » • عن استحالة عاطفة ولاء فعالة ، نحو الامبراطورية راجع ريفس : « أوربا العصور الوسطى » الصفحتين ١٩ و ٢٠ •

(٢) راجع بيفان فى « العصر الهلينى » (الصفحات ٩٨ وما يليها) ، عن عدم وجود « دعاوى » فى عصره وكيف أن المسيحية قدمت « دعوة » •

تصــــويب

الصفحة	السطر	الصواب
١٠	٢٦	hand
٣٥	١ ـ هامش (١)	بيخو
٤٢	١ ـ هامش (٣)	Nineveh
٤٨	٣١	واخضع
٥١	١٣	sont
٥٧	٢٨	لعبقرية
٥٧	٢٩	مـــوادا
٧٠	٣١	حتى ، بعد ككارثة
١٤٣	٢٢	باتحاد
١٧١	٩	حقيقتيها
١٧٦	٥ ـ هامش (٢)	هذا السطر يجيء بعد الذى يليه
٢١٨	٤ ـ هامش (٢)	Hellenistic
٢٣٣	١٨	هذين العلمين
٢٤٧	١٧	ونفس
٢٥١	٧	الأسر.
٢٥٢	١٢	٢ ـ قيام الجمهورية
٢٨٠	٤ ـ هامش (١)	Digest
٢٨٢	٣ ـ هامش (٢)	gentium
٢٨٣	١٣	تكيف
٢٨٩	٤	الأرب
٢٩٤	٨	الا
٢٩٦	٩ ـ هامش (١)	كنفسى
٣١٣	٢٢	طريان
٣١٥	٢ ـ هامش (١)	ابرية
٣٢٠	٥ ـ هامش (١)	موادا
٣٢٧	٤	الآداب

موضوعات الجزء الاول

الفصل الرابع

قيـام الهلينة

الفصل الخامس

عظمة أثينـــا

الفصل السادس

الثقافة الاغريقية ـ المقدونية

الفصل السابع

الجمهورية الرومانية

الفصل الثامن

الامبراطورية الرومانية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٨٨٦٥

I.S.B.N 977 - 01 - 6168 - 3



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر في تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وانى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشاب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩

٣٠٠ قرش